



يَبْكَرُ

رواية

م. خولة حمدي



جزوب ربيع الكتب

facebook.com/groups/exchange.book

كيان للنشر والتوزيع

المزيد من الكتب الحصرية ... جروب « ربيع الكتب » .

facebook.com/groups/exchange.book

أن تبقى

رواية

تأليف :

د.خولة حمدي

مراجعة لغوية :

محمد حمدي

رقم الإيداع : 2016/8969

الترقيم الدولي : 978-977-6376-90-8



إشراف عام :

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678 - 0235611772

هاتف محمول: 01001872290 - 01000405450 - 01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

أَنْ نَبْقَى...

د. خولة حمدي

رواية

إهداء

أن تكون عاريا من الهوية
حافيا من الانتماء
فذلك أقسى أشكال الفقر
إلى الفقراء الذين لمّا يدركوا مدى فقرهم

«الحب ليس أن ينظر أحدهنا إلى الآخر،
بل أن ننظر معا في الاتجاه نفسه»

أنطوان دي سانت اكسوييري

السّبت ١٥ ديسمبر ٢٠٣٥، الساعة السادسة مساءً.

الزمن، شتاء باريس قارس، والشوارع مزدانة بزينة رأس السنة التي يحلّ موعدها بعد أسبوعين. مصابيح بيضاء وملونة تغطي أذرع الأشجار المقلّمة في تناسق على جوانب الطرقات، وأشرطة مضيئة تمتدّ بين أعمدة الإنارة الشامخة، وموسيقى خافتة تنبعث من مكبرات صوت ماثولة بين الأعمدة والأشجار، لتبدّد وحشة الليل وتؤنس المشرّدين وعابري السّيل. عند رأس الشّارع، نُصبت لافتة إعلانيّة إلكترونية مقسّمة إلى شاشات متلاصقة، ظهرت عبرها لوحات متشابهة الأشكال والأحجام، تحمل وجوها مبتسمة في نفاق يؤذي الأعين، لمرشحي مجلس النّواب الموقرين. شاشات عبثت بها أيدي المارّة بمختلف مشاربهم فتشقق زجاج بعضها، وشوّهت الصّامدة منها بطلاء أسود يكاد يحجب مضمونها، أو بكتابات قبيحة من أصحاب الرّؤى المضادّة.. ووعد المشهد بعرس ديمقراطيّ مشحون بالتوتّر.

خلف المكتب الفاخر في الطابق الرابع من عمارة تجارية حديثة التشييد، جلس الأستاذ خليل الشاوي المحامي، المرشّح اليساريّ المستقلّ، وعيناه تدقّقان في الملفّ الإلكتروني الذي يظهر على جهاز العرض. الشّارع الذي أخذ يغرق في الظلمة يبدو مثل لوحة حيّة من واجهة المبنى الزّجاجيّة، التي تغطي مساحات الجدران الخارجيّة كاملة. بينما يتناقص نسق الحركة في الطّريق الرّئيسيّة التي ينتصب مبنى المكتب على جانبها الأيسر، يواصل خليل عمله كأنّ شيئاً لن ينتزعه ممّا يشغله. لم يكن يعمل على قضية ما في ذلك الوقت المتأخّر من مساء السّبت. السكرتيرة غادرت منذ السّاعة الرّابعة. وشركاؤه أيضاً انفرط عقدهم منذ زمن لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع عائلاتهم، أو للعريضة في بعض حانات عاصمة الأنوار

حتى ساعة متأخرة من الليل. لكنّ خليل كان يقبع خلف المكتب، يتابع باهتمام وتركيز شديدين المشاهد المسجلة لبرنامج حواريّ حديث البثّ. يرقب بتوتر حبّات العرق التي تلمع على جبين الضيف وتسيل على جانب وجهه، ونظرات المحاورة المتمرّسة تعتصره بقبضة من حديد، فينصهر معدنه الرّخيص تحت وطأة أسئلتها اللاذعة.

تساءل في جزع، هل سيشهد مصيرا مماثلا بعد أسبوع من الآن؟

كان حتىّ ذلك الحين محاميا مفوّها. ربح القضية تلو القضية، حتىّ عُرف اسمه في الوسط المهنيّ. مكتبه الذي افتتحه مع زمرة من الشركاء، والمؤلّف من أربعة مكاتب وقاعة اجتماعات وصالة انتظار واسعة، يشغل طابقا كاملا من بناية تجاريّة على الشارع الرئيسي في ضاحية «سوران-Suresnes» الخلّابة.

منذ اتّخذ قراره بخوض معركة البرلمان، ضاق صدره، كأنّما انطبقت جدران حياته بعضها على بعض، فأصبح يصاب بضيق تنفّس مفاجئ كلّما استرسل في التفكير في حربه المرتقبة. إمّا انتصار وإمّا اندحار. كان يبني آمالا عريضة على تلك القضية. هي مسألة حياة أو موت. ثورة على حياته كلّها وما كانت عليه حتىّ تلك اللحظة.

فكّر، ما الذي سيؤول إليه الأمر لو أنّه فشل؟

يتملّكه الضّيق، فيدفع عنه الخواطر المحبّطة، مع أنّ القوانين الإحصائية ليست في صالحه. اثنا عشر مرشّحا يتنافسون على مقعد واحد في دائرته. عليه أن يجمع قدرا من الأصوات يعادل ربع الناخبين على الأقل، وأن يكون ترتيبه الأول بين المتنافسين! لو أنّهم يدركون أهميّة المسألة بالنّسبة إليه، لو أنّهم يقدّرون ما تنطوي عليه تلك الخطوة من مخاطرة جسيمة.. هل يفسحون له المجال ويربّتون على كتفه مشجّعين؟ ارتفعت الدّماء إلى وجهه في سخط. وهل يريد لها شفقة ورثاء؟ ما الفائدة آنذاك؟ هل يثبت شيئا أو يغيّر شيئا لو لم تكن حربه شرسة وحامية

الوطيس؟

طرقات على الباب تشده من قطيع الهواجس الشاردة. يرفع عينيه إلى الشابة الماثلة عند المدخل، وفي عينيها نظرة رجاء. يقول في جفاء من دون أن يطيل التحديق بها:

- كيف وصلت إلى هنا؟ المكتب مغلق الآن.. عودي يوم الاثنين.

- أستاذ الشاوي، أليس كذلك؟

في صوتها رجفة تنذر ببكاء قريب، تبرز بتصميم عجيب يثير فضوله.

- لقد طرقت أبوابا كثيرة في الأيام الماضية.. وعدت خائبة في كل مرة. لكن حين قرأت اللافتة في الخارج، راودني الأمل. لن تردني مثل غيرك، أليس كذلك؟

يتأمل الآن هيئتها، وجه طفوليّ مستدير ينم عن براءة مغلفة بقشرة هشة من القوة المستعارة. ربّما كانت في بداية العشرينات، يركّز نظره على غطاء رأسها الذي لا تتسلّل منه شعرة واحدة، وفستانها الطويل الذي ينسدل حتّى الأرض تحت معطف صوفيّ ثقيل. ليست تدرأ عنها البرد وحسب، بل تعلن انتماءً صارخا. ماذا كانت تقصد بشأن اللافتة؟ قرأت اسمه؟ هل ميّزت فيه مرشّح مجلس النّوّاب؟ لعلّها فعلت، فصوره على كلّ شاشات المدينة المتصدّرة للسّاحات العامّة مذيّلة بإمضائه وشعاره الانتخابي:

الوطن للجميع!

يتحفّز، وقد ساوره الشكّ. هل هو مقلب، أم اختبار ما؟ يبحث بعينين حذرتين عن عدسة خفيّة. هل يختبئ المصوّر خلف الباب الموارب، يلتقط المشهد من الشقّ؟ أم تراه نصب كاميرا معلّقة من جهة النافذة؟ يفكّر. شركاؤه، أتراهم متواطئين في الأمر؟ تمرّ ابتسامة عابرة على زاوية فمه، بينما يشحذ ذهنه ويستحضر لباقتة البديهيّة. يترك ما بين يديه ويشير إليها برأسه:

- تفضلي.

جلست، كأنما انهارت على المقعد، وتدفق الحديث من شفثها متدافعا لاهثا:

- يريدون إخراجنا من بيتنا.. البيت الذي نعيش فيه منذ ثلاثين عاما. فيه ولدتُ وأخي، وكبرنا عاما بعد عام. الآن يريدون منا أن نرحل! بحجة أن المنطقة خاصة بالـ«بيض»، وعلى العرب إخلاء بيوتهم والانتقال إلى الأحياء الخاصة بهم.

كانت خارطة التوزيع الديمغرافي قد تغيرت كثيرا في العشرين سنة الأخيرة، عما كانت عليه قبل ذلك. بدأ الأمر بحركة انسحاب طوعي للعائلات الفرنسية من أصول أوروبية، من الأحياء ذات الأغلبية العربية والإفريقية، تدريجيا وتصاعديا، بعد الأحداث الإرهابية لسنة ٢٠١٥ وما تلاها، وشغلت مساحاتها عائلات من أصول مهاجرة، طردت أو انسحبت بدورها من أحياء ذات أغلبية «بيضاء». تلك المسميات ليست بتلك الحداثة. كان يجري العمل بها منذ عقود. بعض الأحياء في باريس وضواحيها تُحسب على جالية بعينها، باعتبار وفرة عدد الوافدين منها. لكن الوضع تفاقم في السنوات التي تلت الهجمات الإرهابية. أصبحت «الهجرة» إلى حي أو منطقة تؤكد انتماءك، تدبيرا غريزيا للحماية وضمانا هشا لأمان موهوم.

سياسة الدولة لم تفعل شيئا طيلة عقدين للحد من الظاهرة، بل لعلها تواطأت ويسرت المهمة لكل من يبغي شد الرحال والالتحاق بفئة أو أخرى، معززة الشقاق بين فئات المجتمع. بعد ذلك، قنن الدستور الفرنسي حركة الهجرة الداخلية، وأصبح لزاما على كل من يتقدم جيرانه بشكوى بسبب اختلافه العرقي أن ينتقل من مسكنه، من دون حاجة إلى تبرير. وقد أصبح من اليسير اليوم التعرف إلى خارطة واضحة المعالم، توضح الأصول العرقية لسكان كل منطقة. في النهار، يتنقل الفرنسيون

والمهاجرون بأصولهم المختلفة عبر المدينة بحريّة تامّة. أمّا في المساء، فتغلق البوّابات الحديد الضخمة الفاصلة بين مناطق بعينها، ويقف رجال الأمن على حراستها، حتّى ينبج فجر يوم جديد.

والحالات الشّاذة التي اختارت البقاء، تعتبر قليلة ونادرة. نوع من المقاومة العقيمة لا تتّجاه أخذه المجتمع منذ زمن، وتجنّز في سماته الحديثة. كانت خارطة الدّوائر الانتخابيّة قد تغيّرت أيضا منذ ذلك الوقت. تمّ تقليص عدد المقاعد من ٥٧٧ مقعدا في مجلس النّواب إلى ١٩٣ فقط. كانت الدّوائر المتقاربة تُدمج في دائرة واحدة، ولهدف واضح. لم يكن يُراد لأيّ دائرة أن تكون حكرا على الفرنسيّين من أصول أجنبيّة، فينتهي الأمر بمرشّح منهم يحتلّ مقعدا في البرلمان! كان يجب أن تبقى القاعدة الشعبيّة غير الأصيلة مهمّشة وتابعة، حتّى وهي تُفرّز جانبا. وهذا يجعل المقعد أشدّ إثارة وبعدا عن المنال!

- الدّولة يمكنها أن تيسّر لكم الانتقال إلى مسكن جديد في وقت قصير..

قاطعت اقتراحه الوقح في شراسة:

- لكنّنا لا نريد الانتقال!

تراجع لإراديا متّقيا غضبتها، لكنّها سرعان ما استعادت هدوءها واستطردت:

- والدي رجل مسنّ فقد بصره منذ سنوات، وقد أَلِفَ المكان، لديه علاماتُه الخاصّة التي يهتدي بها من دون مساعدة من أحد.. تعود على التحرك في مجاله الخاصّ معتمدا على نفسه، واقتلاعه منه سيؤدي إلى انهيار معنويّاته وتأزّم نفسيّته. نريد فقط أن نبقي في منزلنا الذي احتضن حياتنا كلّها، بين جدرانها كلّ ذكرياتنا وأحلامنا، ولا نريد له بديلا.. هل هذا طلب مجحف؟ هل هو كثير على رجل أفنى عمره بين ماسورات المياه، يصلح القنوات؟

أحجم برهة عن الردّ. إمّا أنّهم أحسنوا انتقاء ممثلة بارعة.. وإمّا أن

تكون كلماتها صادقة ونابعة من القلب. لم يكن قد قرّر خطوته التالية، حين سمع وقع أقدام جديدة تعبر الممرّ بحماسة.

- دانيال، عزيزي.. ما زلت تعمل؟

ظهرت سيلين، زوجته الفرنسيّة، عند باب المكتب، واندفعت مريم الصّغيرة في اتّجاهه لتعانقه، غير مبالية بالضيفة التي أخذت ترقب التجمّع العائليّ في شحوب.

- بابا، ألن نذهب؟

ابتسم وربّت على خصلاتها الشقراء الشبيهة بخصلات أمّها وهمس في حنوّ:

- انتظراني قليلا.. دقائق وأكون في الأسفل.

- سننتظرك في السيّارة.

تنسحب الخطوات التي قاطعت الحديث، ويستمرّ الصّمت لشوان ثقيلة. أتراها ستقول شيئا، أم عليه أن يكون البادي؟ تفاجئه بنبرة حزينة منكسرة:

- ظننتك.. عريبّا!

آه، هو ذاك إذن! اللاّفتة.. قرأت الاسم العربيّ، فعوّلت على تعاطفه؟ يجيل بصره مرّة أخرى، متخلّيا عن حذره. ليس هناك من كاميرا؟ أم تراهم أخفوها بحرفيّة؟ مهما يكن، عليه أن يتقمّص الدور ويكون مقنعا، سواء كانت الكاميرا أم لم تكن. لن يمسكوا عليه دليلا واحدا. عليه أن يردّ، ليس كخليل الشّاوي الذي يبغض تذكيره بكونه من أصل عربيّ لا يسعه إنكاره، بل كخليل دانيال الشاوي، المرشّح لمجلس النّواب عن دائرة «نويي سير سين-Neuilly-sur-Seine» و«بيتو-Puteaux» و«كولومب-Colombes» البلدية. يرسم الابتسامة المداهنة ويضغط على مخارج حروفه مؤكّدا على كل كلمة:

- أنا فرنسيّ، أنستي! ولادة ونشأة وولاء!

يلمح علامات الخذلان على محيّاها. لم يكن هذا ما توقّعتة وانتظرته. ولا ما توقّعه هو وانتظره. لو كان مقلبا، فعليه أن ينتهي عند هذا الحدّ. يظهر المخرج من مخبئه، يهنئه على اجتياز الاختبار بنجاح ويصافحه بحرارة، ويتمنّى له التوفيق في معركة الانتخابات.

بدلا عن ذلك، تهمس الفتاة وهي تشدّ على حقيبتها:

- لن تساعدنا.. أليس كذلك؟

ينبري مبرّرا:

- هذه سياسة الدّولة الفرنسيّة. وعلى جميع المواطنين الانصياع. من المفترض بكم الانتقال بهدوء إلى مسكن جديد في حيّ مناسب.. ستوفّر لكم الدّولة مسكنا لائقا، يكون مماثلا في مواصفاته للمسكن القديم.. لن يقع عليكم أيّ ظلم.. أضمن لك ذلك!

تحرك رأسها رافضة. لم يكن هذا ما جاءت من أجله.

- حاولوا إخراجنا عنوة، فتصدّى لهم شقيقي.. وتأزّم الوضع.. حتّى اعتدى على رجل أمن.. وهو الآن محتجز.

- آه، يا للعمل الأخرق! هل كان عليه أن يعطلّ تنفيذ القانون؟

يتنامى ضيقه من القصّة برمّتها. يطالع ساعته، سيلين ومريم تنتظران في الأسفل. يقول محاولا إبداء بعض التعاطف، ومنهيا الحوار:

- سننظر في مسألة شقيقك.. لكن يوم الاثنين. لا شيء يمكن عمله مساء السبت.

ينتعش الأمل في نظرتها. تتبّع حركاته في لهفة، وهو يقف ليرتدي معطفه ويتناول مفاتيحه. ها هو يحاول طردها، بينما تستمرّ في رجاء:

- يجب أن يطلق سراحه في أقرب وقت.. إنّه عائلنا الوحيد.. أنا وأبي الكفيف..

- نعم، نعم.. سنفعل ما بوسعنا.

يسير باتجاه المخرج بخطوات سريعة، وتتبعه بخطواتها الصغيرة المتعثرة في الفستان الطويل.

- عودي يوم الاثنين.

يزفر وهو يجلس أمام مقود السيّارة. كيف يمكنه أن يصرفها بلباقة يوم الاثنين؟

- أنت تولي المسألة اهتماما أكثر ممّا تستحقّ. أعط لعقلك وجسدك حقّه من الراحة!

نظرة عتاب وزمّة شفاه توحى بعدم الرضا، ثمّ صمت مطبق طوال الطريق.

لم يستطع أن يطيل العشاء العائليّ مع أقارب زوجته. كان شاردا على امتداد الجلسة، يأكل قليلا ويتكلّم أقلّ، حتّى لاحظ الجميع غيابه العقليّ رغم حضور الجسد. أرسلوا بعض الدّعابات حول الانتخابات التي تلتهم وقته وتمتصّ تركيزه، ثمّ عقّبوا بكلمات تشجيع فاترة.

لا يؤمنون بفرصه.

لا أحد منهم يفعل.

بعد ستّ سنوات من زواجه بابنتهم، لا يزال بعضهم يعتبره دخيلا، أو غير جدير بها.

على مقعد السيّارة الخلفي، تستلقي مريم ذات السنوات الخمس غائبة في أحلامها. هل يتبنّى عقلها الصّغير حلما بأن يصبح والدها عضوا في البرلمان؟ لعلّها لا تدرك لذلك معنى يُذكر! هل تقدّر سيلين، المنزعجة

من الانسحاب المبكر من السهرة العائليّة، حلم زوجها؟ بالتأكيد لا تفعل. وصفته بالأمر الذي لا يستحقّ! وما الذي يستحقّ إذن؟ أن يمضي ساعات في تبادل أحاديث سمجة مع أوغاد لا يحترمونه ويحقّرون من شأنه؟ سيختلف كلّ ذلك، حين يصبح عضوا في البرلمان. سيقصدونه حينها ليقضي حاجاتهم ويتوسّط لهم! ستختلف اللهجة ويخفت الاستهزاء.. سيرسمون الابتسامات المتزلفّة، ويرسلون الهدايا والدّعوات للولائم. سيتكلّمون بحماس، ويحنون الرؤوس احتراماً. عليه أن يضمن المقعد. أن يفعل أيّ شيء من أجل ذلك.

خلف جدران «الفيلا» الفاخرة ذات الطابقين في ضاحية «نوبي سير سين» الرّاقية، أخذ خليل يذرّع غرفة مكتبه في خطوات واسعة متأنية، وقد تدثّر بروب بيتي ولاذ بنيران مدفأته الكهربائيّة. كان وحيدا في غرفة المكتب. ومع ذلك، تراه يشير بكفيه في حركات وقورة ويرتفع حاجباه ويتعانقان تماشيا مع تعابير وجهه الجادّة، بينما تتمم شفّته بكلمات خافتة، كأنّما يحدث شخصا خفياً يشاركه فضاء الغرفة بأمر جلل. أيّام الأحد أصبحت مختلفة، منذ بدأت الانتخابات تشغل ذهنه.

لم تعد صباحاتها كسولة، يمضي معظمها في السّير، ثمّ يتناول وجبة «براناش» على الساعة الحادية عشرة، دامجا وجبتي الفطور والغداء. لم يعد يقضي يومه في عبث طفوليّ مع صغيرته الحلوة، يشاركها ألعابها ويخرج وإياها لنزهة على الأقدام إلى الحديقة القريبة. لم يعد وقته وتفكيره يتّسعان لشيء غير الانتخابات. يفتح عينيه مبكّرا، بعد ليلة نوم قلقة تقطّعها الكوابيس، يعدّ كوبا من القهوة المرّة تُجهز على بقايا الخمول وتدفع النشاط إلى أطرافه وخلايا دماغه، ثمّ يختلي بملفّاته في

غرفة المكتب. قد يمضي كامل اليوم بين جدرانه من دون أن ينتابه ملل أو يشعر بديب الوقت والساعات تنسحب واحدة إثر الأخرى حتى تتواري الشمس بالمغيب.

هذا يوم أحد آخر يهدره على خطته الانتخابية، وخطاب الحوار التلفزيوني.

يتحرك في توتر في اتجاه طاولة المكتب، التي استقرت على سطحها لوحة إلكترونية وقلم رقمي، تحتضن مسودة خطابه. يمرر سبّابته على الشاشة إلى الأعلى والأسفل، يلقي نظرة سريعة على ملاحظاته، مثل ممثل مسرح ضاعت منه مفردات السيناريو في أثناء اعتلائه المنصة، ثم يضيف تعديلات أو يدوّن إضافات، قبل أن يتلبّسه الدور الجادّ الذي كان يمثّله منذ ثوانٍ، فيستعيد جلسته السّالفة وقد التقط خيط الأفكار الذي انقطع.

ارتفع رنين جرس الباب فجأة ليقطع محادثته ذات الطرف الواحد. جرس لحوح مزعج، يفكر منذ الأزل في تغيير نغمته، لكنّه لم يفعل. انتظر لثوان، وترقّب أن يسمع خطوات أهل البيت متّجهة نحو الباب.. لكنّ ذلك لم يحصل. نادى في ضيق:

- سيلين؟ مريم؟

كانت جلبه أهله في الطابق العلويّ تتناهى إليه في صخب مكتوم عابرة الدّعامات الإسمنتية التي رصفت عليها أرضيّة خشب عتيقة. ولم يد أن أحدا قد انتبه إلى الجرس الذي رنّ عند أذنيه، حيث غرفة مكتبه هي الأقرب إلى المدخل.

تخلّى عن دوره مضطراً واتّجه في خطوات عصبية إلى الباب، وقد أزعجته المقاطعة. أشرع دفّة السّنديان الثقيلة وتطلّع في شكّ إلى الشارع المقفر في ذلك الوقت من اليوم. أمام عينيه تجلّت الطريق الفرعية الهادئة التي قلّما تسلكها سيّارات عابرة. عدا عربات السّاكنين وزوّارهم القلائل، لم

يلحظ أدنى حركة. مصابيح الشارع الباسقة وزينة الأشجار الزاهية كانت تبدّد جزءاً من عتمة الليل الذي هبط مبكراً. هبّت نسمة شتوية باردة، فتسلّل إليه حفيف ورق على مقربة. هناك عند قدميه، استقرّت لفافة صفراء سميقة، وقد تناثرت فوقها ندف ثلج خفيفة كانت قد شرعت في التّساقط للتّو. انحنى في ارتياب ليلتها. ورق؟ كم مضى من الوقت منذ لمح ورقة آخر مرّة؟ نظرة أخرى على الشّارع السّاكن، ثمّ عاد إلى الدّاخل بحمله الثقيل.

ألقي اللّفاfe على المكتب في إهمال، وحاول أن يعود إلى مراجعة الخطاب الذي يستحوذ على تفكيره. منذ قدّم ترشّحه لعضويّة مجلس النّوّاب، والمواجهات الحواريّة المرتقبة تشغل ذهنه. محامٍ شابّ في بداية الثلاثينات، متزوّج بفرنسيّة وذو وضعيّة اجتماعيّة ومهنيّة مريحة ومستقرّة.. أصله العربيّ هو مربط الفرس. يمكنه أن يكون ميزة تستقطب النّابحين أبناء الهجرة المغاريّة، وإن شاء الإعلام جعل منه علّة إقصاء وتهمة وطنيّة هشة.

زفر بقوة محاولاً طرد المخاوف، فالتقت عيناه بسطح المغلف. انتبه إلى الحروف اللاتينيّة المتردّدة التي شكّلت اسمه. حروف متفرّقة متباعدة ليد مبتدئة تشكّلت فوقها بقع ماء رقيقة، بعد أن ذاب الثلج الذي تناثر على المغلف. خليل الشّاوي.. ولا شيء غير ذلك. مطّ شفّتيه في شكّ واقترّب ليقبّل المغلف في اهتمام. ليس بريداً عادياً. فضّ الختم وقد تملّكه الفضول، ثمّ أفرغ المحتوى على سطح المكتب. استقرّت أمام عينيه لفافات ورق يبدو عليها القِدم. قبل أن يتبيّن محتواها، استرعى انتباهه رنين معدنيّ لجسم صلب انزلق من الظرف وتدحرج تحت المكتب. انحنى ومدّ ذراعه إلى الرّكن المظلم، تلمّس الأرضيّة لبضع لحظات قبل أن تلتقط أصابعه قطعة أسطوانيّة ذات طرف مدبّب. فغر فاه وهو يتأمّلها في دهشة.

مقدوف رصاصة!

كان تركيزه قد تشتت بالكامل. هل هي رسائل تهديد؟ غاضت الدماء من وجهه وازدرد ريقه بصعوبة. جلس إلى المكتب وقد انصب اهتمامه الآن على الأوراق التي وصلته للتو. كانت عبارة عن لفافتين منفصلتين. قلب صفحات الأولى، الأكثر اكتنازا. كانت تحمل كتابة عربيّة. ميّز الحروف اللينة للغة أبيه وأجداده. يعرف تلك الحروف ويقرأها متفرّقة. يسترجع من دون وعي ذكريات من طفولته.. ألف، أرنب.. باء، بقرة. لكنّ معارفه المحدودة لن تكون كافية لفكّ شيفرة كومة الورق تلك. وضعها جانبا، وأمسك بالثانية. كانت حروفها فرنسيّة رقيقة. خطّ أنثويّ ولا شكّ. تنفّس في ارتياح.. هذه مفهومة لا ريب! قرأ التاريخ والملاحظة التي تصدر الرزمة:

«مايو ٢٠٠٧،

عزيزي خليل،

هذه رسائل والدك إليك، جمعتها وربّتها كما بدا لي مناسباً، فهي كما سترى ليست مؤرخة. لا أريد أن أتدخل في الحكاية التي يرويها لك، لذلك تركت الرسائل صافية من دون ملاحظات منّي تتخللها وتفسد تسلسلها. ستجد تعقيبي في نهايتها، منفصلاً. لكلّ منّا رؤيته للأحداث، ورؤية والدك صادقة حتما بالنسبة إليه، من وجهة نظره، لكنّ الصورة تكتمل حين تجتمع وجهات النظر وتتضافر. لا أريدك أن تتحمل عليه أو تلومه، فقد فعل ما حسبه خيراً لك.. وأنا كذلك فعلت. حين تنتهي من روايته، اطلع على الرزمة الثانية التي كتبتها.

هذا تاريخك، ميراثك.. احمله على عاتقك وسر به في الطريق الذي تختاره. لكن لا تهمله ولا تتخلّ عنه، فأنت لا شيء من دون ماضيك وجذورك.

أمّك المحبّة.

أمّه؟ ما هذه الدّعابة؟ ترك الورقة وتناول هاتفه:

- أمي.. كيف حالك؟ نعم.. الجميع بخير. لا تقلقي، سأكون مستعدّاً...

أنصت إليها بصبر وهي تدعو له وتعبر عن مدى فخرها به وبإنجازاته
ومستقبله الزاهر، قبل أن يتجرأ على مقاطعتها:

- أمي.. حصل أمر غريب اليوم. وصلتني رسائل.. كمية كبيرة منها.. جزء
منها بالعربيّة وأخرى بالفرنسيّة. يقال إنّها من أبي وأمّي! هل تعلمين ما
الذي يجري هنا؟

أجابه صمت المفاجأة على الطّرف الآخر. صمت رهيب مستمرّ. تساءل
في قلق:

- أمي؟

تنفّسها المضطرب يصله بلا كلمات، ثمّ تنهيدة عميقة، تسبق صوتاً
مهزوزاً لا يكاد يُسمع:

- ظننتها لن تظهر بعد كلّ هذا الوقت.. ظننتها ضاعت إلى الأبد..

- من تقصدين؟ هل تعلمين بأمر هذه الرّسائل؟ هل كتبتها حقّاً؟

تجاهلت فيض التساؤلات المتدفّق عبر الهاتف وقالت متهاكمة:

- هل.. أنت مشغول الآن؟ هل يمكنك أن تأتي؟

- بالتأكيد.. هناك مسوّدّة الحوار التلفزيوني.. أوشكت على الانتهاء منها..

لكن يمكنني المجيء، إن كان الأمر يستدعي ذلك.. أمّي، أنت بخير؟

زفرة أخرى تزيد من مقدار الحيرة ولا تشفي الغليل.

- أحضر الرّسائل.. لنقرأها معاً. هل تفعل؟

الرزمة الأولى

رسائل نادر الشاوي

«هل تعرف ما مشكلة هذه الحياة؟ أننا نعيشها مرة واحدة!»

هل تدري كيف يكون إحساس ورقة الشجر في مهبِّ الرِّيح؟ لا هي تمسّكت بغصنها الفتّي وظلّت شامخة في عليائها، ولا هي تهاوت إلى أديم الأرض، حيث تجفّ وتتحلّل لتواصل حياة أخرى في بطن التُّراب. تظلّ متأرجحة، تتخبّط في عجز. لا تملك من أمرها شيئاً، وجلّ ما ترجوه هو أن تلفظها الرِّيح قريباً علّها تحظى ببعض السكينة.. ولو في العدم.

هل رأيت ذلك الإحساس يا ولدي؟

حاول، افعل ما بوسعك.. حتّى لا تعرفه أبداً. فكلّ ما صنعتَه في ماضيّ وحاضري كان هدفه الأوحد ألا تجرّب الضياع كما عرفته!

لم أدرك معنى الحياة في وقت باكر، فقد مرّت بي أزمنة تساءلت فيها عن جدوى وجودي على سطح البسيطة. تشابهت أيّامي وتعاقت لياليّ عبثاً، حتّى رأيت الموت بعينيّ. منذ ذلك الحين، أصبحت أعيش كلّ لحظة كأنّها الأخيرة. لأنّني تعلمت أنّ الموت أقرب ممّا أتوقع. وإنيّ أسابق الموت، وأرجو أن أسبقه، لعلّ قدرتي يمهلني لأنهي رسائلي إليك. فتعرف عبرها من هو أبوك، كيف عاش وما كان عليه.. أنا ورقة الشجر في مهبِّ الرِّيح.

لعلك تسألني يا بنيّ، كيف بدأت الحكاية. وإنيّ لأتساءل إن كانت هناك نقطة بداية واضحة في خطّ الزّمن. فكلّما غصت في الماضي، تعاظم يقيني بأنّ القصة بدأت قبل ذلك، قبل أن أصل إلى الأراضي الفرنسيّة وقبل أن أركب زورق الموت، بل قبل أن أدخل كليّة اللغة العربيّة وقبل مقتل جدّك رحمه الله. كلّ ما حصل معي بعد ذلك ترتّب عن وقائع حقيقة البعد لعلّي لا أذكر ملامحها.. فكلّ شيء متّصل ومرتبّط بالسببيّة الزّمنيّة.. وإنيّ الآن وأنا أمسك القلم وأحاول أن أخطّ رسالتي إليك، لا أدري من أين

يجب أن أبدأ.. بالحدث الأقدم، أقصى ما يمكنني تذكّره، أم بالحدث الأهمّ، نقطة التحوّل التي صنعت مساري.. ومشارك من بعدي؟ وإن كنت لا أدرك الجواب، فيائيّ لن أفعل هذا ولا ذاك. سأكتب الأفكار كما تراودني. سأضمّن رسائلي خلاصة تجربتي ولبّها. أعتصر ذاكرتي ومخلفات رحلتي وأصبّها لك على الورق.

أراه الآن بين عينيّ كأنيّ أعيش اللحظة من جديد. الزّمان، خريف ٢٠٠٤. المكان، قارب صغير يتهاذى فوق الأمواج، يتدافع في كل شبر من مساحته المحدودة عشرات الأشخاص المتراصّين. يتكوّر كل منهم على نفسه ويلف متاعه الزهيد حوله في حرص. يتعالى الصّراخ حين تضرب موجة عاتية، ويخفت الأنين وتنحني الجذوع حين يأخذ منهم التعب مأخذه. مشهد اعتياديّ لا تكاد تختلف تفاصيله كلّما جازف أحد «مراكب الموت» بعبور المتوسط في فجر يوم خريفيّ معتم الجنبات.

أغوص الآن في مكاني وتنتابني الرّعدة. تتداعى الصّور في مخيلتي وتسترسل بشكل تلقائيّ، تعيد إليّ كلّ ذكرى بأدقّ تفاصيلها. تغمرني تلك الأحاسيس القديمة في نوع من الاسترجاع اللاشعوريّ، كأنيّ هناك، الآن.. بين رگاب ذلك المركب، أخوض نفس الرّحلة مجدّداً.

في مؤخرة القارب الخشب المتهالك، جلست القرفصاء بين رفاق رحلتي، أنا «نادر الشاوي» ذو السّنوات الثلاثين ونيف، أسناني تصطك من البرد وأوصالي ترتجف خوفاً وفرقا. لكنّ الرحلة طويلة ممّتدة، واليابسة لا تلوح في الأفق، ولا حتى مقدار ذرّة. حين غادر المركب شواطئ عنابة، كانت السّماء حالكة السّواد وقد أرخى الليل ستارته السّميكة. ليلة بلا قمر، تسّترت على المتسلّلين الذين كنت بينهم، في غفلة من أعين حرس الحدود.

لم يكن هناك الكثير لنفعله لتجزئة الوقت، ندّت عن جاري محاولة تعارف سرعان ما بُترت. تبادلنا بعض الأحاديث المتقطعة الخاوية. نرقع

أشلاء عبارات ونكوّن بدايات جمل، ماذا تفعل، ومن أين أتيت، فتشابه الإجابات وتتكرّر المعاناة. نحن جميعنا، نسخ مّن، نماذج متكرّرة لبطالة وفقر وسبل مسدودة. حكايات معادة عن يأس قديم جديد سلّم أصحابه إلى مصيرهم القاتم، أقرأ تفاصيلها في النظرات الذاهلة، الشاردة نحو الماء.. الماء ولا شيء غير الماء لأميال كثيرة حولنا.

أمّا حفل الشّواء الذي نشهده مضطّرين مع وصول الشّمس إلى كبد السماء، فقد كان نوعاً آخر من الاختبارات المنهكة. ارتفعت إلى العنان في بطء، وامتدّت أشعتها تدفّئنا ابتداءً وتجفّف ثيابنا الرّطبة، ثمّ قست سطوتها حتّى كادت رؤوسنا تحترق، واقعا لا مجازا. نتقلّى على نيران هادئة في صمت ودعة مغريين بالهلوسة. بعضنا أصيب بضربة شمس، فراح يُفرغ أمعاءه الفاسدة بين أقدامنا. والعشرات، أرداهم دُوار البحر مثل خرق بالية. ثمّ يتسلل الظلام ليحجب الرؤية من حولنا، ساحبا في أذياله الهواجس والهلوس. ونرجع إلى جحيمنا المتّصل، نرتشف جرعاته على مهل.

الليل مرتع مثاليّ للأفكار السّوداوية المتطفّلة. حين ينفرد كل مّن بقلبه وعقله، فيتقاذفانه بلا رحمة. ما الذي حملني على خوض هذه التجربة رغم ما أعرفه عن المخاطر المحدقة بها؟ ودّعت عائلتي منذ يومين ولا أعلم إن كنت سأراها مجدّداً.. خجلت من أمي التي لا تزال تنقّدي مصروفي اليومي، ومن شقيقتي البنات اللاتي أتسوّل منهن ثمن السّجائر. فأخفيت عن الجميع مشروع الفرار الذي عزمت عليه، وبقيت أخطّط لأكثر من سنتين.

كلّ شيء يبدأ على قارعة المقهى، حيث يجتمع شباب الحيّ من العاطلين، يتداولون باستمرار أخبار الرّفاق المحظوظين السّابقين إلى السّفر. نستند إلى جدار المقهى الخارجيّ، ونتابع المارّة بأعين فارغة، نلقي التحية على هذا ونعاكس تلك. ومع غياب أدنى خطط للمستقبل في الوطن، فإنّ أحاديثنا كانت تحوم حول الواقع المرير والأحلام الوردية.

حين تتوافر الرزمة المكتنزة، تفتّح أمامك أبواب الخلاص، مثل علي بابا يقول «افتح يا سمسم». فيغدو اقتفاء الأثر الذي تفوح رائحته قويّة نفاذة، محض تسلية.

حين اكتمل المبلغ في جيبِي، وجدت أحدهم يترصّدي عند المنعطف. لم أكن أملك جواز سفر، ولم أكن لأحتاجه في سفرتي هذه. يسمّونا «الحرّاقة»، لأنّنا نحرق أوراق ثبوتيتنا وجوازات سفرنا، حتّى لا يتمّ ترحيلنا وإعادةتنا إلى نقطة البداية، إذا ما تمّ القبض علينا على الضفة الأخرى، ثمّ نواصل حرق كلّ القوانين والأعراف في سبيل لقمة العيش.. والأرجح هو أنّنا استحقينا التسمية، لأنّنا نحرق قلوب أمّهاتنا علينا ونذرّي رمادها في عرض البحر من دون رحمة، ونحن نمضي في طريق يقف الموت شاهقا مترصّدا في أول منعطفاتها!

حين جاء الاتّصال المرتقب، وضّبت أغراضي في حقيبة رياضية سهلة الحمل. ثمّ تسلّلت ليلا بعد أن قبّلت جبين أمّي، ووعدتها بأن أرجع رجلا كما تشتهي. لم تردعني دمعتها وتجاعيد جبينها التي حُفرت أخاديد بين يوم وليلة. كنت قد عقدت العزم وانتهى الأمر. عند المنعطف، ترقّبت سيّارة النقل الجماعي. بعد دقائق من الانتظار، كنت أنضمّ إلى ركبها السّنة المتحفّزة نظراتهم. ساعتان من الطريق المظلمة الوعرة، قبل أن يتوقّف ركبنا عند شاطئ منعزل ومقفر. أفرغت السيّارة حمولتها وانطلقت نائرة خلفها غبارا ورملا. تابعنا السّير على الأقدام، نتبع دليلا، بين الحشائش العالية، حتّى كوخ صيّادين متوارٍ عن الأعين. حين فتح الباب المعدن الصدئ على مصراعيه، تراءى أمام أعيننا حجم المأساة. كان العشرات يتكوّرون على أنفسهم أو يقرفصون داخل جدران الكوخ، مثل صناديق مخزّنة بانتظار الشّحن.

هناك، انتظرنا. وانتظرنا. لعلّها مسألة ساعات. يوم. يومان. تأتينا الوجبات الباردة ملفوفة في ورق جرائد مع الأنباء. الأحوال الجويّة لا تسمح

بالإبحار، ربّما في الغد. لم يكن يُسمح لنا بالخروج أو التجوّل في الخارج. كنّا ثلاثين رجلا ربّما، نتقاسم دورة مياه واحدة، نجلس في العتمة وراء نوافذ غاب زجاجها خلف ورق الكرتون. نتقلّب في صمت على جمر القلق، ونتآلف مع القذارة والبرد وضيق المساحة التي سنكون في رفقتها حتّى نهاية الرّحلة.

قبيل منتصف الليلة الخامسة، جاء الفرج. تلقّينا الإشارة المرتقبة. سنبحر.

سرنا حتّى الشاطئ الصّخريّ، نتعثر في الظلام وتزلق خطواتنا. ثمّ خضنا في البحر. نتقدّم، فيغمرنا الماء وتلطمننا الأمواج، ويحثّنا المشرف بصوته الغليظ.. هيّا، هيّا. من بعيد، ترى سلسلة من الرؤوس البشرية يتبع بعضها بعضا نحو نقطة في عرض البحر. مركب الصّيد المتهالك. يفترض به أن يخرجنا من المياه الإقليمية، ثمّ نتقل إلى سفينة شحن أكبر حجما وأمتن بناءً فتأخذنا إلى الضفة الأخرى بسلام.

بعد ظهيرة اليوم الثالث، لاح لنا شكل قاتم في الأفق. تبادل مع مركبنا إشارات ضوئية، كأنّها شيفرة «مورس»، ثمّ أخذ في الاقتراب وهو يتأرجح الهوينى. حين غدا على بعد بضعة أميال، تبين شكله شديد الشبه بمركبنا. لم يكن سفينة الشحن التي متّينا بلبياها أنفسنا. خلال دقائق، كان المركبان يتعانقان، وأعطى ربّاننا الإشارة بالانتقال إلى المركب الآخر. تبادلنا نظرات قلقة. المركب القادم مليء عن آخره بركاب أفارقة، قدموا ولا شك من بعض سواحل الأطلسي الشرقية. موريتانيا وغينيا ومالي. هاجم رجلان الرّبان في سخط، فتعاون على كلّ واحد منهما اثنان من مشرفي الرّحلة، أمسك كلّ بذراع وطوّحوا بهما في عرض البحر! سمعنا صرخة واحدة. ابتلعت الأمواج العجلى صدى الثانية. وخلال ثوان، استحال سطح الماء صافي الزرقة إلى لون داميّ. اتّسعت بركة حمراء قائمة أسفل مروحة المحرّك في مؤخرة المركب، وصاحبّ أزيز متقطّع حركة الشفرات الحادّة التي أعملت تقطيعا في جسد بشريّ واتت سقطته مسارها. بعد

انقضاء الصدمة، انحنى بعض الرجال على حافة المركب يفتشون عن ناجٍ. مرّت لحظات من الذعر، قبل أن ينشق السطح عن رأس يشهق ويبصق وأطراف تتخبّط. امتدت أذرع كثيرة لتنتشل الرّجل وتعيده إلى السفينة، بينما غاصت الجثة المقطّعة بعيداً.

بعد ذلك، تحرّكنا من دون كلمة في اتجاه مركبنا الجديد. يلتصق الرّجال ويتلاحمون ليركوا مجالا للوافدين. يجلس كلّ منّا وصدره على بعد سنتيمترات من ظهر جاره. ينزاح مقدار شبر إضافي كلّما ازداد عدد المسافرين نفرا. تختلط الأنفاس وتضيق الصّدور، وتختنق آهات الغضب بين الأسنان المكشّرة. كأني أسمعك تقول يا بنيّ: أما بالإمكان التمرّد وأنتم كثرة وهم قلّة؟ لكننا كثرة عن ضعف وضيق حال، نحتاج إلى ربّان يأخذنا إلى البرّ، ولو تخلصنا من المشرفين لضعنا في عرض البحر حتى نهلك. لذلك تحمّلنا المعاملة السيّئة والظروف الكريهة علّ الرّحلة تنتهي بسلام.

بعد ساعتين من الانتقال إلى المركب الجديد، تمكّن الألم من ساقيّ المضمومتين تحتي. تلكزني مرافق جيراني السّمراء الخشنة كلّ حين وتسدّ أنفي الرّوائح العطنة. أكاد أفقد الإحساس بقدميّ، ترتجف شفّتي الجافتان، فأبتلع لعابي وأغمض عينيّ هرباً إلى خيال أهناً. ومع ذلك، فقد كنت أوفر حظاً من تلك السيّدة النيجيريّة. لم نسمع لها تذرّماً هي الأخرى. داستها الأقدام واعتصرتها الأجساد المتدافعة، حدّ الاختناق. فارقتها الحياة في صمت. خرجت روحها من دون حشجة، مثل تنهيدة خفيفة لا يُسمع لها صوت. وبقي الجسد المطحون مستنداً إلى الأجسام المتخشّبة المحدقة به، حتّى شعر بعضها بثقله المتهالوي. أخرجت الجثة من زحام الأجساد بصعوبة، وطوّح بها من دون تردّد خارج المركب، لتكون وليمة لأسماك البحر. هكذا، ببساطة. لم أقرأ في الأعين ذرّة ندم أو تقريع ضمير. كأنّ ما اقترّف طبيعيّ ومشروع. كأنّ حرمة الجسد تندثر مع خوائه من نفس يتردّد. على متن مركب ضئيل يتهادى في فضاء البحر المتوسّط الرّحب،

العرف يقول: الحيّ أولى من الميت.

هبت ريح قوية جعلت المركب يهتزّ ويتأرجح بعنف. رفعت عينيّ إلى السّماء فرأيت غيمة سوداء قاتمة تشقّ الفضاء. تلتهم المسافات وتغذّ الخطو في اتجاهنا منذرة بتغيّر وشيك للجوّ. وما لبث ريان السفينة أن صدّق حدسي وصرخ فينا:
- تمسكوا.. عاصفة آتية..

تحسّست بكفّ متجمّدة الحاجز الخشب المهترئ. هل يجدي التمسك به؟ تلفتُ حولي بنظرات جاحظة لألمح الهلع يطلّ من مئة عين وعين. ترتفع الأصوات بالدّعاء والابتهال. «يا الله!»، تسمعها من الشفاه المرتعشة وتلمح ظلالها في الأعين الضارعة. وما هي إلا لحظات حتى بدأت الأمطار بالهطول قويّة غزيرة.

- المركب يميل إلى اليمين... تحركوا إلى الجانب الآخر!

يعمّ الهرج بين الأجساد المتلاصقة. يحاول القابعون في الجانب الأيمن الانتقال إلى الجانب الآخر، لكنّ مساحة الحركة كانت ضئيلة. يزدادون التصاقاً، ويتعثّر بعضهم في أجساد بعض. ننطق بالشهادتين، وتلتحم الأذرع في عراك مزمر ومجهد.. كلّ يحاول النجاة بحياته. لا وقت للتفكير في الآخرين. تزداد الأمطار قوّة، تجلد زخّاتها العنيفة ظهور ركاب رحلة الموت. أغوص في موقعي علّني أحمي وجهي من الصّفعات العشوائية التي تكيلها الأجساد المتخبطة بعضها لبعض، فأفاجأ بمستوى الماء الذي ارتفع حتى ابتل نصفي الأسفل إلى وسطي. صرخت منها:

- الماء يرتفع.. سنغرق.. سنغرق..

لكنّ صوتي ضاع في جلبة العاصفة. غطى دويّ الرّعد على نداء البشر. ارتجفنا، ونحن شبّان ورجال خُطّت منهم الشوارب وخالط شعورهم الشيب، وقد أيقنّا ضالة شأننا. أدركنا بمحض غريزة أنّنا هالكون لا محالة، إن لم يكن غرقاً، فبفعل الصّواعق التي كانت تضرب البحر واحدة

تلو الأخرى مثل الشهب. وبينما نحن نحدّق في هلع إلى تحولات السماء، ارتفعت موجة مثل طود هائل من ورائنا، فرفعت القارب عشرات الأمتار في الهواء، عابثة بكلّ محاولات التوازن التي سعى البحّارة إلى تحقيقها.

صرخت، بكلّ الرعب المتراكم طبقات داخلي مذ كنت طفلا تخيفه الظلال على الجدار، صرخت، وأنا أرى الرّكاب يتساقطون من المركب مثل دُمَي القديمة التي أقذفها بلا وجهة في نوبات غضب طفوليّ، ليبتلعهم الموج في غمضة عين. تشبّثت بأجمع كفيّ مستنفرا كلّ قوتي المتبقية في جسد أنهكته المقاومة، وتلك الكامنة في أعماق سحيقة لم أكتشفها بعد، استجديتها لتكسر القمقم وتفصح عن نفسها.. فما من فرصة أوتي من هذه! ثمّ أغمضت عينيّ بعد أن أيقنت أنّ كلّ قوى العالم لن تمنع عنيّ شيئا قد كتبه الله عليّ، فابتلّيت إليه سبحانه أن ينقذني من موت يكاد شبحه يلتهمني. لم تكن علاقتي بالله موصولة قبل ذلك.. بل كثيرا ما تقطّعت وتباعدت، فلا أقبل عليه إلّا عند حاجتي إليه. وكثيرا ما تعاتبني أمّي لإهمالي الصلاة. أؤخرها عن وقتها، وأحيانا أنام عنها، أنساها أو أتناساها ثم أقول «الله غفور رحيم». في تلك اللحظات، مرّت أمام عينيّ حياتي كلها، تسحب بعض مشاهدها بعضا، كشريط سريع من الصّور. أبحث في خضمها عن عمل صالح واحد أسأل الله به أن ينجينني. لكن ذاكرتي عدمت الجواب.. فبكيت بحرقة وحسرة. وحده وجه أمي باكية وهي تودّعني ليلة رحيلي ظل ثابتا في ذهني، فألهمني الله دعاء أخيرا: اللهم ارحمني من أجلها.

ثمّ شعرت بجسدي يرتفع عن الأرض في مسار عشوائيّ، ويحلّق في الهواء مع انقلاب المركب. واحد من قطع الصلصال الكثيرة التي تلهو بها الريح في معرض هبوبها. طوفان من المياه المالحة اجتاح فمي وأنفي وأشبع رئتيّ. ظلام مبهم غمر حواسّي، وضباب كثيف غلّف وعيي.. في حين بدأ جسدي رحلة تهاوٍ إلى أغوار سحيقة البعد.

النهاية يا ولدي ليست ملك البشر. لسنا المتصرّفين في حياتنا. حين يقول الله «كُنْ»، تكون من العدم! جبال الأمواج التي قلبت المركب، والملوحة اللاذعة التي أَحَسَّتْ بلسعها شفّتي المتشققتان وحلقي الملتهب، كل ذلك لم يكن حلمًا. رحلة الغوص اللانهائيّة إلى القعر، والصّرخات المتسرّبة من الجحيم لأرواح تودّع الدّنيا.. كان ذلك واقعا محضا.

كان هناك ظلام كثيف، وبرودة لاذعة، ولطمات ترمي بي في كلّ اتّجاه. وذراعي تتشبّث بلوح عريض تشظّى عن المركب الذي حطّمته العاصفة. من حسن طالع أباك يا بنيّ أنّ بنيتة متينة ونفّسه طويل، فراحت أطرافي تتخبّط واستمرّ جسدي يقاوم متمسّكا برمق الحياة الذي أوشك أن يغادره. كنت أحسن السباحة وغريزة البقاء كانت قوية في داخلي. لكنّ المعركة طالت، وعزيمتي فترت. كان عليّ أن أستسلم أخيرا. لم يكن هناك مفرّ.. بدا أنّني سأقضي، من دون جنّتي. فهل ما زال لي أمل في جنّة الله؟ أكذب إن قلت إنّني فكّرت في الجنّة والنّار في تلك الآونة. كلّ ما شغلني هو موتي المرتقب، وتبخر أحلامي الأوروبيّة إلى غير رجعة.

لكنّني لم أمت. من لطف الله بي أني لم أمت.

هل مررت يا بنيّ، بذلك النوع من اللحظات؟ لحظة واحدة قصيرة هيّنة لا اعتبار لسنّها في تعداد الأحداث، لكنّك تشعر بها بكلّ جوارحك وتمثّلها دهرًا، فتحياها ببطء وتؤدّة، كأنّ كلّ حواسّك قد احتشدت وجُنّدت لتمتصّ تلك اللحظة وتخزّنها في الذاكرة.. فتسترجعها في ما بعد كأنّك تعيشها من جديد؟ هكذا عشت لحظة «قيامتي» من عالم الأموات.

استسلمت للأذرع التي انتشلت جسدي المنهك وقد استوعبت عملية التنفس كل تركيزي، أستمتع للهواء الذي يعبر فتحات أنفي حفيفا رقيقا.

أحسّ بانسيابه عبر المسارات الهوائية لينتشر عبر الأنسجة ويحمل الحياة إلى كل الخلايا التي كانت في سبات. أحسست بدفقات الأكسجين تصل إلى أطرافى، وكل قطعة من جسدي تستيقظ من موت مؤقت. حين اطمأنت إلى عودتي إلى الحياة، تسرّبت أوجاع رهيبة إلى دماغي. صداع يشقّ رأسي نصفين. انتبهت حينها إلى الضمادة العريضة التي أحاطت بجيني. كنت قد تعرّضت لإصابة بليغة في أثناء صراعي مع الموج.

لعلّك تسألني، كيف نجوت؟ لكنّ ذاكرتي قاصرة عن استحضار وقائع جليّة. لعلّي حين استسلمت، كنت على مقربة من السفينة العابرة؟ أو لعلّ سعار الموج هدأ أخيراً فطفوت؟ حين انتشلتني السفينة الفرنسيّة، كنت فاقدا للوعي، أطفو على لوح خشب في بقعة مقفرة من امتداد البحر الشاسع، بعد أن أخذني الموج مسافة أميال بعيدا عن موقع المركب الغارق.

لم أكن الناجي الوحيد الذي أنقذته السفينة الفرنسيّة. كان هناك ثلاثة عراقيين وسواديّ واحد. لم يكن أحدهم من رفاق رحلتي الأولى. حكى لي أحدهم تفاصيل مغامرتهم. انطلق مركبهم من ضفاف قبرص قبل أسبوع كامل. مضوا ينتقلون من مركب إلى مركب. غيّروا الرّاحلة ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّة كان الحجم أصغر وعدد الرّكاب يتزايد. المشرفون الموزّعون على مرافئ التهريب يتعاونون مشكلين شبكة تغطي سواحل المتوسّط. مراكب صيد قديمة تنطلق من الميناء بحمولة معقولة، تتواعد مع مراكب أخرى على اللقاء في عرض البحر، تفرغ حمولتها ثمّ تعود أدراجها لتأخذ حمولة أخرى.. وهكذا. حين غدا المركب الأخير غاصّا إلى درجة لا تحتمل، أقدم الرّكاب على التمرد. رفضوا الانتقال إلى المركب الرّابع. عندئذ، عمد الرّبّان إلى صدم القاربين أحدهما بالآخر! صنع الاصطدام ثقباً عملاقاً تدفّقت منه المياه إلى داخل المركب الأوّل وأغرقتة خلال دقائق قليلة. أمّا المركب الثاني، فقد كثر فيه الهرج: الرّجل يقفز من المركب المنكوب فيحطّ على رجلين من المركب الناجي، فيدفع بهما معه إلى الماء، ويهلك

جميعهم! يتمسك واحد بآخر فيغرق الاثنان! البعض تشبث بعوارض خشب محطمة تناثرت قطعها المهشمة على سطح الماء، والبعض الآخر بأطواق نجاة انفلتت وطففت، بينما غاص الجزء الأكبر من السفينة إلى الأعماق. في الأثناء، ابتعد المركب السليم على جناح اللهفة وقد صار إنقاذ الغارقين عبئاً لا يمكن احتماله.

كان صاحبي من الذين سقطوا في البحر. تشارك طوق نجاة مع ثمانية أشخاص، كل يتعلّق بذراع واحدة. بعد ساعات من الانتظار لنجدة لا تأتي، تراخت العضلات وتخلّت عن الأطواق طواعية، فما عادت بها طاقة ولا أمل للنجاة. كانت الأجساد تتهاوى واحدا إثر الآخر، وتغيب في الماء بلا رجعة. شاهدتهم ينهارون في مزيج من الخوف والطمع. كل ذراع تستسلم تترك مساحة خالية سرعان ما يتنافس الصّامدون للاستحواذ عليها من دون الآخرين! كانت لحظات تتردى فيها النفس البشريّة إلى أدنى منازلها، فتتجلّى وحشيّة بهيميّة، همّها الأوحاد الاستمرار والبقاء. حين وصلت السفينة الفرنسيّة إلى مكان الحادثة، كان أربعتهم آخر الصامدين.. كتب لهم عمر جديد. يتساءل محدّثي في شماعة لا يكاد يوارىها عن القارب الذي خلفهم في عرض البحر.. هل ترى ركبته قد نجوا أم أنّ العاصفة حصدتهم عن آخرهم؟ كان من حظّه ورفاقه أن تمّ إنقاذهم قبل أن تهبّ رياح الشمال.

حين سألني ربّان السفينة من أين أتيت، أجبت من دون تردّد: العراق! العراقيّ يمكنه طلب اللجوء، الإنسانيّ أو السّياسي، بينما لا مسوِّغ للجزائريّ! العدوان الأمريكي على العراق كان حديث العهد في ذلك الوقت، وقد تواصل توافد العراقيين برّاً وجوّاً وبحراً إلى فرنسا وألمانيا بعد الموقف المشرف الذي اتخذته قيادات البلدين تجاه تدخّل دوليّ في بلادهم، وكان تهديد الرئيس الفرنسيّ باستعمال حقّ «الفيتو» لمنع التدخّل أمراً يجلّه العراقيّون بشكل خاصّ، لمستته في حرارة الصوت وابتهاج القسمات حين يرد ذكر فرنسا في أحاديثنا العابرة. وقد كان وقوعهم على سفينة فرنسيّة

حسن طالع لا شك فيه، فقد كانوا يمضون إليها على كل حال. لذلك قرّرت الاندساس بينهم والبقاء برفقتهم إلى أن يقضي الله أمرا. خلال بقيّة الرّحلة، استمرّيت في الدّردشة مع رفاقي الذين قرّرت أن أشاركهم المصير. استمعت طويلا إلى حكاياتهم عن الحرب والويلات التي فرّوا منها، بعد أن أصبح موطنهم جحيما لا يطاق. أعرف الحرب جيّدا.. عشريّة بلادي السوداء إرث أحفظه بإخلاص في ثنّايا ذاكرتي. تتدفّق الكلمات على ألسنتهم بسخاء وتفيض على مسامعي، الدّماء والجثث والقناصة.. أتمثّلها في ذهني، وتتماهى الصّور بين واقعي وروايتهم.. النّساء والشيوخ والأطفال، الثكالي واليتامى.. وأولئك الفارون من جحيم المحتلّ، تغصّ بهم المرافئ.. فما أدراك بجحيم الوطن، حين ينهش أبنائه بعضهم بعضا؟

أسمع حكايات عن مراكب ضاعت في عرض البحر، والتقمها القراصنة.. وأخرى نفذ منها الوقود، فقطّع ركبها ثيابهم وأحذيتهم وأحرقوها في الخزّانات لتواصل الرّحلة، قبل أن تعثر عليهم دوريات حرس الحدود وتقودهم إلى برّ النّجاة. أمّا الغرق، والغرق، والغرق.. فأمر متكرّر بشكل مفرّج. عشرات الأشخاص يقضون كلّ يوم، وتضيق أسماك البحر بالدّخلاء فتدفع الأمواج إلى لفظ الأشلاء على الشواطئ المقفرة.. حيث يعثر عليها بعد ربح من الزّمن.

بعد ساعتين من وصول السفينة إلى المرفأ، سمح لنا بمغادرتها باتجاه مركز مفوّضيّة اللاجئين. رافقتنا حراسة لصيقة، إلى حيث أجريت علينا فحوصات روتينية شاملة. فحص للأذنين، العينين، الحنجرة، والصّدر.. تحليل للدّم وصور أشعة. وطلب لي على نحو خاصّ صورة مقطعيّة للججمة، نظرا للإصابة العميقة التي نالت من جانب رأسي. كان احتمال حصول ارتجاج دماغيّ واردا، بعد العاصفة التي عبرتها. ثمّ نقلنا إلى مساكننا المؤقتة. كان العراقيّون يحظون بمعاملة مميّزة، والتّوصية بشأنهم جليّة. أقمت في شقة واحدة مع العراقيّين الذين لقيتهم في السفينة.

تقاسم كل اثنين غرفة وحماما، وتشاركنا قاعة الجلوس الفسيحة ومطبخها المفتوح. من شرفتنا، كنا نطل على الجانب الآخر من السور الشائك، حيث يتكدس مغاربة وأفارقة بأعداد وفيرة داخل مساكن أشبه بالزنائين، يطاردهم الحرس ويسوقونهم دخولا وخروجا كالبهائم، فتنهال الهراوات وأعقاب البنادق على جنوبهم وظهورهم حين يتلكؤون.

بعد الفحوصات التي خضعنا لها، تم استدعاؤنا إلى المركز الطبي مرة ثانية. بعد دقائق طويلة من الانتظار، ظهر الطبيب بوجه متجهّم. سلّم كل منا ملفه الطبيّ، ثمّ أشار إليّ وحدي أن أتبعه! تحرّكت وراءه وقد غمرني الشك. هل تكون صورة الجمجمة قد أعلنت عن إصابة ما؟ جلس الطبيب وراء مكتبه وأخرج صور الأشعة من الظرف. تكلم بصوت شديد الوضوح كأنه يتهجى المقاطع:

- هل تفهم الفرنسية؟

هزّزت رأسي بعلامة الإيجاب في حركة سريعة متكرّرة.
- هنا..

أشار إلى شكل مخروطي مدبّب الطرف يظهر في الصّورة المقطعيّة لجمجمتي.

- منذ متى وهذه الرّصاصة هنا؟

توقّف الزّمن في تلك اللحظة، وظهرت علامات البله على وجهي. أحاول جاهدا أن أصل الألفاظ بالمعاني المناسبة.. فلا أفلح. رصاصة؟ في رأسي؟ أصابتني رصاصة؟ ولم أمت؟ متى؟ كيف؟ أحاول استرجاع صور من ذاكرتي، ولا أرى إلا صفحة بيضاء. دماغي يعجز عن لفّ الشّريط إلى الوراء. متى بالله عليكم أصابتني رصاصة؟ في الجزائر؟ في السّفينة؟ في البحر؟ أزيز متواصل يشغل الموجة.. أربط في لحظة إلهام بين نوبات صرع كانت تصيبني قديما والرّصاصة. منذ متى.. تلك النّوبات؟ يتعطل تفكيري ويكاد خافقي يعزف عن ضحّ الدّماء إلى رأسي، بينما تشرع شاشة الذاكرة في

عرض مشهد من ملفاتها القديمة.

أراني، محتما بالباب الموارب، متعرق الكفين نديّ الجبين.. وأسمع صوت الضابط يرتفع في الخارج مهددا:

- أين تخبي الإرهابيين؟

- لا أحد هنا! لا أخبي أحدا!

هذا أبي يتحدى القوة العسكرية. يقف شامخا في شرفة المنزل قاطعا الطريق على المقتحمين. أعجب به في تلك اللحظة، وأفخر بشجاعته. أبي كان مقداما منذ شبابه، عرف الحروب والنوائب ورأى الكثير في حياته. وقد بقي في صوته شيء من الشدة رغم سنواته الستين ونيف. زعيق الضابط يرتفع مجددا، يشتم ويتوعد، وأبي يرفض التنحي أمامه:

- هناك حريم بالداخل!

في الغرفة الداخلية تختبي أمي وأخواتي مذعورات، وأنا لا دخلت الغرفة معهنّ - حتى لا أبدو مثل الحريم - ولا وقفت في ثبات إلى جوار أبي لاستقبال رجال الجيش المقتحمين. أقف في منتصف المسافة، يفصلني باب خشب عن ساحة المعركة. ينتابني خزي من جُبنِي. من فرجة الباب الضيقة، ألمح البدلات العسكرية القاتمة، وأبقى متواريا عن الأعين. يغمري عاري، وتتصاعد موجة نخوة إلى رأسي. أنا المراهق ذا الخمسة عشر عاما.. كان يجب أن أبقى واقفا إلى جوار أبي. أنا ولده الوحيد وعضده.. كيف أختبي مثل الحريم؟ في الثانية التي غلبت فيها الشجاعة، حرّكت دفّة الباب أهمّ بفتحه والبروز.. لتُفتح نيران جهنّم في الخارج.

في المستشفى الفرنسيّ، يواصل الطبيب شرحه وأنا في شبه غياب:

- هناك كتلة ورميّة تكوّنت في محيط الرّصاصة، وقد غدت نهاياتها قريبة من مركز البصر، ومحاولة إخراجها قد تتسبّب في فقدانك للحاسة. في ذاكرتي، أسمع ولولة أمي وعويلها، وأنا ممدّد على الأسفلت البارد، تبقيني برودته واعيا، بعد أن تلقيت ضربة مجهولة المصدر في مؤخرة

رأسي. ألمح من زاويتي الضيقة جسد أبي مسجى غير بعيد عني، وبركة دماء تتسع تحته. وابل رصاص أصابه في صدره ورأسه وأرداه قتيلا على الفور.. بينما اخترق سرب من الرصاص الباب واستقرّ على الأرض من حولي. لعلّ رصاصة واحدة وجدت طريقها إلى رأسي؟ عبرت الحاجز الخشب الذي أبطأ سرعتها وخفف أثرها، فنفذت إلى الداخل ولم تحدث ضرا باديا للأعين؟ لا شك أنّ ذلك ما حدث. أمي وأخواتي انشغلن بفقيدهنّ، في حين جلست أفرك مؤخرة رأسي في وجع، وألم الفقد قد غطى على ألم الجسد. لم يكن هناك ساعتها دم كثير عليّ.. لطخة ضئيلة، مقارنة ببركة أبي، مسحتها على عجل واستويت واقفا، كرجل البيت الجديد. لم أعرف أن رصاصة قد أصابتني.. ولم يعرف أحد من حولي. رجال الجيش انسحبوا مكتفين بما أحدثوه من فوضى، وأنا نهضت لأشيع جثمان أبي الذي قتلته شجاعي المتأخرة. لم أخبر أحدا عن تفاصيل ما جرى. قلت إنني فقدت الوعي مبكرا.

كادت تتابني نوبة ضحك هستيري. رصاصة أبناء وطني، خائنة ولو بعد حين !

- من الأفضل أن يراك الطبيب المختصّ.. سيحدّد بشكل أدقّ ما يمكن فعله بشأن الرصاصة.

خرجت من الزيارة الطبيّة وقد ازداد رأسي ثقلا على حين غرّة.. تخيلت نفسي على طريق العودة من فرنسا، لا بخفي حنين، بل برصاصة صدئة وعصا مكفوفين!

بتّ تلك الليلة في سكن المفوضيّة، في انتظار أن يُنظر في أمر طلبي اللجوء. بدا كلّ شيء سرياليا تلك الليلة.. السكن الفاخر والأكل الأوفر، ورصاصة علمت بعد خمسة عشر عاما أنّها كانت تساكني! انشغلت عن الترف المادّي المحيط بي بتجاربي العمليّة: أميل رأسي إلى اليمين ببطء فتقرب أذني من كتفي، أختبر إن كانت الرصاصة ستتحرك مع حركتي..

ثم أدير عنقي بسرعة مثل المخبول، عليّ أسمع رنينها أو شقشقتها!
أتلّمس بأصابعي موضع جرح قديم قد اندمل في مؤخرة رأسي.. أحاول أن
أدس أصابعي بين خصلاتي الكثيفة، أتخيل ثقباً مخروطياً يمتدّ إلى موضع
الجسم المعدن، ربّما هو بسمك إصبعي! عبثاً حاولت أن أميّز لوجودها
أثراً حسياً يعرّفني بمكانها. كنت أستعجل ما سيحصل في ما بعد، تدريجياً
وتصاعديّاً.. لأعيش جحيماً أتمنى معه الموت!

بعد يومين، تمّ اقتيادنا إلى المركز مرّة أخرى، حيث ستجرى معنا
لقاءات شخصيّة للتعرفّ على دوافعنا ومسوّغات طلبنا اللجوء. كنت
أحسب لذلك اللقاء ألف حساب.. فهو الموعد الذي سيُفصح فيه أمري!
كنت واثقاً أنّ كذبتني ستكشف عاجلاً غير آجل. هي مسألة أيام، حتى
يتبيّن الاسم الذي قدّمته مزيّفاً، والهويّة التي أدّعيها مختلقة. سيكتشف
الموظّف سريعاً أنّي لا أعرف شيئاً عن تفاصيل الشأن العراقيّ وظروف
الحياة اليوميّة في ذلك البلد القصيّ، الذي لم أفكر يوماً في زيارته،
وسيهتمّ ولا شكّ في تمحيص شأني أكثر من الآخرين. وإذا ما جلس قبالي
مترجم يتقن اللهجة العراقيّة، فسيسقط القناع عنيّ منذ الكلمة الأولى.
أخذت طوال فترة الانتظار التي سبقت أشحذ ذهني وأسترجع تفاصيل
نشرات الأخبار، التي غالباً ما شاهدتها في سرحان! لشهور خلت، كانت
الفضائيات تعرض على مدار اليوم صور سقوط بغداد والغزو الأمريكي
للبلاد.. لكن ما شأني أنا بأخبار العالم؟

كانت قاعة الانتظار فضاء مفتوحاً. من مجلّسي ألمح موظفي الإدارة
يسعون في كلّ الاتجاهات وبين أذرعهم ملفات مختلفة. الحرس يتحرّكون،
يرافقون رهائنهم المؤقتة، فإذا ما صدر بشأنهم السّماح والسّراح،

خلفوهم على العتبات أحرارا. حرسنا يقفون عند المدخل، فقد كنت والعراقيون الثلاثة نعتبر زمرة واحدة. أرقبهم من طرف خفيّ وأتساءل متى تتراخى أعينهم السّاهرة فأجد فرصة النّجاة. ولم أكن أتخيّل أن تساق إليّ الفرصة بذلك اليسر.. لكنّ الله قدّر وفعل.

صاحبنا السّودانيّ الذي لم يملك حضور بديهتي في الادّعاء، صدر بشأنه حكم الترحيل الفوريّ. انقضى لقاءه الشخصيّ بسرعة البرق، واقتيد خارجا مع ملف الترحيل، والقيود في معصميه. رأيتّه يتملّص من حارسه ويتخبّط على الأرض محدثا فوضى عارمة عند الاستقبال. كان ضخّم الجثّة قويّ العضد، فما تمكّن الحارس من تثبيتته منفردا.. هتف طالبا المأزرة، فاندفع حرّاس آخرون لنجدته. رأيت أحد الحارسين على بابنا يبتعد في خطى ثابتة، في حين انشغل الآخر بمراقبة ما يجري.. كنّا هادئين ومسالمين وفرص قبولنا وافرة، لذلك لم يبد من الخطر أن نوهب مساحة من الحرّيّة.

لم يكن هناك مجال للتردّد. كان عليّ أن أتحرّك على الفور قبل فوات الأوان. إن لم أتحرّك حينها فقد لا تهدي إليّ الظروف فرصة مماثلة مجدّدا. بحركة حادّة انطلقت عدوا في اتجاه المخرج وساقاي تسابقان الرّيح. خلال ثوان كنت قد عبرت الأمتار القليلة التي تفصلني عن باب الحجرة وتجاوزت الحرس. لم تعد تفصلني عن الشارع إلا مسافة قصيرة. حانت منّي التفاتة إلى الوراء. كان الحارس قد انتبه إليّ متأخرا.. وهبّ في عقبي. لكنني كنت قد حصلت على الأسبقية، ولم أكن أحتاج إلى أكثر من إثارة الموقف الرّاهن لأنطلق بأسرع مما تسمح به أطرافي الكسولة.

لم ألتفت مرّة أخرى. عبر الشوارع المزدحمة بالخلق، ركضت من دون أن أتوقف أو أسترّد أنفاسي. لدقائق عدّة، استمرّيت في عدوي المحموم تذي حماستي غريزة البقاء. حين توقفت أخيرا لأستجمع قواي، كنت قد ابتعدت بضع مئات من الأمتار عن مبنى المركز.. استندت إلى جدار قريب وأخذت ألّهث بشدّة. التفتُ إلى الشارع الخالي وأنصتُ في انتباه.

لم أكن متبوعا. تتهدت وأنا أجلس على الأرض وأمدّ ساقِيّ في إعياء. لقد
نجحت في الفرار.. تنفّست بعمق وأغمضت عينيّ لبضع ثوان، ثم انفجرت
ضاحكا بصوت ردّدت الأذقة الخالية صداه.
كنت حرّا طليقا في شوارع مرسيليا.

سكتت أمّ خليل، ووضعت الرسائل جانبا لترشف من كوب الماء على مهل. لثلاث ساعات متواصلة، استمرت تقرأ وتترجم، متوخّية ما أمكنها من الدّقة. تُشكل عليها بعض العبارات التي تتجاوز معجمها اللّغوي المحدود، فتقاربها بما تجود به قريحتها من بدائل، وتشحذ الذاكرة لتستحضر معنى لفظ مرّ عليها منذ زمن طويل وسقط من دفاترها، لتقادم عهدها باللغة العربيّة قراءة وممارسة. بلّلت ريقها وأذهبت جفاف شفيتها، ثمّ حانت منها التفاتة إلى خليل الذي يجلس قبالتها، يُنصت في انتباه. هذا الاكتشاف المتأخّر لتاريخ أبيه، أيّ أثر يتركه في نفسه؟ نشأ طفلا وحيدا، في كنف أمّ رقيقة يغلب حنوّها على حزمها. لا يذكر كيف كان حضور أبيه في حياته، في تلك الطفولة البعيدة، لكنّه كان مكتفيا بعاطفة أمّه وحدها.. مثل كلّ الأمور التي تجهلها، فلا يسعك افتقادها.

قال خليل بعد ثوانٍ من الصّمت، متجاوزا ذهولا مؤقتا سيطر عليه مع السّطور الأخيرة:

- الرّصاصة.. إنّها تلك التي وصلت مع الظّرف؟

هزّت أمّه رأسها مؤيّدة، فزفر في شبه ارتياح. فكّر أن يسأل، كيف خرجت من رأسه ومتى، وما كانت التّبعات.. لكنّه أحجم. جوابها لن يتغيّر مع كلّ مقاطعة واستفسار. انتظر وستعرف. يتمنّى أن يستعجلها ويعبر المراحل كلّها بقفزة إلى خطّ النّهاية، لكنّها تبدو متأنّية مترفّقة، كأنّما تخشى أن يُفقد حرف واحد من ترجمتها، فتكون قد خانت النصّ!

أطرق وقد طُبع الوجوم على ملامحه. إذن هذا هو أبوه.. واحد من أولئك الذين عبروا حدود الموت. جزء من ذاكرة البحر المتوسّط التي تدوّن سجّلات العابرين، الغرقى منهم، والناجين والمفقودين الذين قدّموا

وليمة للأسماك.. كأنهم قريان أو إتاوة يفرضها البحر ليسمح لآخرين
بالوصول سالمين، ليستقرّوا على ضفاف العذاب!
للمرّة الخامسة ربّما، تظهر إشارة ضوئيّة متكسّرة على شاشة هاتفه.
سيلين تتّصل.

- عليك أن تردّ.. إنّها قلقة.

يهزّ رأسه بحركة آليّة، ولا يردّ. ليس في مزاج يسمح بالحديث. يستمرّ
الصّمت حتّى تخفت الإشارة وتتلاشى. بينما ترقبه أمّه في قلق. ألم تُخفِ
عنه الحقائق رحمة به؟ ألم تؤجّل المكاشفة خوفاً عليه؟ صار رجلا الآن،
يستعدّ لمعركة البرلمان. رجل من طينته لن تكسره مجرد رسائل.. ليست
إلا فسحة عبر التاريخ، سيعود بعدها ليستكمل مهامّه. لقد حمته من
تأثير الماضي في وعيه وتفكيره. فنشأ كما تريد.. لمّ القلق الآن؟

- تأخّر الوقت.. يجب أن ترجع إلى بيتك حتّى لا تقلق سيلين. نستكمل
القراءة صباح الغد.. ما رأيك؟

راقبها خليل متمّعنا. كان شيء غريب يملأ نظرتها وحركاتها. لقد أخفت
عنه كلّ تلك الحكايات المؤلمة، لكنّها اليوم تبدو متّقدة الحيويّة، منتعشة
بشكل لا يفهمه. كلّما قرأت، تدفق الدّم في وجنتيها وغدت أكثر نضارة.
كأنّما تحرّرت من ثقل كان يكبّل أطرافها ويلجم ضحكتها. لم تنس.
رغم تسرّرها وكتمانها، لم تنس. كانت الذكريات تعيش داخلها، والآن
وهي تبوح وتنشر خبايا روحها تبدو منطلقة ومتفتّحة. للحظة، أشفق
عليها. تراجع عن فكرة خرقاء بإلقاء الرّسائل إلى النّيران. كانت تلك القراءة
المرهقة شفاءً لها.. وربّما كان فيها شفاء له أيضاً، من تساؤلات كثيرة
تشغله مذ كان مراهقاً؟ من يدري، لعلّ توطيد معرفته بأب لم يعرفه إلا
في صورة وحيدة تتصدّر صالة الشّقة القديمة التي لم تغادرها أمّه منذ
ثلاثين سنة، يخفّف شيئاً من مرارته؟ ربّما وجب أن ينتظر.. ليعرف النّهاية.
لعلّ الأمور آلت إلى غير ما بدأت عليه؟

هزّ رأسه موافقا. كان ذلك مناسبا. وليذهب الخطاب إلى النسيان حتّى إشعار آخر. كان عليه أن يجتاز تجربة الماضي حتّى يقف على عتبات المستقبل بثبات ووضوح رؤية.

ركب سيّارته وقاد عبر الشوارع المقفرة حتّى منزله ذي السقف القرميديّ الداكن في ضاحية باريس الغريّبة. ارتقى السلم الخشب ودلف إلى غرفة ابنته مريم على أطراف أصابعه. كانت الصّغيرة تغطّ في النّوم، ومصباحها الزّهريّ ذو النقوش يرسل إضاءة باهتة تؤنس وحدتها. تنام قريرة العين من دون أن يساورها أدنى ريب في حقيقة ماضي جدّها. رفع الغطاء الذي دفعته عنها في شقلباتها الليليّة وطبع قبة حانية على جبينها، ثمّ تسلّل باتجاه غرفة نومه.

زفر مهموما وفكّ أزرار قميصه. ارتدى منامته على عجل ثمّ اندسّ إلى جوار سيلين في السرير الدّافئ. تقلّبت وفتحت عينيها، ثمّ استقامت لتواجهه بنظرة عتاب قاسية:

- أين كنت؟ لماذا لا تردّ على اتّصالاتي؟

طبع قبة سريعة على خدّها وقال متحاشيا نظراتها:

- أنا متعب الآن.. ما رأيك في أن نتحدّث صباحا؟

رمقته في غير رضا وهو يولّيها ظهره ويرفع الغطاء حتّى كتفيه، ثمّ نفخت في تسليم وعادت إلى نومها. وسرعان ما غرقت في النّعاس كأنّما لم تستيقظ البتّة.

أغمض خليل عنيه وتنفّس بانتظام متوسّلا نوما عميقا وسريعا. لكنّ جفونه اليقظة لم تسعفه. حدّق في الظلام وقد سكنه شيطان الرّسائل. بعد ساعات من السّهاد، ران الكرى على عنيه، فراح في سبات متقطّع تتخلّله الكوابيس. حين تسلّلت خيوط الفجر الأولى عبر الستائر المسدلة، بارح سريريه وقد قرّر ألا خير يُرجى من محاولاته العبثيّة تلك. كان الإرهاق يثقل عنيه، والتّساؤلات تملأ رأسه. وقد غلب توقّعه إلى معرفة المزيد

حاجته إلى الراحة.

على الساعة السابعة صباحاً، وصلت سيارته عند البناية القديمة التي تقطنها والدته. ركنها كيفما اتفق، وهرول في اتجاه المصعد. لم تتأخر أم خليل مع رنة الجرس الأولى. رنت إلى ولدها بابتسامة صغيرة:

- لم تنم كثيراً؟

- ولا أنت.

كان الإجهاد ظاهراً على سحتها الباهتة. تنهدت حين جمعتهما الصالون الصغير في ركن المطبخ الدافئ. كانت قد جهّزت القهوة وقطع التوست، وآثار دمع قريب تبلل رموشها. ومن دون مقدمات أو استطرادات لا طائل من ورائها، أمسكت الرسالة التالية واسترسلت في مهمّة الأمس.

أن يكون بلدك «عميد» المستعمرات الفرنسيّة، فذلك يعني أنّك تملك
حقا مشروعاً في قضايتك من فرنسا. هو ثأر تقرّه لنفسك وتبرّر به نزعتك
الأنانيّة إلى هجران أرضك وأهلك إلى غير رجعة. كأنّه ليس من معنيّ بالثأر
سواك، وكأنّ نعيمك بجنة فرنسا سيسدّد شيئاً من دينها تجاه قومك
أجمعين، وتتشدّد بذلك وأنت تضع قناع الفارس المغوار.

وإني يا فرنسا قد جئتُك فاتحاً!

تسكعت في شوارع مرسيليا من دون وجهة طيلة الليل. مشيت في اعتداد
وغرور، كأنّي ملك يتفقّد ربوع مملكته. أتبختر في ثيابي الرثة متناسياً أزمتي
المالية، بعد أن ذهب كيس نقودي - مع السترة التي نزعنت عنيّ على متن
السفينة واستبدلت بها أخرى جافة - أدراج الرّياح! لكنني كنت ثملاً برحيق
الحرية، أرمق بأعين حالمة قوس قزح وهميّاً يزّين سمائيّ، وعصافير
سحريّة تزقزق في صفاء، فلا يسمع لحنها غيري! حين أنهكني التعب،
تمدّدت على الأرض وراء شجيرات كثيفة في حديقة عامّة ونمت عميقاً حتى
الصّباح. حين قرصني الجوع، فتحت عينيّ. كنت قد أخذت كفايتي من
النّوم فاستلمت معدتي المشعل. تجنّبت الميناء ومركز المفوضيّة حيث
يمكن أن أقع على أعين تعرفني، وتوغلت في الاتجاه المعاكس، فقادتني
قدمي إلى أحد الأحياء الشعبيّة القصيّة عن وسط المدينة.

هل جرّبت أن تتخيّل الجنة؟

هناك جنة.. وجنة. جنة الله التي أعدها لعباده المؤمنين، ما لا عين
رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وجنة البشر على الأرض.
في خيالي وخيال شبّان حيّ العاطلين، كانت أوروبا هي الجنة. فألقينا
بأجسادنا في اليمّ نروم الموت، لعلّ الموج يلفظنا، فنُبعث على شواطئ

شمال المتوسط، في الجنّة التي نبغي. الجنّة الآن. فهل كانت؟
حين كنت أتهيّأ للسّفر، جمّعت عددا من أرقام الهواتف، خيوط
تواصل مع من سبقني من الجيرة ورفاق البطالة. كان من المفترض أن أجد
ملجأ مؤقتا عند أحدهم لدى وصولي، فلا أضطرّ إلى مرحلة التيه تلك.
لكنّ القائمة ضاعت مع باقي الحاجيات التي ابتلعها العاصفة، فتبخّرت
الحلول الجاهزة، وصار من المحتمّ الارتجال!

وأنا أتسلق متمهلا الرّبوّة المطلّة من عليّ على الميناء والأبنية القديمة،
كنت أكتشف مشهدا جديدا لم يخطر ببالي على الإطلاق. ذابت الصّور
المشرقة التي رسمتها في ذهني للحضارة الغريبة تحت أشعة الشمس،
حالما التقطت عيناى أكوام الأوساخ والأتربة المكّدة على حاشية
الطريق، وتوقفت نظراتي على الجدران التي تساقط طلاؤها الأصلي،
وتشوّهت مساحاتها برسوم ثائرة متمرّدة صاحبة الألوان، والتقط أنفي
الروائح العطنة. خلف واجهة المدينة السّياحيّة الناصعة، اكتشفت بؤسا
مدقعا لم أكن أتوقع وجوده على الضفة الأخرى من المتوسط.

ولم يكن ذلك كلّ شيء. انحسرت الأحلام أكثر حين طالعني وجوه
الصّبيان الدّاكنة وهم يتحلّقون في جماعات أمام مداخل العمارات. وجوه
مشتّة ضائعة تشبه كثيرا الوجوه الكثيرة المحفورة في ذاكرتي. وجوه
الفقر. وجوه الجوع. الوجوه التي فررت من عنّابة حتى لا ألمحها مجدّدا،
فإذا بها تحاصرني هنا! تحدّق فيّ بأعين زائغة عدائية تستغرب توغلي في
ثنايا عالمها. تراقصت في رأسي صور بعيدة قريبة لشبان أنصاف عراة
يقرفصون على ناصية الشارع في عزّ ظهيرة الصّيف، أو يمدّون سيقانهم
النحيلة خارج حدود المقاهي في تكاسل ولا مبالاة مستفزة. لماذا أتذكر
شباب حيّ بهذا الإلحاح؟ أليس الشبه واضحا؟ وهل يتسكّع في وضوح
نهار عمل طبيعي غير العاطلين؟

أرّقني أن أواجه الفاقة وأنا أقصد هذه البلاد طالبا الرزق. تطلعت

إلى المزيج العرقي الغريب الذي تمثل في الوجوه الملونة من الحنطة إلى الأبنوس. أفارقة ومغاربة وأوروبيون. قبل أن تبدر عني أي محاولة تواصل، وجدت أحدهم يبرز أمامي، بين أصابعه مدية حادة، يلهو بها في نزق، يديرها بين أصابعه في رشاقة لا تخلو من تهديد، ويهتف في غلظة:

- أيها الغريب، ماذا تريد؟

لم أكن أجهل غربي حتى يذكرني بها.

- ارحل من هنا.. إن كنت لا تريد أن تتأذى.

بينما أخذت في التراجع في ارتباك، ظهرت دراجة نارية تهدر من آخر الشارع. خلال ثوان قليلة، صار راكبها قبالي. تلفظ بكلمات فاحشة، قبل أن يرفع العجلة الأمامية لدراجته في الهواء ثم يدور حول نفسه في حركة استعراضية لم يخف عليّ الغرض منها. حثت الخطى نحو الشارع الرئيسي لا ألوي على شيء، وحاشية من الصبية العابثين ترافقني على بعد أمتار قليلة، كأنما يطمئنون إلى خروجي من مجالهم الأرضي. ركضت لمسافة كافية وأنا لا أكف عن التلفت في جزع، وإحساسي بالغربة يتنامى داخلي مع كل خطوة.

لاحقاً، وأنا أراقب حركة السير من أعلى الجسر في شرود، حدثني أحد المتشردين -الذين أصبحت أقاسمهم الفضاءات العمومية للنوم وقضاء الحاجات- عن حقيقة الوضع. تبين لي أنّ تلك الأحياء الشعبية -«الغيتو»- سجون مغلقة على أهلها. عفوا، سجون؟ بل هي حصون منيعة تحمي أهلها، مغلقة في وجه الغرباء والدّخلاء. أغلب سكانها من المهاجرين أو الفرنسيين من الطبقة الكادحة. لا أحد يتجرأ على دخولها من دون «حماية». والحماية لا يمكن الحصول عليها إلا من سكان الحيّ أنفسهم. حتى رجال الشرطة لا يجرؤون على اقتحامها لا ليلاً ولا نهاراً. ومن يغامر منهم بالترجل عن سيارته عند مشارف الحيّ، فإنه يلقي ترحيباً من نوع خاص لا يفكر بعده في تثنية الزيارة.

حين تبتعد عن الأحياء الراقية وتتوغل في المنطقة الشعبية، تكون قد عبرت الحدود نحو مرسيليا أخرى لا يأتي الإعلام الرسمي على ذكرها إلا لماما، وبكثير من التحفظ. كل حيّ تحكمه المافيا الخاصة به، تصفي حساباتها بنفسها. تنصب المحاكم وتنفذ الأحكام من دون أيّ تدخل خارجي. قد يُسمع في سكون الليل دويّ رصاص حيّ يعلن تنفيذ حكم ما بالإعدام. حكم تمّ إيقاف العمل به في فرنسا منذ ١٩٨١ من قبل الرئيس «فرانسوا ميتران»، وما زال ساري المفعول في غياهب الشوارع القاتمة. المهنة السائدة في تلك المنطقة هي تجارة الأسلحة والمخدرات بأنواعها. ومن لم يتورط في القذارة حتى النخاع فهو يشارك في الجريمة بالحراسة أو التسويق، أو على الأقل بالصمت والتستر. طبعاً، من بينهم أفراد يتوقون إلى حياة شريفة، لكنهم يدفعون ثمن نشاطهم في ذلك الجحيم كلّ يوم. يمشون ملتصقين بالجدران ويعانون ليدفعوا عن أنفسهم وصمة جرم اقترن بهم من دون ذنب. حين يزرع ربع سكان المدينة تحت خطّ الفقر، يصبح الخبز اليومي أهمّ من الفضيحة.

في تلك الليلة، حين أرحت رأسي أخيراً طالبا بعض النوم، ظللت مفتوح العينين لبرهة أتساءل في مرارة. ما الذي جئت أفعله في هذه البلاد؟

قضيت بضع ليال في العراء، أتكورّ على نفسي تحت جسر يحمل طريقاً سيّارة. لم يكن الوقت شتاءً بعد، لكنّ البرد يشتدّ في المساء حين يهب نسيم البحر اللاذع على المدينة الساحلية، منذراً بفصل صقيع باكر، وفي سويحات الصّباح الأولى، قبل أن تمدّ الشمس خيوط النّجاة المشبعة بالحرارة.

أمّا مأكلي ومشربي، فقد انتحيت من أجلهما المسار الأقسى. كنت مثل

فأر المخازن، أتسلل إلى محلات المواد الغذائية. أتوارى بين الرفوف أو خلف البرادات، أتقصى الزوايا التي لا تطالها عين كاميرا المراقبة، وأفك بأصابع مرتعشة مغلفات الخبز المقطّع إلى شرائح، ألواح الشيكولاتة أو قطع البسكويت، أقضم فيها بشراة المحروم وفوضوية المطارد اللذين كنتهما، حتى تنطفئ لهفتي. أتلفت في قلق محموم، وأتحرك في عجلة مضطربة. يموت في الضمير كل يوم مقدار شعرة، حتى تلاشى صوته تماما بعد مضي شهر من العبث والضّياع. بعد شهر من وصولي إلى الأراضي الفرنسية، كنت لا أزال ألبس الثياب ذاتها، أجتزّ الألم ذاته، وينمو بداخلي حقد مدمر على الدنيا والظروف والآخرين الذين ينعمون بالهدوء وراحة البال.

ها قد عبرت المتوسط، فأين الجنة؟

غير بعيد عن ملجئي أسفل الجسر، كانت مجموعة من المشرّدين تسهر كل ليلة. ألمحهم بطرف عيني تحت ضوء فانوس الشارع الخافت. قوارير المشروبات الكحولية لا تنفد في مخازنهم، وحناجرهم تنطلق بالضحك والغناء في كل ساعة.. كأنهم لا يحملون همّ شيء في الدنيا. يكفيهم ما يجود به عليهم بعض المارة من قطع نقدية وبقايا الأطعمة. أمّا البقايا فيقتاتون بها ويطعمون الكلاب التي تعيش بينهم كأنها بعض أهلهم، وأما النقود فهي للمشروبات والسجائر، وحين تُفرج تضاف إليها الحشائش المخدّرة التي تلهيهم عن العالم بأسره!

أجلس على مسافة منهم بحيث تصلني أصواتهم وأستأنس بحركتهم، لكنني أبيت الاختلاط بهم ومشاركتهم المأدبة. عجوز أشيب وصديقه المسنة، يجوبان الميناء للاستجداء، وكلبهما الكبير المترهل لا يفارقهما. تتقاطع طرقنا في أثناء النهار، حين ينطلق كل منا للبحث عن رزقه. وعلى الجانب الآخر من الرّصيف، كهل قد اقترب من الخمسين. آلة الأكورديون لا تفارق ذراعه. يطوف الساحات ليجمع بعض القطع النقدية من المارة نظير المعزوفات التي يقدّمها بسلاسة المحترف.. نفس تلك المعزوفات

التي يؤديها ليلا أمام رفاق سهرته، من دون مقابل. هو الآخر يصحب كلبا ضئيلا قصير السيقان، لا يفارق قدميه حتى في أثناء النوم.

كنت أجوب الشوارع كل صباح على غير وجهة. لا أدري من أين أبدأ. تساءلت، كيف تصرّف الآخرون، وقرّرت أن أستعير تفكير أحدهم، علّه يسعفني بطوق النجاة. كلّ شيء كان سهلا في خيالي. ورش البناء والأسواق والمطاعم، كلها وجهات كان من المفترض أن تتوافر فيها مواطن شغل كثيرة بأجور ذهبية. لكنني أينما توجهت كنت أقابل بالرفض والطرّد، وأحيانا كنت أسمع أقذع السباب. كنت أشعث ومتسخا وذا هيئة بالية. يراد منّي أن أكون في هيئة محترمة حتى أحصل على عمل.. وأنا أحتاج إلى العمل حتى أغتسل وأشتري ثيابا نظيفة. وجدت نفسي عاجزا أمام تلك الحلقة المفرغة.

ما هي السبل المتاحة إذن للمشردّين أمثالي؟ حسن، هناك التسوّل طبعا. وهو أمر أفّضل الموت جوعا على اقترافه، فضلا عن نظرات الاحتقار التي لا أتحمّلها. ماذا إذن؟ حتى لا نبالغ، فلنقل إنّ هناك بضعة خيارات أخرى.. شركات الأدوية مثلا! نعم، شركات الأدوية توظف المشردّين.. لاختبار عقاراتها قبل طرحها في الأسواق! بعد التجارب المخبرية على الفئران البيضاء، تعتمد الشركات الخاصّة على المشردّين والمعدمين. يوقعون على تصريح يخلي الشركة من كلّ مسؤولية، فتنقدهم أجرة تُسيل اللعاب، ثم تتابع تجرّعهم لسموم لم تثبت نجاعتها.. وقد لا تثبت أبدا! عازف الأكورديون، دفع الثمن فادحا، حين أخذت أصابعه تخذله بارتعاش مزمن، بعد أن جرّب حبوبا لمرضى القلب. كان محظوظا.. البعض يقضي في صمت. يعثر عليه منظفو البلدية صباحا متكورا وقد تقيّأ دما.

ثمّ هناك فرصة العمل كمخبر سريّ لصالح الشرطة! تراقب ليلا محورا معيّنا حتى يتمكن الضابط المعني به من الغط في النوم ملء جفونه. تبلغ عن حوادث السرقة والخطف وتشهد بما رأيت بما يفيد في

التحقيقات الجارية.. وتتجسس على بعض المحلات أو الأشخاص. طبعاً لم أكن مرشحاً صالحاً لمثل هذا العمل.. وأنا الذي فررت من الحرس! ماتيو «الأجرب» يفعل ذلك.. و«الأجرب» صفة أطلقها عليه بقيّة سكّان الشوارع من المشرّدين، نفورا منه واحتقاراً. فكرامة المتشرّد لا تسمح له بالعمالة للشرطة!

أما الطّريق الأيسر والتي استمرّت تراودني في إلحاح، فهي طريق الانحراف. إن أردت أن تتردّي في مسالك غير شريفة، فستجد من يغريك ويرشدك! كان بيدرو الإسباني يظهر في المساءات الساكنة التي تخفّ الحركة خلالها. يتسلّل في رشاقة قطّ، يقفز عبر الأسوار وينطّ في الحديقة العامّة التي يجتمع في أركانها المظلمة بعملائه. كانوا مشرّدين، مهاجرين مثلي، أميّزهم من بشرتهم شديدة الحمرة التي تفصح حفلات الشواء التي تعرّضوا لها على متن مراكب الموت، أو فرنسيّين خانتهم الفرص في وطنهم. وكان يزوّدهم بالمخدّرات. هيروين وكوكايين وحشيش، لائحة متكاملة من الخيارات تناسب ذوق كلّ مستهلك. كان ضميري في النّزع الأخير في تلك الفترة، وكنت أتوقّع وفاته بين لحظة وأخرى. لذلك لم يكن من الصّعب أن أستسلم للإغراء، لأصبح واحداً من عملاء بيدرو وموزّعيه. ترّقبتّه تلك الليلة عند بوابة الحديقة. رمقني بنظرة شاملة، ثمّ تصافحنا علامة الاتّفاق. خلال لحظات، أحطت علماً بآليات العمل وحفظت القواعد. في الغد، سيسلّمني كمّيّتي الأولى. شطّارتي في تسويقها ستحدّد العمولة والمكافآت. كان يجب أن يجربني قبل أن يضبط الأرقام ويحدّد أسس الحسابات بيننا. بتّ متيقّظاً، مفتوح العينين. أزن تبعات قراري بموازين المصلحة والمخاطر. لم تراودني هواجس أخلاقيّة. لم أكن نفسي. كنت ذاتاً أخرى غاضبة تخلّقت في رحم الغربة.

في تلك الليلة، كان غناء جاري العجوز يصل إلى مسامعي متقطعاً. صوته فيه بحّة أعرفها. سببها تدخين مكثف لسنوات طويلة. أبي كانت لديه البحة نفسها. ينقطع الغناء حين يداهمه سعال مضمّن يرتجّ له

جسده الهزيل ارتجاجا. فجأة، تنهى إلى مسامعي صوت فرملة سيارة مندفعة، تلتها صرخة مكتومة وارتطام عنيف. فتحت عينيّ في ذهول والتفتّ إلى حيث كانت المجموعة المرحّة. في لحظات، لم يعد للمرح أثر في المكان. رأيت مقدّمة سيارة سوداء رياضيّة وقد توغلت في الرصيف من دون استئذان، حتى داهمت عمود الإنارة وطوت قائمته في مستوى القاعدة. تحت الإضاءة الخفيفة التي يبعثها ما تبقى من الفانوس بعد الحادثة، رأيت جسدا مسجى بلا حراك تحت العجلات. سمعت العويل الذي أطلقته المشرّدة المسنّة وهي تهوي بقبضتها الضّعيفة على مقدّمة السيارة، تلاها هدير محرّك السيارة ذاتها وعجلاتها الأمامية تدور على محورها في ضراوة، منتهكة بلا رحمة حرمة الجسد الذي داسته للتوّ. ندّت عنيّ صرخة فزع وجريت باتجاه موقع الحادثة وقد استفتقت عنوة من ذهول أصابني، ونويت إجبار السائق على النزول. لكنّ العربة تحركت قبل وصولي وتجاوزت جسد الرجل العجوز بعد أن تداولت على فرمه العجلات الأمامية والخلفية، وانطلقت مجدّدا بأقصى سرعتها. انتبهت في الوقت المناسب وقفزت لأبتعد عن مسارها متحاشيا حادثة ثانية. تركتها تفلت وتابعتها ببصري حتى اختفت خلف المنعطف في حيرة. لم يكن أمامي شيء أفعله.. لم يكن بإمكانني إنقاذ حياة الرجل أو إيقاف السائق المجنون. كنت بلا حول ولا قوة وأنا أسمع أنين المرأة منحنية الجذع فوق جثة رفيقها التي فارقتها الحياة. سمعت صوت عازف الأكورديون وهو يركض في اتجاه الشارع القريب ثم يوقف سيارة عابرة وهو يهتف: - اطلبوا الإسعاف.. اطلبوا الشرطة..

لم أستطع أن أدفع نظراتي عن بركة الدماء القاتمة، التي ظهرت تحت رأس الجثة وأخذت في الاتساع. رأيت الموت كثيرا منذ بدأت رحلتي. رأيت أشخاصا يموتون أمام عينيّ في البحر من دون أن يبكي عليهم أحد. وهذا الرجل أيضا، لن يبكي عليه الكثيرون. لو كان هناك من يهتمّ لشأنه لما عاش مشرّدا في الشوارع.. لما مات وحيدا هكذا. انتابني جزع مفاجئ. كنت

شريكا له في الوحدة والتشرد. تخيلتني أقضي من الجوع أو البرد ذات ليلة، متكوراً على نفسي على قارعة الطريق، لا أحمل أيّ ورقة ثبوتية. قد يمضي زمن طويل قبل أن يصل نعيي إلى الجزائر..

ارتفعت أصوات صافرات الشرطة وأخذت في الاقتراب. أخيراً قام أحد المارة بالاتصال بالأمن. لكن ما الفائدة؟ السيارة فرّت من المكان ونجا القاتل بجريمته. لم أتمكن من تسجيل رقم لوحة السيارة، فالظلام كان حالكا والإضاءة رديئة. ما فائدة الشرطة؟ انتبهت فجأة وقد عاد إليّ تركيزي. الشرطة! كان عليّ أن أختفي قبل وصولها. إن تقدّمت للشهادة على الحادثة فسيتم القبض عليّ لا محالة. أتاني صوت العازف وهو يقترب من موقفي:

- أنت هناك.. هل رأيت لوحة السيارة؟

استدرت بحركة مفاجئة وانطلقت أعدو في الاتجاه الآخر، تتبطني شتائم العازف البذيئة ولعناته الحانقة.

- أين ماتيو الأجرب؟ ألا يمكنه أن يكون مفيدا مرّة واحدة؟!

تابع وصلته الفرديّة بلا مجيب، بينما كنت أركض كالمحموم بلا وجهة. في تلك اللحظة، غدت الجنّة المرجوة مجرد البقاء على قيد الحياة.

هل جرّيت أن تركب قطارا لا تعرف وجهته؟ أنا فعلت. راقتني فكرة أن أترك لقدري اختيار وجهة عني. لم أكن أتوق إلى زيارة مكان محدّد، ولم أكن أملك ترف التخطيط لمسار ما لحياي. ركبت القطار في الصّباح الباكر. تسلّلت إلى المحطة تحت ستار الظلام، وانتظرت في ركن رطب وعفن حتّى بدأ المسافرون في التّوافد. حين امتلأت المحطّة بالحياة، حشرت جسدي بين الأجساد المترقبة وانتظرت القطار.

دخلت عربة الدّرجة الأولى من دون أن أدري. انتبهت إلى ذلك حين لامس كفيّ مسند المقعد الجلد، ووقعت عيناى على ربطات العنق المتأنّقة المتصدّرة للمشهد على معظم الياقات المحيطة بي. بحثت بعينيّ عن مكان شاغر، فانتبهت إلى فتاة شابة تضع حقيبتها على المقعد المجاور. جولة أخرى في أرجاء العربة أنبأتني بأنه المكان الوحيد المتبقّي، فتقدّمت بتردد:

- من فضلك.. هل يمكنني الجلوس هنا؟

رفعت نظراتها إليّ في عجب، ثمّ رأيتها تنكمش وتنزوي قريبا من النافذة بعد أن أزاحت حقيبتها على مضمض. أسمالي البالية التي لم أغيّرها منذ دهر أثارت نفور جارتى. أحسست بنظراتها ترقبني خلسة فحاولت -عشا- السّيطرة على اضطرابي لأبدو طبيعيّا. رأيتها تشيح عنيّ وتنغمس في مطالعة جريدتها، فرارا من رائحتي المزرية حتما. تشمّمت كمّ سترتي متفقدًا فتراجع رأسي من هول ما وجدت. لم أكن قد خالطت العالم المتحضّر منذ فترة!

بعد أن استقرّ بي المقام في العربة، وتحركّ القطار مغادرا المحطة، انتابني فضول بمعرفة وجهتي. تلقّيتُ من حولي علّني ألمح لافتة ما أو

لوحة إعلامية، بلا جدوى. استدرت حينها تجاه جاري وتجاسرت على مقاطعة تركيزها المزعوم على الجريدة.

- معذرة.. إلى أين يتجه القطار؟

رفعت إليّ وجهها شاحبا. رمقتني بنظرة مستنكرة، ثم قالت في حذر:

- إلى باريس.. ألم تحجز مكانا قبل الصعود؟

هزرت رأسي نافيا وقد انتابني التوجّس. ها إنّ سؤالي قد زاد الطين بلة. رأيتهما تتراجع في صمت حتى التصقت بالنافذة أو كادت، وزاغت نظراتها عبر الزجاج. إنّها تفكّر الآن بهويّة الرّجل الجالس إلى جوارها، رثّ الثّياب، في مقصورة الدّرجة الأولى، من دون تذكرة سفر، ومن دون معرفة لوجهة القطار! إنّها تقلّب الاحتمالات في رأسها. أسوأها حتما. أيكون من قطاع الطرق؟ أو لعله سجين هارب؟ استشعرت عن بعد دقائق قلبها المتسارعة، كأنها تضرب صدري أنا، وراقبت عنقها المتصلّب وهي تزرد ريقها بصعوبة بالغة. لقد أثرت رعبها في تلك الدقائق القليلة، وخمّنت أنّها قد تنهض لتغيّر المقعد والعربة في أيّ لحظة.. لولا أنّ القطار كان مزدحما ذلك الصّباح.

حاولت النّوم فرارا من إحساس غريب بالذنب تجاه جاري المسكينة التي أقلقت راحتها. كنت أنوي أخذ قسط من الرّاحة لأستيقظ مع وصول القطار إلى المحطة النهائية. أغمضت عينيّ وتفكّرت في مزيج عجيب من الحسرة والارتياح في مواعيدي مع بيدرو الذي فوّته. إذن لم يكن ضميري قد رقد رقدته الأخيرة بعد. ولم يكن مقدّرا أن أنحرف بتلك السّرعة. لم يكن قد غلبني النعاس بعد حين، سمعت صوتا قويا يعلن مع دخوله العربة:

- سيداتي، سادتي، صباح الخير! سنقوم الآن بعملية المراقبة.. لذلك الرجاء إظهار بطاقات السفر.

نزلت الكلمات على رأسي كالصاعقة. انتهى أمري! هل فررت من أمن

المفوضيّة وشرطة مرسيليا لأقع لقمة سائغة بين فكّي مراقبي التذاكر؟
تكوّرت في مكاني متوتّرا أقلّب الإمكانات المتاحة. هل أتظاهر بالنوم؟ لكنّ
المراقب سيوقظني لا محالة. لم يكن بين يديّ من حلّ إلا ملازمة الصّمت.
لن أتكلّم. حانت منّي التفاتة إلى جاريّ الشّابة.. لقد تحدّثت معها منذ
قليل، ولعلّ غيرها من الركاب قد سمعني. هل يكشفون أمري؟
- سيدي، تذكرة السفر من فضلك.

استدّرت ببطء لأواجه المراقب بابتسامة مهترّة من دون أن أتفوّه بكلمة
واحدة.

- سيدي، التذكرة.

هزّزت كتفيّ كأنّني لا أفهم أو لا أسمع، ولم أردّ.
أخذ المراقب يتفرّس في هيئتي وقد بدأت الشكوك بشأني تساوره.
- سيدي، هويتك!

بنفس البلادة، استمررت أطالعه بابتسامة متشنّجة.

رفع المراقب صوته وهو يشير بسبابته إلى بطاقة هويته التي علقها
على صدره:

- هل لديك بطاقة مثل هذه تحمل اسمك؟ ما هو عنوانك؟

حين لم يأتّه ردّ هذه المرّة، نادى زميله الذي كان قد تقدّم لمراقبة
تذاكر بقية المسافرين:

- لست أدري إن كان أصما أم مشردا أم مجنونا.. لكنه لا يجيب، ولا
يحمل تذكرة أو بطاقة هوية. سأقف هنا إلى حين وصول أمن القطار.
هزّ الآخر رأسه متفهّما وابتعد في اتجاه العربّة التالية.

جلست في صمت أنتظر ما ستؤول إليه الأمور. أرقب في قلق جاريّ
التي وصلت علامات التوتر على وجهها أقصى مستوياتها، ومراقب التذاكر
الذي يتّصل عبر لاسلكيّته كل فترة لاستعجال أمن القطار. تتحدّر قطرات

العرق على جانب وجهه المكتنز وتتحرك أصابعه بشكل لإراديّ واشية باضطرابه. لم أكن وحدي أعاني وقتا عصيبا.
«بعد دقائق قليلة سيتوقف القطار في محطة ليون».

جاء النداء عبر مكبرات الصوت ليحمل الفرج لكل منّا. كنت صاحب الفكرة ومنفذها. انتظرت اللحظة المواتية، حين اهتز القطار فترنح المراقب الذي أنهكه الوقوف في مكانه لدقائق طويلة. رأيته يدوس على قدم أحد المسافرين فينحني ليعتذر وقد تزايد منسوب عرقه. لحظات قليلة ابتعدت خلالها نظراته عني، فوقفت في هدوء وتسوّلت مبتعدا قبل أن ينتبه إليّ. قطعت الأمتار المعدودة التي تفصلني عن باب النزول بخطوات واسعة وأنا أبتهل إلى الله أن يكون الحظّ حليفي مرة أخرى. حين رفع المراقب رأسه، كان الممرّ مكتظا مع استعداد الرّكاب للنزول. كان زحام القطار ذلك الصّباح من حسن طالعي. سمعته يصرخ في غيظ:
- من فضلكم، دعوني أمرّ..

حشر جسده الممتلئ في الفراغات بين المسافرين وهو يحاول اللحاق بي. الثواني تنقضي وأنا أقف أمام باب القطار المغلق وأنتظر توقّفه في المحطة. لم يكن الحظ ليواتيني أكثر ممّا فعل. المسافة بيننا تقلّص والقطار ما زال يتحرك. فلأصنع حظي بنفسي إذن. حرّكت مقبض الطوارئ وشدت على الباب بكل ما أوتيت من قوّة حتّى فتحتّه. هبّت ريح من خلال الفتحة مذكية حسّ المغامرة داخلي. الباب مفتوح. القطار يتحرك مبثّثا مع اقترابه من المحطة، كفّ المراقب تمتدّ باتجاهي لتمسك بتلابيبي. أقفز. أقفز ملقيا بجسدي إلى الفراغ. تتماهى الصّور في ذهني. أمواج البحر والمركب المنقلب، والقطار بسعيه الحثيث على سكة الحديد، وموج الحصى الذي حطّطت فوقه متعثّرا متكورّا. أتدحرج بعشوائية وتخز حبات الحصى جلدي فأستفيق من خيالاتي. لعلّ الماء كان أكثر طراوة، لكنّ أمواجه لم تكن أرفق.

أقف على قدميّ وقد لقيت ما لقيت من سقطتي الحرّة على فراش
الحصى. القطار يمضي ووجه المراقب المريدّ يطلّ من الباب في سخط.
لم يجرؤ على القفز ورائي. ألمح قطاري يتوقف عند المحطة بعد بضع
مئات من الأمتار، فأحسّ الخطي مبتعداً، أبحث عن حظي الذي واعدته
على اللقاء في هذه الأرض الجديدة.
وإني يا ليون قد وصلتك صدفة!

الاثنين ١٧ ديسمبر ٢٠٢٥، العاشرة صباحاً،

كانت جفون خليل مثقلة بالإرهاق، وهو يتوسّد كفه ويتابع التفاصيل التي واصلت أمّه سردها. تجلّى التعب في سحنتها هي الأخرى، وفي فتور شفيتها وهي تتعثر في الترجمة، وتتوقف لشوان بين جملة وجملة. لم يحظ أحدهما بنوم كافٍ، وبدأت المهمة المستأنفة مجهدة أكثر ممّا توقّعا. تئأب بعد أن فشلت القهوة في تعديل مزاجه الخامل، وقال في ثقّل:

- هذا لا ينفع.. سأخذ الرّسائل إلى مترجم محترف، وستكون جاهزة خلال يومين.

- لا!

كانت شاحبة في رفضها القاطع، كأنّما هي طفلة لا تريد أن تفرط في لعبتها الأثيرة.

- اذهب إلى مكتبك، وسأعمل على التّرجمة في غيابك، فتكون القراءة سلسلة مساءً. ما رأيك؟

بدا عليها التّصميم، والرّجاء. لن تترك المهمة لأحد. يهّمها أن تقضي أطول ساعات ممكنة في حضرة رسائل الزّوج الغائب. لعلّها تطرد الملل عن ساعات يومها الرّتيبة. فكّر أنّه ليس من حقّه أن يحرمها من متعتها التي جاءت بعد سنوات من الجفاف العاطفيّ.

- لك ذلك.

دخل مكتبه بعد أن اجتاز بمشقة دوّامة الزّحام الصّباحيّ. السّاعة تشير إلى الحادية عشر صباحاً، والحركة فاترة مثل أيّام الاثنين الاعتياديّة. تنهّد، وبوابة المصعد تغلق مصراعيها خلفه. هل يمكنه التّركيز الآن على مشاغله الأخرى؟ سيغوص تدريجيّاً في قضاياها المعلّقة، حتّى تصل الأعمال

إلى ذروتها على قرابة الثانية بعد الظهر. نبّهته رنة المصعد مع وصوله إلى الطابق الرابع. ما أن تجاوز العتبة حتّى لمح الفتاة عيناها، تجلس في قاعة الانتظار وعيناها ترقبان المدخل في صبر. لقد نسي أمرها! تجاوزها مسرعا في اتجاه غرفة مكتبه، من دون نظرة عابرة حتّى. يتصرّف مثل شخص مهمّ، محامٍ مشغول أو مرشّح برلمان تعود على ابتزاز العامّة.

دخلت السكرتيرة بعد لحظات، وضعت كوب قهوة ساخنة على سطح المكتب، وقالت في لامبالاة وهي تهمّ بالمغادرة:

- الآنسة تنتظر منذ ساعتين.

لم يكن ينقصه غيرها هذا الصّباح! تلكاً وهو يفتح أجهزته، يتفقد ملفّاته، يرتشف قهوته ببطء وسرحان. بعد نصف ساعة، قال عبر الهاتف الداخلي: دعيها تدخل.

رغم سلوكها الصّبور، فقد تراءت في عينيها غلالة ضيق وغضب. ربّما تتجاوز عن ساعتى الانتظار قبل وصوله إلى المكتب، لكن الدّقّائق الثلاثين التي تلت كانت إذلالا متعمّدا. لم يكلف نفسه غير ابتسامة مDAHنة وهو يقول بنبرة جافة لم تبلغها ذرة ندم:

- آسف لجعلك تنتظرين..

كانت نظرتها حادّة، ولم تبد عليها أدنى رغبة في البكاء. كأنّما ازدادت صلابة عمّا كانت عليه مساء السّبت، وهي تكاد تستجديه المرافعة في قضيتها. هل فعلت؟ تبدو ذكرياته مشوّشة، بعد نهاية الأسبوع غير الاعتياديّة هذه. يحصل معه ذلك غالبا حين يشاهد شريطا بأبعاد خمسة، فيتقمّص الدور ويعيش الأحداث، فيصعب عليه بعد الفراغ منه أن يستوعب أبعاد الحياة الحقيقيّة لبضعة دقائق. لكنّ ما اختبره ليس شريطا خياليا. بل تاريخا يخصّه.

- ذكّرني، ما الذي نحن بصددّه؟

- البيت، يحاولون طردنا منه.. وشقيقي محتجز بعد صدامه مع رجال

الأمن.

مختصر وجيز للقضية، بصوت يكاد يكون لامباليا. لحظات من الصمت. حاول أن يقيّم الوضع. هل يمكنه أن يعتذر الآن ويطلب منها أن تقصد غيره؟ هل سيبدو ذلك مجحفا في حقها بعد ساعتين ونصف الساعة من الانتظار؟ ربّما لو كانت نبرتها ذليلة ونظرتها منكسرة، لشعر بنفسه محاصرا وراغبا في التملّص من مسؤوليّة لا يريدّها. لكن هذا البرود المتباعد يدعو إلى الشكّ، كأنّما ليست القضية قضيتها! كأنّما لم يعد الأمر يهمّها. يثير الأمر فضوله بشكل لا يقاوم، يكاد يسألها، ما الذي حلّ بها يوم الأحد؟ - لا أظنّ أنّ هناك الكثير لعمله بالنسبة إلى البيت. وشقيقك.. حسن، لم يكن عليه التهور بمجابهة رجال الأمن.. ومع ذلك، أتوقّع أن يتمّ إخلاء سبيله خلال وقت قصير. لن يحتاج الأمر إلى جهود محامي جنايات. أنت تفهمين؟

ظهرت ابتسامة ساخرة على شفيتها وقالت بنبرة متعالية:

- طبعاً.. فهمت.

ثمّ وقفت مغادرة من دون كلمة احتجاج واحدة. تساءل في حيرة إن كانت حقاً الفتاة نفسها؟ هل تكون شقيقتها؟ شبيهة لها؟ كلّهن يتشابهن حين يغطّين رؤوسهن. بعد دقائق من انصرافها، كان لا يزال مبهوتا ومشتتا. هل كان عليه حقاً أن يرفض القضية؟ بالتأكيد، لن يورّط نفسه والمكتب في قضية تعطيل لمسار القانون وهو يتأهّب للمعركة الحاسمة. عاد إلى مطالعة ملفّاته من دون تركيز. تساءل بعد برهة، هل كان ليقبل بها في ظروف أخرى؟ لم يكن واثقا.

ليست قضية تعنيه.

بلى، تعنيه، ولكنه ينكر.

ماذا لو كانت أمّه تواجهه موقفا مماثلا؟ ماذا لو رفع جيرانها شكوى وطالبوا بطردها من الحيّ الذي لا تنتمي إلى أهله عرقا وثقافة؟ هل كان

ليدافع عنها؟ أم لعلّه سيحُثُّها على الاستجابة في صمت؟ إنّها مجرد سيّدة
عجوز مسالمة لا تكاد تغادر شقّتها في كلّ الأحوال. هل ستشكّل مصدر
ضيق لأحد؟

لم يدر كم دام شروده حين اقتحمت السكرتيرة المكتب في حالة فزع
قصوى.

- أستاذ دانيال، الحافظة الإلكترونية اختفت! لا أجد لها أثراً!

وقف في اهتمام وقال مهدئاً من روعها:

- هل بحثت جيّداً؟ لا شك أنّها في مكان ما.

- إنّها محفوظة على الدّوام في درج المكتب العلويّ، وهو مغلق دائماً
والمفتاح معي. لكنّها ليست هناك الآن!

- متى رأيتها آخر مرّة؟

- هذا الصّباح. أخرجتها قبل وصولك، وقمت بتحديث الملفات
وتصنيفها كما تعودت دائماً. عملت عليها قرابة الساعة قبل وصول
الزّبائن، لم يكن هناك غير...

توقّفت فجأة وقد تذكّرت الزّائرة الصّباحيّة التي أمضت ساعتين ونصف
السّاعة في قاعة الانتظار.

- تلك الفتاة! لقد غادرتُ المكتب لدقائق قليلة، حين أدخلت إليك
القهوة! إنّهُ وقت كاف لتفتح الدّرج وتأخذ الحافظة ثمّ تخفيها في حقيبتها
من دون أن أنتبه! لا شك أنّ ذلك ما حصل!

- دعينا لا نتسرّع في الاستنتاج.. سنبحث عنها معاً في كلّ أرجاء المكتب.
قد تكونين نقلتها من موضعها ونسيت الأمر.

بعد نصف ساعة من التفتيش الدّقيق، كان احتمال السّرقة قد راح يتّخذ
معنى واقعياً. راجع في ذهنه نبرتها وسلوكها. لامبالاتها، كانت توحي بشيء
ما لم يستطع التكهّن به. انتقمت لنفسها؟ حافظة ملفّاته، إنّها أثمن ما

يمتلكه المحامي. من دونها، يقف في قاعة المحكمة خالي الوفاض، مقفر
الذهن من التحليلات والمعطيات التي تصنع مرافعته وتنسج خيوطها.
لقد أحسنت انتقاء وسيلة الانتقام.

قال في شحوب وهو ينفذ يديه بعد رحلة البحث الفاشلة:

- هل أخذت بياناتها؟

سارعت السكرتيرة إلى جهاز التسجيل الذي يدوّن عليه المراجعون
هويّاتهم وعناوينهم، ثمّ ما لبثت أن رجعت ممتعة الوجه وهمست
في خيبة:

- لقد تركت هويّة وهميّة! دوّنت اسم رجل!

رفع حاجبيه في شكّ. اسم رجل؟ لو كانت تقصد هويّة وهميّة، لماذا
لم تختّر اسم أنثى؟ لماذا قد تدوّن اسم رجل؟ هتف في اهتمام:

- أريد الاسم والعنوان.. حالا.

تناول معطفه وهرول إلى الخارج من دون أن تستوعب السكرتيرة شيئاً.
ما أن استقرّ أمام عجلة القيادة، حتّى رنّ الهاتف معلناً عن رسالة. طالع
البيانات. الاسم، محمد رستم. وعنوان في قلب باريس، الدائرة السابعة.
أدخل العنوان على جهاز الملاحة الخاصّ بالسيّارة وانطلق. لو كان توقّعه
صحيحاً، فهي ليست هيّنة أبداً. ما كان عليه أن يستهين بها.

رنّة أخرى على الهاتف أعلنت وصول رسالة أخرى. رقم والدته. ملف
صوتي! وصل الهاتف بجهاز البثّ الخاصّ بالسيّارة وأخذ يستمع إلى صوتها
الهادئ في اهتمام. ابتسم وهو ينعطف عبر شوارع باريس في اتجاه
بغيته. لقد أحسنت استثمار صباحها، بينما يزداد هو تشبّثاً وضياًعا.



ليتك رأيتَه معي.. ظهر أمامي فجأة، كأنَّما نبت من الجدار، من العدم. كنت منهكا أكاد أموت من الجوع، فنزلت على عينيّ غشاوة من الضُّباب غالبا ما تسبق الإغماء. خلال المشاهد المهتزة، ظهر ذلك الرَّجل ذو الساق الواحدة، والذراع الواحدة، والعين الواحدة! بعينه السَّليمة، حدجني بنظرة جانبية مشبعة بالازدراء، وقال بالفرنسيَّة:

- مثير للشفقة.

لم أعترض. كنت مثيرا للشفقة بالفعل. لبثت أرقب في تشوُّش النهايات الاصطناعيَّة التي تكمِّل ما نقص من أطرافه البشرية، الساق الخشب، المخطاف المعدن، والرَّقعة السوداء التي تتدلَّى على جانب وجهه مخفية عينه العوراء. شكل القرصان طبق الأصل من أفلام الكرتون! مع كومة من الثياب المهلهلة غير المتناسقة، تخفي بقيَّة جسده. زمجر شيء ضخم غير بعيد عنه، فالتفتُ ناحيته. لم يكن قرصاني يصطحب ببغاء أو طائرا ما، بل كلبا مخيفا كثيف الشعر متلبِّده. نظرت مباشرة في عيني الحيوان المحمَّرة، فزمجر من جديد.

- اتبعني.

لم أميِّز في البداية إن كان يخاطبني أم يخاطب كلبه. رأيتَه يتعد، يجرُّ ساقه الخشب، والكلب يحاذيه. استدار ليقول مرَّة أخرى في نفاذ صبر.

- ألن تأتي؟

لم تكن دعوة لبقة. لكنني وقفت من دون تردّد. ما الذي جعلني أستجيب لطلبه؟ سرت وراءه على مهل وهو يسبقني بحوالي مترين. أستند على الجدران مقاوما ضعفي. أرفع رأسي كلّ حين لأتأكد من بقائه في مجال بصري. «زومبي» يقتفي أثر قرصان، يسيران بتؤدة بين البشر، ولا أحد

يهتمّ بالمشهد! لا أدري كم مشينا على تلك الوتيرة. كنت على قدر من الاضطراب حال بين إدراكي حدود الزمان والمكان. انتهينا بعد برهة إلى زقاق ضيق ومظلم. اختفى الرجل عبره وغاب عن ناظريّ. تبعته متلمّسا طريقي في السّواد، حتّى لاحت ذؤابة خافتة في نهاية الممرّ. حين وصلنا، ارتفعت رؤوس صغيرة كثيرة من انهماكها وتطلّعت إلينا. أعداد غفيرة من أطفال الشوارع، لم أملك حصرها، مجتمعون على وليمة من بقايا المطاعم، يتقاسمونها فيما بينهم ويتخاطفون قطع العظام التي علق بها قليل من اللحم. تتطاير القطع من كفّ الصّبيّ المكلف بالقسمة، فيلتقطونها بخفّة وينهشونها بأسنانهم الصغيرة في لحظات.

ازدردت لعابي الذي سال قدر منه على جانب فمي، وأقعيت إلى جوار الكلب، متلهفا لنصيب من المأدبة. حالما طارت قطعة الخبز باتجاهي، عادت الدّماء إلى وجهي، فتلقفتها بكلتا يدي، كأني أخشى تسرّبها من بين أصابعي، وطفقت أمضغ لقماتها في صمت ورع. الجوع كافر يا ولدي. ما من آفة تورث الإنسان ذلا وهوانا أشدّ منه، ولا توحّشا وحيوانيّة أكثر منه، حين تتعارك البطون الخاوية على كسرة لا تسدّ الرّمق. كان من حسن حظّي أنّ المأدبة كفت الجميع.

نمت بعد ذلك نوما عميقا. تكوّرت على الأرض، في وضعيّة الجنين، وغلبني النّعاس. حين أفقت، لم يكن هناك أحد. القرصان، الأطفال، الكلب، كلهم اختفوا.

في الصباح، سرت في الطّرقات على غير هدى. أمرّ بين النّاس، فلا يروني، كأنّ جسدي شفاف خفيّ. على قارعة الطرقات وعند إشارات المرور، يتوزّع أشخاص على شاكلي، يفترشون الرّصيف ويتسوّلون اللقمة. وقفت في زاوية بين شارعين وراقبت المشهد. يمرّ بهم النّاس مسرعين الخطو، لا يكادون يلمحونهم. قد تمتدّ كفّ من حين إلى آخر، تندسّ في جيب سترة وتخرج قطعة نقدية أو اثنتين، تلقي بها إلى المتشرّد وتمضي من دون أن تتخلّى الخطوات عن نسقها السّريع. كأنّ البشر ينقسمون إلى عالمين، عالم

طبيعيّ يعيش حياته في ضوء الشمس، ينساب في حركيّة شديدة، وعالم موازٍ يزحف في الظل، يجرّ أقدامه في ترهل لا تسعفه القوى، يقتات على فتات العالم الأوّل ويستهلك بقاياها.

حين بدأ الظلام في الهبوط، عدت إلى الزّقاق الذي قادني إليه القرصان بالأمس. جلست القرفصاء في زاوية قصيّة ولبثت أنتظر. أنتظر. أنتظر. كانت الساعات تمرّ والضجيج في الشارع الرّئيسي يخفت معلنا نهاية نهار حافل، ورفاق الأمس لا يظهرون. فتحت عينيّ بعد غفلة قصيرة، فألفيت الزقاق مكتظا! كيف ومتى جاؤوا؟ كانوا هناك، متفرّقين على الأسفلت في فوضى منسجمة، وموزّع الحصص في نفس مكان الأمس، يرمي بقطع البقايا فتطير فوق الرؤوس حتى تستقرّ في وجهتها.

- أخيرا استيقظت.

بادرني القرصان بغلظة، ثمّ انحنى ليلقي بين كفيّ عظمة دجاج التصقت بها نتف لحم، كان يلوك قضة منها. تلقيتها بلهفة، فقد كنت أترقب تلك اللقمة طوال النهار.

- ما الذي تجيد فعله؟

بادرني على حين غرّة بعد أن فرغت من قطعة اللحم الهزيلة وكسرتي خبز جافّتين. فكّرت للحظات في ما أملكه من مواهب. أحسبني قادرا على التواصل مع الآخر، ملّمّا بالأساليب البيداغوجية. متحصّل على الأستاذية في اللغة العربيّة، لكنني أجيد الفرنسيّة، ويمكنني مثلا أن ألّقن هؤلاء الأولاد أبجديّات النحو والصّرف...

- الشحاذة أم النشل؟

بترت عبارته أفكاري الجامحة. لم أكن أفكر في المواهب المناسبة.

- قف، أرني ما يمكنك فعله.

وقفت في ارتباك. لم أدر ما المطلوب منّي بالضبط. فتطوّع أحد الأولاد وقدم عرضا توضيحيا. طوى ذراعه وألصقها بعضده ليلامس كفه

كتفه، ثم حشر كوعه داخل كمّ القميص من دون صعوبة تذكر، وربط قماش الكمّ عند نهاية الطرف المطويّ لتبدو ذراعه مقطوعة! ثمّ قام آخر بالشيء نفسه مع ساقه. نزع البنطلون وبقي في سرواله الداخلي، ثمّ طوى الساق إلى الوراء في ليونة وحشر ركبته في ساق البنطلون! كانوا يفعلون ذلك بسلاسة ومرونة، كأنّهم اعتادوا تلك الحركات منذ الأزل، ثمّ مضوا يتحرّكون كأنّ تغييراً في أجسادهم لم يكن! عدت أحّدق في القرصان وقد صرت أرمق عاهاته بشكل مختلف. ما أدراني بأنّه قد فقد ساقاً أو ذراعاً؟ ما أدراني بعينه المخفية خلف القناع، لعلّها تكون سليمة؟

تخبّطت محاولاً دسّ كوعي في كمّ قميصي، لكنّ الكمّ تمرّق قبل أن أفلح. لم أجرب الأمر مع ساق، فقد كان الوقوف على ساق واحدة معضلة لم أستطع تجاوزها. استسلمت بعد دقائق من المحاولة. لم أكن بالمرونة المطلوبة.

- النشل إذن.

قالها القرصان بلهجة من يعلن قراراً. إن كنت أريد أن أقتات من موارد المجموعة فعليّ أن أقدم مشاركة ما. راقبت الأولاد وهم يتقدّمون تباعاً ليفرغوا محتويات جيوبهم المكتنزة في جراب القرصان، وتساءلت، هل تستحقّ وليمة البقايا تلك أن يتنازل كلّ منهم طواعية عن محصول يومه؟ تراكمت القطع النقدية في الكيس محدثة رنيناً معدنيّاً محبباً اشتقت إليه. لم يقم القرصان بعدّها، بل اكتفى بجسّ الكيس من الخارج في حركة تقييميّة، ثمّ ابتسم في رضا. ربح وافر.

- حاول أن تأخذ مني الكيس، وتركض.

ابتعد عنيّ مقدار ثلاث خطوات، ثمّ راح يمشي مارجحاً الكيس إلى جانب ساقه في لامبالاة. تردّدت لحظة، ثمّ اندفعت. لوهلة خامرتني فكرة شديدة الجرأة. أن أختطف الكيس وأعدو بكل قوتي حتى أختفي عن الأنظار.. فينطلق جيش من الفئران الصغيرة بقيادة القرصان خلفي، فينهبش لحمي

حيّا! فقدت الفكرة معناها بعد ذلك مباشرة. قفزت لأمسك بالكيس، فتحرك القرصان بخفة ليرفعه بعيداً عن متناول يدي. كدت أسقط.
- مرّة أخرى.

تكرّرت المحاولة، وفشلت في كلّ مرّة. وفي غمرة انغماسي في تنفيذ أوامر القرصان من دون مقاومة، انتبه ضميري فجأة وتساءلت عن جدوى ما أقوم به. هل يمكنني أنا نادر الشاوي أن أقدم على السرقة؟ اختلاس ما يسدّ الرّمق من محلّ أغذية شيء، ونشل المارّة وسلبهم أرزاقهم شيء آخر تأباه عزّة نفسي وأنفتي. إن كان للأموات أن يتعذبوا لما يفعله الأحياء، لكان أبي يتقلّب في قبره حسرة وكمدًا، وربّما يشنق عمّي نفسه أعلى شجرة، هرباً من العار الذي سيلحقه ويلحق العائلة كلها!

ولدت، يا بنيّ، في عائلة زاخرة بالإناث. أبي وعمّي كانا ذوي ذريّة وافرة لا ذكّر فيها. أبي الأخ الأكبر، أنجب ثلاث بنات قبل أن أجيء إلى الوجود. أمّا عمّي، فقد كانت بناته الخمس كلّ أثره في الدّنيا. امتنع عن الزّواج بعد أن قضت زوجته وهي تضع ابنتها الخامسة. أعرض عن كلّ التحريضات على زواج ثانٍ يمنحه الذكر المنشود، ورضي بما قسمه الله له، وربّي بناته وحيداً. لذلك، حين جئت إلى الدّنيا، هام أبي وعمّي بي حبّاً، وسمّياي بـ«نادر»، فقد كنت النطفة النادرة التي ستضمن استمرار نسل عائلة «الشاوي». وحتى تكتمل الفرحة، فقد عاهد أبي عمّي في مشهد مؤثر ما زالت أمّي تذكّرني به كلّ حين، على أن يزوّج ابنه بكبرى بنات أخيه «عالية». كان الأمر يفوق مجرّد اتفاق بين الكبار، يذريه الصّغار مع الرّيح حالما يشبّون عن الطوق، أو اتباعاً أعمى للعادات سرعان ما يتلاشى مع اقتحام مظاهر المدنيّة لبلدتنا الجبليّة. كان يمثل بالنسبة إلى الأخوين أغلى عطية قد يقدّمها الأخ لأخيه، ابن من غير صلبه يحمل اسم أجداده ويربّي أحفاده. وكان عليّ أن أفي بالعهد وأحقّق الوعد.

لكنني في تلك اللحظة، كنت كأبعد ما يكون عن تحقيق آمال العائلة.

- حسن. هذا كاف.

أوقف القرصان محاولاتي البائسة بإشارة من مخاطفه المعدن، وظننت أنّ توظيفي في سلك النشل انتهى عند ذلك الحدّ. لكنّ ما تلا من أحداث أثبت كم كنت مخطئاً في تقديري.

اكتشفت لاحقاً في كثير من الدّهشة، أنّ عصابة القرصان مجتمع اقتصاديّ مصغّر يخضع لتنظيم وقواعد شديدة الاحترافيّة. فيشغل كلّ فرد الوظيفة التي يبرع فيها أكثر من غيرها، بما يفيد المجموعة كلّ. فهناك فرقة النشالين وفرقة الشحاذين، اللتان تعملان بتخطيط واضح. تتقاسمان الفضاءات العموميّة بالتداول، فلا تتعدّى إحداهما على مجال الأخرى بطريقة قد تثير الرّيبة أو تعطل سير العمل! ثمّ هناك فرقة الموارد الغذائيّة وخبرتها منقطعة النظير في التعامل مع حاويات المطاعم وفرزها بدقّة في وقت قصير، وفرقة الموارد الكسائيّة التي تتعامل مع دور الرّعاية لتوفير الملبس المناسب لكلّ فرد، بما يلائم الطقس الحاليّ. وفي النهاية، هناك فرقة التصرف المالي التي يرأسها القرصان بنفسه ومعه خاصّة الخاصّة من أعضاء العصابة. ما دام اختار كلّ فرد أن يعيش في كنف المجموعة، فعليه أن يلتزم بتسليم كلّ ما يجنيه من النشل أو الشحاذة إلى الخزينة الجماعيّة. فتكون بمثابة صندوق احتياطيّ.

بين أصدقاء الزقاق، كانت هناك الصغيرة كارمن. فتاة بكماء في الحادية عشرة من عمرها، فقدت صوتها بعد أن أصيبت بصدمة الافتراق عن والديها في أثناء رحلة هجرتهم غير الشرعية من الشيشان للعمل على الأراضي الفرنسيّة. لم تكن تجيد حديث الإشارات لحدّاثه إصابتها بالبكم، لكنّ ابتسامتها الوضّاءة كانت أبلغ من كل الكلمات. وجدتني أنشدّ إليها وإلى رفقتها في الأوقات التي تجتمع فيها العصابة في نهاية الزّقاق، نتبادل

الأحاديث، أنا بالكلام وهي بالرّسم والكتابة بطرف إصبعها على تراب الأرضية. لم تكن تجيد الفرنسيّة بشكل كامل. فقد تعلّمت مفرداتها بالسماع. كانت تمضي ساعات يومها مقرفصة في مدخل نفق المترو، تتسوّل.. وتصغي إلى كل همسة من حولها. يتطلّب منا تبادل عبارتين من قبيل «هل أعجبك الطعام؟» و«ما زلت جائعة»، قرابة الدّقائِق العشر، بين كلمات شفهيّة مبعثرة ورسم على التّراب. لكن الوقت كان متاحا أمامنا، فما من داع للعجلة.

لم تكن الشيشان مرغوبا فيها في الاتحاد الأوروبي، لذلك كانت معظم حالات الهجرة إلى بلدان أوروبا الغربيّة غير قانونيّة. كارمن كانت كبرى إخوتها الأربعة. قرّرت عائلتها الهجرة بعد أن فاض بهم اليأس مع التضييق الشيوعي والتنكيل بالمسلمين في بلدها. عرفت على صغر سنّها حربين دامتين، الحرب الشيشانية الأولى والثانية اللتين شنتهما روسيا على خصم غير مكافئ. الدّمار الذي أحاق بالبلاد أدّى إلى حركات هجرة وتهجير مستمرّة منذ ١٩٩٤. بعد عشر سنوات، وصلت كارمن إلى فرنسا.

مع الممارسة، اكتسبنا بعض الخبرة، هي في فهم اللغة وأنا في التعامل مع رسومها، ما سمح بقدر أوفر من التّبادل في وقت أقصر. فتجرّأت على سؤالها عن والديها وهجرتها. فهمت من رسمها وإشاراتنا أنّ أفراد عائلتها «ناموا تحت عجلات شاحنة». ظننت في البداية أنّها عنت تعرّضهم لحادثة سير إذ داستهم شاحنة، فلما رأت أجسادهم الميتة حسبتهم نائمين.. لكن بعد توضيح وتقصّ تبين أنّها كانت شديدة الدّقة في وصفها. كانت العائلة قد هاجرت في نهاية الخريف وبداية شتاء العام الماضي. قطعوا مسافات طويلة سيرا على الأقدام. فقد كانت الخطة تقتضي توفير كلّ قرش لمستلزمات الفترة الأولى من الغربة.

كان من الصعب عليهم إيجاد سيّارات تقلّهم لكثرة عددهم. لكن بعض سائقي شاحنات البضائع الضخمة كانوا يتكرّمون عليهم بتوصيلهم لمسافة ما. وحين يتوقّف السائق للنوم والراحة، ينامون على الأرض

-توفيرا لكلفة الفندق- تحت الشاحنات، ذات القاع المرتفع والعجلات الهائلة، بحثا عن الدّفء قرب محرّكاتها وعوادمها! في ذلك الصّباح، لم ينتبه السّائق إلى العائلة التي افترشت الأسفلت وجعلت شاحنته سقفا لها، يقيها من الثلج الذي تساقط طوال الليل، فتحرك إلى الوراء على حين غفلة ليدهس الأم والأب وأبناءهم الثلاثة في لحظة واحدة. وحدها كارمن كانت مستلقية في الفراغ بين العجلتين الخلفيتين. انتبهت مع أزيز العجلات وهي تسحق عظام عائلتها. أطلقت صرخة، ثمّ سكّنت مرّة واحدة.

كارمن وصلت الأراضي الفرنسيّة بمفردها، بعد أن دفنت جثث أفراد عائلتها في الثلوج في مكان ما قرب حدود ألمانيا والنمسا. طفلة يانعة مثل فلقة القمر، كبرت سنوات في لحظات، وغدت مسؤولة عن قوتها ومستقبلها. لم تكن تدرك بعد أنّ عصابة القرصان تحميها من أقسى ما قد يواجهه طفلا يتيما في أرض غريبة.. العنصريّة.

في ذلك الوقت، كانت العنصريّة تجاه السّود والعرب قد أضحت موضوعة قديمة. مع تزايد أعدادهم بشكل يمثل قرابة خمس سكان البلاد، لم يعد وجودهم يلفت الانتباه كثيرا، وإن كانت مظاهر العنصريّة ما زالت قائمة في المفاضلة أمام فرص العمل أو عقود الإيجار.. لكنّ قضاياهم ومشكلاتهم كانت تغفل -بقصد أو من دون قصد- كأنّ حضورهم في المشهد الفرنسيّ قد بات أمرا مسلّما به والحديث به غير مجد. لذلك فإنّ سهام العنصريّة توجّه الآن إلى الموضوعة الجديدة، الأحدث فالأحدث. في الفترة الأخيرة، بدا أنّ المهاجرين الصّينيين والشرق أوروبيين يجلبون الانتباه إليهم أكثر. وإن كان وجود الصّينيين محبّبا، أولا لأنّ قدومهم مرتبط بالدراسة أو العمل في البحث العلميّ، ثمّ لأنّ وجوههم المستديرة وأعينهم الضيّقة تثير الفضول، فإنّ المهاجرين من رومانيا وبلغاريا وبقية بلدان شرق أوروبا وقعوا في مصيدة العنصريّة.

لوكا، الولد المسؤول عن توزيع وجبات الطعام، لم يحبني قط. في الحقيقة ألتمس له العذر، فعدا كوني العربي الوحيد في المجموعة، فقد كنت عالية عليهم. لم أفلح في تعلّم أساليب النشل أو الشحاذة، لكنّ القرصان قضى ببقائي ضمن العصابة والاستفادة من مواردها. كلّما جاء موعد توزيع الوجبات، لمحت نظرة غيظ وحقد في عينيه، يعبر عنها برمية شديدة القوّة تجعل نصيبي يسقط أرضاً أو يصيب رأسي، مع أنّه يحسن التسديد غالباً.

عرفت لاحقاً أنّه ولد لقيط. تركته أمّه عند مدخل ملجأ للأيتام، فكبر هناك حتّى سنّ السادسة. ثمّ هرب من الملجأ. كان بداخله نفس ثوريّ عصاميّ منذ طفولته. تشرّد باختياره وفُضّل عيش الشوارع على ميثمّ تستباح في جنباته كرامته بكلمات أو إحياءات. في الشارع لا أحد يذكّره بكونه لقيطاً أو يتيماً أو منبوذاً من طرف عائلته، فالكل كذلك. لكنّ رفاقه يشيدون بحذقه للمهارات الحسابيّة وتفوّقه في تنظيم الغارات الخاطفة على حاويات المطاعم.. وجد كيانه في الشارع. وبعد خبرة أكثر من عشر سنوات، يقترب موعد تقاعده من الخدمة. خلال أيام قليلة يبلغ السابعة عشرة، فيتسلّم نصيبه من المذخرات، وينطلق في اتجاه مستقبل جديد. لم أظنّ أنّي سأبكي، لكنني فعلت. حين وقف لوكا في الزّقاق، يشدّ على أيدي أفراد العصابة واحداً واحداً، يحتضن بعضهم ويكتفي بمصافحة آخرين، يمسك دمه بمكابرة طفل تربّي على الجلد، وعلى ألا يذرف عبرة أمام الغرباء. لكنّني بكيت. بكيت بحرقة كأنّني أودّع بعض أفراد عائلتي. لم أدرك حينها إن كنت بكيت من أجله، أم على نفسي. لوكا اللقيط المشرّد العصاميّ ذو السبعة عشر عاماً، سيتسلّم حصّته وينطلق. سيتمكّن من الاغتسال واشتراء ملابس جديدة ونظيفة، ثمّ قد يجد وظيفة لائقة في مطعم أو حرفة في سوق، يستأجر شقّة وينام على فراش ناعم وثير، يأكل وجبات دسمة ومتوازنة.. وأنا، نادر الشاوي، الجامعيّ ذو الشهادة،

قد بلغت الثلاثين عاما ونيف، ولا شيء في الأفق يوحى بأنّ مستقبلي
سيكون أكثر إشراقا.

بعض الأطفال ينضجون قبل الأوان، تمرّسهم الخطوب وتسبغ عليهم
التجربة رداء الوقار.. في حين يشيب بعض الرّجال على غفلة ويرحلون عن
الدّنيا بصحائف بيضاء من ذرة حكمة.

الاثنين ديسمبر ٢٠٣٥، الواحدة ظهرا،

هذا ممتاز. مذهل حقًا. والده يتعلّم النّشل مع عصابة مشرّدين، وهذه العريّة اللّعيّنة تسرق حافظة ملفّاته الثمينة لتبتزّه! لا يمكن ليومه أن يكون أكثر روعة وإلهاما!

ترجّل عند العنوان الذي يومض على شاشته. هذا هو. قرأ اللافتة العريضة التي تتصدّر البناية: السّجن المدني. لا عجب أنّ العنوان بدا له مألوفًا. سار في اتّجاه مكتب الاستقبال ذي الكوّة الخارجيّة الضيّقة، وقال في ثقة مخاطبا الموظّف:

- محمّد رستم. أنا محاميه.

أخذ الموظّف عنه بطاقته المهنيّة ومرّرها عبر القارئ الآليّ، ثمّ انفتح الحاجز المعدن بشكل تلقائيّ وسُمح له بالعبور إلى داخل المبنى. بعد إجراءات روتينيّة أخرى في مكتب آخر بالداخل، دُعي إلى غرفة الزّيارات الواقعة في قبو المبنى. مرّت دقائق من الانتظار والترقّب قبل أن يُفتح الباب على القادم الجديد. دفع السّجّان ولدا مكبّل المعصمين، ثمّ انسحب وقد أوصد الغرفة من الخارج. استدار خليل في اتّجاهه، ثمّ حدّق فيه مبهورًا. بعد فترة صمت مرتبكة سأله متشكّكا:

- أنت محمّد رستم؟

هزّ الولد رأسه علامة الإيجاب، فبادره على الفور:

- كم عمرك؟

- ثمانية عشر عاما.

- وأنت تعيل والدك وشقيقتك؟

هزّ محمّد رأسه مرّة أخرى، ثم قال موضّحا:

- اضطررت إلى ترك الدراسة حين فقد والدي بصره. انفجرت في وجهه
ماسورة مياه، فأصابت عينيه شظايا المعدن. وشقيقتي، لا يمكنها أن
تعمل، بسبب...

أكمل خليل عنه وهو يرسم دائرة وهمية بالسبابة حول وجهه:
- نعم، بسبب غطاء رأسها! وهذا مبرر لترك ولداً مثلك يضيع
مستقبله ويترك دراسته؟

- كلاً لم تفعل، لقد حاولت مراراً أن تجد عملاً لا يتطلب التواصل
المباشر، لكنّ المسألة متعقّدة، وما تجنيه غير كافٍ.. وكان عليها أن توافق
على عملي مضطّرة لا مخرّجة..

- مؤكّد. مع أنّ الحلّ بيدها. ماذا لو تركت عنها غطاء رأسها ساعات
العمل، هل ستهلك بذلك؟
هتف محمّد محدّراً:

- أرجوك، لا تطرح هذا الاقتراح أمامها، فإنّها قادرة على قتلك بسببه!
نذت عن خليل ضحكة ساخرة، في حين لم يبد على محمّد أدنى أثر
للمزاح. راقب خليل ملامحه الجادّة، ثم تنحنح وهو يقول مستعيداً
هدوءه:

- شكراً لتنبهني!
أوماً محمّد برأسه ثم هتف بلهجة مشحونة بالامتنان:
- شكراً لقبولك القضية! لا تدري كم عانينا طوال شهرين من أجل أن
نجد محامياً، من دون جدوى!

- الشكر لشقيقتك! لقد فعلت ما بوسعها لتكسب موافقتي!
لم ينتبه محمّد إلى نبرة التهكم في صوته، فاستطرد في رجاء:
- ما الذي سنفعله الآن؟

ما الذي سنفعله؟ كان سؤالاً منطقيّاً ومحوريّاً. أوّلاً يسترجع حافظته

الإلكترونيّة، ثمّ.. لا يدري بعد. لقد أربكه سنّ الولد الذي يخاله الناظر
مراهقاً في المدرسة الإعداديّة. ما الذي يمكن أن يعمل ولد في مثل سنّه؟
همّ بسؤاله ثمّ أحجم. لا يودّ أن يتورّط عاطفيّاً مع هذه العائلة. ستفلت
الأمر من السيطرة لو نجح الولد في استدراج شفقتة. لفتت انتباهه كتابات
تملاً ظهر كفه وذراعيه، لعلّها معادلات حسابيّة، بقلم جاف أزرق.. مثل
ذاك الذي كان يستعمل منذ عقد من الزّمن. لم يعد استعماله منتشرًا
مثل ذي قبل.. لعلّ الورق والقلم قد أصبحا حكراً على الطبقة الكادحة،
حتّى إنّ لم يلمس ورقة واحدة منذ سنوات، قبل أن تصله تلك الرّسائل.
رغم فضوله، تجاهل الخريشات المبهمة وسأله بشكل مباشر:

- أحتاج عنوان منزلك. شقيقتك لم تترك وسيلة للتواصل.

دوّن العنوان ورقم الهاتف اللّذين ذكرهما محمد ثمّ اعتذر. كان من
العبث أن يمضي مزيداً من الوقت مع صبيّ ظريف يرقّ له القلب، بينما
حافظته المسروقة مع شقيقته! لم يكن قلقاً بشأن الحافظة. لم يكن من
الحكمة أن تتلفها أو تعبث بمحتوياتها، إن كانت تطمع في تعاون منه بشأن
القضيّة. ما أن أصبح في سيّارته حتّى بادر بالاتصال بوالدته. رغم مزاجه
السّيّئ وساعات صباحه الضائعة، وجد نفسه يهتف مشاكساً ما أن بلغه
صوتها:

- لا أدري حقّاً. كيف أمكنك الزّواج برجل بمثل هذه التّعاسة؟

ضحكت، رغم الدّهشة التي اعترتها، وكان ردّها سكونا طويلاً. تمثّلها
مضرجة الوجنتين بحمرة حيّة، تعود شابّة في العشرينات مرّة أخرى،
وتسترجع ذكريات وأحاسيس عفا عليها الزمن. زوى ما بين حاجبيه وهتف
عابساً:

- غيّرت رأيي. لا أريد أن أعرف!

ضحكت من جديد، وقالت مترفّقة:

- لم أكن أنوي أن أقول شيئاً. الرّسائل ستقول ما تحتاج أن تعرفه.

لكنّه لم يكن تعسا طوال الوقت. كانت له أيّام مشرقة أيضا.. تستحقّ أن تقرأ عنها.
- أرجو ذلك!

كان يدفع بالسّخرية إحساسا آخر لازمه منذ الصّفحات الأولى. كلّ الآلام التي تنضح بها الكلمات المكتوبة والمترجمة، كانت تترك بصمات داكنة في قلبه. ما كان ذلك الشعور المرّ الذي يسكن أقصى حلقه؟ لم يكن تعاطفا مع صاحب الرّسائل وذكرياته المضمّخة بالوجع، بقدر ما كان ضيقا وغضبا! ها إنّ الماضي المستور برداء النّسيان والنّاسي يكشف عن نفسه في أسوأ توقّيت ممكن. تخيّل أنّ يد أحدهم تقع على تلك الرّسائل، فيواجهه بها في الحوار التّلفزي. كيف يردّ حينئذ إذا ما وُصف بالانتهازيّ والدّخيل والمواطن من الدّرجة الثانية؟ ألم يكن والده مهاجرا غير شرعيّ، دخل البلاد خلسة، سرق وتسوّل وتسكّع مع المشرّدين؟ أيّ تاريخ مجيد يواجهه به النّاخبين والمنافسين!
أصيبت كرامته في مقتل.

زفر، مثقلا بالهموم التي تحيق به من كلّ جانب هذه الأيّام، وتمنّى حقّا أن تحمل الرّسائل شيئا مشرقا، فتدفعه إلى التّفاؤل بشأن الأسابيع المقبلة. استفسرت في اهتمام لانطفاء مرحه:

- تبدو قلقا.. هل كلّ شيء على ما يرام؟

- إنّها حافظة ملفّاتي.. لقد أضعتها.

- هل بحثت جيّدا في المكتب؟ لا شكّ أن السّكرتيرة غيّرت مكانها..

- معك حقّ، لعلّها فعلت ذلك.

أثر ألا يقحمها في تفاصيل لا صلة لها بها، فأغفل ذكر قضيّة الأخوين. على كلّ حال، هو في طريقه لاسترجاع الحافظة، وسيعود كلّ شيء إلى وضعه المعتاد. فاجأته بهتافها المبتهج:

- لقد أنهيت تسجيلاً آخر.. دقائق وأرسله. أرجو أن يكون أكثر متعة من سابقه.

ابتسم متهكماً. من الصعب أن يتخيل شيئاً أكثر تعاسة مما استمع إليه ظهر ذلك اليوم.

- هذا ممتاز. سأستمع إليه وأنا في طريقي لرؤية بعض العملاء..

بعد رحيل لوكا، كانت هناك محاولة لدمجي ضمن وحدة الموارد الغذائية، لأسدّ بعض الفراغ الذي خلفه زعيم الوحدة، ليس باحتلال مكانه -إطلاقاً!- إنّما بتعزيز المجموعة بكفّين إضافيّتين تساعدان على جمع المخلفات الصالحة وحملها إلى الرّقاق. أمّا الرّعاية فقد تولتها صبيّة بلغاريّة، اسمها تينا. إذن فقد عملت تحت إشراف تينا التي لم تكن تحبّني أكثر من لوكا، لكنّها قبلت تأطيري وتدريبي على المهمّة المحفوفة بالمخاطر.

الجدير بالذكر هو أنّ أصحاب المطاعم الفاخرة -والتي غالباً ما تحتوي حاوياتها على قدر أكبر من البقايا، بعكس المطاعم الشعبيّة التي يكون روادها شبه معدمين من الطبقة الكادحة الذين لا تختلف حياتهم عن حياتنا كثيراً- يفضّلون أن ترمى بقاياهم إلى الكلاب أو في مكّبات النّفايات على أن تسلّم إلى المشرّدين أمثالنا! لذلك فقد كانت السّرعة والدّقة عاملين شديدي الأهميّة، إضافة إلى تجنّب لفت الانتباه حين نتسلّل من المداخل الخلفيّة للنّيش في أكياس القمامة.

لكنّني رغم التدريب، كنت بطيئاً وفوضويّاً! تفلت أغطيّة الحاويات من يدي فتسقط محدثة قرقعة مخيفة تنبّه موظفي المطعم إلى وجودنا، فنهرب على الفور من دون أن تحوي أكياسنا شيئاً. وأسأل في كلّ لحظة في ارتباك وتردّد «هل تنفع هذه القطعة؟» بشكل يثير تحامل رفاقي ونفاد صبرهم مني! وقد أنسى على عين المكان كيساً مما جمعناه، متسبّباً في أضرار جسيمة للمجموعة التي تتقلّص حصّتها في وجبة المساء.. لذلك، بعد ثلاثة أيّام من العمل الميدانيّ، اشتكتني تينا إلى القرصان.

أعلن القرصان استجابة لاحتجاج تينا ورفاقها، أنّني يجب أن أجرب

نشاطا آخر حتى أنفع في شيء ما، ولو اقتضى الأمر أن أمرّ على وحدات العمل كلها واحدة إثر الأخرى. لذلك، خرج معي بنفسه ذلك الصّباح وقد قرّر أنّي يجب أن أتعلّم النشل! من دون كلّ المهام الممكنة، كانت السّرقة أبغضها إلى قلبي، أنا نادر الشاوي، الجامعي المحترم، سليل القبيلة العريقة والعائلة المحترمة، محطّ آمال الآباء والأجداد، والذكر القادر على حفظ تاريخ العائلة وتخليد اسمها.. كتب عليّ أن أخوض غمار التجربة، مكرها، وفي النفس ذلة وهوان.

نقطة البداية كانت محطة المترو. أدخل القبو المليء بالخلق وأدسّ جسدي في الزّحام. أقف بين المسافرين مخفيا كفيّ المتّسختين في جيوب سروالي. أطرق برأسي متجنّبا الأعين. كان القرصان قد تدبّر لي ثيابا نظيفة لا تثير الرّيبة، ثياب عمل. راودني تردّد كاد يدفعني إلى الانسحاب والفرار. لكنّ القرصان الملازم لي مثل ظلي في دوريّ التدريبيّة الأولى، استمرّ يهمس في أذني بتعليماته. انظر إلى هذا، راقب حركاته، جيوب بنطاله الخلفية تحوي محفظة جلدية، لو كان طرفها بارزا من الأعلى لسهل التقاطها. تلمّصك موسى حادّة لقطع جانب الجيب في هدوء. تلك السيّدة.. حقيبتها تتدلّى في إهمال، يمكنك أن تدسّ كفك عبر الفتحة في خفّة.

لم نفعل شيئا طوال الصّباح عدا المراقبة والتحليل. لا يمكن لمبتدئ مثلي أن يبادر من دون قدر محترم من التكوين. لكن تبقى النظرية شيئا والتنفيذ شيئا آخر. ثمّ جاء دوري لأحلّل وأقرّر. أجيل بصري عبر المكان، بكلّ ما أمكن من حذر، فجلب الانتباه إلينا يعني النزول من العربة واستئناف الصيد في عربة أخرى. أراقب المسافرين بعين واحدة، حسب تقنية معلّمي، وأتعرّف إلى الضحايا المناسبين. لم يسلم ضميري من وخزات متباعدة، سرعان ما تلاشت مع ارتفاع نداء معدتي في نهاية النهار، فقد أعلن القرصان أنّني لن أشارك في المأدبة ما لم أرجع بصيد ما.

في تلك الظروف، شاء القدر أن ألتقي الدكتور عمر. واحد من الأشخاص الذين تركوا بصمة في حياتي. كان الشاهد الأول على انحداري الأخلاقي،

وأول من خجلت من نفسي أمام نظرة احتقار منه كنت أستحقها. كنت قد انتظرت أن تمتلئ المحطة بالمسافرين في وقت الذروة، بحثت عن الفريسة المناسبة، وما أن حدّدت موقعها حتى رحت أتتبعها في سكينه وحذر. سيّدة عجوز تهتّز ركبّتها فتتواءم بحملهما، تمسك حقيبة يد جلدًا في تراخ يخلو من كلّ حرص. سيمرّ كل شيء بسرعة. التنفيذ بين محطتين. حين يصل المترو إلى المحطة التالية، أنقضّ على هدفي وأطلق ساقّي للريح.. الآن.

قفزت وأنا أضمر غنيمتي تحت ذراعي وتجاوزت باب المترو الذي كان مفتوحًا على مصراعيه، وقد تدافع المسافرون للنزول بعد أن تملك الفرع معظمهم. أحاول أن أشقّ طريقي في الزحام. أتلّفت حولي فلا أرى القرصان. لم يكن ذلك مهمّا. القاعدة الأولى، وقت الهرب كلّ ينفذ بجلده. لم أنتبه إلى الرّجل الذي اندفع ورائي من بين كلّ الرّكّاب السليبين الذين أفسحوا لي الطريق من دون تردّد، ونظراتهم المرتعبة تعبّر عن شيء واحد.. نفسي نفسي، إذا سلمت فليحمل الطوفان الآخرين! وحده الدكتور عمر اقتفى أثري في إصرار، كأنّه يقول: قف، فلقاؤنا مقدّر. تعطلّت حركتي على الرّصيف فتمكّن في لحظات من اللحاق بي. رأيتّه يقفز في الهواء وينقضّ عليّ ليطيح بي أرضًا ويسقط فوق. ارتطم جسدي بالأرض في خبطة عنيفة، ووجدتني مقيّد اليدين فجأة. كان الدكتور عمر قد استعاد توازنه بسرعة وأقعى على ركبّتيه فوق مكبلا معصميّ وراء ظهري، مثبتا إياي على الرصيف ووجهي إلى الأسفلت. جلس فوق ظهري يستردّ أنفاسه، فتناهى إليّ لهائمه. كنت مشلول الحركة لا محالة، فلم أحاول المقاومة. أفلتُ الحقيبة المسروقة طواعيّة وقد أدركت هزيمتي. القرصان اختفى. بينما اقتربت صاحبة الحقيبة التي كانت قد نزلت من المترو على أثرنا بأوصال مرتجفة. بادرها عمر وهو يقدم إليها حاجتها:

- سيدتي، خذي حذرك في المرّة المقبلة.

أخذتها منه ولسانها يلهج بكلمات شكر مرتبكة، في حين كان نصيبي

معين شتائم لا ينضب. سمعته يقول:

- سأسلمه بنفسه إلى الشرطة..

وقف وشدني بغلظة ليَجبرني على الوقوف. أمسكني من ياقة قميصي بكفّ وسحبني إلى خارج المحطة، بينما حافظت الكفّ الأخرى على معصمَيّ مقيّدين. الشرطة؟ تلك الكلمة كانت تثير رعيي إلى الدرجة القصوى. مهاجر بصفة غير شرعية، هرب من أمن المستشفى ثم من أمن القطار.. والآن حاول سرقة حقيبة امرأة عجوز. هل من المتوقع أن أستبشر بذكر الشرطة؟ محاولتي الأولى للنشل باءت بفشل ذريع. لعلّي لم أخلق لأنحرف وأسرق. لعلّ من المقدّر لي أن أكون شريفا بعد كل شيء؟ لعلّ الدكتور عمر كان مسخّرا من الله تعالى ليبعدني عن الطريق الخطأ قبل أن أتمادى وأنجرف مع التيّار؟ انتابني أمل غريب في تلك الظروف. ماذا لو كان لقائي به خيرا؟ نظرت في وجه جلادي/منقذي في ضوء النهار -لم تكن صفته قد تحدّدت بعد في ذهني- فتبيّنت ملامحه العربيّة. كلمته بلغتنا المشتركة في توّسل:

- أنت عربيّ أليس كذلك؟

التفت إليّ فرأيت الشرر يتطاير من عينيه، وهتف في ازدراء:

- أنا عربيّ، ولا أتشرّف بالعرب أمثالك! مرّغتم رؤوسنا في الوحل بتصرفاتكم غير المسؤولة! بعضنا يجاهد ليشق طريقه بشرف وكرامة، في حين أن البعض من أمثالك يسيؤون إلى العروبة والإسلام كل يوم.. يعطون فرصة إلى كل من يريد الطعن في عزّتنا وفي ديننا ويغذون الكراهية والاحتقار تجاه المهاجرين العرب! لذلك لا تخاطبني باسم عروبتك المزعومة!

أطرقت في ألم. لمس بكلماته عين الحقيقة. نعم أنا كذلك. كنت عالية على والدتي في وطني، عاطلا عن العمل وعديم الفائدة، وعالة حتّى على عصابة القرصان المتشرّدة. لم أصنع شيئا في حياتي يستحقّ الفخر، ولعلّي

لن أفعل في القريب وكلّ خطوة تقرّبي أكثر من الهاوية. كنت وصمة عار إضافية على وجه كل عربي ومسلم شريف، ولا شيء غير ذلك.

انفجرت باكياً فجأة، وقد اجتمع كلّ احتقاري لنفسي قطرات احتقنت في غددي الدّمعيّة ثمّ أفرجت عن نفسها من دون استئذان. انتابتني رجفة هزّت جسدي الهزيل كله. كأنّ قدميّ لم تعودا قادرتين على حملي، انهرت على الرّصيف وقد ازداد نحبي قوّة وقد شغلت برّثاء لنفسي عن كلّ ما حولي. كان الدكتور عمر قد ترك معصمي ووقف يرقبني في ارتباك، ثم ما لبث أن قرفص إلى جوارِي على الرّصيف. قلت أخيراً بعد أن سكبت أقداحا من الدّمع:

- لم أرد أن أكون كذلك. لم أرد أن أسوء إلى أحد. أعيش على الفضلات وبقايا المطاعم منذ أكثر من أسبوعين.. أنام في العراء، من دون لحاف أو فراش. أشرب من المياه الآسنة ومن النافورات العمومية.. كيف يمكنني أن أعيش من دون أن أسرق أو أخطف؟ هل أنتظر الموت على قارعة الطريق؟

استأنفت البكاء بقوّة أكبر، وقد هيّج وصف حالي بالكلمات مشاعري. لقد كنت بائساً، أقصى ما يمكن أن يصيب الإنسان من البؤس.. أو هكذا ظننت حينها. طبعاً، لم أشر بكلمة إلى القرصان وعصابته. القاعدة الثانية، إذا قبض عليك أو أمسكت متلبساً، تحمّل مسؤوليتك كاملة. أنت بريء من العصابة والعصابة بريئة منك.

ساد الصّمت لبرهة، لم يسمع خلالها غير نشيجي المتقطع حتى تمالكت نفسي واستعدت إدراكي بما حولي. كان الرّجل لا يزال جالساً إلى جوارِي يرقبني برأفة ورقة. قال بصوت هادئ:

- حسن.. لن آخذك إلى الشرطة. لكن عدني بالألاعود الكرّة.

التفتُ إليه في دهشة وأنا لا أصدّق أذنيّ، وهمست بصوت مخنوق من التأثر:

- أعدك.

وقف عمر ونفض كفيه ثم وضعهما عند خصره. جال ببصره في المكان وهو يزمر شفّتيه. ثم قال بلهجة امرأة:

- حسن.. اتبعني.

رفعت رأسي إليه في دهشة ولم أتحرك. انتابني نفس البلادة التي ظهرت حين طلب منّي القرصان أن أتبعه في المرة الأولى. لكن لهجة الدكتور عمر كانت مطمئنة خالية من كل عجرفة:

- أنا ذاهب إلى المسجد.. تعالّ معي.

حين وصلنا إلى المسجد لم تكن الشمس قد اختفت بالكامل وراء الأفق. كنّا قد توقّفنا في الطريق لتناول وجبة ساخنة بطعم الجنّة، نزلت على معدتي الخاوية فأشاعت الدفء في أوصالي في دفقة واحدة. بعد أسابيع من الطعام البارد الكريه، كان الأمر بمثابة حلم. جلت ببصري في المكان أستكشفه. لماذا لم يخطر ببالي منذ البداية أن ألجأ إلى المسجد؟ بيت الله هو بيت المسلمين جميعا. كنت لأجد فيه يد المعونة حتما مثلما وجدتّها من الدكتور عمر الذي جاء بي إلى هنا. أو هذا ما حسبته في لحظة سذاجة مفرطة. غسلت أطرافي بالماء البارد وتوضأت كما لم أتوضأ من قبل، ثم دخلت قاعة الصلاة. جلست على الأرض في خشوع وسكينة. يا الله، لماذا لم ألجأ إليك منذ البداية؟ أنت رحمتني وأنقذتني من موت محتم في عرض البحر، أنت الأرحم بعبادك من الأم الحانية على فلذة كبدها.. لماذا سهوت عن دعائك؟ مع ارتفاع صوت الأذان في باحة المسجد، ارتفعت شهقاتي الباكية من جديد. لم أكن قد صليت صلاة واحدة منذ مغادرتي أرض الجزائر.

كانت صلاة المغرب قد قضيت منذ دقائق، لكنني لم أغادر مكاني. لبثت مطرقا في استسلام غريب. أحسّ بارتياح نفسي مهيب لا عهد لي به منذ بدأت هذه الرحلة. رفعت رأسي بهدوء، فلمحت عمر وقد جلس

يتحدّث إلى شيخين طاعنين في السن. أحدهما كان الإمام الذي صلى بنا الجماعة منذ حين. أتراه يحدّثهما بأمرى؟ راقبتهم للحظات علّني أستشف شيئاً من حديثهم، لكنّني لم أفلح. فاكثفت بالانتظار في صمت. بعد حين، لمحت الدكتور عمر يتقدّم باتجاهي وقد بدا عليه التفكير. تسارعت نبضاتي وتعلّقت عيناى بشفتيه، كأنّ مصري مرتبط بكلمة منه. - قم بنا. ستبيت عندي الليلة.

وقفت على الفور وتبعته من دون تردّد وأنا أخفي غبطتي. استجاب الله لدعاى مرة أخرى.

لعلك تتساءل يا بني كيف تبعت الرّجل طواعيّة، كأنّني لم أتعلّم من تجربتي السّابقة مع القرصان؟ لكنّ الدكتور عمر كان شخصاً مختلفاً. نظرة واحدة إلى محيّاه تورث بداخلك ارتياحاً عميقاً. ينتمي إلى ذلك النّوع النادر من الأشخاص الذين يحملون هموم الآخرين. في الغربة، اللقاءات الطيبة نادرة وثمينة.. لكنها استثناء، فلا تعوّل عليها كقاعدة. كان هو من تكبّد الجزء الأكبر من المغامرة حين أخذني معه. فإنّ أسوأ ما قد يحصل معه هو أن يدخل لصّاً إلى مسكنه. فما بالك بأن يترك لصّاً في شقته ويخرج مطمئناً إلى عمله!

تلك الليلة في مسكن الدكتور عمر كانت واحدة من أهنأ لياليّ زمن الغربة. حين فتحت عينيّ في الصّباح، كانت الابتسامة ولأوّل مرّة منذ زمن بعيد، تملأ وجهي. ابتسامة حالمّة.. بطعم الأحلام الزاهية التي راودتني في المنام. تمطيت وأنا لا أزال مستلقياً على ظهري وظللت محدّقاً في السقف لبرهة قبل أن ألقّ الغطاء على جسدي من جديد. تساءلت حينها، هل صار بإمكانى أن أتفاءل بمستقبل أقلّ قتامة؟ هل صار بإمكانى أن أعيش.. وقد حسبت الموت يتربص بي عند كل منعطف، كأنني فريسته القادمة وضالته الوحيدة؟

شكرت في سرّي صادقاً الرجل الذي أهداني الأمل. وتمنّيت لو أمكنني

أن أردّ جميله ولو بقدر ما. كانت الشمس قد ارتفعت إلى كبد السماء وغمرت أشعتها الغرفة عبر النافذة التي أزيحت ستائرهما. كنت قد نمت طويلاً. استويت جالسا وتلفّيت حولي. رأيت السرير القريب مرتباً فتيقنت من أنّ صاحب الشقة قد انصرف إلى عمله. تئاءبت في تكاسل ثم قمت من مكاني متثاقلاً. ربّبت فراشي بدوري، احتراماً لمضيفي، وأنا الذي لم أفعل ذلك يوماً في منزل والديّ. والآن، أين المطبخ؟ أحتاج إلى وجبة دسمة لأؤكد أنني لا أحلم. لم تكن الشقة كبيرة. تتكوّن من غرفة واحدة واسعة تحتوي سريراً ومكتباً من جهة، وأريكة وجهاز تلفاز من الجهة الأخرى. سرت باتجاه المدخل حيث كان بابان إضافيان، أحدهما يفضي إلى المطبخ والثاني إلى الحمام.

توجهت إلى المطبخ رأساً، وإلى الثلاجة بالتحديد. لكنّ نظرة جانبية خاطفة جعلتني أتوقف بغتة كأنّ مسّاً كهربائياً أصابني. سجادة الصلاة المفروشة على الأرض في اتّجاه القبلة كانت تنادينني. ألم أكن قد عزمت على المواظبة على الصلاة؟ تحولت وجهتي إلى الحمام لأتوضأ. يكفيني أنّي قد نمت عن صلاة الفجر.. وهو أمر دارج واعتياديّ في حياتي السابقة، لكنّ ولسبب غريب أحسست له تأنيباً من ضميري الذي استفاق فجأة. تراءت صور أمام عيني. هل حاول عمر إيقاظي؟ كانت صوراً باهتة كأنها جزء من الحلم. لا أستبعد أن أكون قد رميته بالوسادة ليتركني أنام في سلام.. تماماً كما كنت أفعل في الماضي، حين تحاول إحدى شقيقتي إيقاظي. ابتسمت لتلك الذكرى البعيدة. كل شيء يدعوني إلى الابتسام ذلك الصباح. صليت صلواتي الفائتة بسرعة -والمقصود بالفائتة هو الفجر والظهر، باعتبار توبتي الحديثة في المساء السابق- ثم قمت وفي داخلي الكثير من الارتياح. يمكنني الآن أن أبدأ يومي في اطمئنان ما دمت قد أدّيت حق ربّي عليّ.

قبل أن أتوجه إلى المطبخ من جديد، توقفت نظراتي عند جهاز الهاتف المستقرّ على المنضدة. تسارعت نبضاتي بشدّة وتوجهت إليه بخطوات

مضطربة. من دون تفكير كثير أمسكت سماعة الهاتف بلهفة وأخذت أكوّن رقما أحفظه عن ظهر قلب. أدركت حينها أنه حين لا أكون على وشك الموت من الجوع، هناك أشياء كثيرة قد تشغلني عن التفكير في الطعام. لن يعاتبني عمر على استعمال الهاتف من دون إذنه، أليس كذلك؟ انتظرت في انتباه وتوتر أن يأتيني ردّ من الطرف الآخر. يا إلهي، كم بدت تلك الثواني الوجيزة ثقيلة ومنهكة. أمسكت أنفاسي حين جاءني صوتها:
- ألو...

لم أستطع أن أتكلّم. اختنق صوتي مع تآثر العبرات من عينيّ تباعا. أردفت في نفاذ صبر:
- من هناك؟

فقلت بصوت متهدّج خشية أن تقطع الاتصال:
- أمي...

ساد الصمت للحظات قليلة قبل أن تهتف المرأة في عدم تصديق:
- نادر؟ هذا أنت يا بني؟
- هذا أنا يا أمي.

أحسست بالدموع تملأ صوتها. وارتفع النشيج من الجانبين.
- لماذا تركتني في حيرة كل هذا الوقت؟ لماذا لم تتصل قبل الآن؟
ظننتك.. ظننتك..

انقطعت كلماتها مع احتباس أنفاسها. فأغمضت عينيّ في ألم:
- أنا آسف يا غالية.. لكنني لم أستطع أن أتصل قبل الآن.. الظروف صعبة..

«يا ميمتي الغالية.. يا عين من عينا..

مشتاق لك مشتاق.. مشتاق لك مشتاق..»

في الخلفيّة، يتناهى إليّ صوت شريط تضعه في المسجّل. أغنية شعبيّة

تونسيّة أعرف إدمانها لها منذ رحيل جدّي في تونس من دون أن يتسنى لها وداعها. لعلّها تصغي إليها اليوم لأسباب أخرى. تعدّدت المآسي، والفقد واحد. تساءلت، كم مرّة في اليوم تعيد لفّ الشريط لتكرّر الأغنية نفسها؟

«بعدك يا عزيزة عليّ.. الأيام لعبت بيّ..»

وكواني الفراق.. وكواني الفراق..»

- بني.. أنت بخير؟ لم يصبك شيء؟

لا شك أن أخبار المراكب التي تحطمت في عرض البحر قد وصلت أصدائها إلى البلدة. ولا شك أن عائلات الكثيرين من رفاق سفري قد تلقت نعيهم منذ فترة ليست بالقصيرة. قلت مطمئنا:

- أنا بخير.. بخير. أكل جيدا وأنام جيدا.. وتعرفت على أشخاص جديدين ساعدوني.

لم أكن أكذب. أكلت جيدا مساء أمس ونمت على فراش مريح أيضا. لا حاجة إلى سرد تفاصيل الأسابيع الماضية. وحدها الأخبار السعيدة يجب أن تقال في الاتصالات مع العائلة.

«طال غيابي طال.. تعبني الترحال..»

ندمت على هالحال.. دمة سخية..

وحراقة الأشواق.. وحراقة الأشواق..»

- لماذا تركتنا في قلق كل هذا الوقت؟ لماذا تركت الهواجس تلعب بنا؟

- العمل يا أمي.. العمل كثير. والاتصالات الهاتفية مكلفة جدا..

كتمت تنهيدة حرّى ضاق بها صدري. كان يجب أن أكذب هذه المرّة. لكن لا بأس، إحساسي يخبرني بأنّ الأوضاع ستتحسن من الآن فصاعدا. سأجد عملا، وسأتمكن من الاتصال باستمرار. هكذا ظننت في اندفاع ساذج.

- يجب أن أذهب الآن.. العمل ينتظرنى..

أغمضت عينيّ بقوة حتى أوقف سيل العبرات، وأنا أستمع إلى الدّعاء الذي أخذ لسانها يلهج به من دون توقف. تنهّدت في حرارة بعد أن أنهيت المكالمة. كم كنت في حاجة إلى دعائها. كم كنت في حاجة إلى شحنة المشاعر الدافئة تلك. وقفت من مكاني وتوجهت إلى المطبخ مدندنا ببقية كلمات الأغنية، بصوت حزين ذابل.

«مكتوب لي في كتابي.. يأمّه نذوق عذابي..

خائف غصن شبّابي يشيح في يديا.. وتذبلي الأوراق..

لو تعرفي أش نقاسي.. مع ناس ماهم ناسي..

وأش رات عيني أغيار.. وأش رات عيني أغيار..»

الاثنين ١٧ ديسمبر ٢٠٣٥، الواحدة ظهرا،

وهو يعبر ممشي الحديقة المؤدّي إلى منزل عائلة رستم في الضاحية الجنوبية، فكّر خليل في شكّ.. هل يمكن أن يحمله بكاء الفتاة واستعطافها إلى العفو والصفح، كما صفح الدكتور عمر عن أبيه؟ لعلّه يتفهّم بأسها وقلة حيلتها، لكنّه لا يستسيغ على الإطلاق أسلوب الابتزاز وليّ الذراع.

بعد رنّين للجرس، انفرج الباب، ليطالعه وجهها. مرّت لحظات متوتّرة، تجلّت خلالها أمارات الصدمة على ملامحها، ثمّ ما لبثت أن استفاقت وهتفت غير مصدّقة:

- يا إلهي، لقد وصلت إلى هنا.. إذن فقد ذهبت لرؤيته! كيف هو؟ أخبرني أرجوك، كيف حاله؟ هل يبدو بصحّة جيّدة؟

تجاهل لهفتها لمعرفة أخبار شقيقها وقال في جفاف:

- أليس هذا ما أردته، حين كتبت اسمه وعنوان السّجن في السّجلّ؟

امتقع وجهها وقالت في مرارة:

- وضعت اسم أخي وعنوان سجنه، لأنّها المعطيات الوحيدة الثّابتة. كلّ ليلة، نبيت ونحن لا ندري إن كانت شمس النّهار ستطلع علينا في هذا المنزل.. أم في غيره!

حبس أنفاسه. ها قد عادت إلى استدرا عطفه، هي وأخوها! قال مستعجلا:

- دعك من هذا الآن. أين الحافظة؟

- عفوا؟ أيّ حافظة؟

- حافظتي الإلكترونيّة. ملفّات المكتب. تلك التي سرقتها!

- ماذا؟!

صرخت في استنكار شديد أمام اتّهامه المباشر، في حين حدّق فيها غير مصدّق. هل ستنكر الآن؟ لعلّها لم تحقّق أهدافها بعدُ وتريد الاحتفاظ بها لوقت أطول لتضمن تعاونه؟ تغصّنت ملامحه وهمّ بالتلفّظ بكلمات عنيفة، حين قاطعه نداء من الدّاخل:

- مريم.. من الباب؟

- إنّهُ المحامي!

ظهر في نهاية الممرّ كهّل في نهاية الخمسينات، يمشي ببطء ويتحسّس الجدران في طريقه.

- لماذا هو بالباب؟ فليتفضل..

كان خليل يهمّ بالكلام، حين التقت عيناه بنظراتها الصّارمة والرّاجية في آن. مريم. اسمها مثل اسم ابنته. ونظرتها المعتدّة المشحونة بالكبرياء لا تدع له مجالاً للاعتراض. ليس الآن، سيؤجّل حسابه معها احتراماً للرّجل الكفيف.

- لم أصدّق حين بلّغني مريم يوم السّبت أنّها وجدت محامياً قبل بتوليّ القضية! فضل منك أن تشرفنا في منزلنا المتواضع..

قال الرّجل بعد أن استقرّ بهما المقام في غرفة المعيشة المؤثثة بنمط شرقيّ للغاية.

- إنّهُ منزل جميل.

قال خليل وهو يكتشف بعينين مبهورتين النّقوش الدّقيقة على خشب الأرائك، والألوان المتموّجة التي تزخر بها المفروشات والسّتائر. لم تكن تشبه في شيء الفخامة الغربيّة التي تعتمد الحدّ الأدنى من الزّخرفة، لكنّها حميميّة ودافئة. ربّما تحمل على كاهلها عشرات السّنين من التعايش مع هذه الجدران، ومع أنفاس السّكان وبصماتهم، لكنّها تحتفظ برونق فريد، مثل القطع القديمة في المتاحف.. على أنّها قريبة المنال. لوهلة، تخيل نفسه مسافراً إلى الشّرق العربيّ، قبل أن يقطع تأملاته صوتهها،

مريم، بنكهة مرّة أفسدت متعة الرّحلة:

- شكرا لتعزيتك.. ما دمنا سنفقدّه عمّا قريب!

- مريم.. حضري لنا الشّاي رجاء.

انسحبت إلى الدّاخل بخطوات عصبية، بينما اعتذر الرّجل بابتسامة باهتة.

- لديك أولاد؟

- ابنة واحدة. اسمها مريم أيضا.

- آه! هذا فال طيّب! فال طيّب!

لم يقاوم رغبة خفيّة في مشاركة لحظة وجدانيّة صادقة مع الكهل المنهك. ينتبه في كلّ مرّة إلى قواسم مشتركة مع هذه العائلة الغريبة. يتساءل لماذا سمّاها مريم، اسم السيّدة العذراء عند العرب؟ لماذا لم تكن ماري؟ يذكر الآن أنّ سيلين اقترحت الاسم. صارت موضوعة عند الفرنسيين أن يهبوا أولادهم أسماء شرقيّة. نوع من مواكبة العولمة وتحطيم للحدود الجغرافيّة التي تصرّ دولتهم على حمايتها بأسلاك شائكة. غزت الأسماء الهنديّة والكوريّة والتركيّة أسماء المواليد الجدد، فما عادت الأسماء المألوفة ترضي الآباء الشباب.

على أنّ اسم ابنته يُنطق «ميغيام» على الطّريقة الفرنسيّة، بينما يحتفظ لها والدها بليوننة الرّاء رغم الفرنسيّة الصّرفة التي يتبادلان مفرداتها. يُدرك فجأة أنّه يتقدّم خلال حقل ألغام لا يدري إن كان سينفجر في وجهه في أيّ لحظة. بارحه هوس الكاميرا والمقلب الخفيّ الذي راوده يوم السّبت، لكنّه ما زال يخشى تبعات الألفة التي تتحرّك داخله تجاه العائلة وقضيّتها. قاوم بعنت. ليست هناك أيّ ألفة، إنّها شفقة عابرة. سينهض الآن من مكانه، يعتذر عن سوء الفهم، لأنّه لا ينوي أبدا استلام القضيّة، ثمّ ينسى الأمر برمّته.

مهلا، سيحدث ذلك بعد أن يستعيد حافظته.

- أخشى أنّي لم أكن أبا جيّدا للولدين..

كانت كفّه تحتضن كوب الشّاي النحاس الذي قدمته مريم وانصرفت، بينما تتلأّأ في عينيه الخاويتين عبرات نديّة. تابع خليل الرجفة التي ألّمت بأصابعه النحيلة المتغصّنة بينما واصل نجواه:

- مريم كانت دوما أمّا لأخيها، بعد أن رحلت عنّا أمّها مبكّرة.. والآن هي تحمل عبء أبيها أيضا، بدل أن أحمل عنها همومها وأكون لها عوناً ورفيقاً. إنّها مجرّد فتاة في الثالثة والعشرين، لكنّها تعلّمت كيف تكون صلبة وقويّة. ومحمّد.. ذلك الولد الشقيّ، هل تصدّق أنّ طفلا مثله يترك مقاعد الدّراسة ليغسل الصّحون في مطابخ المطاعم، ويحمّل الصّناديق في مخازن المحلّات؟ بينما يجلس والده عالية عليه، لا يسعه أن يفعل شيئا ليهوّن عليه مصيبته؟!

أطرق خليل في صمت. لم تكن هناك من كلمات تواسي الأب الموجوع في عزّة نفسه وكرامته. فكّر للحظة. لو كان والده موجودا الآن، هل كان يشبه هذا الكهل الخمسيني الكفيف؟

- شكرا على الشاي.

نهض بعد أن أفرغ المشروب الدّافئ في جوفه، فصافحه الرّجل بحرارة وهو يشدّ على ذراعه.

- أملنا فيك، من بعد الله سبحانه وتعالى!

مطّت مريم شفّتها ورفعت عينيها إلى السّقف في حركة هازئة وهي تتابع المشهد المسرحيّ المؤثّر، في حين تتمرّ خليل ببضع كلمات مجاملة قبل أن يعبر الممرّ في اتّجاه المخرج. تبعته مريم بخطوات بطيئة. وقف مولّيا إياها ظهره أسفل الدّرج المؤدي إلى الحديقة، وكفّاه في جيوبه. كان عليه أن يتّخذ قرارا فوريّا، أن يحسم بين عقله ذي المنهجية العلميّة الثابتة والدّقيقة، وعاطفة غييّة لا تُطعم خبزا ولا تصنع مستقبلا. لم يدم تردّده طويلا. استدار على حين غرّة ليواجهها وهمس بفحيح حادّ

وخفيض حرص على ألا يصل إلى مسامع أبيها:

- أمامك أربع وعشرون ساعة لتكون الحافظة على مكتبي! هل هذا واضح؟

لم ينتظر ردّها، واندفع باتجاه السيّارة. إن كانت تفكّر في الإنكار، فعليها أن تعيد النّظر، لأنّ بيده الكثير ليفعله، ولن يكون في صالحها وصالح عائلتها. أدار المحرّك وانطلق عبر الشّوارع على غير هدى. لم تكن به رغبة في العودة إلى المكتب. كلّ شيء يبدو كئيباً في عينيه، ويزداد كآبة كلّ لحظة. هام على وجهه حتّى الرّابعة عصراً.. موعد اجتماع الشّركاء. كان يجب أن يرجع من أجل هذا على الأقلّ. رنّ الهاتف، وجاء صوت السّكرتيرة قلقلًا:

- أستاذ دانيال، الشّركاء يسألون عنك. هل ستأخّر؟

- أنا في طريقي إلى المكتب.

بعد دقائق، كان يتنهد وهو يتأمّل سحنه المتعبة في مرآة المصعد. بعض الهمّة. إن لم يكن مقنعا أمام الشّركاء، فهل سيكون أمام جمهور النّخبين العريض؟ مرّن شفّتيه على الابتسامة المحترفة، ومسّد صدغيه لإزالة بقايا التّوتر ثمّ خطا في اتّجاه غرفة الاجتماعات.

- ها قد وصل مرشّحنا الفدّ!

صافح زملاءه الذين استقبلوه بابتسامات مرحة وتريّبات قويّة على الظهر والعضد، ثمّ استقرّ بينهم حول طاولتهم المستديرة. كلّ شيء بدأ حول هذه الطاولة نفسها منذ أسابيع قليلة. جاءت تلك الفكرة العابرة، ألّقاها زميله برونو بلا مبالاة تامّة في إحدى الأمسيات التي جمعت شلّة الشّركاء لمناقشة خطة إستراتيجيّة لتطوير المكتب. «ليست هناك دعاية لنا أفضل من دخول أحدنا البرلمان!». ضجّوا بالضحك، كأنّما أقيت على أسماعهم نادرة. لكنّ الفكرة شغلت خليل، حتّى أصبحت هاجسه الدّائم. سيسعى إلى دخول البرلمان!

إذن هذا كلّ ما في الأمر. دعاية للمكتب، تحقيق سمعة وتسليط ضوء على شخصه.

لا.. لم يكن ذلك مقصده. كان يثبت لنفسه أنّه ندّ لهم، أولئك الذين يتربّعون على المقاعد الوثيرة، ويتحكّمون في مصائر النّاس. يمكنه أن يكون منهم، ولن يكون الاسم عقبة مدى الحياة. ما بدأ على سبيل الدّعابة، انتهى في منتهى الجدّ. حملة انتخابيّة وتحديد رؤية سياسيّة، أهداف وإنجازات يرمي إلى تحقيقها من خلال صوته في المجلس.

- هل خطابك جاهز من أجل السبت المقبل؟

- تقريبا..

غمغم في غموض والابتسامة ذاتها لا تفارق محيّاه. لم يتقدّم خطوة واحدة منذ وصلته رسائل والده. ويوم عمله الأقلّ ضغطا ذهب هباء بسبب قضيّة تافهة لن تدرّ على المكتب نفعا. لكنّه سيكون جاهزا في الموعد. سيضطر إلى بعض السّهر والمزيد من الوقت المقطّع من نصيب العائلة من حضوره. لكنّ الظروف تفرض ذلك. سيلين ستقدّر. ومريم.. لعلّها لن تتفهّم بسهولة.

- هل رأيت اللاّفتات الجديدة التي صمّمتها مارغريت؟ إنّها آية في الإبداع.

- نعم إنّها كذلك..

يعتمد على المكتب بشكل كامل لتمويل حملته الانتخابيّة. كلّ الإعلانات التي تشغل شاشات المدينة تحمل توقيع «مكتب دويون Dupont وشركائه للمحاماة». ما زال الاسم الثّيل يثير اهتمام العامّة ويستجلب ثقتهم رغم إلغاء الملكيّة منذ قرون طويلة. بل لعلّه لم يكن يوما أكثر أهميّة وموضع حسد ممّا هو عليه اليوم، في زمن أصبح فيه الانتماء الفرنسيّ الحقّ والأصيل ميزة لا يستهان بها، فما بالك بمن انتمى أسلافه إلى طبقة النبلاء ذات الحضوة؟ لذلك لم يعترض أحدهم على اختيار

اسم زميلهم «دوبون» ليتصدّر لافتة المكتب ويكون اسم شهرته، لأنّ النّفع سيعود عليهم جميعاً. وقد أدرك خليل دانيال الشاوي، أنّ مصير اسمه أن يُكتب إلى الأبد بخطّ دقيق أسفل اللافتات.. كان ذلك قبل أن يترشّح لمنصب عامّ.

- أستاذ دانيال.. معذرة على المقاطعة.

التفت إلى السّكرتيرة التي اقتحمت الاجتماع وعلامات الاضطراب واضحة على وجهها.

- ما الأمر؟

- هل يمكنك الخروج إلى هنا.. لحظة واحدة؟

اعتذر من زملائه ولحقها إلى الممرّ. كانت تقف مرتعشة كأنّ أمراً جليلاً قد وقع.

- أنا آسفة جدّاً.. لا أدري كيف أمكن لهذا أن يحصل.. أنا مرتبكة للغاية..

- ما الأمر جانيت، تكلمي؟

أخذت نفساً ثمّ قالت في نبرة اعتذار:

- الحافظة، لقد عثرت عليها..

- ماذا؟! أين؟

- دخلت إلى المطبخ لأحضّر القهوة من أجل الاجتماع، فوجدتها هناك على الطاولة. لا أدري كيف حصل ذلك، أنا لا أخذها معي إلى أيّ مكان، لا تغادر الدّرج أو المكتب.. لكن يبدو أنّي أخذتها بيدي اليوم حين حضّرت قهوتك في الصّباح.. ونسيتها هناك!

- حسن.. هذا جيّد.. جيّد أنّنا وجدناها.

- سأكون أكثر انتباهاً أستاذ دانيال، أعدك.. لن تضيع منّي مرّة أخرى.

- لا بأس جانيت.. عودي إلى عملك.

ابتعدت خطوات السّكرتيرة حتّى اختفت داخل مكتبها، بينما تسمّر

مكانه في شروء، ثم زفر بقوة. كان ينبغي أن يكون أكثر ارتياحا الآن وقد عادت الحافظة. لكنّه ليس كذلك.

دام الاجتماع قرابة السّاعتين، وشغل موضوع الانتخابات الحيّز الأكبر منه. لم يكن مسموحا له بالكثير من الحرّية في انتقاء مفرداته وخططه المعلنة ضمن البرنامج الانتخابي. سيكون عليه التقيّد بالبندود التي يحدّدها المكتب، لأنّ المصلحة العامّة للمكتب تبقى الأولويّة الكبرى. من الممنوع التحيّر في المواضيع الشّائكة، عليه أن يبقى فضفاضا وغامضا ما أمكنه ذلك. فليركّز على الثوابت التي تدغدغ الحواسّ وتضمن الأمان. إن لم يعجبه سؤال المحاورّة التلفزيّة، يمكنه أن يلقي نكتة أو يتظاهر بالتّعقيب على نقطة سابقة. من أجل ذلك، عليه أن يعدّ سلّة من الإجابات الجاهزة والمراوغة التي يمكنه أن يستظهر بإحداها وقت الحاجة. أمّا الخطاب، فينبغي أن تعرض النّسخة المبدئية منه على الشّركاء ليضعوا التعديلات والتنقيحات المناسبة.

حين غادر المكتب، تفقّد هاتفه. لم يكن قد وصله أيّ تسجيل صوتيّ آخر. من الطبيعي أن تصاب أمّه ببعض الوهن بعد ساعات قصّتها في الترجمة. فكّر أنّ بإمكانه زيارتها وإمضاء جزء من السّهرة معها. هل هو فضول لمعرفة المزيد عن أبيه، أم ضيق من تساؤلات سيلين التي لن يجد ردّا عليها في الوقت الحالي؟

سجّل رسالة صوتية لأمّه «أنا قادم»، وأخرى لسيلين «سأمرّ على أمّي. لا تنتظريني على العشاء». فكّر أنّ عليه إرسال رسالة اعتذار أخرى، لتلك الفتاة التي اتّهمها بالسّرقة. لكنّ مزاجه لم يكن مناسباً. سيؤجّل النّظر في الأمر إلى الغد.

طوال سنواتي الاثنتين والثلاثين، كانت حياتي عادية جدا. بعد تحصيل روتيني على مقاعد المدارس الابتدائية والثانوية، حظيت بمجموع متوسط مكّني من الالتحاق بقسم اللغة العربيّة. كان من الطبيعي أن أنتقل بعد الجامعة من مقاعد الدراسة إلى مقاعد المقاهي. فقد كان عدد مدرّسي اللغة العربيّة يفيض عن الحاجة. كان كل شيء باردا وخاليا من الإثارة حتى تلك اللحظة التي قرّرت فيها التمرّد على مساري المحبط وصنع شيء خارق يحرّري من جحيم الفراغ. منذ وضعت قدمي اليمنى في القارب الخشب المتراقص على الشاطئ في ليلة خريفية غاب قمرها، أصبحت حياتي تتابعا مرتجلا لحالات استثنائية. خضت المغامرة تلو الأخرى وعرضت حياتي للخطر أكثر من مرّة. اقتربت من حدود الموت غرقا، جعلت نفسي طريد العدالة، وكدت أنحدر إلى عالم الجريمة. وجدّتي مرارا أتمنّى لو عدت إلى حياتي الرتيبة الخالية من الإثارة. خفت أن أموت وحيدا وشريدا في ركن منسيّ.

خفت أن أكون قد قايت حياتي العادية باللاشيء!

استمرّت إقامتي عند عمر أكثر من أسبوع، لم أحاول خلاله أن أفكر في حلّ بديل أو أن أناقش الوضع مع مضيّفي. كان التدبير القائم قد راقني. يا للعجب، أن يكون أقصى طموحي في تلك الفترة سقفا يؤويني وطعاما يشبعني! ألم أكن أحظى بذلك وأنا آمن مطمئن إلى جوار أمّي؟ لكن إغراء الجنّة الأوروبية الوهميّة كان ما يزال يدغدغني، ونفسي تحدّثني بأني أحتاج قسطا من الرّاحة بعد مغامرة التشرّد، قبل استئناف غزوتي!

كان لذلك الوضع أن يستمرّ - ما لم يطردني عمر- لولا الأحداث غير المتوقعة التي تلت. في تلك الأمسية الدافئة وأنا أمدّ ساقيّ فوق الطاولة

المنخفضة وأسترخي على الأريكة المريحة، كنت أفكر للمرة الأولى منذ مغادرتي عنابة في الحديث الطويل الذي سأقصّه على رفاقي حين أعود إلى الوطن. حين شعرت بالأمان أخيراً، أصبحت عذابات الأيام الماضية مادة غنيّة لأقاصيص مثيرة قد أحكيها وأنا أقف عند ناصية الشارع أو أترجّع في شرفة المقهى، محاطاً بجمهور من الشباب المحروم المتعطّش للمغامرة. وحدهم العائدون يمكنهم فعل ذلك. وقد بدأ أمل يحدوني منذ أيّام قليلة بأنني لن أكون في عداد المفقودين.. في عرض البحر أو في أعماق المجاري الموحلة.

في تلك الليلة، لم يعد يمرّ إلى الشقة في الوقت المعتاد. لم أكن قد عرفته إلا منذ وقت قصير، لكنني قلقت بشأنه وشغلني التفكير في سبب تأخره. لم يكن من النوع الذي يسهر في الحانات أو العلب الليلية. لعلّه كان على موعد للسهر ونسي أن يخبرني؟

في حوالي الساعة التاسعة، أحسست برجة أرضيّة خفيفة تزامنت مع انفجار مفرع. لوهلة، ظننته نوعاً من الألعاب النارية.. لكن الشرر المتطاير الذي أضاء سماء ليون كان يوحي بشيء مختلف. لم يدم اهتمامي بالأمر إلا بضع دقائق، فلم أكن ألمح شيئاً من نافذة الشقة، والنيران التي ظهرت اختفت بعد لحظات ليعود الظلام الدّامس بالخارج. ما حدث -مهما كان- كان بعيداً عن موقعي.

سيمرّ عليّ يومان وحيدا في الشّقة من دون أن يظهر صاحبها.

قضيت الوقت ممدّداً على الأريكة في ملل. كنت قد استوفيت كل الأنشطة الممكنة في فضاء الشّقة الضيّق. أعدّ الوجبات، أنظّف المطبخ وأكنس أرضيّة الغرفة، أمسح الغبار عن قطع الأثاث القليلة، ثم أجلس بقية النهار أشاهد برامج تلفزيونيّة سمجة. من حسن حظي أنّ عمر ترك ما يكفي من المؤونة في الثلاجة وعلى رفوف المطبخ، لذلك لم أحتج إلى مغادرة الشقة. كل شيء كان متوافراً. لم أكن أشكو من شيء. لكنّ قلقي

من غياب صاحب الشقة غير المبرّر كان يتنامى. بالتأكيد هناك خطب ما.
وفي اليوم الثالث، تعالت فجأة دقات قوية على باب الشقة جعلتني
أنتفض واقفا.

- عمر، هل هذا أنت؟

أُطلّ بحذر من العين السّحرية فألمح رجلين متجهّمين يقفان في صلابة
عزّزتها البرّات الرّسميّة. جاء صوت أحدهما وهو يصرخ مرافقا الدّقات
العنيفة:

- افتح... نحن من الشرطة.

تراجعت إلى الخلف في فزع كأنّما أصابني مسّ كهربائي. يا للهول، الشرطة!
كيف علموا بأمرى؟ مستحيل، لا يمكن أن يكون عمر قد أبلغ عني. ماذا
عن تلك العجوز التي حاولت خطف حقيبة يدها؟ لا يمكن أن تعرف مكان
الشقة. كلّ ما فكرت به هو أنّهم قدموا من أجل القبض عليّ. ابتعدت
عن الباب على أطراف أصابعي وأنا أفكر بسرعة واضطراب. كأنّ إخفاء
وقع خطواتي سيرجع الزّمن إلى الوراء ويسحب ندائي إلى أعماق حلقي!
تلفتُ حولي في توتر، ثم توجهت مسيرًا إلى النافذة. فتحتها على مصراعيها
وأطللت برأسي نحو الأسفل. كانت الشقة واقعة في الطابق الثاني، على
ارتفاع ستة أو سبعة أمتار عن الأرض. لم تكن هناك حراسة على المدخل
الخلفي. لم أكن قد حسمت أمري بعد حين ارتفع صوت رجال الشرطة
من جديد.

- إن لم تفتح سنكسر الباب..

قلبي يقفز خلف جدار صدري في ضربات موجعة. يملأ صدى نبضاته
أذنيّ فأنعزل عن بقيّة الأصوات في قوقعة مغلقة عمادها الأفكار. جنون
ما فكّرت به في تلك اللحظة. وهل سيغيّر جنون إضافيّ من حقيقة كلّ
الجنون الذي خضته في رحلتي منذ عناية؟ التقطتُ حقيبة ظهر كانت
لعمر. نفضت ما في جوفها من أوراق بحركة عشوائيّة، وركضت في هستيريا

نحو المطبخ. فتحت الثلاجة وأخذت في إفراغ محتوياتها في الحقيبة من دون تمييز. خضراوات طازجة وفواكه، طعام معلّب، عصائر ومشروبات غازية. أيّ شيء سيفي بالغرض، حتى لا أموت جوعا في الأيام المقبلة. في الأثناء كانت الضربات تتابع على الباب محاولة تحطيمه. تحركت وأنا ألّهت. أخذت سترة إضافية لعمر وزوجا من الأحذية ثم عدت إلى النافذة. تسلّقت الحاجز بصعوبة لأجلس على الإفريز المطل على الشارع وحملتي بين يديّ. ألقيت نظرة مستطلعة نحو الأسفل. يجب أن أقفز. يجب أن أقفز.

فجأة ظهرت أمامي.. كارمن!

رأيتها تقف عند المنعطف، وتشير إليّ بكفّها أن: اقفز! هل كنت في حاجة إلى تحريضها؟ في تلك اللحظة، سمعت نكّة معدنيّة تؤذن بانكسار القفل. التفتُّ لألمح ذراع رجل تظهر من الفرجة وتعالج القفل لتنتهي فتح الباب. لم يعد أمامي خيار. قفزت.

مع اندفاع رجال الشرطة داخل الشقة، كنت أعرج مبتعدا عن المبنى بكلّ السّعة التي تتيحها قدمي المصابة على إثر الهبوط الكارثي.

حين وصلت إلى مأمن، تذكرت كارمن. هل كانت أسفل البناية حقا؟ هل أشارت إليّ بكفّها تحرّضني على القفز، أم أنّني تخيلتها؟ تلك الصغيرة، لشدّ ما فكرت بأمرها منذ منّ الله عليّ بقاء عمر. كنت قد اتخذت قرارا بأن آخذها تحت جناحي وأحميها حين تفرج الأمور. بأيّ صفة؟ لم أعاين المسألة ولم أكثرث. إن وافقت على مرافقتي، فسأعتبرها ابنتي، أختي الصغرى، أيّ شيء. لكنني لن أترك صبيّة يتيمة في براءتها تواصل

التشرّد إلى الأبد. كأنني أسدّد دين عمر بتلك الطريقة.

ذلك المساء، سرت بلا هواده، أجزّ رجلي المصابة وأفتش عن زقاقى القديم، بلا جدوى! لم أعد أدري في أيّ قسم من المدينة هو. كنت قد ركبت المترو مع عمر وانتقلت إلى حيّ جديد، فما عاد بإمكانى أن أرجع على عقبي! ضاع كلّ شيء. الشقة والزقاق. فما أفعل من دونهما؟ بعد انسحاب الأدرينالين وعودته إلى مستواه الطبيعي، بانقضاء الإثارة وركوني إلى إحساس مؤقت بالأمان، اشتعلت قطعة من العذاب على مستوى كاحلي الأيمن. كنت متأكّدا من حصول كسر أو تمزّق ما.

انهرت داخل زقاق منعزل، وغلبتني الحمّى. سأغيب عن الوعي ليومين، لا أكاد أميّز شيئا من حولى. أفتح عينيّ على رؤية ضبابيّة لكارمن، ثمّ أنغمس في هلاوسي. حتّى انحسرت الحمّى أخيرا. حين انقشعت الغيوم وفتحت عينيّ بثبات لا لبس فيه، رأيت أوّل ما رأيت ابتسامة كارمن الوضّاءة التي عهدتها والفرحة في عينيها. حكّت لي برسمها وإشاراتها كيف لازمتني في غيبوبي، تكمّد جيني وتسقيني الماء. كنت مدينا لها بحياة جديدة كُتبت لي. هي، مجرّد طفلة في العاشرة، تعلّمت في سنة تشرّدها ما يعادل عمرا كاملا لأمثالي.

أخرجت ما في حوزتي من طعام من حقيبة عمر، وتقاسمت معها قطع الفاكهة. التهمت حصّتي على عجل لأطفئ جوع معدة لم تستقبل طعاما منذ يومين، ثمّ قصصت عليها ما جدّ بشأني. سألتها في حذر عن القرصان وعصابته. اكفهرّ وجهها وأظلمت قسماتها وهي تشيح بنظراتها. شرحت لي بصعوبة وضيق أنّها قد تركت العصابة! كانت قد اقتفت أثري والدكتور عمر يوم الحادثة. كانت تتسوّل عند مدخل النفق كعادتها ذلك اليوم، لكنني لم أنتبه لوجودها لاضطرابي وقد وقعت متلبّسا. سارت وراءنا في حذر، إلى المطعم والمسجد وحتى الشقة! عجبت لاهتمامها، فسألت في شك:

- هل طلب منك القرصان ذلك؟

هزت رأسها بقوة لتنفي شكوكي. رسمت قاطعا ومقطوعا على الأرض في غضب. لم تعد لها علاقة بالقرصان. عجبت للأمر وحاولت الاستفسار منها، لكنها احتفظت بأسبابها في إصرار غريب، كأنَّ سرًّا ما في الأمر تحاول حمايته باستماتة. سلّمت بالأمر ولم ألحّ، لكنني أيقنت بأنَّ العودة إلى العصابة الآن لم تعد ممكنة.

حياتنا في الأيام التالية اعتمدت على ما يلقيه إلينا المازّة من قطع نقدية، وعلى مخزون المعلّبات الذي أخذته من شقة عمر. استمررنا نفترش الأرض في المساء، ونتقاسم مع مشرّدين آخرين مدخل النفق. نطرد منه على الساعة الواحدة والنصف، حين تغلق المحطة في وجه المسافرين، ونتسلّل إليه كالكلاب الضالة ملتمسين الدّفء، حين تفتح البوابات المعدن على مصراعيها مع الساعة الخامسة، لاستقبال يوم جديد.

وفي إحدى الليالي، بعد أن طردنا من محطة المترو تسكّعت وكارمن عبر الشوارع الهادئة. كنت قد ربطت كاحلي بإحكام بخرقه سميقة لأتحمل مسافات السّير التي كثيرا ما نضطرّ إليها دفعا للتجمّد بردا. كانت السّاعة قد تجاوزت الثانية صباحا، حين خطر لي الأمر. لم تكن خطوة طائشة. ولا مدروسة. كانت محاولة بائسة تحت وطأة اليأس والمرارة. عبرنا أمام بناية ذات سور قليل الارتفاع. كان من الممكن أن ألمح النوافذ الخشب القديمة للطابق الأرضي خلف الباب المعدن للسّور. وصلنا إلى نهاية الشارع، ثمّ أشرت إلى كارمن بالعودة أدراجنا. مررت هذه المرّة متمهّلا، أقيّم دفاعات الشبايك ودرجة مقاومتها لمحاولة خلع ما. نظرت إلى عيني كارمن، أستشيرها في صمت. كانت هادئة، وعيناها الصافيتان الناعستان تحثّانني على المبادرة. نظرة حذرة إلى الجوار الخالي، ثمّ قفزة واسعة لأتسوّر الجدار وأصبح من الناحية الأخرى، صاحبها ألم مميت في قدمي. لكنّ الجائزة كانت تستحقّ. كان الأمر أيسر ممّا توقعت. هزّتان يتيّمتان

من ذراعي الصلبة، وانهارت نافذة المطبخ في قبضتي. التفتُ صوب كارمن التي التصقت بثقوب الباب المعدن ترقبني وطلبت انتظارها ريثما ألقى نظرة على داخل الشقة.

تجولت على أطراف أصابعي بين الغرف الثلاث، المطبخ والحمام. لم يكن هناك أحد. عدت أدراجي إلى النافذة، ورفعت إبهامي علامة النجاح، فلحقت بي كارمن في لحظات. خلال دقائق، كنّا نتربّع على الأريكة العريضة يتدثر كلٌّ منّا بغطاء سميك، والمدفأة الكهربائية تبثنا موجات دفء غامرة، ونغرق في ضحك هستيريّ. خلال أسبوعين تلياً، ستكون تلك الشقة الخالية مأواي وكارمن، نلوذ بها حين يهبط الليل وتسكن المدينة. نتسلّل إلى مخبئنا الهادئ من دون جلبه، فأتحامل ما استطعت على ألمي الممضّ إبان اعتلاء السور، ونركن إلى زاويتنا المريحة في غرفة المعيشة. لم نجرؤ على فتح الخزانات أو تفتيش الأغراض. لم تكن السرقة هدفاً في ذاته، بل المأوى. نحضر معنا من الشارع قوتنا ثم نغسل عنّا تراب الأرزقة، ونأوي إلى نوم هادئ تهدده الأحلام الناعمة. نستمتع بإحساس النظافة المنعش والفراش الوثير، ثمّ ننزع أنفسنا قسراً خارجاً قبل أن تدبّ الحياة في الشارع. ما عدا تلك المرّات التي نوّفر فيها مؤونة كافية لأيّام عدّة، فقد كان علينا طلب الرزق بالأساليب المعتادة في مداخل أنفاق المترو. ولم نكن لنغامر بأن يلمحنا بعض الجيران ونحن ندخل أو نخرج في وضوح النهار.

وفي إحدى الصّباحات التي آثرنا فيها إطالة متعة الاستغراق في المرح، تعالت طرقات على باب الدار. كان ضجيجنا قد أثار انتباه الجيران. تحرّكنا في هلع نحو شبّاك المطبخ الذي تسلّلنا منه دائماً، وخلال ثوانٍ كنّا نعبر الحاجز ونلهث مبتعدين. وسرعان ما ابتلعنا زحمة الشارع اليقظ، ورجعنا نهيم في الشوارع مثل الأيام السّالفة.

جَدَّك رحمه الله خاض غمار الحرب العالمية الثانية وهو فتى غرَّ لم يتجاوز الثامنة عشرة. تطوَّع اختياراً علَّه يعثر على ذاته في خضم المعركة. مع أنَّ الحرب ليست خيراً مطلقاً، فإنَّها لم تكن شرّاً مطلقاً أيضاً.. أو هكذا تبدو غالب الأمر للمتصر. جَدَّك عاش تجربة الحرب بطيش الشباب ونزقه، كأنَّه لا يبالى بحياته من موته. مضى بقدميه إلى الهلاك ورجع سالماً. لم تقتله جيوش الحلفاء أو المحور.. لكنَّه قضى على أيدي أبناء بلده والحسرة في قلبه.

كان أبيض البشرة، أزرق العينين، مشرباً بحمرة ونضارة تجعل الناظر يتوه في أصله وانتمائه. وقد استغلَّ مظهره الحسن أيَّما استغلال في تلك الظروف الحالكة. كانت وجبات الطعام التي تقدِّم إلى المتطوِّعين والمهجَّرين العرب والأفارقة كريهة غير مستساغة. يملؤون بها البطون كرهاً كما تملأ الأكياس بقطع الحجر، حتى لا يغشى عليهم من الجوع. وكان جَدَّك يتسلَّل خلسة إلى طابور المقاتلين الأوروبيين، حيث الوجبات الدسمة الشهية. يندسُّ بين الأوكرانيين والصرب والكرواتيين، فلا يميِّز من بينهم. يلتهم أكلة ساخنة تسيل اللعاب، بينما يرقبه الجزائريُّون والمغاربة والتونسيون والسنغاليُّون بأعين الحسد، وصل بها الحدُّ إلى الحقد. فقد سعى بعضهم إلى الوشاية به إلى قائد فرقة المشاة.

وصل القائد على حين غرَّة في فترة توزيع الطعام، سار بين الصُّفوف مفتشاً والشرر يتطاير من عينيه، وما لبث أن عثر على جَدَّك. أمسك بتلابيبه وجرَّه أمام نظرات الجنود المدهوشة. أرداه أرضاً وسحق وجهه بحذائه العسكريِّ الغليظ، ثمَّ استلَّ مديّة حادَّة وغرسها بكلِّ قوَّته في ساق جَدَّك الملقى من دون مقاومة، ثمَّ خلخل النصل بعنف ليتسع

الجرح قدر الإمكان، قبل أن يسَلَّ المديّة. مسح الدّم العالق بها في سترة جدّك ببرود، ثم أعادها إلى غمده وصاح في شماته:

- هذا سيكون عقاب كلّ من تسوّل له نفسه السّخرية من أسياده.

يحكي جدّك أنّه وقف من مكانه من دون مساعدة، ومشى يجرّ ساقه من دون أن يطلق صرخة ألم واحدة، والدّماء التي ملأت الحذاء العسكريّ ذا السّاق العالية تبقبق مع كلّ حركة. فحّتى تلك الإصابة العميقة في العظم التي تسبّبت في عرجه الدائم لم يكن سببها الحرب في حدّ ذاتها، إنّما دسيّة مؤذية من أبناء جلدته.. وقد كنت رغم ذلك أبحث عن الإحسان في أبناء وطني، وأفترض الخير في من يحمل ماضيا يشبه مستقبلي.

وهكذا، ورثت عرج أبي، كما ورثت جينات المغامرة!

لوقت غير قصير، حسبت نفسي منسيّا من رحمة الله. الرّزق يوزّع على البشر، ولا أنال نصيبي منه. كأنّي ما عدت آدميّا.. حتّى الطيور والسّباع والشّوارد من الدّواب رزقها على الله.. تغدو خماسا وتروح بطانا! وأنا أفترش الأرض وألتحف السّماء، وقد نسيتني الأرض ومن عليها. لم يكن بي سخط أو تمرّد، بل مرارة لا حدود لها، ويأس ألصقني بالأرض ونكّس رأسي حتّى ما عدت أرفع عينيّ إلى وجوه المازّة. غمرني قنوط مميت، أذهب كلّ الطمأنينة المؤقتة التي عرفتتها في شقة عمر.

لم أفكّر مطلقا في تلك الفترة أن أقصد بيتا من بيوت الله، فقد رأيت بعينيّ كيف ردّ الشيخ طلب عمر! ولم أشأ أن أجرب حظي في مسجد آخر.. كأنّي قد قنعت بكوني منبوذا، مطرودا.. منسيّا من رحمة الله والبشر. ولم أرفع يديّ بالدّعاء مرّة واحدة! كما أنّي بعد أن عاهدت نفسي على عدم ترك الصّلاة لم أسجد لله سجدة واحدة في مرحلة التشرّد

الجديدة. مسوَّغات كثيرة كانت تبرّر جحودي.. الماء، لم أكن أعثر على الكثير منه.. وما يتوافر، جوفي أولى به! والنافورات العموميّة، ما أدراني بطهارة مائها؟ أمّا التيمّم، فلم أكن أعلم كيف يبدأ وكيف ينتهي! وأين أجد الصّعيد الطيّب، والكلاب تلفظ فضلاتها على قارعة الطّريق؟ أرايت كم كنت متشدّدا في التنقيب عن الأعذار! وهب أنّي بعد جهد متكرّر خمس مرّات في اليوم، تطهّرت.. فأين أصليّ؟ وكيف سيكون شكلي في ثيابي المهلهلة تلك، وأنا أقف في الشّارع أركع وأسجد؟ طبعا هناك نوعان من المبرّرات كلاهما وجيه، أولهما شخصي.. إعلاني انتمائي الدّيني في بلاد تعلي من شأن اللائكيّة سيقلّص حظوظي في الحصول على لقمة تسدّ رمقي.. وثانيهما جمعيّ يبلغ مصلحة الأُمَّة! لم أكن «السفير» المناسب للتعريف بالإسلام.. كنت لأسبّب حرجا للمسلمين قاطبة إذا رأي الشعب الفرنسي أصليّ! مشهد مشرّد يسجد في الطّريق العامّة هو أفضل دعاية للإسلاموفوبيا!

إلى أن واثت تلك اللحظة التي رفعت فيها رأسي إلى السماء بعد طول تنكيس، وقلت بشكل لاشعوريّ: يا ربّ! وتركت صدري ينفس عن آهة عصيّة أثقلته.

يقول تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، ومع أنّي ذكرت الله بلسان غافل لا يفقه ما يقول، فقد أراني في التّوّ واللحظة عجائب قدرته. أرسل إليّ فرجا لم أكن أرجوه. لكنّه كان نبذة محتشمة، لمحة خفيفة.. ترضية واعدة بالكثير، إن أنا رطّبت لساني بذكر الله وعرفت طريقه.. لكن أنّي لقلبي اللاهي أن يدرك الرّسالة!

ما أن خفّضت بصري حتّى وجدته يقف على مقربة منّي، كأنّه جنديّ من جند الله، يترقّب تلك الهمسة السّاهية من شفّتي ليمدّ كفّه باتجاهي، بأمر من الله وحده. لقيته عند محطة المترو، حيث أترّيع بلا حول ولا قوّة معظم الوقت. لم يكن شكلي مغناطيسا جاذبا للصّدقات أو التعاطف، لكنّ الرّجل انحنى عليّ فجأة وقال بعربيّة واضحة:

- يا أخي، ما الذي تفعله هنا؟

لعلّنه لمحني بشكل متكرّر، في تلك البقعة، مطأطئ الرأس مخذول الحواس، فدنا منّي بعد طول مراقبة. قال من دون اندفاع، بلهجة من سبق له دراسة الاقتراح بترؤ:

- تعال معي.

سرت وراءه بلا تفكير، فاقد الإرادة.. كأنني غدوت أسير كلّ من يمدّ إليّ كفّ الإحسان. حين ابتعدت مسافة كافية لأستفيق من غيبوبة الأمل، تذكرتها. كارمن! لقد تركتها مرّة أخرى وحيدة في الشارع. توقّفت، واستدرت إلى الخلف. أخذت أتلفّت في اضطراب، لعلّي ألمحها، والرجل يستحثني في عجب.

- هل أضعت شيئاً؟

- انتظر.

قلت، وأنا أعرج في الاتجاه المعاكس. قطعت عشرة أمتار، ثمّ التفتُ إلى الرجل الذي وقف يضرب كفّاً بكفّ متحيّراً. رأيته يواصل سيره، وقد زهد في أمري، فركضت في اتجاهه.

- رويدك، لا تذهب!

كان يجب أن أتبعه. الفرص لا تأتي مرّتين. إن تجاهلتها مرّة فلن تمكث مكانها تنتظر منك الرضا. لكن كارمن، كيف لي أن أرحل من دونها؟ علّلت نفسي بأنني أعرف مكانها. يمكنني أن أرجع من أجلها. ستكون في مدخل النفق، مثل عاداتها. سأجدها. بقناعة مهزوزة وضمير مكّم، تبعت جابر، المحسن الجديد. سأستوثق من الأمر ثم أعود.

لم يكن جابر دكتوراً مثل عمر، ولا موظفاً مستقراً، بل بناءً بأجر يوميّ، يكدح اثنتي عشرة ساعة في اليوم، حين يجد مُشغّلاً! جزائريّ مثلي، كهل قد اقترب من الخمسين، تقرّحت كفّاه من سنوات الكفاح المضنية. أفنى عمره في تشييد بيوت لن يسكنها ورفع أسوار سيُمنع من اجتيازها.

تبعته إلى القبو المظلم الذي يتخذه مأوى مع نفر من العمّال الأجانب. تونسيّون ومغاربة وجزائريّون أيضا. غرفة صغيرة مساحتها تسعة أمتار مربّعة، يتقاسمها ستة رجال، أنا سابعهم! قبر رطب تكتسحه الظلمة، ربّما كانت زنازين السّجون الفرنسيّة أوفر منه راحة. بالكاد يتّسع فضاؤه ليفرد الرّجل منا طوله ويتمدّد على بعد شبر من جاره الأقرب، حتى يستوعب الجزء الآخر من الغرفة الأمتعة القليلة التي تتراصّ في غير نظام، وتختلط مع أدوات صنع الشاي وأطباق الأكل المتسخة.

كانت ظروفًا مختلفة كل الاختلاف عن الإقامة في شقة عمر.

وضّح لي جابر القانون الجاري العمل به. لن تكون الإقامة من باب الإحسان. إيجار القبو يكلف خمسمئة يورو، يتقاسمها الشباب باليورو والسنتيم! نصيبي في الإيجار والمصاريف اليومية سيكون دينا في رقبتى أسدّده حالما يتوافر مورد الرّزق. فهمت في ما بعد أن ساكنا سابقا قد ارتحل منذ أيّام، ما تسبّب في اختلال ميزانية كلّ منهم.. ودوري هو أن أعيد التّوازن! لم يكن في الأمر مجاملة أو مداهنة. هكذا هو الوضع، فلا داعي لتجميله.

كانت هناك مسألة إصابتي التي يجدر بي النّظر في أمرها قبل التفكير في إيجاد مورد رزق. عاين جابر قدمي المتورّمة ثمّ زمّ شفّتيه من دون تعليق، وفعل من بعده عزّوز وبركات وسمير وعبد الحفيظ وقاسم نفس الشيء. لم يكن التمريض من مهارات أحدهم. قال بركات بعد حين: - اقصد مركز الرّعاية.. لديهم طبيب يقدّم استشارات مجانيّة يوم الأربعاء!

ففعّلت.

كان مركز الرّعاية عبارة عن شقّة صغيرة في عمارة سكنيّة قديمة، يتقاطر عليها المتشرّدون يوميّا للحصول على وجبة ساخنة، ملابس شتويّة دافئة، وخدمات أخرى تخصّ النظافة الشخصيّة والرّعاية الصحيّة. لم يكن هناك

مكان للمبيت. على الساعة الثالثة ظهرا، ينفّض الزوّار وتغلق الشقة أمام روادها. كنت مرتبكا في زيارتي الأولى، وتساءلت، كيف لم أعرف بشأن هذا المركز منذ البداية؟ كان ليخفف عني قسطا من عذابات الأيام الماضية. فكّرت. يجدر بي إحضار كارمن إلى هنا. سيهتمّون بها، يسرّحون شعرها الذي استطالت خصلاته المشعثة، ويضعون لها أشرطة ملوّنة وأقراطا لامعة. ليتها تستردّ طفولتها الضائعة.

انتظرت في طابور طويل ليفحصني الطبيب. كانت عيادته المرتجلة طاولة صغيرة وكرسیّا خشبا في ركن مكتب المشرفة على المركز. ورغم الزحام، فقد حافظت المشرفة على النظام ووفرت لكلّ منّا قدرا من الخصوصية إبّان الفحص. كانت سيّدة ربّما في السّتينات من عمرها. سيّدة مجتمع كما ينبغي أن تكون، لا تفارق ابتسامة ودودة تعابير وجهها. لعلّها أفنت عمرها في وظيفة حكوميّة مرموقة وتقاعدت منذ سنوات قليلة، ثمّ اختارت ألا تقتل حيويّتها بخلود إلى الرّاحة، بل استمرّت تخدم المجتمع بتفانٍ، حتّى لو اقتضى الأمر أن تخالط أراذل النّاس الذين يستنكف غيرها مجرّد النّظر إليهم.

حين جاء دوري، جلست على استحياء، أرقب بعين الفضول والامتنان وجه الطبيب الشاب الذي اختار أن يقضي صباح استراحته الأسبوعيّة بين أتعس خلق الله، من دون مقابل. شرخ في العظم. هذا ما كان قد لحق بكاحلي إثر القفزة المتهوّرة. لفّ الطّبيب قدمي وكاحلي بضمادة مشبعة بالكحول، كحلّ مبدئيّ. وفي زيارة ثانية، أحضر المعدّات اللازمة لدعم العظم. راقبته بعين مبهورة وهو يحيط كاحلي بجبيرة بيضاء ناصعة، ثمّ مكّني من عصا بلاستيك أتوكّا عليها. خرجت من عنده وإحساس غريب منعش يملؤني، مثل طفل صغير تدهشه القطعة الجديدة التي ألحقت بجسده فتنسيه ألم الإصابة وأذاها.

بعد شهر واحد من الراحة القسريّة، بدأ مشوار البحث عن عمل. كان كاحلي قد تعافى في الأثناء، وتخلّصت من الجبيرة. وفي تلك الفترة، اعتمدت على مركز الرّعاية بشكلٍ كلّّيٍّ، حتى لا أكون عالة على رفاق السّكن. تبخّر الحياء والارتباك، وأصبحت من رواد المركز المعروفين. كنت أدخل من دون استئذان، وألقي التحيّة على موظّفة الاستقبال. صرت أعرف مسبقاً من ستكون وراء المكتب في كلّ يوم. بيريت أو كلودين أو كريستين. كلّهنّ من السيّدات المسنّات المتطوّعات. كنّ يسمحن لي من حين إلى آخر باستخدام الهاتف، للاطمئنان على أمّي، ومكتبة الروايات والأقراص المضغوطة تحت يدي في كلّ حين. أمضي ساعات في القراءة والمشاهدة، حتّى يحين موعد الغداء، فأنضمّ إلى مائدة «عائلة المركز»، ثمّ أنسحب قبيل إغلاق الأبواب لأقضي ساعات أخرى من الفراغ حتى إياب العملة من ورشاتهم.

ولم يمض يوم لم أفكّر فيه بكارمن. أتمنّى أن أصادفها على قارعة الطّريق فأبشرها بما جدّ وأخذ بيدها إلى مركز الرّعاية. لكنّها كانت قد اختفت. لعلّها كانت تجدّ في البحث عنيّ هي الأخرى. لعلّها ابتعدت عن موقعنا السّالف حتّى تاهت عنه؟ أو لعلّها عادت إلى عصابة القرصان بعد أن يئست من العثور عليّ؟ أو لعلّها حسبتني تخلّيت عنها ومضيت فمضت في حال سبيلها؟ ألمني التفكير في كلّ الاحتمالات الممكنة. لكنني لم أياس. كانت قد غدت بالنّسبة إليّ أكثر من طفلة يتيمة صادف تشرّدي تشرّدها، بل رفيقة كفاح من نوع مختلف. صديقة يُعتمد عليها. وكان جزء منّي يؤمن بأنّ قصّتي معها لن تنتهي عند ذلك الحدّ. كان يجب أن أجدها.. يوماً ما.

مثل كلّ جירاني في السّكن، بدا من البديهيّ أن أبحث عن وظيفة في ورشة بناء. فتلّك المهنة الوحيدة التي يمكنهم تقديم النصح والمشورة بشأنها. لأسابيع تلت، استمرّيت في الخروج كلّ صباح مع زمرة العمّال لنحتلّ السّاحة الخلفيّة لأكبر محلّ يبيع مواد البناء في المنطقة. مع

بعض جيرانى أولاً، ثمّ منفرداً. هناك، ومنذ ساعات الصّباح الأولى، يحتشد رجال بيض وملوّنو البشرة، رؤوسهم محشورة في قلنسوات صوف وشالات خشنة تحجب أنصاف وجوههم، في حين تكشف القمصان مثنية الأكمام عن أذرع نافرة العروق مفتولة العضلات، غطّت مساحات بعضها وشوم خضراء مبهمّة. كأنّ الرّجل منهم يقول في صمت: لا تنظر إلى شكلي ولوني، بل عاين قوّة ساعدي وما أنا قادر على إنجازه من عمل!

يقول لي جابر في مرارة:

- ولّى زمن اليد العاملة المتطلّبة. لم يعد ربّ العمل يجوب الشّوارع يتصيّد العمّال.. الآن، يتقرّب العامل من صاحب العمل، يتمسّح به ويكاد يستجديه، من أجل عمل قد يدوم أيّاماً قليلة.. ثمّ يرجع ليقف في السّاحة ويستجدي عملاً آخر.

جيل أبي وعمّي عرف معاملة مختلفة، ولعل جابر وصل متأخراً عن العصر الذهبيّ لليد العاملة. في وقت ما من منتصف القرن الماضي، كانت الشّركات الكبرى ترسل مندوبيها إلى المستعمرات لاستيراد اليد العاملة البخسة. يوقع الواحد منهم عقد الخدمة في وطنه - المحتلّ - ويسافر على جناح الرّاحة حيث عمل جديد ينتظره. لكنّ اليد العاملة اليوم تسعى على رجليها، تعبر البحار، وتراوغ السلطات، وتقف في القرّ والحرّ تتوسّل عملاً.

كل بضعة أيّام، يظهر ديميتري، كهل روسيّ مكتنز، في بداية الأربعينيات من عمره، كتّ اللحية والشاربين أشقرهما، فكّاه عريضان صارمان، تفوق وشومه المرعبة - كخلقته - في امتدادها ودقتها كلّ الوشوم التي سبق أن رأيته في حياتي! عرفت من الرّفاق أنّه جنديّ سابق في الجيش الرّوسيّ، نجا بأعجوبة بعد أن أصيب بطلقة في صدره، في حرب الشيشان الأخيرة. حين وصل إلى فرنسا منذ خمس سنوات، بدأ مشواره أسفل السّلم كعامل بسيط. استأجر عربة نوم متنقلة من بعض الغجر لقاء ثلاثمئة يورو في

الشهر واتخذها مسكنا، وتمرّس على المهنة تحت رعاية معلّم إيطالي.
يوقف شاحنته عند المدخل ويتهادى في مشيته متفحّصا الوجوه القديمة
والجديدة، فأتمّله في خيالي سفاحا يبطش بكارمن الصغيرة. من دون وعي
مّني، تنفر من عينيّ نزعة عدايّة لا أملك احتجازها داخلي، فأشبح برأسي
عنه كأني لا أهتمّ بحضوره من عدمه!

لوقت طويل، ظلّ يمرّ بي غير عابئ، لا يلقي عليّ نظرة واحدة، كأنّنا
نتناصب عداً خفيّاً لا يعرف له أحدنا مسوّغا يذكر.. غير كوني عريّاً
بلا فائدة، وكونه روسيّاً وحشياً مسؤولاً عن مجازر لم أشهدها! رغم
أنّني لم أتعوّد العمل الشّاق أو أتمرّس على البناء والتحميل، فقد كنت
قويّ القبضة متين البنية. مثل سائر شباب جيلي، كنت قد دأبت لسنوات
خلت على تمارين الرّفْع والضغط التي كان من شأنها أن تصقل عضلات
عضدي وتبرز حسن تكوينها. كنّا نرّبّي العضلات كما تربّي الحيوانات
الأيّفة، وتباهى فيما بيننا بحجمها وارتفاعها عند الشّد. كنت أوفر صحة
وأكثر متانة من معظم الواقفين في السّاحة. لكنّ هيئتي لم تكن مقنعة.
تسدل على ذراعيّ أكمّام القميص الدّافئ متجنّباً لسعة البرد الصّبّاحي،
وتفضح نظرتي المرتبكة ثقة مضعضعة الأركان. لم أكن الرّجل الصّلب
الذي قد يتحمّل أيّ شيء من أجل لقمة العيش.

بعد أيّام، كان جابر ورفاقه قد انخرطوا في ورشات البناء، وصرت أسعى
وحيدا إلى ساحة التجنيد. حصلت المعجزة بعد أسبوعين، حين توقّف
ديمتري أمامي ونظراته تستوعبني وتعتصرني. أشار إليّ بكفّه فاقتربت.
انتحى بي جانبا وسألني بلهجة الخبير:

- للحصول على طبقة تغليف بسمك سنتيمتر واحد، ماذا تستعمل؟

- الخرسانة.. لا، الإسمنت!

- ولخلط كيس إسمنت يزن خمسة وثلاثين كيلوغراما، كم دلو رمل

تحتاج؟

- دلوان.. لا، ثلاثة؟

جاءت إجاباتي متلعثمة مرتجة. حدجني بنظرة سحقتني مكاني:

- ثمانية!

ثمّ خطا مبتعدا معلنا فشلي في اختبار التشغيل الأوّل. اقترب من كهل أوكرانيّ يظهر في السّاحة للمرّة الأولى، وأشار إليه أن يتبعه من دون أن يعرّضه لاختباري السّريع. خلال لحظات، كانت الشاحنة تبتعد مخلّفة إيّاي على القارعة، بينما ارتفع صوت كلوديو الرومانيّ يضحك منّي ملء شذقيه: «أنهيت البناء إذن؟».

كان ديمتري يعتبر أحد المشغّلين المعترين. لم تكن لديه ورشته الخاصّة، لكنّه مزودّ محترف، يتقّصّ احتياجات المقاولين ويتعهّد بتوفيرها. غالبا ما يتعامل مع ورشات مقاولات ضخمة تمتدّ لأسابيع أو شهور، ما يضمن دخلا مستقرّا لفترة طويلة، وهو ما يأمله كلّ عامل يقف في السّاحة. إذا حظيت برضا ديمتري، فقد وفّرت أيّاما وأسابيع من البطالة. لكنّه كروسيّ أصيل، يفضّل الأوكرانيين والرومانيين والمولدوفيين.. فإذا ما انعدم هؤلاء، كان البرتغاليون من يلونهم في الخطوة، ثمّ بلدان شمال إفريقيا، في حين يأتي مواطنو إفريقيا السّوداء في المراتب الأخيرة. وغالبا، كان لكلّ جنسيّة اختصاص تعرف به. فالأوروبيون يعملون في مواقع الإشراف، والمغاربة في البناء، بينما تعهد الأعمال الشاقة إلى الأفارقة.

لم يكن ديمتري المشغّل الوحيد. كان هناك أرباب العمل من الخواصّ، وهؤلاء لم تكن لديهم خبرة الرّوسي ولا اختبارات الخاطفة لتمييز الغرّ من المحنّك، ومتعهدو ورشات ذوو احتياجات مختلفة ومتنوّعة، لا تهمّهم كثيرا التّجربة والمهارات الحرفيّة.. لولاهم كنت بقيت في السّاحة بقيّة عمري بلا أمل في تحصيل عمل ما! في الأثناء، كانت ديوني لدى جابر ورفاقه تتضخّم، وما من سبيل لتسديدها من دون عمل.

خلال الشهر الذي شهد بحثي الحثيث عن مورد رزق، كنت ألمح رجال

الشرطة يحومون حول المكان باستمرار. كانت البزة الرّسميّة الزرقاء لا تزال تثير قشعريرة تنتصب من جرّائها كلّ شعرة تغطي جلدي. لكنّهم يغمضون أعينهم عنّا حين تكون عروض الشّغل متوافرة، فلا يعيقون أصحاب الورش الذين يرغبون في استخدامنا. حين تترك الشاحنات المواقف واحدة إثر الأخرى مع اقتراب منتصف النّهار، يصبح من الضروري أن ينفّض جمعنا حتّى لا نجبرهم على التّدخل. لم يقتربوا منّا إلا مرّتين. في المرّة الأولى، ظهرت سيّارة الشرطة عند مدخل المحلّ، ونزل منها ثلاثة رجال شرطة. على وقع تقدّمهم في السّاحة تراجعت مجموعتنا بخطى سريعة نحو البوابة الخلفيّة وانفرط عقدنا عبر المنعطفات القريبة. لم يطاردنا أحد. طاردتنا مخاوفنا وهواجسنا. بعد دقائق، كنّا نستعيد مراكزنا. بحذر في البداية، ثمّ بثقة متنامية. تتفخ الصّدر من جديد، وتندّر الألسن بلحظة الفرع السّابقة في خلوّ بال.

في المرّة الثّانية، كان كلوديو، السّاب الرّوماني أكثرنا شجاعة. أشار إلينا بغمزة من عينه أن اطمئنّوا، واقرب من رجل الأمن الذي توغّل عبر السّاحة حتّى كاد يصل إلينا. تابعنا بنظرات قلقة صديقنا كلوديو وهو يحاور الرّجل ولكنّه الشرقيّة:

- هل يمكننا البقاء هنا؟ نحن لا نفعل شيئاً سيّئاً. نبحث عمّن يستخدمنا لا غير..

ولم ينس في عرض الحديث أن يحدّد كونه «أوروبي» الجنسيّة. لكنّ الرّجل كان عدائيّاً بشكل غير متوقّع، كأنّما ينقّس عن ضيق المّر به بعد شجار مع زوجته أو تأنيب من رئيسه! فكّ قنبلة مسيلة للدموع من حزامه وأشهرها في اتجاهنا:

- لا يهمني ما تفعلونه.. انفضّوا وحسب!

تفرّقنا من دون تأخير، بينما وقع كلوديو المسكين في المصيدة. كبّله الشرطيّ بعد أن دفعه ناحية الجدار وأخضعه لتفتيش دقيق، ثمّ

اصطحبه إلى مركز الشرطة حيث ترك في زنزانه الحجز مدّة ساعة واحدة. حين ظهر في الغد في السّاحة، صافحه الرّفاق بحرارة تحيّة لشجاعته، بينما تعلّقت بشفتيه ابتسامة بلهاء.

حصلت معجزة أخرى، حقيقة هذه المرّة، حين وقع عليّ اختيار متعهد إسباني، كان يحتاج إلى عدد من العمّال للتحميل بشكل خاص، وفي هذه المهمّة لا اعتبار للخبرة والمهارة. وقف في السّاحة وألقى نظرة صارمة، ثمّ أشار بسبّابته أمرا: أنت وأنت وأنت.. تخيّر الشّباب الذين تبدو عليهم العافية، وكنت من بينهم. ارتجف خافقي في صدري، ولم أصدّق. مشيت مبهور الأنفاس وتسلّقت حاجز الشاحنة الخلفيّ لأحشر نفسي بين عمّال آخرين سبقوني إلى الصّندوق. لبثت أهتزّ في مكاني من الإثارة والحماسة وابتسامتي الواسعة البليدة تفضح خبلي في تلك اللحظة. بعد ثوان كنت قد أفقت من نشوتي وبدأت أهتم بالتفاصيل، فهمست مخاطبا جاري الأقرب:

- كم يدفعون لكم من الأجرة؟

- عشرون يورو في اليوم.. إضافة إلى وجبتين. العمل كامل أيام الأسبوع من السابعة صباحا حتى السابعة مساء.

ابتسمت في سرور، كأنّ صاحبي يزفّ لي أخبارا تدعو إلى البهجة. طعام نظيف يسدّ رمقي، وعمل كريم يمتصّ طاقتي وأوراق نقدية تملأ جيوبي.. وهل كنت أطمح إلى أكثر من هذا؟ لم أهتم إلى شروط العمل المجحفة ولا إلى الأجرة الزهيدة التي لا تتجاوز نصف الأجر الذي يدفعه ديميتري لعمّاله. تلك الشروط تمكن مستخدمي، المتعهد الإيطالي والمقاول الذي وُكّله، وصاحب المشروع، من تقليص المصاريف وتوفير كلفة اليد العاملة بما يفوق النصف. فليكن. لكنها تمكّني من العمل أخيرا.. ومن عيش يقترب من الكرامة. وهذا يكفي.

لم أكن أتقن شيئاً من أعمال البناء، لذلك اقتصررت مهمتي على التحميل والنقل من مكان إلى آخر. أستاذية العريّة تجلّت من دون فائدة تذكر في مغامرتي الفرنسيّة. لم يكن لديّ شكّ في ذلك منذ البداية، فأخّر ما قد يحتاج إليه الفرنسيّون هو تعلم العريّة! لكنّ المؤهلات المطلوبة في سوق الشغل كانت صادمة ومربكة.. ولعله كان من حسن حظي أن مررت من «مهارات النشل» إلى «مهارات البناء»، فهذه الأخيرة لم يكن هناك من حاجز نفسيّ يجعلني أستنكف تعلمها. بينما أنحني لألتقط كيس الإسمنت الثقيل وأرميه فوق كتفي ثمّ أتقدّم بجهد إلى داخل الورشة، أراقب من طرف خفيّ العمال المكلفين بغريلة الرّمل وخط الإسمنت وترصيف الآجر ليرتفع جداراً، أحاول استشفاف أسرار المهنة.. فإذا ما وجدتني أقف في ساحة التجنيد من جديد، انتقيت منها ما يسهل عليّ ممارسته ويخفف عن ظهري حمله القاصم!

غريب أمر تلك الحرف التي كنت أترفع على مزاولتها في بلدي وبين أهلي بأنفة، لأنّها لا تليق بشابّ جامعيّ مثلي، لكنني أتلهّف عليها وأتوق إلى إتقانها في بلاد الاغتراب كأنّها سترفعني إلى قدر أعلى! فهل بلغت من الانحطاط الدّرك الأسفل حتى غدت مهنة «عامل البناء» منتهى أملي؟ بين خبطة وخبطة من خبطات الزمن الذي يهوى صفعي في الفترة الأخيرة، أقف متدبّراً أمري.. هل كان اليأس أم الطمع أم الملل ما دفعني إلى التخلّي عن حياة الدّعة والاستقرار بين أهلي، لأخوض المهالك وروحي على كفيّ في بلد لا تعرفني ولا أعرفها؟ أم لعلّه الجهل، أصل كلّ داء، ما حدا بي إلى أن أستبدل بما هو دنيء ما هو أدنى؟

قبل طلوع الشمس أبدأ بإفراغ أكياس الإسمنت من الشاحنات، ثمّ أنقل الأعمدة الحديد وقطع الآجر الأحمر أو الحجارة البيضاء إلى أسفل البناية، أرصفها على الحاملات الخشب ثمّ أشدّ الحبال لأرفعها إلى الطوابق العليا، وفي أوقات أخرى أدفع العربات ذات العجلة الواحدة

المحمّلة بالرّمْل أو الحصى الصغير.. أستمِرّ على تلك الوتيرة كامل النّهار من دون انقطاع. فترة استراحتي الوحيدة كانت حين يدخل علينا مشرف الورشة صاحب الكرّش، ينادي الجميع بـ«مامادو» على اختلاف أصولهم، ويوزّع شطائر هزيلة نلتهمها في ثوان قليلة ثم يصرخ فينا ليعلن انتهاء القيلولة.

في المساء أعود أدراجي إلى القبو الكئيب، فأجد بعض الرّفاق قد سبقوني، ويتوافد الباقيون واحدا إثر الآخر.. فنتهالك على الفرش القديمة المتّسخة في استسلام. يكون تعب النهار قد أخذ كل طاقتنا فما عادت بنا قدرة على احتجاج أو تذمّر. في تلك الظروف، لم تكن الصداقات تنشأ بسهولة. رغم المشاركة في المحنة، وهو ما يصنع عادة نوعا من التآلف، لم ألمس اللحمة التي توقعتها بين المهاجرين. القانون السائد من دون منازع هو «كلّ لنفسه»، و«هاك نصيبك من العذاب»! الكلّ يتوق إلى رؤيتك تمرّ بعذاباته ومازقه، كأنّ بينك وبينه ثأرا قديما. أو كأنّ القادم الجديد سيفتك جزءا من حظوظ الآخرين في تحقيق «الحلم الفرنسي». من يقدر على التوسّع في مجال نوم جاره لن يتردّد، ومن تسنح له الفرصة لافتكاك لقمة إضافية فسيفعل أيضا. كان عالما بغیضا من التّنافس القذر، حيث تحاصرک النظرات المترصّدة وينضح العداء من أدنى الحركات. لم تكن هناك قوانين للعبة، ولم يكن هناك دستور يحمي المستضعفين. كنت أحتاج إلى القوّة والسطوة لأجد لي مكانا في ذلك الوسط، بين رجال جعلتهم الفاقة أكثر توحّشا وأقلّ رحمة. ولم يفتني أنّ حذائي الجديد وسترتي الجلد الدافئة يسيلان لعاب أكثر من واحد. لكنّ جابر وضعني تحت جناحه منذ اليوم الأول وأعلن أنّني تحت حمايته، ويعلم الله كم كنت أحتاج تلك الحماية، مع أنها لن تكون حماية مجانيّة! سأدفع له جزءا من أجرتي اليوميّة مقابل ضمانه لمكان نظيف ودافئ في القبو ولن أعرّض للسّرقة أو المضايقة، وهما أمران يتكرّران بشكل أكبر مع الوافدين الجدد، قبل أن يستقرّ بهم المقام.

هكذا كان الاتفاق.

جابر مثل أغلب العمّال كان مهاجرا بصفة غير شرعية. مضى على وصوله إلى فرنسا عشر سنوات كاملة. لم يرجع خلالها إلى الجزائر إلا مرتين اثنتين منذ أن حصل على الإقامة القانونية. كان متزوجا وله طفلان يبلغ أصغرهما الثانية عشرة من عمره. وكان يحتاج إلى العمل من دون هوادة ليواصل إعالة عائلته الصغيرة، أو هكذا يوهم نفسه. لم يكن يبقّي شيئا يذكر لحاجته الشخصية ويرسل كل ما يجنيه إلى أهله. يعلم أن زوجته تخونه. يعلم ذلك من دون يقين، لكنه يشعر به كما يشم القط رائحة اللحم النّيّ. ويعلم أن أولاده بالكاد يتعرّفون عليه. لكنه يتعلّق بذلك العمل البائس كأن لا حياة له من دونه. حين أنهى اعترافاته الكئيبة، أوصاني بصوت يقطر مرارة:

- لا تترك خلفك يوما امرأة ولا ولدا.. خذهم معك، أو مت إلى جوارهم!

فتذكرت كارمن، ابنتي التي تبنيتها شياعا، وتخلّيت عنها!

عرفت في ما بعد أن معظم الرجال من حولي هم أرباب عائلات. لم يكن وضع جابر شاذّا، بل يكاد يكون القاعدة. ومع ذلك فمعظمهم يرفض أن ترافقه عائلته إلى فرنسا حتّى بعد حصوله على الأوراق القانونية، لأنه لا يريد أن يغيّر نمط حياته باستئجار شقة مكلفة تؤويه وعائلته ويفضّل توفير المبلغ لمستقبل لا يدري إن كان سيتمّتع به يوما، أو لخوفه على زوجته وأولاده من فتنة بلاد الغرب وخشيته من تأثرهم بها وانبهارهم بترفها الذي لا تطاله يداها. القلّة القليلة ممّن استقرّوا مع عائلاتهم في مساكن نظيفة ومستقلة هم من ضحك القدر في وجوههم وحصلوا على عمل محترم، بعد أن خضعوا لتدريب في السبّاقة أو الحدادة..

- وما يمنعك أن تحذو حذوهم؟

أسأله في حيرة، فيردّ في تشبّت.

- لم تعد سنيّ تتحمّل تعليما من جديد.. هذا أنا، عشت بناءً وسأموت

في كل مرة رجع فيها جابر إلى أهله، كان يضع ثيابا جديدة ونظيفة، يشتري بدلتين أو ثلاثا ليظهر بها أمام أقاربه وجيرانه، يملأ حقائبه ثيابا وألعابا وهدايا لزوجته وولديه. يمرّ شهر الإجازة كل مرة بلمح البصر. يترجّع في مقهى الحيّ نافخا ريشه ويقصّ حكايا تسيل لعاب الشباب الغافل عن حياته في أوروبا. حكايا بعضها مختلق، وبعضها الآخر سمع عنه من زميل ما أو شاهده بأمّ عينيه في أوقات راحته القليلة. وكانت السلسلة الذهبية التي تتدلى على صدره أبلغ تأثيرا من أيّ قصة.

وفي كلّ مرة رجع فيها إلى أهله، كانت زوجته تتعلّق بأستاره وتترجّاه باكية ألا يسافر من جديد. لكنه كان يفعل. ورغم شكه المزمّن في سلوكها فإنه يشهد لها بالأمانة. لم تمرّغ سمعته في الوحل، بل حرصت على أن يكون ذكره ناصعا بين الرجال. كان يلحظ مسرورا أنّها لم تبذر الأموال التي دأب على إرسالها إليها كلّ شهر. رمت المنزل القديم وشيّدت غرضا إضافية للأولاد وجهّزتها بأثاث جديد. والحقيقة أن بلدته الصغيرة كانت مليئة بنساء مجاهدات مثلها. حين يسافر الرّجل إلى بلاد بعيدة من أجل الرّزق، تصبح المرأة رجل العائلة وحاميها، تصبح الأمّ الحانية والأب الحازم لأبنائها، تصبح بطلا منسياً مدحورا وغير ذي شأن.

أعرف جيّدا ذلك النوع من النساء. بعد مقتل أبي رحمه الله تحمّلت جدّتك مسؤوليتي وشقيقياتي بصبر وجلد كبيرين. لم يكن معاش والدي كافيا، فاضطرت إلى أعمال الخياطة والتّطريز لترفع المدخول الشّهريّ. وفي المساء حين يهبط اللّيل، كانت ترصف أمام المدخل أحذية جدّك القديمة التي دأبت على تلميعها حتى بعد وفاته، لتوهم كل من تحدّثه نفسه بأذية أهل البيت بأن للدار رجلا يحميها. حين حاولت ترك مقاعد الدّراسة والعمل في دكان الحلاق، وقفت لي بالمرصاد واعتضت بشدّة. أصرت على أن أنهي تعليمي وأدخل الجامعة. لم ترض أن يشاركها حملها أحد، ويعلم الله كم مرّت بها من ليال مسهدة وهي تفكّر كيف توفّر

إيجار سكني الجامعيّ في العاصمة ومصروفي اليوميّ، أو كيف تنهي جهاز شقيقاتي وتزوّجهن. ملأت عقلي بالأحلام والطّموحات حتّى ما عاد دكّان الحلاق يرضيني وأنا صاحب الشهادة الجامعيّة. لكن النتيجة خيّبت آمالها جميعا.

سألت جابر على استحياء:

- أليس لديك حلم، تنهي غربتك حين تحقّقه؟

ضحك ملء شذقيه، وامتلات عيناه بذكريات بعيدة:

- كان لي حلم.. محلّ بيع أثاث قديم أفتّحه في قريتي، وأقف خلف مكتب الاستقبال أعقد الصّفقات. أجّلت به باستمرار حتّى ما عاد له معنى، إلا في قاموس الأماني! الآن لم أعد أريد غير تقاعد مبكّر، وشيخوخة وديعة مسالمة..

حين استقرّت الأوراق النقديّة الأولى في جيبى بعد انتهاء أسبوع العمل الأول، سرت إلى البيت كأني أطير، لا أكاد أشعر بالأرض تحت قدميّ، أحلّق وحوالي حال من ملك الدّنيا وكنوزها. كان يوما تاريخيا، في حياة نادر الشاوي. أن أقبض للمرّة الأولى مالا كسبته بعرق جيبني. طوال الطريق، كنت أتحمّس الورقات ذات الملمس المميّز، كأني أخشى تبخّرها، كأنّها قد تستحيل رمادا إذا غفلت عنها لحظة، أو تتحوّل ورق كتابة أو ورق تغليف! لعليّ بدوت أحرق يسير على الطريق، ولعلّ جابر وجيرانه رأفوا بحالي وأنا أعدّ أمامهم الوريقات وأعيد في حرص محموم.. لعليّ كنت مثيرا للشفقة، لكنّي كنت رجلا شريفا يكسب قوته بكّد ذراعه.. وفخورا بذلك.

في فرنسا، وخلال أسابيع قليلة من وصولي، عشت أولى تجارب الديمقراطية: خرجت في مظاهرة! لم أكن قد شهدت مظاهرة واحدة في بلدي.. وحتى تلك التي تطالعنا مرة في السنة، فهي أشبه بمسرحية هزلية من إخراج الدّاخلية، ليس الغرض منها الاحتجاج أبداً، بل مباركة شعبية للسياسة الحكيمة لرئاسة الجمهورية! لكنّ الأمر مختلف في بلد الحقوق والحريات. فالمظاهرات رياضية وطنية يمارسها الفرنسيون - وضيوف البلاد أيضاً تأسيا بثقافة مضيّفيهم - بضع مرّات في الشهر، وتعدّ مقياساً لوعي الشعب بواجب المواطنة.. إن لم تحتجّ فأنت حتما لا تتابع الشّأن العام ولا تهتمّ للصّحة السياسية لبلادك!

لكن دعنا من الفرنسيين، فتلك المظاهرة لم تكن تهمّهم. خرجت في مظاهرة للمهاجرين غير الشرعيين! هل سمعت بوقاحة كهذه؟ في فرنسا، هناك جمعيات تُعنى بالدّفاع عن حقوق المقيمين من دون أوراق رسميّة، تضغط على الدّولة لتسوية وضعيّاتهم القانونية، وإن لم ترض الجهات المعنيّة، تخرج المظاهرات!

إن شئت الصّراحة، القانون الفرنسيّ ملتبس جدّاً، في ما يخصّنا نحن المتسلّلين عبر الحدود. أنت لا تملك حقوق المواطن والمقيم، لكنك تخضع لواجباتهم. أنت تدفع مساهمات لصندوق الضمان الاجتماعي، لكنك لا تتمتع بحق العلاج في المستشفيات العمومية، أو باسترجاع المصاريف! أنت تدفع مساهمة لصندوق التقاعد، مع أنّه لا يحقّ لك التمتع بمنحة التقاعد! بل أدهى، أنت تدفع ضريبة على المداخيل، لكن لا يحقّ لك العمل، وإن قبض عليك متلبساً بجريمة العمل، فسيتمّ الزجّ بك خلف القضبان! والمفارقة، هي أنّه سيسمح لك بالعمل داخل السّجن، باعتبار أنّ قوانين الإقامة لا تنطبق على الزنّازين.. فتجد نفسك تصنع بطاقات جولان السيّارات، أو تطلي جدران السّجن، لقاء بضع يورو في اليوم!

جابر أقام في السّجن مرّتين. في كلّ مرّة، كان يقضي أسبوعاً أو أقلّ، ثمّ

يُفرج عنه من دون أيّ ضمانات أو تعهدات. لم يكن هناك الكثير ليفعله. يستمرّ في لعبة الاختباء مع رجال الشرطة، فتتهجر ساحة محلّ أدوات البناء لبضع دقائق حين تتوقف سيّارة الأمن عند المدخل، ثمّ تعمر بسكّانها من جديد حين يختفي طيف الشرطة عند المنعطف. يستظهر ببطاقة إقامة زميل حين تشنّ حملة تفتيش مفاجئة في الورشة، ويسير ملتصقا بالجدران في الشوارع متجنّبا المراقبة العشوائية للأجانب. حين استجابت السلطات أخيرا لطلبه المتعلق بتسوية وضعيته القانونية، كان يوم عيد حقيقي، اجتفل به سكان القبو جميعا، كأنهم معنيّون شخصا، فقد غذى في نفوسهم أملا كانوا على وشك نسيانه.

تلك البطاقة الزهرية المغلفة بشريط بلاستيك شفاف، هي منتهى آمال كلّ من سلك مسلك الاغتراب الطائش. حين تستقرّ البطاقة في حافظة أوراقك، تصبح الأماكن العامّة والشوارع المزدحمة والأسواق مناطق آمنة، يمكنك التّجوال عبرها بحريّة. تصبح إنسانا. فمن لا يملك أوراقا قانونية، نصف إنسان.. أما النّصف الآخر فلا أدري ما طبيعته! حتّى الحيوان في فرنسا يحظى بحقوق تضاهي حقوق البشر.. أما أنت.. أنا.. أيّها المشرّد المنتهك لقانون البلاد، لست إلا رقما في تعداد المتجاوزين!

أمّا المظاهرة يا ولدي، فتجربة فريدة جديدة بالعيش! صفوف متلاصقة من الرّجال الشعث الغبر، تتعانق أكفهم بقوة، وتتقدّم خطواتهم على نسق محموم. وأنا وسطهم مبهور الأنفاس، غائم النظرات، تتصاعد الحماسة في داخلي، وأتخيلني أصرخ ببعض الشعارات المؤثرة.. «تحيا فلسطين» أو «يسقط المحتلّ»! لكنّ المسيرة تتقدّم في صمت، ووقع الأقدام وحده يدير الأعناق باتجاهنا. كنا بضع مئات.. ربما ألفا. معظمنا من الأقارقة والمغاربة، لوّحت وجوهنا سمرة داكنة من جرّاء العمل في الأماكن المكشوفة من شروق الشمس إلى غروبها. نحتفظ بأصواتنا الغليظة سجيّة حناجرنا، حتّى لا نثهم بإثارة الشغب. كانت تلك تعليمات الجمعية الصّارمة. سرعان ما تحفّ بنا سيّارات الشرطة ورجال الأمن.. يسرون

بمحاذاتنا على أهبة الاستعداد، متسلّحين بالهراوات، وفي الموقع الذي
يتخيّرونه مناسباً لفضّ جمعنا، يسدّون الطريق ويجهّزون قنابل الغاز..
وحين يقرّرون أنّنا احتجنا بالقدر الكافي، يطلقونها فتتفرّق سبلنا.
بكيت يومها من دون موارد، انتابني إحساس بأني غدوت شبيها بالبشر!

بينما يندمج نادر الشّاوي في مجتمعه الجديد ويتلمّس طريقه نحو حياة كريمة، يغرق خليل دانيال الشّاوي في إحساس مفزع بأنّ أيّامه السّهلة المطمئنة قد ولّت إلى الأبد.

حين أنهت أمّه ترجمة الرّسالة التي بين يديها، قبّل جبينها ونفض سترته المجعّدة، ومضى من دون نقاش. كان مجهداً. زفر مهموماً حين اختلى بنفسه في سيّارته. في البيت، ستكون سيلين متسلّحة بنظرات الخصام. لم تكن به رغبة في نقاشها أو الاستماع إلى عتابها، بعد أن أهدر عطلة يوم الأحد وغاب عن السّهرات واحدة إثر الأخرى. ليست سيلين وحدها من يخاصمه. إنّهُ يخاصم نفسه من أجل ذاكرة يأبى أن يتقبّلها جزءاً منه. لم تحاول أن تتصل به اليوم. خفّف عنه غياب إلحاحها بعض الضغط، لكنّه يشعر بالقلق الآن وهو يقود السيّارة عبر الشوارع المقفرة. إعراضها يعني أكثر من مجرد خصام.

هل يمكنها أن تتفهّم ما يمرّ به؟

مسّد بأصابع متوتّرة تعرّجات تجاعيد مبكّرة تعلو حاجبيه، ومركت في ذهنه فكرة عبقرية وليدة اللحظة. هل يمكن لجذوره العائليّة المكتشفة أن تكون ذات فائدة انتخابيّة؟ يحاول أن يرى الفرصة في تلايف كلّ حدث. وتعود تفاصيل خطاب الحصّة التلفزيّة لتشغل حيّزاً من تفكيره.

يراجع كلّ الإجابات الملتوية التي درسها وصاغ عباراتها ردّاً على السّؤال المتوقّع: هل تمثّل بترشّحك كلّ الفرنسيّين أم العرب فقط؟ فحوى الرّسائل التي وصلتته يدفعه بحماس إلى مسح كلّ الرّدود التي سبق له تخيلها والتدرّب عليها، والعمل على إستراتيجية جديدة. يتخيّل نفسه وهو يدسّ كفّه في جيبه ويخرج الرّصاصة! ثمّ يشرع في خطاب مؤثر

عن الوحدة الوطنية رغم اختلاف الأصول والتوجهات، وعن المآسي التي تصيب أبناء الوطن الواحد حين ينسون قاسمهم المشترك ويركزون على الاختلافات.. كم سيكون خطابا مؤثرا! ستدمع عينا مقدّمة البرنامج، وسيبكي الحاضرون، وسيذرف هو نفسه دموعات سخية في ذكرى أبيه، ضحية الحرب الأهلية.

مرّة أخرى، يتسلّل إلى منزله على أطراف الأصابع. كأنّما يخشى إيقاظ الوحش النائم. ألقى نظرة على غرفة نومه، ثمّ انصرف إلى غرفة ابنته. مرّة أخرى، كانت مريم قد أوت إلى سريرها حين عودته. يشاق إليها بحرارة. من عادته أن يعوّضها في عطلة الأحد عن احتجاجه عنها أيام الأسبوع، بسبب ساعات العمل الممتدّة إلى ساعة متأخرة في المكتب. لكنّ طبقة إضافية من المشاغل ألغت كلّ التخطيطات المزمعة. نزع سترته وفكّ ربطة عنقه، ثمّ استلقى إلى جوارها. تملّلت الصغيرة وفتحت عينيها. دهشة مبتهجة ظهرت في نظرتها حين اكتشفت زائرها الليلي. أحاطت عنقه بذراعيها ثمّ غفت من جديد. استكان إلى عناقها المريح، وما لبث أن غطّ في النوم بدوره.

حين استيقظ صباحا، كان ألم شديد يفتك بمؤخرة عنقه. تمطّى في كسل، ثمّ همس لمريم التي تنام ملتصقة به:

- صغيرتي.. حان وقت المدرسة.

ووقت عمله أيضا.

انضمّ إلى سيلين ذات السّحنة العابسة في المطبخ، بعد أن اغتسل وغيرّ ملابسه. قبل وجنتها سريعا وتمتم ببضع كلمات اعتذار، لا يظنّها أقنعتة أو أقنعتها، ثمّ جلس يتناول إفطاره في صمت. لم يكن من عادته ألا يحدثها بما يؤرقه، لكنّه موسم الصّباحات غير العادية. حين يرجع إلى صوابه ويتعرّف من جديد إلى نفسه في المرآة، سيكون بوسعه أن يرصف أفكاره أمامها بعناية. أمّا الآن، فليبتلع غصّة روحه ويلذ بالسكون.

بعد دقائق، كانت تتركب سيّارتها برفقة مريم. توصلها إلى مدرستها ثمّ تلتحق بمكتبها. لوّح لهما بما استطاع من مرح، ثمّ توجّه إلى عمله بدوره. أمضى ساعات الصّباح في قاعة المحكمة. الثلاثاء يومه الأكثر غزارة من حيث منسوب الكلام المتدفّق من فيه! ورغم ساعات السّهر الطويلة والمرهقة، والمسامرة مع تاريخ والده البديع، فقد أدّى مرافعاته بحماسة المعتادة وأكثر. لعلّه كان أكثر حدة وأمضى لسانا؟

حين أنهى دوامه في قاعة المحكمة، ابتسم للرّسالة الصوتيّة التي كانت في انتظاره. أصبحت تلك الرّسائل ترسم مسار يومه، تتحكّم في مزاجه، تستنفد طاقته أو تبثّه مخزونا منها، حسب محتواها. وقد كان في حاجة إلى دفعة منها وقد استنزفته مرافعات الصّباح.

لم أنس كارمن حتى مع انهماكي الشديد في العمل، وكنت أتحين فرصة مواتية للتسلل خارج القبو والبحث عنها. حين يرخي الليل ستارته السمكة، أنسحب خلسة تاركا جירاني غارقين في عميق النوم.

أقول لم أنسها.. لكنني نسيتها!

ألم أمض من دونها حين امتدّت إليّ كفّ جابر وقد غيّبتها عني فورة الأمل المفاجئة؟ ألم أتكاسل عن البحث عنها متعلّلا بإصابتي؟ كلّ ليلة، أتسكّع في الشوارع محدّقا في الوجوه، أبحث عن وجهها. أتفرّس في معالم الشوارع وأحفظ خارطة المدينة. حين توشك الشمس على الطلوع أعود أدراجي خائبا. ألم أكن أحتاج قسطا من النوم؟ بلى كنت! لكنّ صداعا مريرا أصبح يلزمني في الأسابيع الأخيرة.. وقد كنت أدرك جيّدا مأثاه.

في هدأة ليالي القبو، بدأت أستشعر ذلك الوجود الدّخيل بداخلي. كان الجسم المخروطي المعدن قد استيقظ من سبات سنوات. في رأسي رصاصة.. لا بل عشر رصاصات. أصبحت أسمع طنينها من حين لآخر، وشقشقتها حين أهزّ رأسي. لقد أعلنت عن نفسها أخيرا! وحين أضع رأسي باحثا عن النّعاس، تنشط حركتها فجأة، تمثّلها لي تهيوّاتي دودة تحفر في تلافيف دماغي وتتجوّل في ثنايا جمجمتي! وكلّما انكفأت على نفسي أكثر كلّما تزايد إحساسي بحضورها المقيت.. مؤلّمة حدّ الخدر، مزعجة حدّ الجنون. كان الهدوء صديقها الحميم. في حضوره تغدو يقظة ونشطة. لذلك كنت مضطرا إلى حركة مستمرّة بالليل والنّهار.. والبحث عن كارمن كان ذريعة مناسبة. عند الفجر، أجرّ قدميّ حتى القبو الذين غطّ سكانه في نوم أصحاب الكهف. أوّسع لجسدي المنهك مكانا بين الأجساد المسجّاة كأنّ الحياة قد فارقتها، وأنهار مثل القليل. أغيب لساعتين، بلا أحلام أو

رصاصه.. ثم أفيق لأستقبل نهار عمل جديد.

دأبت على الخروج كل ليلة، حتى تعودت على شوارع المدينة وألفتها، وما عدت أتوه بسهولة. وألفت سكون الليل وكرهته، فأختصر ساعاته بالتسكع حتى تدب الحياة في شوارع ليون. عرفت طريق محطة المترو، فصرت أقصد كل مرة محطة مختلفة، علني أعثر على كارمن متكوّرة على نفسها مثل جرو صغير في مدخل أحد الأنفاق المظلمة. لكن الخيبة كانت حليفي لوقت طويل.

في عتمة شوارع ليون، تراني هائما على وجهي.. مثل شبح بعينين غائرتين وهالات سوداء محفورة تحفها، وسحنة رمادية قاتمة. خلايا دماغي تصرخ طالبة راحة لم أكن لأطالها! نظام حياتي لم يعد بشرياً.. بل قصاصة من حكايا الرعب التي أدمنتها مراهقا. ألم أكن أريد أن تشرفني الرصاصه بحضورها؟ فها إنها قد كفت ووقّت!

وفي إحدى الليالي، بينما كنت أسير في الشارع على غير وجهة، ظهر أمامي وجهه على حين غرة. القرصان! كان الوجه وجهه، النظرة نظرتة، العين اليمنى ترمش في توتر كعادتها، أما العين اليسرى، فسليمة معافاة تحدّق فيّ على غير عاداتها! طالعتة لبرهة متفرسا. كان يلبس بذلة أنيقة وربطة عنق، وأطرافه كاملة تتحرّك في رشاقة. كدت أجزم بأنه شبيه أو توأم، لولا نظرة المفاجأة التي ارتسمت على ملامحه وحسّمت الشك باليقين. كنت أمام الوجه الآخر للقرصان. وجه يشع عافية، يتأبط ذراع فتاة تلبس كعبا عاليا وفستانا قصيرا ضيقا يكشف عن مفاتنها. لم أتعرف عليها للوهلة الأولى، وقد شكّلت لها الأصباغ وجهها غير الذي عرفته.. كارمن!

في لحظة، تبدّت لي الحقيقة واضحة كعين الشمس. كارمن الصغيرة البريئة كانت الضحية التالية لمشاريع القرصان الليلية. كانت المادة الخام المناسبة، عذراء مرتبكة، بكماء متفتحة الأنوثة. أسبل عليها لباس الإغراء

ومضى بها إلى حيث ينتظرها زبون ما. هذا ما كانت تخفيه الصغيرة ولا تجرؤ على البوح به. فرّت من مكن العصابة حين تجلّت لها نواياه تجاهها، لكنه ما لبث أن عثر عليها بعد أن غفلت عنها ومضيت باحثا عن رزقي من دونها. فارت الدماء في رأسي وتملكتني الحميّة، كأنّ الصبيّة بعض أهلي. انقضضت على القرصان - الذي لم يعد قرصانا - في غيظ، ألكمه وأركله.

تصارعت مع الرّجل برهة من الزّمن وقد أبدى مقاومة وبأسا لا يستهان بهما. لم يلفت مشهدنا انتباه أحد في الشّارع. نتدافع ونتجاذب ثمّ نسقط على الأسفلت وترتطم أطرافنا بالجدران أو بقبضات بعضنا البعض، ولا أحد يحاول إيقاف مشاحتنا الضارية، كأنّنا بعض السّكاري المتهوّرين.. لا نثير حفيظة أحد أو اهتمامه. في ظروف عاديّة، كنت لأصمد وأمّي خصمي بهزيمة نكراء.. لكنني كنت قد غدوت مجرّد بقايا، أشلاء رجل تذوي شعلته خلال ساعات عمل طاحنة، وليل يقظ لا نصيب فيه للرّاحة. على حين غفلة، عاجلني بضربة قاصمة كادت تقسم ظهري نصفين. هويت على الأرض أتلوّى، ورأيته يقف عني متراجعا، يمسح ما سال من دماء وجهه وكرامته. لقد كُشف أمره ولم يعد من الآمن له الوجود في الجوار. زمجر محذرا:

- إن كانت الفتاة تهّمك، خذها.. وحذار أن أرى وجهك مجدّدا..

لمحته بطرف عيني المتورّمة ينسحب مبتعدا، في حين انحنت عليّ كارمن باكية، من دون صوت. ابتسمت مهوّنا، متجاهلا أنين عظامي المسحوقة. لقد أنقذت الصّغيرة، وهذا كافٍ. ساعدتني على الوقوف بكفيّها الصغيرتين وسارت تسندني بقامتها النحيلة. كانت أطول ممّا عهدتها.. الكعب العالي كان يجعل رأسها يصل إلى كتفي. بعد بضع خطوات، وقفت متردّدا.. ما الذي سأفعله بها؟ أين يمكنني أن آخذها؟ لم يعد من الممكن أن أخلفها في الشارع، بشكلها المغري ذاك، فتنهشها الكلاب البشرية، ولم يكن واردا أيضا أن آخذها معي إلى القبو، حيث رجال لم تدخل عليهم أنثى منذ

دهر! شعرت الفتاة بحيرتي فشرعت فجأة بالبكاء. لم تكن ترغب حتما في البقاء وحدها مجددا.

- لا تبكي.. لن أتخلي عنك!

أقعينا مثل جروين عند نافورة عامّة.. أنا أغسل جراحي وهي تغسل أصباغها. ثم نثرنا رذاذ الماء في شغب. تأملتها مأخوذا وهي تعود طفلة، بعد أن تجلّت امرأة لبعض الوقت وهي تتأبط ذراع القرصان. من دون تفكير، نزعت عني السترة الجلد التي لم أكن أتركها قط في نومي ويقظتي، وألقيتها عليها. فكّرت أنّ عمر لو كان حاضرا معنا لكان فعل الشيء نفسه. كنت راضيا عن نفسي، وأنا أراها تضمّها حول جسدها الضئيل وتستعيد ابتسامتها. جلست بعد ذلك على الأرض وقد ثقل رأسي فجأة. أسندته إلى جدار النافورة المنخفض وأغمضت عينيّ لوهلة.. أفكر في ما سأفعله، ثم غفوت.

حين فتحت عيني، لم يكن هناك أثر لكارمن. كنت قد نمت لوقت طويل.. طويل جدًا.. أطول ممّا فعلت الأسبوع الماضي كاملا! حتّى رصاصتي لم تحدث ليلتها طيننا يسلبني النعاس. وكانت تلك الصغيرة الشقية قد اختفت من دون أن تعلمني بمكانها من جديد.

تماسكت ليومين.. ثمّ عادت الأعراض السّالفة. الرّصاصة، ذلك الكائن الطفيلي السّاكّن فيّ.. كانت آلامها تفاجئني من حين إلى آخر. ألم ملحّ مثل أزيز يقطع التّيّار عن أطرافي، فتستسلم فجأة وتنهار بلا حركة، ليقع ما بين يديّ في الحال، سواء كان كيس رمل أو إسمنت أو قطعة آجر! وتخونني رجلاي فلا أقوى على الاستمرار واقفا.. فأتربّع على الأرض في قلة حيلة حتّى تنقضي التّوبة.

وكَلِّمًا تهاوَيْت، كان المشرف السَّمين يظهر من خلفي على حين غفلة
مثل مارد القمقم، يصرخ ويعتف:
- تحرّك يا حمار! تحرّك يا بغل!

أتمالك نفسي، وأجبر أطرافي على لملمة خلاياها العصيّة، وأتحمّل
لأبدو كتلة واحدة لم تتقطّع أوصالها. أطبق أسناني بقوة لأطرد الألم،
وأهزّ رأسي علّ الأشواك التي غرزت في جنباته تفلته! خارطة الألم تختلف
حسب وقت النهار.. تبدأ أعلى العنق في الصّباح، ثمّ تسرح مثل ديب
النمل، لتغمر فروة الرأس كاملة، وفي آخر النهار تأخذ في الحفر عميقا نحو
تلافيف الدّماغ، تتقدّم وتنهش، مثل قارض يلتهم رأسي! لو كتبت جملة
واحدة لأصف كلّ ساعة ألم مرّت بي، لتكدّست الأوراق إلى ما لانهاية!
ولملت أنت من سيمفونيّة الألم التي تمضي على لحنها حكايتي.. ولست
ألومك! فحديث الألم مقيت حتّى عند قارئه.. وحديث الألم لن يخفّف
شيئا من عذاب صاحبه.

في ذلك اليوم، هوى رأسي من عليائه ولم أقو على رفعه مرّة أخرى.
ملأ فمي مذاق التّراب وسالت قطرات دم مالح من جرح شفّتي. كنت
أسمع حفيف الإسمنت وهو ينهمر في سخاء من ثقب الكيس الورق الذي
تمزّق مع سقطتي، ووقع الخطوات المضطربة التي تتحرّك حولي، أصوات
بعيدة عميقة تنادي باسمي، والمشرف يردد ويزيد في سخط لا حدود له:

- ماذا فعلت يا غبي؟ ستدفع ثمن الإسمنت المهدور!

ثم فقدت الوعي.

بعد أن فقدت الوعي بلحظات، فقدت عملي! المشرف أعلن وأنا في غياب كامل أنني لست صالحة للتحميل، ومن الأفضل ألا أطاء أرض الورشة مجدداً. تعاون بعض العمال على نقلي جثة هامة من مكان الحادثة، وحاولوا بشتي السبل إيقاظي من غفوتي.. حتى صحت على أزيز يشغل موجة أذني. جمعت شتاتي ومضيت إلى القبو مطرودا. قبعنت لصق الجدار أنتظر الموت، أو رفاق السكن، أيهما يصل أولاً!

استمرت رصاصتي تؤنس وحدتي بنفس عنتها الصفيق، يطغى وجودها على كل حواسي. هزرت رأسي بقوة محاولاً صرف حضورها الدّخيل، من دون جدوى. احتضنت رأسي بين كفي وأخذت أدلكه بأطراف أصابعي في حركة دائرية. ساورني بعض الارتياح حين تسلل الخدر إلى فروة رأسي بفعل التدليك المستمر. لكن ما أن استقرت حركة أصابعي، حتى شرعت الرّصاصة في الانتقام! أشرعت مخالبتها في دماغي وراحت تنهش بضراوة. فقدت عقلي، وسيطر عليّ هوس فتح جمجمتي وإخراجها! قد أموت، لكنني سأخرجها أولاً! فلأمت إذا كان الموت هو سبيل الخلاص الوحيد! أخذت أضرب جبهتي على الجدار بقوة مطّردة، حتى شججته، وما همّني مشهد الدّماء التي سالت حتى ملأت وجهي وأغشت عيني!

دخل عليّ جابر وعزّوز وقاسم وأنا على تلك الحال المفجعة.

- ما باله؟ هل جنّ؟

طوّقتني الأذرع وأبعدتني عن الجدار ولم تهدأ نوبة جنوني العنيفة. كنت أهرّ رأسي في جميع الاتجاهات وألهث مثل كلب مسعور. وصوت جابر يعلو بالصّراخ ولا يتسرّب شيء من كلماته إلى فهمي! ثمّ قبض على فكيّ ليوسع ما بين لحيي، ودسّ حبة بيضاء دائرية وأطبق عليها لتذوب على لساني.. بعد لحظات، كنت أهدأ وأغرق في عالم النّوم.

- هل تشعر بتحسّن؟

بعد بضع ساعات، كنت أفتح عينيّ، حيّاً. وقد استعدت شكلي الادميّ.

كان جابر قد مسح دمائي وضمّد جرحي. التفتّ إلى مصدر الصّوت، لأميّز في الظلام وجه عزّوز. شابّ تونسيّ يكبرني ببضع سنوات. هزّزت رأسي علامة الإيجاب، وتنهّدت.. ثمّ ران الصّمت من جديد. سكت الرجل قليلا ثم همس:

- الحبوب المنوّمة ليست حلّا.. يجب أن تدرك مكمّن الدّاء وتعالجه..

لم أعلّق. كنت أدرك مكمّن الدّاء جيّدا.

- ربّما تكون ممسوسا؟

نعم، أنا كذلك. لقد مسّني الضّرّ.. لكن ليس بالمعنى الذي قصده صاحبي.

- هل رأيت كيف كنت تتخبّط بجنون؟ أكاد أجزم أنّ ما بك مسّ.. أعرف شخصا قد يساعدك. شيخ يعالج بالقرآن الكريم، يسافر إليه الناس من كل مكان.. هو الوحيد القادر على شفائك.

هزّزت رأسي من دون أن أعلّق.

منذ سنوات خلت، كانت تفاجئني من حين إلى آخر نوبات صرع. أهترّ على الأرض وتتخبّط أطرافي، وتتسرّب رغوة بيضاء من جانب فمي، وأكاد أفقد الوعي. ثمّ أهدأ تدريجيّا وتذهب عني الرّعشة. وفي كلّ مرّة، كانت أمي تأخذني إلى شيخ البلدة، فيرقيني ويتلو القرآن بينما أجلس عند قدميه. ثمّ تغيب النّوبة شهورا، وربّما سنوات.. قبل أن تعاود الظهور على نفس الهيئة والتّفاصيل. قال الشّيوخ إنّ صدمة مقتل أبي أمام عينيّ بلبلت روحي.

لكنني بتّ أعتقد الآن أنّ الرّصاصة قد فعلت.

أدمنت الحبوب المخدّرة.

كنت مدمن سجائر في سابق أيامي. أدخّنها بشراهة، مثل مدفأة قديمة تلتهم الحطب طوال الليل، فلا تبقي ولا تذر. أفني كلّ ما تطاله يدي من نقود في سبيلها. اكتشفت منذ أيام الغربة الأولى كم كان من السهل الإقلاع عنها في غيابها. كلّ الأمور الصّغيرة التي بدا لي سابقا أنّ حياتي تتوقّف عليها، أثور وأعربد إذا ما استعصى حضورها، أصرخ في وجه أمّي وأعتزل أخواتي، حتّى يرضخن ويقتطعن من مصروف بيوتهن لأنال مطلبي، أنا رجل البيت المدلّل.. كم كانت ثانوية وضئيلة الشّأن في لحظات الألم التي تتساوى فيها الحياة بالجحيم.

حصلت على علبة حبوب من جابر. كان يستعملها بشكل متقطّع، كلّما جافاه النّعاس.. لكنني لم أكن مقتصدا في استهلاكها. حبة وأحيانا اثنتان مع كلّ وجبة. حين تدرجت الحبة الأخيرة حتّى استقرّت في راحة يدي تملّكني الفزع، لم يبق معي غيرها! يجب أن أحصل على المزيد. لم أكن قد دفعت ثمن العلبة بعد، لكنني استنفدتها بسرعة رهيبة.

- أريد الحبوب..

عاجلته في لهفة ما أن ظهر خياله عند مدخل القبو.

- أيّ حبوب؟ لقد أعطيتك كل ما عندي. وأذكرك بأنك لم تدفع ثمنها بعد!

- سأدفع.. سأدفع.. لكنني أحتاجها.. أحتاجها الآن!

زفر جابر في نفاد صبر ثم قال وهو يخرج علبة من جيبه:

- أنت تسير نحو الإدمان. سأعطيك حبتين الآن، لكنها ستكون المرّة الأخيرة.

وضع الحبتين في كفيّ فحملتها إلى شفّتيّ على الفور وابتلعتهما من دون انتظار.

- لا يمكنني أن أعطيك غيرها بعد الآن.. لا تعتمد عليّ.

تنهّدت ما أن خلوت بنفسي. لم تعد الحبوب تنفع. الألم غدا أكبر وأعتى من بضع حبوب مخدّرة. كان عليّ إجراء الجراحة التي قد تفقدني البصر. بين فقدان بصري وفقدان حياتي، كانت الكفّة ترجح بسهولة.. بدت حياة الكفيف فجأة مغرية بشكل لم يخطر لي ببال من قبل! لكن حتّى ذاك الخيار ما عاد متوافرا.. من أين لي بتكلفة العمليّة؟ كان عليّ أن أغتم الفرصة وأنا في مركز المفوّضية. لم أكن أدرك حينها أنّ الأمور قد تسوء بهذا القدر.

هل تعرف ما مشكلة هذه الحياة؟ أنّنا نعيشها مرّة واحدة! أخطاؤك وهفواتك، سقطاتك وذنوبك.. قد تكرّرها عن غباء وسفاهة أو تكبر وجهل.. لكنّك لا تملك الرجوع إلى الوراء في خطّ الزّمن لتمحوها وتغيّر أثرها. آلة الزّمن حلم راود البشرية منذ عقود. لم يكتب له التحقق في زمانٍ.. ربّما يكون جيلك أوفر حظا!

الفرج لاح على غير موعد، حين كرّر عزّوز اقتراحه ذاك المساء:

- الشيخ المختار طيّب القلب، سخيّ مع الغرباء.. بيته عامر ورزقه وافر. سيؤويك حتّى ينتهي علاجك.. وقد يعالجك مجانا بعد أن تبين له حقيقة حالك..

لم يخف عليّ أنّي قد غدوت عالية على رفاق السّكن من جديد. ما أن سدّدت الدّيون القديمة، حتّى بدأت الدّيون الجديدة تتراكم.. والفرص ضئيلة هذه المرّة في تدبّر أمر العمل. كان لا بدّ من أن أرحل.. مهما كانت الوجهة. برقت الفكرة في رأسي. الشيخ.. لعلّه لن يشفيني من مسّ موهوم، لكنّه قد يدفع كلفة عمليّة استئصال الرّصاصة! وماذا بعد أن أغدو كفيف البصر؟ أقصد الحرس مستسلما ليتمّ ترحيلي إلى وطني؟ غمرني التفكير بالكآبة.

الثلاثاء ١٨ ديسمبر ٢٠٣٥، الثانية بعد الظهر.

دلف خليل إلى المكتب بخطوات متثاقلة، وأفكار منهكة تتوغل في عقله وتشغل وعيه. نادر الشاوي يهوي نحو منحدر جديد، ومزاج خليل الشاوي يُفلت من السيطرة. كان في حاجة إلى شيء يرفع معنوياته وينعش يومه. ليس هذا! ليس هذا! ها إنَّ الرجل قد خسر وظيفته، وعاد إلى خانة البداية. أليس هناك من أمل تزفّه إليه هذه الرسائل؟ حالما لمح الحافظة بين يدي السكرتيرة، تذكّر أمر الفتاة. مريم. عبس وهو يتجاوزها في اتجاه مكتبه. ليس مستعدًا للاعتذار.

- أستاذ دانيال.. وصل أول موعد.

رنّ صوت جانبية عبر الهاتف الداخلي.

- نعم، دعيه يدخل.

ينغمس في الأعمال التي يجيدها ويألفها، ويشغل ذهنه عن هواجسه الجديدة. مضت ساعات الظهيرة على الوتيرة المعتادة ذاتها، مقابلة العملاء وتحضير المرافعات، اتصالات مع الفنيين والخبراء. أكثر من مرّة، في فترات خلوّ المكتب من الزوّار، كان يتوقّف عمّا يفعله ويتأمّل الرّقم المدوّن على الشاشة، يفكّر في الاتّصال، ثمّ سرعان ما ينحّي الفكرة من رأسه بإصرار. لقد جلبت الشّكوك لنفسها بتصرّفها المتغطرس وهويّتها المزيّفة. ثمّ ما الذي سيعنيه اتّصاله؟ هل سيكون عليه التكفير عن سوء ظنّه وقبول القضيّة؟ يعلم أنّ اتّصاله سيورّطه في أكثر من مجرد اعتذار. ستجد الكلمات المناسبة لتغرقه في إحساس مقيت بالذّنب، فيرضخ لابتزازها العاطفيّ!

لم تصله أيّ رسائل صوتيّة إضافيّة. تساءل إن كانت أمّه قد زهدت في التّرجمة، أم أنّ الإنهاك قد نال منها أخيرا بعد أيّام من العمل الحثيث

على الرسائل؟

زفر حين أنهى الموعد الأخير، ارتدى معطفه وسار باتجاه صالة الاستقبال، مبكرا على غير عادته. رمقته جانب في دهشة.

- أنت بخير أستاذ دانيال؟

- أعاني من بعض الإرهاق.. سأصرف مبكرا اليوم.

أومات في تفهم، بينما توجه إلى المصعد في وجوم.

تحركت أم خليل أمام موقدها، تحضر وجبة العشاء التي لن تتناولها منفردة هذا المساء أيضا، بينما انغمس خليل في تدوين كلمات مطمئنة لسيلين التي -لا شك- تتقد غضبا من سلوكه الغامض والمتباعد هذه الأيام. سهرة أخرى يمضيها خارج البيت. نطق الرسالة بما أمكنه من عبارات الود، علها تخفف ثورتها.

«عزيزتي.. سأتأخر عند أمي.. لا تقلقي بشأني.. أحبك».

وقف من مكانه، وألقى نظرة على أمه التي تعمل بهمة في مطبخها. نددت عنه تنهيدة عفوية من دون انتباه، فالتفت إليه بنظرة مجعدة. تساءل، هل كانت تشعر مثله، بتجويف في الرأس، يرتع عبر مساحته مقذوف رصاصة ما؟ كان مأخوذا بتلك الفكرة، رصاصة نائمة لا يراودك أدنى شك في وجودها، ثم تستيقظ يوما على أصواتها الصاخبة! أي جحيم هذا؟

ماذا الآن؟ هل تحرك تعاطفه أخيرا مع هذا الأب المنكوب؟ يزمر شفتيه فاصلا بين خيوط المشاعر المتضاربة التي تتنازعه. لو كان النص يخص شخصا آخر، أي شخص كان، فإنه لا شك يثير الشفقة ويستدرّ الدمع.

فلماذا يضمن على رجل من المفترض أنّه سبب وجوده في هذا العالم
بمشاعر مماثلة، أو بالقليل منها؟

يشرع في ترتيب الأفكار في ذهنه بدقّة ووضوح، كما يفعل في قضاياها:
قد تكون الهجرة غير الشرعيّة وما تبعها من تجاوزات محلّ لوم.. لكن
تلك الرّصاصة الغادرة، لا ذنب له فيها. ثمّ ماذا لو لم يعبر المتوسط
ولم يخض تلك المجازفة، هل كان هو ليصل إلى الضّفة الأخرى؟ هل
كان ليعيش الحياة المرفّهة نفسها؟ يمتهن المحاماة، يفتح مكتبا ويترشّح
لانتخابات البرلمان الفرنسيّ؟ أم كان ليرث تعاسة أب قابع على ناصية
المقهى وتزيّن شهادة جامعيّة بلا قيمة جدران حياته؟ يُسكت الأصوات
التي تُدين قسوته، ويردّ عليها بضراوة: كان ليعيش حياة متّسقة مع
نفسها، تتماشى فيها هويّته مع محيطه وظروفه. لم يكن ليتساءل لماذا
يحمل هذا الاسم المختلف، ويُسأل باستمرار عن «أصله» كأنّه فرنسيّ
مزيّف!

- أدرك كيف تشعر.

يلتفت إليها غير قادر على قمع انفعاله وردّه إلى داخله. ينفجر:
- أحقّا تُدركين؟ لأنّني لا أعرف ما الذي أشعر به الآن حقّا! أعلم أنّ
العالم لا يُحكم بالعدل. هناك أشخاص تُعساء يعيشون في جنوب الكرة
الأرضيّة.. بينهم حروب أهليّة وحياتهم دمار.. وأناس في شمالها، مستقرّون
وهائئو البال. وأنا لا أعرف إلى أيّهم أنتمي! لقد عشت طيلة حياتي أحاول
أن أجد لي مكانا بين أهل الشّمال، متجاهلا الجذور التي تشدّني إلى
الجنوب. كنت أقنع نفسي بأنّ الخيط الذي يربطني بذلك الأصل قد
انقطع وتلاشى. أنا فرنسيّ كما يجب أن يكون الفرنسيّ الحقّ.. ثمّ تأتين
بعد كلّ هذه السّنوات، لتقول لي لا. أنت لست كذلك. جذورك حقيقة.
معاناة أيبك، حربه الأهليّة، هجرته وتشرّده، كلّ هذا ميراثك الذي لا
فكاك منه! وما الذي أفعله بهذا الميراث، هاه؟ أعلّقه في صالة المكتب؟

أؤلف بشأنه شعرا ونثرا؟ هل يختلف إحساسي بمن أكون حين أعرف أنّ
أبي كان على غير ما ظننت؟

سكت من دون أن تهدأ الثورة في عينيه. لم تكن إلا البداية، وما يختفي
في الأعماق أعظم.

- أعلم فيمَ تفكّر..

رفع كفيه إلى السماء غير مصدّق. مرّة أخرى. إنّها تعلم، هاه!

- أنت لا تصدّق، ولكنني أعلم. ستدرك أنّي أعلم.. حين ننتهي من
الرسائل كلّها. أمّا ما ستفعله بميراثك وتاريخك.. فهذا ما ستقرّره أنت.
لن يكون الأمر هيّنا. ليست شكّة دبّوس تتلاشى خلال ثوان. لكنّ شيئا ما
بداخلك سيدفعك باتّجاه ما.. سينبعث الطريق من تلقاء نفسه ويشدّك
إليه. لا تنظر إليّ هكذا.. لقد عشت تجربة مشابهة، وقد كان هناك صوت
وشوش في أذني، فاتّبعت الطريق. حصل ذلك مرّات عدّة. وفي كلّ مرة كان
هناك اختيار جديد. حتّى وصلت إلى هنا، إلى هذه الجلسة بيني وبينك،
ونحن نقرأ رسائل عمرها ثلاثون سنة.

تنهّد. لم يكن يفهم. لكنّه سيحاول أن يصل إلى مرحلة الفهم في نهاية
الرحلة. تناول الهاتف وسجّل رسالة جديدة لسيلين. «سأبيت عند أمّي
الليلة، إنّها متعبة قليلا. أحبك». ثمّ التفت إلى أمّه التي راقبته مشدوهة
وقال في تصميم:

- فلننه هذه الرسائل اللّيلة، ما رأيك؟

أراني مجدّداً، أتخذ مجلساً نائياً في نهاية الحافلة الخاصّة الصغيرة وقد أجلسْتُ كارمن إلى جوارِي في حرص. كانت الطفلة قد ظهرت ليلة رحيلي، كأنّما أدركت بغريزة ما أنّهُ الوقت المناسب. حين خرجت ذلك المساء أقتفي أثراً ممكناً لمرورها، انبثقت في الظلام وشدّت كمّ قميصي. فانضمت وإياها في عتمة الليل إلى سرب الطيور المهاجرة خلصة في اتّجاه الشمال.

حين استقرّ ركاب الحافلة العشرة في مقاعدهم، ضغط السائق على دواسة الوقود. سنسافر طوال الليل، كأننا نفرّ على غفلة من الأعين. يشقّ عليّ ذاك الرّحيل الشبيه بالطرد! رحيلي يعني نهاية العمل في الورشات وتفريطاً لا رجعة فيه في مسكن القبو. وتبدّى لي القبو العفن الذي آواني في الشهور الماضية نعمة غالية في تلك اللحظة.. نعمة لم أستطع المحافظة عليها!

حين طلبت من عزّوز أن يدلّني على الشيخ المعالج، أخبرني بأمر الحافلة الخاصّة التي يؤمّن صاحبها رحلات دوريّة إلى المكان المقصود. لم يشكّل فرقاً أنّ يكون الرّجل مهزّباً محترفاً، لا يعنيه الترخيص الحكوميّ وزبائنه على شاكلته، يتجنّبون خطوط السفر المباشرة تفادياً لدوريّات الشرطة! وكان ذلك يناسبني.. فكّلنا في مراوغة القانون سواسية.

فتحت عينيّ على ملمس كفّ كارمن وهي تشدّ أصابعي في إلحاح. كانت الحافلة قد قطعت مسافة لا بأس بها وشارفت على الوصول إلى وجهتها النهائيّة. كنت متوتراً ومرهق الأعصاب، لكنّ الآلام كانت خفيفة وحفيف الرّصاصة فاترا تلك الليلة. نظرت من النّافذة الجانبية حيث أشارت كارمن. كان ضوء النهار قد بدأ يتسلل وأخذت معالم المباني التي تحفّ الطريق

تتضح. تعلقت عيناى بلافتة عريضة تعلو الطريق السيّارة التي تقطعها الحافلة. باريس. لم تمرّ دقائق قليلة حتى سمعت صوت السائق الأجش وهو يوقظ الركاب:

- وصلنا إلى باريس. وصلنا يا أهل الخير.

ومع ارتفاع الشمس ببطء في الأفق، دبّت الحياة في ركّاب الحافلة ثم بدؤوا النزول تباعا، كل في العنوان الذي يريد.

عندما توقفت الحافلة في محطتها النهائية، تبعت السائق إلى خارجها، أحمل متاعي القليل الذي استقر في بطن حقيبة عمر السوداء، تتبعني كارمن بخطواتها الخجولة. قطعنا الشارع ثم مشينا واحدا إثر الآخر، عبر حديقة نضرة تحفها بنايات قديمة متطاولة. كانت مظاهر الحياة العائليّة اليومية قد أخذت تدبّ في المكان بشكل ممتع لعينيّ، وقد كدت أنسى أنّ هناك مجتمعا يعيش ويتنفّس خارج أسوار الورشة وفوق غياهب القبو. أطفال رضع يتسلّل صياحهم عبر الأبواب المغلقة، وحبّال غسيل ما زالت تقطر ماء في شرفات الشقق المرتفعة، وروائح الخبز المحمّص والقهوة الساخنة تعبق من مطابخ أرباب عائلات يستعدّون لبدء نهار عمل جديد. شعرت بكفّ كارمن تمتدّ لتتشبّث بذراعي. استدرت لتطالعني بابتسامة جذلة. كانت سعيدة بما ترى هي الأخرى.

عند مداخل البنايات، لمحت مجموعات من الشبّاب والمراهقين العاطلين، يتجمّعون في تلك السّاعة الصباحيّة لتدخين سيجارة ولعب الورق.. هالات أعينهم توحى بأنّ أحدهم لم يأو إلى فراشه تلك الليلة. راقبتهم في حذر وأنا أتذكّر اقتحامي السّابق للحيّ الشعبيّ في مرسيليا. لم يطاردنا أحدهم بالسّباب هذه المرّة ولم يحاول أيّ منهم إخافتنا بحركة أو إشارة. بل بدرت عنهم تحيّات مسالمة ونظرات متواطئة تبادلوها مع مرشدي. حين وصلنا إلى العمارة الأخيرة في آخر الحديقة، قادنا الرّجل إلى مدخل خلفي يفضي إلى سلّم يجري ينزل تحت الأرض وقال:

- هذا هو المكان.

وقفت لبرهة متردداً بعد أن انصرف الرجل. لم أقدر على مواجهة عيني كارمن، لكنها فهمت ترددي. أشارت إلى الغابة الكثيفة التي ترتفع حشائشها مشرفة على سور المجمع السكني، ففهمت مقصدها. ستختبئ هناك ريثما أخاطب الشيخ. تمنيت أن أملك القدرة على ثنيها عن عزمها، لكنني عجزت. فكّرت أنّ اقتراحها مناسب للوضع. فلتختبئ في الغابة لبعض الوقت، حيث يمكنني أن أجدها وأمدّها بوجباتها خلسة، ريثما أمهد للأمر مع الشيخ.. إن لمست منه كرماً وسماحة حدّثته بشأنها، وإلا فلتكن الأولوية لرصاصتي!

لوّحت لي كارمن بكفّها الصغيرة بعد أن رفعتها فوق الجدار، ثمّ قفزت إلى الجانب الآخر لتغيب في الظلال. التصقت بالجدار وإحساس بالذنب ينهشني. طرقت الحائط بقبضتي، فردّت الطرقات من الجانب الآخر تطمئنني.. إنّها متعوّدة على حياة الشارع. تستطيع الاهتمام بنفسها. همست راجياً:

- لا تذهبي بعيداً.. ابقِي عند الجدار. سأعود قريباً.

ردّت عليّ بطرقتين خفيفتين.

لقائي بالشيخ المختار كان من اللحظات النورانيّة النادرة.. أن تلقى شخصاً يضيء وجهه بكلّ تلك السّماحة وتنطوي نظراته على كلّ ذلك الحبّ والعطف تجاه البشريّة، كان أمراً استثنائياً. أدخلني عليه أبو أحمد، ناظر أملاكه والقائم بشؤون زوّاره، من دون استئذان. كان بابهُ مفتوحاً لقضاء حاجات النّاس كلّ صباح من الفجر حتّى صلاة الظهر. أجلسني على الحصير المتقشف الذي فرشت به الغرفة. لم يكن بها من مريدين غيري. كنت قد وصلت مبكراً جداً.

على بصيص المصباح الخافت التقت عينايا بتلك السّحنة الهادئة والهيئة المعمّمة. كان الشيخ يقرأ في مصحفه غير عابئ بالعتمة، ولحيّته

الكثرة المشوبة بعروق بياض تتخللها تهترّ مع تمتته غير المسموعة. لعلّ الإضاءة الضعيفة كانت تمنحه مناخا مناسباً للتأمل وتصفية الذهن. حين أنهى ورده أخيراً، عاين بنظرة أبويّة شكلي الأشعث ثمّ سألتني:

- هل أنت قادم من سفر؟

فرنسيّته مشوبة بلكنة شرقيّة، ربّما كان أصيل اليمن، أو الحبشة، أو ما جاورهما. بشرته ذات سمرة خفيفة وملامحه دقيقة قريبة من القلب، وابتسامته دواء للنفوس السقيمة. قلت في ارتباك وفرائصي ترتعد دونما سبب أعياه:

- سافرت ليلاً من ليون...

- إن لم تكن بك حاجة ملحة، فخذ نصيباً من الراحة ثمّ ننظر في حاجتك.

احترت هل أقبل ضيافته مؤجلاً طلي، أم أعجل بالطلب مغامراً بضياح الضيافة؟ قبل أن أتكلّم، انحنى الشيخ حتّى لامست كفّه ركبتي فتوقف جسدي عن الارتجاف على الفور.

- أنت تتألم.

قالها بلهجة المتيقّن، فتحدّرت حواسي. هل أدرك بلمسة مكمّن دائي؟ وهل شفيت بتلك اللمسة؟ كان صوت الشيخ العميق الرقيق يتسلل إلى قلبي دونما مقاومة مني ويشدّ نظراتي إلى وجهه كالمغناطيس. كان في حضوره سحر ما.

- لا تخف، لقد وصلت إلى برّ الأمان.

لم أنبس بنت شفة، بينما واصل الشيخ تشخيصه لحالتي. وضع كفّه على رأسي، كأنه قد أدرك بطريقة أجهلها أن الألم هناك، ثم أخذ يتمتم بصوت خافت كأنه يرتل ما يشبه الآيات القرآنية. أغمضت عينيّ في سكينه تاركاً جسدي بين يديه. حين فتحتهما مجدّداً، كان الشيخ يمدّ إليّ بوعاء يحوي مستخلصاً من الأعشاب.

- أنت متعب يا بني. اشرب هذا واخذ إلى النوم. يا عليّ...

فتح الباب فجأة وظهر شاب يصغرنى سنًا، كأنما كان يتنصّت عند الباب، أو يلتقط بحاسة سابعة همسات الشيخ مثل جنيّ ما. وقف في تأدب منتظرا أوامر صاحبه.

- خذ أخانا إلى شقة الضيافة ليرتاح قليلا.

تجرّعت المشروب الدافئ بجرعات كبيرة متلهّفة، غير مبال بالبقبة المزعجة التي أصدرتها، ثمّ مسحت شفتيّ بكمّ ثوبي، وانتظرت المعجزة. كلّ ما يحيط بي كان يوحى بأنّها ستحصل لا محالة. الجوّ الروحاني، وحضرة الشيخ المهيبة، والهمسات القرآنية، والمذاق العسليّ الصّافي.. كانت علامات شفاء صدّققتها. خلت للحظة أنّي ممسوس فعلا، ونسيت أمر الرّصاصة مصدر بلائي! أو لعليّ حسبت لمسة الشيخ ومشروبه العجيب قادرين على إذابتها فينسال المعدن المصهور من أذني مثل الصديد.. كنت قادرا على تصديق أيّ شيء في تلك اللحظة!

غادرت الشيخ برفقة عليّ حتى دخلت الشقة المعنيّة. كان الخدر قد سرى في أوصالي المتشنّجة حتّى تمكّن منّي بالكليّة، فاستسلمت للنّعاس على سرير فرديّ في ركن الغرفة وكلّي تفاؤل وانبساط.

حين فتحت عينيّ، كانت الغرفة غارقة في الظلام. تحسّست المكان من حولي متعرّفا، لكنّ حركاتي المرتبكة جعلتني أتعثرّ بقطع الأثاث وأحدث جلبة مزعجة. امتدّت يد من العدم وأزاحت الستائر السمكة عن النافذة فتبدّدت الظلمة. ظهر عندئذ وجه عليّ الذي جاء بي إلى الشقة منذ ساعات خلت، وقد غلب الودّ في ملامحه على الجدّية التي كسته في حضور الشيخ. كان رقيق العود، يسبح في قميصه الأبيض الواسع الذي يصل إلى ركبتيه، ويخلّل لحيته القصيرة النابتة بأصابعه وهو يتكلّم، كأنما يهمّه أن تبدو أطول ممّا هي عليه.

- أخيرا استيقظت! لقد برد الطعام.. سأقوم بتسخينه بينما تقضي

لم يكن استفسارا بقدر ما هو إقرار لما يجب عليّ فعله، فانصعت
دونما تردّد وسرت في اتّجاه الحمّام الذي أشار عليّ إلى موقعه من الشقّة.
حين تخطّيت عتبة الغرفة انتبهت إلى أزواج الأعين التي كانت ترقبني. ربّما
كان عليّ يجلس إلى أصحابه في انتظار صحوتي. حيّتهم بإشارة محتشمة
فألقوا عليّ السلام في نغمة موحّدة. أدّيت صلواتي كيفما اتّفق وأنا أتساءل
عن آخر مرّة صليت فيها فرضا. انقطعت عنها منذ عدت إلى التشرّد ولم
يكن جحيم الورشات والقبو وآلام الرّصاصة رادعا كافيا لأجدّد توبتي!

رحم الله أيام الدكتور عمر.. تهت من بعده قلبا وقالبا.

حين عدت إلى المجلس بعد الصّلاة، كان بقيّة الشّبّاب قد انصرفوا ولم
يبق سوى عليّ ينتظرني مع صحن شوربة حارّة يتصاعد بخارها. غطّي
جوعي على خجلي فجلست على الأرض المفروشة من دون تردّد، وأخذت
أغترف الملعقة إثر الأخرى حتى قضيت على الشوربة كلّها، تحت نظرات
عليّ الراضية.

- أعجبتك؟

هزّزت رأسي علامة الإيجاب، وأنا أشكر مضيّفي بابتسامة تخالطها
العبرة. أن يطبخ أحد ما وجبة منزليّة من أجلي، يعيد إليّ بإلحاح ذكريات
منزل العائلة وطبخات أمّي التي لا تضاهي! إنّ الأطعمة التي نتربّي عليها
في صغرنا تصبح في أعيننا -حين فقدوها- الدّ من موائد أشهر الطهارة
العالميين. بل هي الجنّة ذاتها، وإن بدا طعمها عاديا أو قليل النكهة
عند متذوّق آخر! فالطعم الذي تلتقطه موجات القلب خارج عن نطاق
حليمات اللسان، ومتّصل بينابيع الذكريات التي تتفجّر مياها حلوة
تملأنا من الدّاخل إلى حافّة البكاء، حين ينجح الطعم في فكّ شيفرة
الحنين. وقد غلبني الحنين وأنا أتذوّق شوربة عليّ، حتّى دمعت عينا
على مرأى من نظراته الحائرة.

- والآن أخبرني ما قصّتك؟

أضاف بلهجة مطمئنة تسلقت أسوار ريبتي وعبرتها إلى الضّفة الأخرى:

- يبدو أنّك قادم من بلاد بعيدة وقد تبقى بيننا لفترة حتّى تتعالج..
لذلك نحتاج معرفة ظروفك حتّى نساعدك.

أوجزت حكايتي منذ وصولي إلى الأراضي الفرنسيّة، متجاوزا فقرة لقائي
بعمّر، وعلاقتي بعصابة القرصان، ولم آت أيضا على ذكر كارمن. حين
انتهيت إلى نوبات الألم التي وأدت أحلامي وطموحاتي الفرنسيّة في المهد،
هتف عليّ بلهجة أحسبها صادقة:

- أبشر يا أخي! اعتبر نفسك منذ اليوم ضيفا علينا وفي حماية الشيخ
المختار شخصيّا، ولعلّك لا تعلم ما تعنيه حماية هذا الرّجل المبارك؟
إنّه لا يتوانى عن تقديم يد المساعدة إلى كلّ من يحتاجها وله شأن عند
العباد وربّ العباد بإذن الله -ولا نزّيّ على الله أحدا- وانظر كيف وكنّي
بأمرك وهو لا يدري عن قصّتك شيئا؟ رجل مبارك ولا شك! أنت منذ
اليوم ضيف عندنا في هذه الشّقة، والغرفة التي استقبلت متاعك غرفتك
الخاصّة!

لم أتمالك نفسي من فرط التأثّر، فقامت من فوري أقبل رأس عليّ
وأشكر فضل الشيخ المختار، ثمّ حمدت الله كثيرا وقد تعاظم في داخلي
يقين بأنّ مشكلاتي كلّها ستحلّ على يد الشيخ المبارك!

في اليوم التالي، أرسل المختار في طلبي. ناولني المشروب الدّافئ ذاته،
فتسلّمته في امتنان. كنت أدرك أنّ له تأثيرا بالغاً على جسدي. في الليلة
الماضية نمت هائئ البال، ولم تظهر الرّصاصة في منطقة الوعي لحظة
واحدة. كدت أنساها. حين رأى الشيخ أنّني أهمّ بتجرّعه دفعة واحدة،

أشار إليّ مبتسماً وقال:

- ترشّفه على مهل.. ولنتحدّث قليلاً..

أومأت في خجل، وأبقيت الكأس بين كفيّ، أمتّعهما بدفئها.

- أخبرني عليّ بشأن إصابتك.. إنّه لأمر محزن.

حرّكت رأسي وهمهت بكلمات شكر متداخلة، كأني لا أجد في معجمي لفظاً يفي فضله حقّ الامتنان، فواصل المختار:

- أنت الآن بين أهلك يا ولدي.. سنهتّم بأمرك. تدبّرنا أمر سكنك بحمد الله.. وسنجد لك وظيفة تكسب بها عيشك. خبرني، ما الذي تجيده؟

تداعى في خيالي ذكريات لمشاهد مماثلة.. القرصان وهو يسألني عن خبرتي في النشل والشحاذة، وديميتري يستجوبني بشأن البناء. تلعثمت وارتبكت.. أيّ الخصال يقصد الشيخ الجليل؟ قلت بعد برهة:

- عملت في ورشة بناء بعض الوقت...

توقّعت أنّ الشيخ لن يكون مهتماً بدورتي التدريبية مع عصابة القرصان. رأيتّه يقطّب حاجبيه تقطّبية خفيفة، فخمّنت أنّ ردّي لم يسره. سألني بشكل غير متوقع:

- كيف هو مستواك في اللغة العربيّة؟

اتّسعت عينايا في غير تصديق. هل يعقل أن يطرح عليّ هذا السؤال بالذات؟ هتفت في لهفة:

- أنا مجاز في اللغة العربيّة يا سيّدي!

- ممتاز! لماذا لم تبدأ بهذا إذن؟ جمعيتنا المحليّة في حاجة إلى علمك ومعرفتك.. معظم الشّباب هنا يحتاجون تعلّم العربيّة، وحتىّ المسنّون. بعضهم أسلم حديثاً، والبعض الآخر ذو أصول عربيّة لكنّه نشأ في فرنسا منذ نعومة أظفاره ولم يهتمّ والداه بتلقيه اللغة الفصيحة.. والمدرّسون قلّة..

اشتعل وجهي حماسا وقد عثرت أخيرا على مهنة تناسبني وتتمن
شهادتي الجامعية التي أضليت أمي من أجلها. شرح لي المختار بسرعة
نوعية العمل ومواعيده والأجر المترتب، ثم تصافحنا في حرارة معلنين
الاتفاق. حين وقف الرجل مؤذنا بانتهاء اللقاء، كنت سعيدا ومستبشرا،
وفاتني أنه لم يأت على ذكر العملية الجراحية.
ولم يفعل خلال لقاءات كثيرة تلت.

مرّت الأيام التالية هادئة رتيبة. حافظت على مواعيدي الصباحي مع
الشيخ المختار. فأنا ن نصيبي من الأذكار وتلاوة القرآن، ثم أزدرد. المحلول
العجيب الذي له عليّ مفعول المخدر، فأستغرق في النوم حتى الظهيرة،
قبل أن يفد عليّ من عمله فيقاسمني غداءه. أمّا كارمن، فقد فقدت
أثرها مذ فارقتها عند الجدار. كنت أتسلل يوميّا إلى حدود الغابة، أتسلّق
حتى أبلغ أعلى الحائط وأمسح بنظرة شاملة مساحة الأشجار الممتدة
إلى الأفق، ثم أتنهّد. أحيانا، أجلس هناك مقرفصا، أتفكّر وأنتظر، علّها
تظهر من دون موعد. وغالبا ما كنت ألقى نظرة عابرة وأمضي متعجّلا،
حتى لا يضبطني حرّاس المختار بجرم لا أدري نوع العقاب الذي يستحقّه.
التزمت بالعهد الذي قطعته على نفسي بحفظ نصيب من وجبتي من
أجل الصغيرة. ألّفها جيّدا في ورق الجرائد وأترك اللفافة تنزلق بلطف
إلى الجهة الأخرى أسفل السور، علّها تجدها وتقتات عليها. لكنّها لم
تردّ قط على طرقاتي. وقد آثرت أن ألومها على تجاهلها تعليماتي بعدم
الابتعاد عن الجدار، على أن أعترف بفشلي الذريع في أن أكون أبا بديلا!
أما في فترة ما بعد الظهر، فقد كنت أدخل قاعة الدّرس، أمسك قطع
الطباشير الأبيض والملوّن، أرسم على السّبورة خطوطا متعرجة ونقاطا..

وأشرح لرجال ينافسونني في القامة وغازاة الشاربين أبجديات اللغة العربيّة.
وقد وجدت في ذلك متعة لا تضاهي!

أقول، ويكرّرون خلفي: خاء.. خخخ.. خاء.. من أعماق الحلق.

فتخرج منهم: غغغغ.. مثل بقبة غريق!

أقول: خخ.. مثل «فخنسي» (كلمة «فرنسي» بالفرنسيّة).

فتتهلل الأسارير وتستجيب الألسن وتعوجّ لتعثر على درجة الصّوت المناسبة. فأصفّق لهم ويشاركونني التّصفيق.

- المشكلة هنا.. في الرّأس، أمّا اللّسان فمطواع قادر على النطق بما يأمره الدّماغ به.

أشير إلى رأسي بسبّابتي، كأني أخطب رصاصتي. أتحدّي كلّ أسباب العجز وأمارس حياة طبيعية أو تكاد.

بعد ساعتين من الدّرس، أقف أودّعهم عند باب القبو تحت الأرضي الذي يستقبل فصلنا، فيصافحونني بامتنان. لا يدركون أنّي الممتنّ لحضورهم.. وإعطائهم معنى لحياتي. شقيقان تركيّان، وعدد من الفرنسيين حديثي الإسلام إضافة إلى شيخ مغربيّ طاعن في السنّ يتمنّى أن يفكّ شيفرة مصحفه ويتعرّف إلى مقاطعه، يكتب على لوحة مدرسيّة بدل الورقة لضعف بصره، ويناديني بـ«سيّدي» كما ينادي طلاب المدارس معلّمهم!

أستقبلهم كلّ يوم بعد انتهاء ساعات أعمالهم الرّسميّة، وأشغل بقيّة اليوم في أعمال تنظيف وصيانة لم يطالبني أحد بها. كنت أحبّ أن أكون مفيداً.. بعد فترة بطالة طالت، فوكّلت نفسي بكنس الساحة من أوراق خريف طمرت ممشاها فاستحال بساطا تتماوج عليه درجات البرتقالي والأصفر.

بعد أسبوع، كان جسدي قد أخذ يتعوّد على الدّواء، وما عاد الخمول يصيبني فور تجرّعه، فطلبت من عليّ أن أرافقه في جولة بالخارج. كان

صباح سبت لا عمل لكينا فيه، وكانت مسالك الحديقة المحيطة بعمارات الشيخ السكنية تضجّ بالحياة. وألّفت نفسي آنس معالم تلك الحياة العائلية الدافئة وأبحث لنفسي عن مكان فيها. توقّفنا عند دكان بقال وأخذ عليّ يتخيّر قطع الفاكهة الناضجة. جاءنا صراخ البقال وهو يزجر منفلتا من داخل المحلّ في احتجاج:

- ألف مرّة قلت لك إن فاكهتي كلّها طيبة. لا تكثّر التقلب فتفسد مظهرها الحسن!

ابتسم عليّ متلطفا وتجاهل كلمات الرّجل الغاضبة، وهو يمدّ إليه الكيس ليزن ما استقر في جوفه من قطع متخيّرة، ثم همس لي:

- أبو صالح رجل طيّب، لكن مزاجه نارٍ سهل الاشتعال.. ستتعود عليه.

ظهر الرّجل من جديد وفي يده كيس الفواكه بعد أن وزنه بالداخل، وقال في جفاف وهو يرمقني بنظرة جانبية مستطلعة:

- ثلاثة يوروات...

ثم أضاف بلهجة استخفاف:

- مجنّد جديد؟

زفر عليّ وهو يمدّ يده بالمبلغ المطلوب، وتمتم كأنه يتراجع عن نعته البقال بالطيبة منذ لحظات:

- أستغفر الله العظيم.. يا رجل يا خرف ألا تكفّ أذاك عن الناس؟ إنّه ضيف علينا وعلى الشيخ المختار ولا شيء أكثر من ذلك!

هزّ أبو صالح كتفيه وهو يتابع بنفس اللهجة الساخرة:

- كلّهم يكونون كذلك في البداية! قبل أن يلعب عجوزك الخرف بعقولهم!

غلى دم عليّ لما سمع أبا صالح يتجرّأ على شيخه الحبيب فهتف في

غيظ:

- استغفر ربك وتب إليه من الخوض في أعراض الناس!

رمقه أبو صالح بنظرة استخفاف، ثم ما لبث أن حوّل نظراته إلى مدخل المحلّ حيث وقفت سيّدة تملأ أكياسها خضراوات، وانقلبت لهجته الساخطة إلى ليونة مدهشة تحمل في طياتها غزلا صريحا:

- حتّى الشّيخة ليليان أكثر بركة من شيخك هذا.. مساؤك فل وياسمين يا شيخة!

استقبلت ليليان الفرنسيّة الخمسينيّة دعابته بابتسامة دمثة، لامبالية بغمزاته اللّعوب وهي تواصل ملء أكياسها. في حين غصّ عليّ بصره متجنّبا المرأة الأجنبيّة.

قال عليّ حالما ابتعدنا بضع خطوات عن دكان أبي صالح:

- لا تصدّق كلّ ما يقال من حولك. الشيخ المختار مثلما له محبّون أوفياء، له أعداء ينشرون عنه الشائعات والأقاويل.. مع أنه لم يضرّ أحدا يوما. لكن تلك هي الغيرة والحسد، تحمل الناس على ارتكاب حقير الأعمال.

ثم واصل بعد صمت قصير:

- انظر إليّ.. أنا مثال حيّ على فضائل الشيخ. لقد أخرجني من هوة الانحراف! في السابعة عشرة من عمري، كنت لصّا محترفا. مع بعض أقراني كنّا نكوّن عصابة! لكن منذ مجيء الشيخ إلى هذا الحيّ اختلف الأمر.. تصيّدنا واحدا واحدا، واستمع إلينا ثمّ خاطبنا بهدوء ورفق. اهتمّ بتأطيرنا النّفسيّ وتكويننا الرّوحيّ. جعلنا نعود إلى الله ونتعرّف على ديننا، ثمّ ضمن لكلّ منّا مورد رزق يمنع السّؤال والسّرقة. لكن هل تعرف ما هي معجزته الحقيقيّة؟ لقد راهن على كلّ منّا بشكل مختلف. جعلني أتعلّم صناعة الأقفال وأنا الذي كنت أحطّمها! حين سألته في دهشة كيف يمكن للنّاس أن يثقوا بلصّ قديم لصناعة أقفالهم؟ قال لي، أنا

أضمنك! ضمنني في وقت لم أكن أضمن فيه نفسي. لذلك جاهدت للبقاء على الطريق المستقيم، حتّى لا أخيب ظنّه فيّ قبل كلّ شيء.
استمعت إليه في دهشة لم تقدر نظراتي المسحورة على إخفائها، فاسترسل عليّ:

- فعل ذلك مع عشرات الشّباب هنا. العمارة التي أسكنها وكلّ العمارات المجاورة هي على ملكيّة الشيخ المختار، وفي كلّ منها عدد من الشقق الموقوفة لله تعالى، يؤوي فيها ضعاف الحال وطالبي العون والعاطلين من الشّباب. وفي ظرف سنتين من وصوله انخفض مستوى الجريمة في حيّنا بشكل لا يصدّق. ملأ فراغ الشّبّاب بالعمل والعلم والرياضة. فتح نادي حراس العقيدة للرياضات القتاليّة ليتمرّن الإخوة فيه على التّنفيس عن مشاعر الغضب بداخلهم، من خلال إطلاق الطاقات السلبية خارج الجسد...

- مشاعر الغضب؟

- طبعاً! ماذا تظنّ الشّباب المهمش العاطل عن العمل يشعر تجاه المجتمع الذي لا يجد مكانه فيه؟ قبل أن يقدر الواحد منّا على صقل شخصيّته الجديدة، يحتاج إلى طرح مخلفات حياته السابقة خارجه، بما في ذلك الغضب والحقد والحسد.. بعد أن تجتاز دورة التّكوين الرّوحيّ ستشعر ببرد وسلام داخليّ يطفئ كلّ النيران المضطربة. عندها ستتمنّى أن يخوض كلّ شخص حولك هذه التجربة العميقة المطهّرة للرّوح ليشرع بما تشعر به.

- يبدو ذلك رائعاً!

- بل أكثر!

في تلك اللّحظة، خرج أبو صالح ومن ورائه ليليان. رأيته يرصف صناديق خضراوات أمام المحلّ، بينما قالت ليليان:
- دعها هنا. سأرسل أحد أولاد الجيران لإحضارها.

من دون تفكير، اندفعت تجاهها بشكل عفويّ، وقلت:

- عنك يا خالة..

ابتسمت ليليان في امتنان وقالت:

- ربّما كان من الأيسر أخذها على مراحل.. إنّها ثقيلة.

تجاهلت نصيحتهما واحتضنت الصناديق كلّها دفعة واحدة مستعرضا
قوّة عضلاتي، وسرت خلفها في صمت مزهوّا. حين وصلت إلى مدخل
العمارة الرّابعة، أشارت إلى المصعد وهي تقول:

- من هنا.. أرجوك.

حين توقّف المصعد عند الطابق الخامس، سبقتني إلى الشّقة، ثمّ
أوسعت لي طريقا باتّجاه المطبخ.

في تلك اللحظة، لمحتها.

كانت تجلس على كرسيّ متحرّك عند الشّرفة، وقد انكبّت تطالع كتابا
استقرّ في حجرها، متجاهلة فوضى العالم من حولها. ظهرت أمامي مثل
حوريّة من الجنّة، يُختزل مفهوم الجمال في طلّتها البهيّة. لو رأيتهما في
تلك اللحظة لتساءلت، كيف تكون تلك الفتاة التي ترفع شعرها الأصهب
فوق رأسها وتعقّصه مثل الجدّات، وتخفي عينيها الخضراوين خلف
عدسات نظّاراتها وتدفن وجهها بين صفحات كتاب بتزّمت راهبة، هربا
من كلّ الأعين المتطفّلة -مثل عينيّ- والتي قد ترغب في بدء حوار ما مع
عينيها، كيف تكون حوريّة؟ فقط هي كانت كذلك بالنّسبة إليّ.. فلا تحاول
أن تفهم!

كانت لحظة خاطفة سلبتني لبّي، برهة تأمل قصيرة قبل أن يعيدني
صوت ليليان إلى الواقع وهي تقول:

- شكرا لك يا ولدي.

فهمت أنّها لم تعد في حاجتي، فسارعت في اتّجاه المخرج، كأني قد

ارتكبت جرماً بالتّطفل على المرأتين ولو من قبيل مدّ يد المساعدة. لكنها
مسحت عني ذاك الانطباع الخاطئ بسرعة حين قالت:

- هل تناول معنا كوباً من الشاي؟

غمرتني رعدة باردة، وتنقلت نظراتي فجأة إلى وجه الفتاة الصهباء التي
لم تبد عليها المبالاة بوجودي من عدمه، فتلعثمت وأنا أردّ في ارتباك:
- مرّة أخرى سيدتي.. مرّة أخرى..

حينئذ، رفعت جميلتي عينيها وابتسمت!

غادرت الشّقة مرغماً وقد خلّفت قلبي عند قدميها فاقدتي الحركة.
ابتعدت عن العمارة بخطوات مضطربة، وقد انهمكت كلّ خلايا دماغي
في مهمّة تسجيل تلك الابتسامة الرقيقة التي خصّني بها الفتاة المقعدة.
في ثوانٍ انتقلت من كآبة التّجاهل إلى نشوة الحظوة! كأنّ كلّ حركة بسيطة
تتمّ عنها تولّد عاطفة ما بداخلي! تميّت سرّاً لو تتحدّثان بشأني، لو تُثني
ليليان على صنيعي، فتستحسن ابتها الأمر وتقول: فلنستفد من خدماته،
﴿إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين﴾. تميّت لو أجد مبرّراً، أيّاً كان،
لأتردّد على تلك الشّقة مرّات أخرى، وترفع رأسها وتنظر إليّ من جديد.

انتفضت حين شدّني عليّ من ذراعي على حين غرّة:

- من الأفضل أن تتجنّب حركات الشّهامة مع تلك المرأة في المرّة
القادمة.. لا تنسَ أنّها كافرة.

حدّقت فيه مصدوما ولم أعلّق، فاستعجلني صاحبي الذي لم تبدُ
عليه أيّ علامات المزاح:

- من هنا.. الشيخ المختار بانتظارنا.

نحن عائلة الشاوي، فينا هوى الأجنبية. أكاد أجزم أنّها سمة وراثية تتناقلها الجينات. منذ أجيال، تختلط نطفنا بنطف من شتى الملل. أما جدّك، فقد كان أوّل عهده بالإناث يابانيا! تزوّج بساكورا في فرنسا، ولبت معها مدّة سبع سنين.. لم تثمر نسلا يشدّ وثاقه إليها. لذلك، حين طلبت السفر إلى بلدها، لم يجد صعوبة في تسريحها سراحا جميلا. لم تدمع عيناه وهو يودّعها في مطار باريس شارل دو غول، لكنّه استمرّ يذكر أيّامها بحسرة وحنين حتّى وفاته، بشكل كان يثير غيرة جدّتك إلى أبعد الحدود. لم يكن لدينا شكّ في حبّه لها، وكثيرا ما سألناه في فضول عن سبب طلاقه منها.. فهل يعقل أن يتفارقا لمجرّد رغبتها في رؤية أهلها باليابان؟ أذكر ملامحه الآن، حين تغيم عيناه وتسودّ سحنته، وهو يقول بلهجة قاطعة: لست أركب طائرات ولا أترك حرمي تركب الطائرات!

ورغم غرابة السبب وبعده عن المنطق، فلم يكن بوسع أحدنا إلا أن يسلم به. فجّدك ظل وفيا لعهدك، فلم يركب الطائرة يوما، رغم سفره المتكرّر إلى فرنسا ومنها. ثمّ حين تزوّج أمّي التونسية، لم يُطرح موضوع الطائرة بتاتا. ورغم كونها تعود أهلها عبر البرّ، فإنّها لم يكن يرافقها في رحلتي الشتاء والصيف، حين تشدّ الرّحال إلى «القصرين» حيث مسقط رأسها. أما إن شئت رأيي، فإنّي أعتقد أنّ أبي خاف أن تهجره ساكورا أو أن يمنعها أهلها عنه، واليابان بعيدة الشّقة مجهولة الثّنايا، وما له أن يبحث عنها هناك أو يلحق بها، ففضّل قطع الأمل عن طوله مع إمكانية الخيبة.

حين رجع أبي من فرنسا ليستقرّ في تبسة، دعاه صديق تونسيّ - كان قد عاشه طويلا في الغرب - لزيارته حيث يقطن مع عائلته في القصرين. أثمرت تلك الزّيارة خطبة وتوطيد علاقة بالنسب. تزوّج أبي شقيقة صديقه التي رآها ملتحفة تكاد تخفي نصف وجهها وهي تضع «قصعة الكسكسي» بلحم الخروف أمامه على أرضيّة المجلس المفروشة. قال في ثناء: نعم التربية ونعم الطبخ، فردّ صاحبه من فوره: ونعم النسب نسبكم!

كان ترتيب الزّواج أشبه بمصيدة وقع فيها أبي عن طيب خاطر. كان طلاقه حديثا وجرحه غائرا، لكنّ موضوع الزّواج الجديد لقي استحسانا منه. امرأة أخرى هي كلّ ما لم تكن عليه ساكورا المتحرّرة! كان يكبر أمّي بعشرين سنة أو يزيد. كان قد جاب الدّنيا وخالط الأجانب وعرف النّساء في الشّرق والغرب، وهي كانت قطعة مغمضة العينين! لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة، طفلة تلهو في الحوش مع أترابها، وتلتحف كما تقتضي التقاليد حين تدخل على الرّجال الأجانب، فتبدو أنثى كاملة النضج. حين رجع أبي بعد شهور قليلة إلى تونس مع عشيرته لإتمام تراتيب الزّواج، لم يرحل عمّي إلا وقد خطب شقيقة العروس!

كان طبع أمّي طيّعا مسالما، ومزاج أبي ناريّا متقلّبا. وكثيرا ما آذى طبيتها وأبكى مقلتيها، فتبيت مكورة على ذاتها منكفئة على حزنها، في ركن المطبخ، لا سند تشكو إليه ولا كتف تبكي عليها. أمّا خالتي، فقد كانت قويّة الشّخصيّة، سليطة اللّسان، وعمّي طوع بنانها! فسبحان الذي جعل كلّ واحدة ترتبط بنقيضها! كانت جدّي تقول إنّ نار أبي تطفئها دموع أمّي، وتسلبّ خالتي تبرئه ابتسامة عمّي المتسامحة.. ورغم تعاسة أمّي البادية للعيان، فقد كانت جدّي راضية عن قسمة أولادها من النّساء. حين انضمت خالتي إلى عائلة الشّاوي، تكافأت الجبهتان. وطويلا بعد رحيلها، سيظلّ أهل البلدة ينادون عالية وأخواتها «بنات التونسيّة»! رغم كون أمّي تونسيّة أيضا، ونحن أبناءها أبناء التونسيّة، فإنّ البصمة التي تركتها خالتي في بلدتنا الصّغيرة كانت أبلغ من حياة أمّي كلّها بهدونها الذي يجعلها شبه خفيّة، لا تكاد تلاحظ، وحزنها الرّقيق الذي لا يعيره أحد اهتماما.

لم أستطع أن أرفض الدّعوة في المرّة الثانية. رغم تحذير عليّ، فقد تجرّأت على مرافقة ليليان إلى شقّتها ذلك اليوم.

منذ تطوّعت بأعمال التنظيف في المجمع السكنيّ، صرت أراها بشكل يوميّ. كانت تمرّ بي صباحا حين تخرج لقضاء حاجاتها، فأرافقها على استحياء حتّى باب المصعد حاملا عنها الأكياس ثمّ أعود إلى مهامّي مستعجلا قبل أن يلمحني عليّ أو يشي بي إليه أحد رفاقه، فيعيد عليّ مسامعي نفس الملاحظة عن مخالطة الكفّار! ثمّ أراها قبل الغروب بساعة، حين تخرج برفقة ابنتها.. ديانا. تدفع كرسيّها المتحرّك وتسير بها في جولة عبر الحديقة الظليلة. تلقي عليّ التّحيّة ثمّ تمضي في حال سبيلها، لكن عينيّ لم تكونا تستقرّان وأنا أعلم أنّها في الجوار. أظللّ أتلفت في انتباه عليّ ألمحها مقبلة من ممشي أو من آخر. أطيل المكوث خارجا، فلا أقصد الفصل إلا حين يظهر أوّل طلاي. لا، لم أكن أراقب ليليان الخمسينية، بل ديانا الصّهباء الحلوة التي انفكت عقدة ابتسامتها، فباتت تكافئني بها كلّما تطوّعت لمساعدة والدتها. فأحسّ بحرارة غريبة تصعد إلى رأسي وتلهب وجنتي، كأني عذراء حيّة!

لعلّه ليس من اللاّثق في عرف العلاقة بين الآباء والأبناء أن أحدثك عن مغامراتي العاطفيّة، لكنني أفترض أنّك وقد تسلّمت رسائلي قد غدت شابّا راشدا.. وأفترض أيضا أنّك تصارح والدتك بحكاياتك مع الفتيات منذ صرت مراهقا، فمعظم الأولاد يفتحون أمام أمّهاتهم حتى لو كان آباؤهم على مقربة. ولأني أتوقّع أيضا أنّ القدر لن يمهلني حتّى أرقبك من كذب مراهقا وراشدا، فإني أريد لعلاقتي بك أن تكون مختلفة عن العلاقات الدّارجة في عرفنا بين الابن وأبيه.. سأكون لك أبا متفتّحا، يصارحك بكلّ شيء ويتحدّث في التّفصيل التي يتجاهلها الآباء عادة.

أبي كان من النّوع المغلق تماما. صندوق أسود يتلّع العواطف، لا يظهر محتواه إلا حين تطيح به عاصفة غضب. كنت أحترمه لاحترام النّاس له، وأخاف منه. لكن هل كنت أحبّه؟ وهل يملك الولد إلا أن يحبّ والده؟ لا

أدري.. ربّما تغيّرت عاطفتي تجاهه منذ مقتله، فنمت بداخلي عقدة ذنب تحوّلت حبّا جارفا للرجل الذي مات وهو يحمي عائلته، ودفع ثمن جبن ولده الوحيد. لكنني أريد لك أن تحبّني! لا عن خوف أو ذنب، ولكن لما أنا عليه.. لما ستعرفه عني، ولما سأبادلك إيّاه من أسرار تجمعنا فقط أنا وأنت من خلال هذه الأوراق. أريد لعلاقتنا أن تكون مبنية على التفهم والصّراحة.. إن أمكن لنا أن نطلق على هذا الحوار أحاديّ الجانب علاقة. إذن فلتعلم أنّ أباك كان قليل الحظّ مع الحبّ! لم تكن أنثى قد ابتسمت في وجهي من قبل. بلى، عالية ابنة عمّي كانت تبتسم. لكن هل عالية أنثى؟ طبعا هي أنثى من حيث تكوينها الجسديّ، لكنّها ليست في أنوثة ديانا. ليست في رقّتها وعذوبتها وحلاوة صوتها.. ليست صهباء منمّشة الوجنتين، ليست بيضاء البشرة إلى حدود الشفافية، ليست ملوّنة العينين. لم تكن الملامح الأوروبية تنتمي إلى مقاييس الجمال لديّ، لأنّني لم أكن أطمع في أن تنظر إليّ أنثى أوروبية يوما. لكن ديانا نظرت وابتسمت. الأميرة ديانا. وأشرقت الدنيا في عينيّ منذ ذلك الحين. نعم، كان تقيمي لديانا في بداية الأمر جسديّا بحتا. أسمعك تقول: يا للسطحيّة! ولست أعترض! أمّا عالية، فقد طاردني خيالها بإلحاح أكبر في تلك الفترة. كأنّ نظرتي إلى غيرها توقظ داخلي ذكراها. عالية كانت دوما «رجل العائلة»، مثلما صارت أمّي رجل العائلة بعد رحيل أبي. عمّي لم ينجب إلا البنات، وعالية كانت كبراهنّ. تعلّمت الفروسيّة والصيد بالبندقية وتوحّشت نظراتها. لكنّ عالية بنت الجبل، بنت التّونسيّة سليطة اللّسان، كانت تلين وتبتسم إذا رأته.. لأنّي رجلها. هكذا علموها وعوّدوني. رغم أنّي لم أفعل شيئا يفسّر على هذا النّحو ولا خطوت خطوة واحدة في اتّجاهها. كانت تكبرني بسنتين. يطاردنا عقد شفوي بين أخوين، في بهجة ولادة الذكر الذي سيخلّد اسم العائلة.

كاد الاتّفاق يذهب أدراج الرّياح حين تعكّر صفو العلاقة بين الشقيقين. الأحداث التي هزّت البلاد رمت شرارة شقاق بينهما. عمّي كان مناصرا

للإسلاميين.. وأبي يكنّ لهم عداوة ضارية! يستمرّ السّجال بينهما لساعات، كلّما طغّت المستجذّات السّياسيّة ورمّت أطنابها في عقر حياتنا اليوميّة. حتّى وصل بهما الأمر إلى قطيعة كاملة. بكى عمّي كثيرا حين رحل أبي عن الدّنيا من دون أن يسامحه. ثمّ جدّد العهود القديمة أمام أمّي وأخواتي. أقسم ألا يفرّط فينا، واستحلف أمّي ألا ترحل إلى تونس وتحرمه منّا. وأن تعطيه الفرصة حتّى يكفّر عن ذنبه تجاه الفقيد. وهكذا عادت عالية خطبتي بعد فكاكٍ وفتيّ. لكنّ خيبة الفارس المنتظر طالت ولم يفلح في تأمين مستقبله! أمّي قالت إن أحدا لن يخطب عالية لأنّ ابن عمّها أحقّ بها. وأنا أتمنّى أن يتقدّم إليها أحد في غيابي ويريحني من تلك المسؤوليّة تجاهها وتجاه عمّي! ليس لأنّي لا أطيق عالية، إطلاقا! هي مليحة بالمقاييس المحليّة، حلوة المعشر وصاحبة نكتة. لكنّها امرأة قوية يرهبها الرّجال، فما بالك بي، وأنا ابن المدينة مدلّل شقيقاتي ووالدتي؟ فلاعترف، لم أكن ندّا لها! لم أكن أريد أن أصير مثل عمّي.. زوجا منقادا، رغم أنّه أحبّ خالتي بصدق ورفض الزّواج بعدها.

حين مرّت بي ليليان ذلك المساء، لاحظت حركتها البطيئة التي تنمّ عن التّعب. لا أدري كيف وאתني الجرأة فعرضت عليها أن أدفع عنها الكرسيّ وصاحبته! تركت إليّ المهمّة عن طيب خاطر وجلست تستريح على مقعد حجريّ بالسّاحة.

سرت لدقائق أدفع الكرسيّ في صمت، وأنا أشعر بقلبي يكاد يقفز إلى حلقي. أتأمّل خصلاتها البرتقالية المائلة إلى الحمرة في أصولها وأتساءل كيف يكون ملمسها؟ من حيث أقف كنت أرى شعرها وكتفيها الضئيلين لامرأة رقيقة تحتاج إلى حماية. تراءت أمام عينيّ قامة عالية الفارعة ومشيتها الوئيّدة الثّابتة التي تدلّ على الاكتفاء الدّاتي، وكفّها الخشنة التي أمسكت بزمام الخيول منذ الصّغر، وقلعت الأعشاب وجمعت الزيتون.

- كيف وجدت باريس؟

كانت هي من بادرنى بالحديث. من حسن حظّي أنّها لم تلتفت.
تحدّثت وهي تنظر إلى الأمام فلم تلاحظ احمرار وجنتيّ الشديد.
- أمّي قالت إنّك وصلت إلى المنطقة منذ وقت قريب.. أمل أن تكون
قد وجدت راحتك.

تسارعت أنفاسي وأنا أبحث عن الكلمات في رأسي الفارغ. تحرّك لساني
في فمي وانفجرت شفتاي، لكنّ الارتباك قضى على كلّ أفكاري. كان يجب
أن أتكلّم وإلا حسبتني غيباً، لكنّ حالة من الخجل المكبّل سيطرت عليّ.
كنت طليق اللسان، متمكّناً من اللغة الفرنسيّة ملماً بقواعدها. لكنّني
في تلك اللحظة خشيت ارتكاب خطأ نحويّ واحد أو نطق حرف علّة
بصورة منحرفة ما يجعلها تسخر مني وأسقط في نظرها! بعد جهد وتركيز
شديدين، خرج صوتي جاداً متكلّفاً بشكل مجحف. قلت باقتضاب:
- كلّ شيء على ما يرام. شكراً لسؤالك.

في اللحظة الموالية، كنت ألعن نفسي في سرّي على اللهجة الجافة التي
غلّفت كلماتي القليلة. وأدركت أنّني أفسدت كل شيء حين اختصرت بدورها:
- هذا جيد.

عادت لتسرح بنظراتها بعيداً ولم تقل شيئاً بعدها. لذلك، حين عدنا
إلى نقطة الانطلاق حيث خلّفنا ليليان تستريح، كنت مستميتاً للحصول
على فرصة إضافية تعوّض عن غبائي السالف! حين عرضت عليّ ليليان
تناول الشاي معهما، وافقت على الفور. كان عليّ أن أصحّح الانطباع الذي
خلّفته لديها، كأنّ حياتي تتوقف على ذلك.

- رائحة زكيّة.. تذكّرني بشاي والدتي!

كانت ليليان قد جلست قبالي بعد أن وضعت الشاي على النّار. وكنت
قرّرت أن أكون لبقاً مهما كلفني ذلك.

- أنت ولد طيّب. حفظ الله والدتك وحفظك لها.

غابت ابتسامتها فجأة وهي ترمقني بنظرة مترددة:

- اصدقني القول يا بني.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

تراجعت كل الثقة المستعارة التي غلفت حركاتي منذ حين. ألقيت نظرة على ديانا التي تجلس قبالة الشرفة، منشغلة بتقليب صفحات كتابها. ترددت لحظة. أحسست بوقع السؤال الفاصل الذي سيجعل حياتي شفافة أمام عينيها. ثم استجمعت شجاعتي وأنا أمضي في سرد حكايتي.. الغرق، الرّصاصة، التشرد، الألم والإدمان.. ليست سيرة ذاتية اعتيادية يعرضها شاب يرغب في ودّ فتاته! لم ترفع رأسها ولم تقل كلمة واحدة، لكنني لمحت حركة كفها وهي تخفي دمعة سالت عند طرف عينيها. حافظت على الصّمت لبضع دقائق، تحاول طمس علامات تأثرها، لكنّ صوتها بدا مبحوحا حزينا وهي تسأل بارتباك:

- الرّصاصة.. هل تشعر بها الآن؟

ابتسمت، وأدركت أنّي أحرزت بالصدق والصّراحة نقاطا أكثر ممّا حاولت تحصيله بالتصنّع والتكلف. قلت:

- منذ بدأت في العلاج مع الشيخ المختار، أصبحت أعيش حياة شبه عادية. لم يظهر شبح الرّصاصة منذ فترة...

قاطعتني ليليان في اندفاع:

- المختار لا يؤتمن جانبه! من الأفضل أن تعرض نفسك على طبيب حقيقي!

حين قرأت علامات التوهان في ملامحي تنهدت ثم أردفت موضحة:

- هؤلاء الشباب عرفتهم منذ سنين.. كانوا أطفالا مرحين. يرتكبون الأخطاء، لكنهم يخبّون جيرانهم ويعاملونهم باحترام. لم ينادني أحدهم بالكافرة قبل مجيء ذلك الشيخ!

همهمت مستنكرا:

- لكن الشيخ المختار.. لو تعلمين كم هو رجل طيب!

- أعلم جيّدًا فضائله. أعاد الشباب المنحرف إلى الطريق المستقيم وأعطى لكلّ منهم مهنة شريفة. لكنّه جعلهم أيضًا أشخاصًا متعصبين ومنغلقين. انظر إلى مظهرهم كيف صار.. كأنّهم يتعمّدون البروز بشكل مختلف، لتكريس القطيعة مع حياتهم السابقة.. ومع المجتمع كله! رفعت كفيّ في حركة لإراديّة لألمس أطراف لحيتي الآخذة في النموّ. لم أحلقها منذ أسابيع، ليس لقناعة ما، وإنّما لأنّ الفرصة لم تسنح. لاحظت فجأة أنّي أصبحت أشبههم. تلك اللحيّ الناشزة التي يتعمّدون تركها من دون تهذيب هي من علاماتهم المميّزة.

تابعت ليليان في شيء من الحزن والحنين:

- ذلك الشاب الذي يشاركك السّكن.. عليّ. كبر مع ديانا ابنتي في بيت واحد. كنت أعهد بديانا إلى والدته حين كنت أعمل. عائلته كانت تعاني بعض المشكلات الماديّة، فكنت أحاول أن أمدّ يد العون بتكّتم.. أشتري له ولإخوته الهدايا والثياب في رأس السنة، وحتّى في أعياد المسلمين. حين ناداني يا «كافرة» غلبتني الصدمة!

أخرجت صليبا فضيًّا من طيّات ثيابها، كان يتدلّى من سلسلة رقيقة حول عنقها وقبّلتها في خشوع قبل أن تضيف وعبرات محبوسة تتلألأ في عينيها:

- نحن أيضًا مؤمنون يا ولدي!

مضت ربع ساعة تجاذبنا خلالها أطراف الحديث. استدعيت من ذاكرتي حوادث شتّى مسرحها الجزائر ومرسيليا وليون. وجدت العفويّة طريقها إلى لساني وتخلّصت من لجام الخجل. وانحسر تحفّظ ديانا واسترسل بيننا الكلام. حين دخلت ليليان بعد أن حضّرت الشاي، كانت ديانا تضحك. وكانت ضحكتها مثل نوتة موسيقيّة هشة تربّت على جدار قلبي. رmqتها والدتها في دهشة، وقد قرأت في عينيها حينها فرحة عارمة. علمتُ في ما بعد

أنّ ديانا لم تكن قد ضحكت بتلك الطلاقة منذ سنوات. وقد أحسست حينها أنّي أخيرا قد أدّيت رسالتي في هذا العالم.

كان كلّ شيء مرسوما بدقّة حتّى تجتمع طريقانا. كان لزاما عليّ أن أواجه الموت مرّة بعد مرّة، فأنجو من الرّصاصة وأحملها في رأسي وأنجو من الغرق والعاصفة وأعبر فرنسا من جنوبها في اتّجاه العاصمة، لأكون سببا في ضحكة من القلب تشفيها من كآبتها المزمّنة. وكان هذا إنجازا كافيا في نظري. يمكنني الآن أن أطوي حصيري، أتأبّطه وأقفل راجعا من حيث أتيت، من دون ذرّة ندم!

قالت ليليان حين كنت أهمّ بمغادرتها عند باب الشّقة، وهي تضغط على ذراعي في رجاء:

- هل يمكنك المرور علينا مرّة أخرى خلال الأسبوع؟

وسأظلّ بعد ذلك بأيّام أتقلّب في فراشي ليلا صريع السّهم الأشدّ فتكا.. تلك الضحكة الرّقيقة الّتي خصّني بها الفتاة المقعدة، بعد سنوات من العبوس. وخلال الأيام التي تلت، ستكون لي محطة شبه يوميّة في الشّقة العاشرة من العمارة الرّابعة، حيث ينتظرنني كوب شايّ منعنع حارّ، وبسكويت بيتيّ الصّنع، وجلسة عائليّة مريحة.

في تلك الفترة، كانت قضية شاب مسلم متهم بتفجير إرهابي تشغل الرأي العام. شركة متخصصة في الأبحاث الكيميائية انفجر أحد مختبراتها في مساء يوم عمل، وذهبت ثلة من الباحثين الشبان ضحية العملية. المتهم كان باحثا ضمن موظفي الشركة، وقد نجا من التفجير -الذي يقال بكونه انتحاريا- بأعجوبة. لم تكن القضية تشغلي بشكل خاص، لكن عليا والمختار وشباب المجمع السكني كانوا يأتون على ذكرها باستمرار، حتى إن الشيخ أفرد لها خطبة جمعة في مسجد المجمع الذي يؤم المصلين فيه بنفسه. وقد بدا أن شقا ما طرأ بسببها. فالبعض يؤيد ويدعي أن فرنسا تستحق بعض الضربات الموجعة، لقانونها المانع للحجاب ولتضييقها على الملتهين ومضايقتها لرواد المساجد. والبعض الآخر يرتي التريث والمسالمة، ويرفض الردود العنيفة. ومن حين إلى آخر يصعد صوت واثق يميل إلى نظرية المؤامرة. ماذا لو كان الشاب بريئا ويراد التضحية به للإيقاع بالإسلام وتشويه صورة المسلمين؟

لم أكن من أنصار نظرية المؤامرة في المطلق، وأن الكل يتأمر علينا ليهلكنا ويفسد علينا حياتنا. لكنني وبشكل غريب كنت أستسيغها تلك الأيام أكثر من أي وقت مضى. في وقت سابق من حياتي الطائشة، كنت ما يسمى بالعنصر المحايد.. أو حتى السلبي. لا أذكر أن قضية شخص أو شعب ما حرّكتني أو أثارت حماسي. فلسطين؟ كنت أسمع عنها بشكل عابر. العراق؟ أظني برهنت في رسالة سابقة أن أمره لا يكاد يعنيني من قريب أو بعيد. حتى أزمة الجزائر التي هزت مراهقتي وصنعت مأساتي، فقد خلّفت قلبي رمادا ينقم على كل الجهات والجبهات!

لكن أن تكون وسط جماعة حراس العقيدة طوال اليوم، فإن كثرة

الدويّ ستجعل منك نحلة لا محالة. أسوار العزلة المضروبة حول العمارة الثامنة وما جاورها، والنظرات القلقة التي تصدر من وإلى أهل الصليب المتاخمة ديارهم، والتأهب التام الذي كان عليه المختار ورجاله من تدريب على الدفاع عن النفس إلى دورات التنمية الذاتية.. كلّ ذلك متراكما فوق تجربة تشرد وأخرى عامل من الدرجة الدنيا في ورشة بناء، جعلني أخلص إلى ذلك الاستنتاج المريع.. لم نكن مرغوبين على الأرض الفرنسيّة! ولم أعد أستبعد أن نرمى -كمهاجرين ومواطنين من الدرجة الثانية- بكلّ الشّرور على أن نحمل متاعنا ونرحل على الفور!

لذلك تملّكني شعور قويّ -وقد بدا لي صميما نابعا من إيمان ذاتي لا تأثير لعامل خارجيّ فيه- بأنّ الرّجل لا يمكن أن يكون انتحاريّا. فالانتحاريّون غالبا ما يقضون قبل الآخرين. وانتابني إحساس عميق بالشفقة عليه، كأنّه من بعض أهلي! كان رجلا غريبا مثلي وقد مكّنته شهادته العلميّة من العمل في منصب يناسبه، لكنّ أحدهم يعتقد أنّه لا يستحقّ أن يكون هناك، في صفوف العلماء، فاستغلّ حادثة ما ليضرب الرأس العربيّ المزعج!

وفي تلك الأيام رأيت المختار محتدّا، يصيح برجاله ويضرب بقبضته الطاولة حين يرده جديد بشأن القضية.. ثم يختلي بأبي أحمد وبعض الحراس طويلا في غرفة بالقبو يتداولون أمورا تتجاوزني. ولعلّها تجاوزت حدود الكلام المجرد، فقد بلغتني أصدااء عمليّات حرق ونهب وتشويه واجهات مبانٍ حكوميّة بعبارات تدين العنصريّة...

- أيعجبك ما يفعله أصحابك؟

فوجئت بظهوره أمامي على حين غرّة بينما كنت منهمكا في كنس الساحة. أبو صالح البقال.

- أصحابي؟

- كلّ الخراب الذي يعمّ المدينة، لشيخك المختار وحرّاسه اليد العليا

فيه. ودورك قادم لا محالة.. المختار لا يجنّد أحدا عبثا.

لم أكن أستوعب كلماته، ولم يكن يأتي على ذكر التجنيد لأوّل مرّة. لكنّ أحداث الأيام الماضية كانت تسبغ على تصريحاته منطقا ومعنى. ولم أجد ما أدفع به الأذى عن شيخي الذي أحترم وأبجل.. فحدّقت في البقال من دون كلمة. حينئذ أخذني من ذراعي من دون تردّد وقال:

- تعال معي.

«إخوتي، أشدّ على أياديكم وأبارك مساعيكم.. فإنّكم والله في جهاد».

دخلنا مسجدا صغيرا، لم أكن لأتعرّف على موضعه لولا أن قادي إليه أبو صالح. كان عبارة عن قبو ضئيل في عمارة سكنيّة قريبة. بخلاف مسجد المختار الذي لا تخطئ العين قبّته العريضة ومئذنته الباسقة -التي لا يرفع فيها أذان احتراما لقانون اللائكيّة- لم تكن هناك من علامة مميّزة تدلّ على غرفة الصّلاة تلك. جلست مع مرافقي في الصّفوف الخلفيّة، وأصغينا إلى إمام يلقي درسا على مستمعيه.

«ليس الجهاد مقتصرا على حمل سيف أو بندقية. ليس الجهاد حكرا على خوض الحروب والروح على الكفّ. هذا الذي أنتم فيه يا إخوتي، جهاد أيضا. جهاد النّفس.. أنتم في بلاد تكثر فيها الفتن وتحاصركم من كلّ جانب، نساء كاسيات عاريات يتمايلن في الشوارع، وموائد عامرة بخمور ومأكولات محرّمة، مغريات ماديّة وبنوك ربويّة. تُصعّب عليكم الصّلاة في المساجد وتُمنعون عنها في وقت الدّراسة أو العمل، تحاصركم الثّلوج والأمطار في الشتاء، لكنّها لا تردّكم عن اجتياز المسافات البعيدة.. من أجل صلاة في جماعة، من أجل صحبة صالحة، من أجل طاعة...»

تلقّت من حولي في اهتمام، فرأيت وجوها واجمة غلبها التأثير، بعضها يكاد يدمع. كانت كلمات الرّجل تلامس قلوبهم، كأنّه يضع يده على موضع الجرح في نفوسهم، يتحدّث عن همومهم.. لكنّ قلبي كان غائبا، لعلّي لا أنتمي إلى أولئك المجاهدين الذين مدحهم الشيخ للتوّ. حتّى تلك

اللحظة كانت الحاجة هي التي تقود خطواتي. لم أقدم على شيء ينم عن إرادة أو إيمان أو قناعة. كنت ريشة في مهبّ الريح.

«فالثّبات الثّبات يا إخوة الإيمان.. والحذر الحذر من فخاخ الغربة الثلاثة! الفخّ الأوّل يا إخوتي، هو التّبعيّة. أن يستلسم المرء أمام مغريات الحياة في الغرب وينسى هويّته، فيصبح واحدا منهم.. يعيش كما يعيشون، ويأكل ممّا يأكلون، ويشرب ممّا يشربون والعياذ بالله. يحسبون الاندماج ضالّتهم ورضا المجتمع غايتهم، فيتبنّون لأصولهم، يغيّرون أسماءهم وأشكالهم وينسون أنّ للكون ربّا هو أولى بالطاعة والخشية.. وبما أنكم هنا اليوم، فإنّني لا أحسبكم منهم...»

ابتسم الشيخ وهو يلقي نظرة شاملة على الحشد، يربّت بنظراته على أكتاف خانت أصحابها نظرات مذنبه، أو ذكرى زمن ولّى قبل التّوبة عكّرت صفو اللحظة.

«أمّا الفخّ الثّاني فهو العزلة. أن يبقى المرء في معزل عن المجتمع الذي يعيش فيه. هو هنا. لكنّه ليس هنا. وكلّنا نسقط في هذا الفخّ غالبا.. نحن نعيش في فرنسا، لكنّنا لا نهتمّ بمشاغل المجتمع الفرنسيّ، نتفرّج على الأزمات من بعيد ونقول «فخّار يكسر بعضه بعضا». مع أنّ المسلم يجب أن يكون عضوا فاعلا في المجتمع.. أيّ مجتمع كان! بحركيّته، باهتمامه، بانسجامه، هو داعية. هو قدوة. هو واجهة للإسلام. تعلمون.. حين تحصل حادثة ما، لا أحد يصف مواطنا فرنسيّا على أنّه من أصل «يوناني» أو «روماني» أو «مكسيكي».. لكن حين يكون من أصل عربيّ أو إفريقيّ، فتلك الصّفة هي الأبرز والأهمّ في نظر المجتمع بصفة عامّة، والإعلام بصفة خاصّة. والقضية التي تشغل الرّأي العام في أيّامنا هذه خير دليل! لذلك فلنجعلها صفة بارزة في الخير.. لنجعلهم يقولون: عربيّ أنجز مشروعا، أو حقّق نجاحا.. لكن حذار، فقد يقودنا البحث عن عرفان المجتمع إلى فخّ التّبعيّة. نحن لا ننتظر جزاء ولا شكورا على ما نفعله، بل الله هو المجازي...»

أخذ الشيخ جرعة ماء ريثما يستوعب الحاضرون العبرة، ثم أردف بلهجة جادة وصوت عميق:

«أما الفخّ الأخير والأخطر فهو العدوانيّة واتباع العنف. وهو أمر للأسف تقع فيه جماعات تسمّي نفسها بالإسلاميّة، والإسلام منها بريء! الإسلام لم يقل اعتدوا على الآمنين ورؤّعوا المواطنين. لم يقل هددوا وأفزعوا وعادوا. وإنّه ليحزنني ما يحصل من حولنا اليوم. شباب في عمر الزهور لا يكاد يتعرّف على دينه، يغرّر به ليدخل متاهات العنف المهلكة. ألم يقل الله عزّ وجلّ في كتابه الحكيم ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾؟ ألم يقل ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾؟ والآيات التي تحتّ على حسن الخلق في مخاطبة غير المسلمين كثيرة...»

- لكنّه قال أيضا ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾، وقال ﴿وقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾...

التفتت الأبصار إلى الشاب الذي أخذ الكلمة من دون استئذان، وبدت في عينيه نظرة تحدّ سافرة. تذكّرت وجهه على الفور. كنت قد رأيته مرارا في حضرة الشيخ المختار. سرى التوتّر في الحضور وقد توقّعوا الأسوأ. مواجهة بين مدرستين. ابتسم الشيخ المحاضر وقال للشاب:

- ما اسمك يا بنيّ؟ تقدّم إلى الصفّ الأوّل حتّى أراك..

تملّل الشاب في مكانه ولم يتحرّك لكنه قال:

- اسمي أسامة..

خمن البعض أنّ الاسم ليس حقيقيّا، لكنّه اختاره إمعانا في التحدّي.

- أخبرني يا أسامة.. هل تريد أن تحمل السلاح؟ وتقاتل؟

- نعم!

- اذهب إلى فلسطين إذن.. حيث لا شبهة ولا اشتباه!

- أوليست هذه دار حرب أيضا؟

رمقه الشيخ متعجبا:

- دار الحرب؟ هل تعلم كم مضى من الوقت منذ انطفأت هذه التصنيفات؟ يا بني، نحن الآن في زمن تغيّرت فيه خارطة العالم بشكل كبير. أصبح الإسلام دينا معروفا ومعتزفا به في مختلف أصقاع الأرض. يمكن للمسلم أن يمضي أنى شاء لتقابل المساجد في كلّ عواصم العالم وحتى أريافها، ولا أحد يقطع طريقه أو يمنعه عن ربّه.. ما عدا عددا قليلا من المناطق المعروفة التي ما زالت أتون الحرب تشتعل فيها. لذلك، لا يا ولدي، لسنا في دار حرب! نحن في بلد استقبل المسلمين المنفيين من بلادهم التي تدّعي الإسلام وضمن لهم حرية الدين والمعتقد وأمنهم على أرواحهم وأموالهم.. اسأل آبائك أو أجدادك، ما الذي جاء بهم إلى فرنسا؟

- لكنّ الوضع اختلف يا سيّدي، ألا ترى كيف صاروا يضيّقون على الملتحين؟ ويمنعون المحجّبات من الدّراسة والعمل؟ ويغلقون المساجد؟ ويتهموننا بالإرهاب؟ ألا يعلنون علينا الحرب بهذا الشكل؟
بدا الشاب محتداً وقد علت حماسته، فقاطعه الشيخ في حزم:

- هل تعلم كم مسلما تؤوي فرنسا؟ نحن نزيد على الملايين الستة! نحن أكبر عددا بكثير من سكان موناكو وسلوفينيا وألبانيا ولكسمبورغ مجتمعين! عددنا يقارب عدد سكان سويسرا! يمكننا أن نكوّن دولة داخل الدّولة لو أردنا. ولكن هل نريد؟ لو شئنا لاجتمعنا حول رجل واحد.. أو رجال، وحّدنا صفوفنا خلفهم وأوصلناهم إلى البرلمان أو المجالس البلديّة والنّيابيّة. كنّا جعلناهم يوصلون مطالبنا ويخدمون مصالح أمّتنا.. لكن كيف نفعل؟ كيف نفعل ونحن مشرذمون متفرّقون فينا السّلفيّون والحدائيّون والتكفيريّون والمندمجون؟

- سيّدي، البرلمان والمجالس النيابية والدساتير.. كلّها منشآت وضعية لا يصحّ للمسلم الاحتكام إليها.. مرجعيّتنا هي القرآن والسنة!
- إذن نقنع الحكومة الفرنسيّة بالقرآن والسنة حتى تحترم ديننا؟
- نعرض عليهم الإسلام، فإن لم يرضوا قاتلناهم!

قال الشيخ في سخرية:

- اعرض عليهم أن يدفعوا لك الجزية أيضا!
- امتقع وجه أسامة في حين سرت موجة ضحك بين الحاضرين، لكنّه تماسك واحتجّ قائلا:
- لا يدفعونها لي.. بل إلى بيت مال المسلمين!

هنا انفجر الضحك بحرّيّة وانطلاق أكبر وقد أصبح الحوار مشيرا للهزل، فأشار الشيخ بكفّه طالبا الهدوء، ثمّ قال مسترجعا نبرته الجادة:

- أعلم أنّك تؤمن بما تقول يا بنيّ.. وهذا يؤلمني. أين هو بيت مال المسلمين؟ بل أين هم المسلمون حقّا؟ ثمّ هل تعلم ما هي شروط الجهاد يا بنيّ؟ أولّها أن يكون هناك عدوان واضح على الأنفس أو الدين أو الممتلكات فيقوم النّاس مدافعين عن بكرة أبيهم، وهو ما يحدث في فلسطين المحتلّة مثلاً، وثانيها أن يعلن وليّ الأمر الخروج إلى الجهاد لقتال عدوّ في عقر داره.. فأيّ الحالات تنطبق علينا هنا؟

تلعثم الشابّ ولم يحر جواباً، فتابع الشيخ بحزم:

- نحن في بلاد تحكمها قوانين، وتربطها بمختلف بلاد العالم معاهدات ولوائح.. دخولك إلى الأراضي الفرنسيّة بتأشيرة وحصولك على الإقامة وربّما الجنسيّة يعتبر في عرف هذا العصر بمثابة المواثيق قديما، وإعطاء للأمان، فإذا آذيت أو اعتديت فقد خنت الميثاق الضمني. إن أردنا البقاء هنا فلنحتكم إلى قانون البلاد ولنبحث عن وسيلة لنُسمع رأينا من خلالها، نخاطب النّاس بالحكمة والموعظة الحسنة ونوصل للغرب صورة

حسنة عن ديننا.. وإلا فالهجرة! ولكم أن تعودوا غزاة في يوم من الأيام
إن شئتم، بقوة تخضع الدولة ولا تعتدي على الأمنين!
حين غادرت المكان وأخذت أتمشي مبتعدا في الظلام، همس أبو صالح
إليّ في شماته:

- سيعود الولد إلى المختار باكيا!

لم أضحك. كنت متخبطا في داخلي، مثل أسامة أو أكثر. سمعت أبا
صالح يواصل:

- هذا الشّباب المسكين مغرّر به.. المختار غسل أدمغتهم! ما يحيرني
هو المختار نفسه.. هل هو مقتنع بما يقول ويفعل، أم أنّ أحدهم غرّر
به هو الآخر؟

هتفت باستنكار:

- وهل المختار ولد ساذج حتّى يغرّر به؟

ندّدت عن الرّجل ضحكة صفراء، وسبقني باتّجاه المقهى.

حسب تشخيص الدكتور مالك، كنت مصابا بمتلازمة «شلة المقهى».
وهو مرض يظهر غالبا عند الذكور في العقد الخامس، لكنني أصبت به
في وقت باكر جدّا بسبب بطالتي!

تعرفت على مقهاي الجديد ذات عصر مشمس. كنت أقصد بقالة أبي
صالح لكنّه لم يكن في دكانه. كان المحلّ مفتوحا من دون أثر لصاحبه.
وقفت في حيرة أتفحص الشارع، حين لمحته يلوّح لي من بعيد، من
شرفة المقهى. على الطريق الرئيسية المؤدية إلى مدخل المجمع السكني،
كانت محلاتّ خاصّة بالجالية العربية تبدو للعيان. مجزرة لحوم حلال،

بقالة شرقية، محلّ فواكه وخضراوات، دكان حلاق، مطعم كباب ومقهى نارجيلة! خلاصة ما يحتاجه المقيم العربي حتّى يشعر بأنّ الوطن قد شدّ الرّحال معه وحطّ المتاع حيث يكون! وفي شرفة المقهى ذلك اليوم، تعرّفت إلى شلة المقهى الجديد.

كان مالك تونسّيّا في بداية الأربعينات، دكتورا في الطبّ يمارس المهنة في مستشفى خاصّ إضافة إلى عيادة مسائيّة.. لكنّه في الفترة التي عرفته خلالها كان يمرّ بفترة فتور تجاه كلّ شيء. يعيد ترتيب أولويّاته، على حدّ قوله. فأخذ إجازة مفتوحة من كلّ أشغاله وأدمن جلسة المقهى تلك. يقول مازحا: «أنا وأنت أدركتنا المتلازمة قبل الأوان!». فقد كنّا شايّين بين مجموعة من الشيوخ. أبو صالح البقال المغربي وأبو مازن المهندس السّوري المتقاعد وأبو محمّد العسكريّ المصريّ السّابق. وكان هو فاكهة الجلسة وطعمها اللاذع في آن. في غيابه يهبط على جمعنا ملل رهيب. فقد كانت لديه أفكار غير مألوفة ومثيرة للجدل. يلقي بنرده عابثا ليلتقط فكرة عشوائيّا ويشغلنا في تمحيصها طوال الجلسة. وما كان لأمثاله أن يضيعوا أوقاتهم الثمينة مع أمثالنا إلا لسبب مجهول، سيظلّ لغزا بالنّسبة إلّيّ إلى النهاية.

عن المتلازمة التي اكتشف أعراضها يقول: «شلة المقهى ليسوا أصدقاءك، لأنّك لا تفضض إليهم، ولا يحلّون مشكلاتك، بل لا يعلمون بوجودها من الأساس ولا يهتمّون.. أنت تدخل عليهم ثقيلًا بهومك، وتنهض من عندهم بنفس الثقل. ولكن يا للعجب، فإنّ كثافة الهموم تنقص بتخلّل المرح لذلك الجسم الصلب المتكتل بعضه فوق بعض، فيغدو محتملا بعد أن كان لا يطاق. وأنت إلى جوارهم، يخالجك إحساس بأنّ همومك قد تلاشت أو خفّت وطأتها.. لكن ما أن تفارقهم وترجع إلى حياتك الأخرى حتّى تتفرّق سحب المرح وتعود الكتل لتكدّس مثل ذي قبل، فتغرقك الكآبة. هم تمويه وقتيّ يزيّف المشكل ولا يعالجه. تماما مثل المخدّرات!».

وكم كان محققاً في توصيفه. فقد أدمنتها، تلك الجلسة، كما أدمنت
سابقاتها في عتابة وتبسة والجزائر العاصمة. ما أن تعرّف أنفي على عبق
التبغ ودخان النارجيلة وبلغ أذني حفيف ورق اللعب وضربات الترد في
الصناديق الخشب، حتّى استحضرت ذاكرتي تلك «الحالة» التي توحى
بنوع من «الوطن»، أحمله في جراي، أطويه وأخزنه ثمّ أنفضه وأفترشه
متى احتجته! بعض الرّحالة أو المحاربين القدامى، كانت لهم زوجات في
كلّ مدينة يقصدونها، فلا يشعر أحدهم بوحشة أو غربة. وأنا كنت لي في
كلّ مدينة تردّدت عليها «شلة مقهى» تبدّد سأمي ووحدي.

لكن شلة المقهى الجديدة كانت مختلفة. فلم يكن هناك من قاسم
مشترك يجمعني بأفرادها، غير الجلسة التي نحتاجها بنفس القدر وبنفس
درجة الإلحاح. ومع ذلك، فستحملني الأيام المقبلة إلى تركها فترة طويلة
قسراً لا طواعية.

أمّا في ذلك اليوم، وبعد زيارة مسجد الشيخ البشير تلك، أعاد أبو
صالح رواية تفاصيل المناظرة بين الشيخ وتلميذ المختار على شلة
المقهى. فضحكوا وضجّوا بمزاح لاذع عن المختار وفرقه. فانزويت عنهم
مستاءً. هتف أبو مازن يناوشي:

- إحسائي يقول إنّ المختار يدسّك علينا لتحمل إليه الأخبار!

ولم يكن ذلك النوع من المزاح يمتعني. وكأنّما أشفق الدكتور مالك
عليّ ممّا يعتريني، فانتحى بي جانباً وقال بلهجة جادة:
- دعك منهم وتعال.. أريد أن أقصّ عليك حكاية.

«في زمن ما، كانت هناك سفينة تعبر الأطلسي. فلنقل إنها باخرة كبيرة مكونة من ثلاثة طوابق.. وطابق رابع في أعماقها السفلية لا يكاد يعرف عنه أكثر الركاب شيئاً..»

قاطعت حكاية الدكتور مالك مستفسراً:

- سفينة مثل التايتانيك؟

- إن كانت صورة التايتانيك تساعدك على التخيل، فلنقل إنها كذلك. في الطابق العلويّ من الباخرة يسكن على القوم، أمراء ورجال أعمال وسياسيّون يستمتعون بجولة بحريّة مع عائلاتهم.. لكلّ منهم جناح خاصّ واسع الأرجاء. وفي الطابق الأوسط نجد موظفين سامين وأطباء ومحامين ومهندسين يسكنون قمرات صغيرة الحجم محدودة الرفاهية. ثمّ في الطابق السفليّ أفراد من الطبقة الكادحة، خدم لمسافري الطبقة المخمليّة أو عمّال على متن الرّحلة، ولا شك أن أولئك الأفراد كانوا ينامون على أسرة متلاصقة في فضاء مفتوح. لكنّ أموراً غير متوقعة حصلت في أثناء عبور الأطلسيّ..

- الباخرة اصطدمت بجبل جليد؟

- انس التايتانيك قليلاً.. باخرتنا لم تتحطّم، ليس في البداية.. لكنّها دخلت مثلث برمودا.

- هذا أسوأ! السفن لا ترجع أبداً من ذلك المكان، تختفي ولا يجد لها أحد أثراً!

- قبل أن نكمل القصّة، دعني أقدم لك أبطال الحكاية.. من بين كلّ ركاب الباخرة سنهتمّ بثلاثة أشخاص، فلنسمّهم (أ) و(ب) و(ج).. (أ) من الطبقة العليا، ابن أحد المسؤولين الكبار في بلاده وكان يمضي شهر عسل مع عروسه على متن الباخرة.. أمّا (ب) فهو من الطبقة الوسطى، مهندس ميكانيكا، وكان مكلفاً بمراقبة المحرّكات طوال الرّحلة. وأمّا (ج) فهو سجين

محكوم بالإعدام كان يتمّ نقله من سجن إلى آخر في زنازين مهيئة في قبو السفينة.

عندما مضى وقت طويل على الباخرة وهي تسير على غير هدى، بدأ الرّكّاب في التملّص والتساؤل. فاضطرّ القبطان إلى إعلان فقدانه المسار! عمّ هرج كبير وارتبك الجميع، في حين واصل طاقم السفينة محاولات التواصل مع سفن أخرى عبر الرادار، من دون جدوى. في ظل تلك الظروف الحرجة كان على أحدهم أن يمسك بزمام الأمور. اقترح (أ) تكوين خلية أزمة تدير شؤون الباخرة وتقرّر خطة تحكّم في الموارد المتوافرة في مخازن الغذاء والدواء، لضمان تواصل الحياة على متن الباخرة أطول وقت ممكن. لقي الاقتراح ترحيبا كبيرا، وتكوّنت الخلية على عجل. وكان من الطبيعي أن يكون كلّ أفرادها من مسافري الطابق العلويّ، فهم متعودون على اتخاذ القرارات ووضع الخطط. كما تمّت الاستعانة بذوي الخبرات من مسافري الطابق الأوسط ومن بينهم (ب). وتكوّن بالتوازي مجلس أعلى يراقب عمل الخلية ويقيّمه، وهو يضمّ كبار رجال الأعمال، إضافة إلى القبطان نفسه. بعد فترة وجيزة من بداية عمل الخلية، قرر المجلس تسريح (ب)!

- لماذا (ب) بالذات؟

- حين طُلب من (ب) تقديم رؤيته للأزمة أمام المجلس الأعلى، اقترح بكلّ جسارة أن تضمّ الخلية ممثلين من الطابق السفلي! أوليسوا ركابا على متن الباخرة ومصيرهم من مصيرها؟ إذن من حقّهم أن يكون لهم ممثلون يضمنون حقوقهم، فلا يكون هناك إجحاف في توزيع المؤن مثلا. موقفه وقناعاته كلفته مقعده في الخلية ومنعت عنه امتيازاته السابقة كفرد من طاقم الباخرة. فما كان منه إلا الانضمام الفعليّ إلى أهل الطبقة السفليّة، والتحريض على مظاهرات واحتجاجات مطالبة بحقّهم في تقرير مصيرهم. قاد المظاهرات والتحرّكات التحرّرية للمطالبة بالمشاركة في اتّخاذ القرار، حتّى رضخ المجلس الأعلى! ولم يكن للمجلس خيار آخر. فقد خرجت

الأمر عن سيطرته حين امتنع الخدم عن تأدية أعمال التنظيف وتوقف الطباخون عن خدمة مطعم الطبقة العليا الفاخر.. وأضرب البحارة والملاحون. فقبل المجلس الأعلى بحصول أفراد من الطابق السفلي على مقاعد في مائدة خلية الأزمة.

- جميل...

- كان ذلك ليكون جميلا حقًا، لو كانت نوايا المجلس الأعلى دعم ديمقراطية فعلية، لا تكميم أفواه المحتجين وإخماد ثورتهم بإطعامهم فتات من الحرية! وقد ندم المجلس ندما شديدا في ما بعد حين كشفت استطلاعات الرأي عن شعبية مرتفعة لجماعة (ب) وتراجع لشعبية ممثلي الطبقة الراقية بين أبناء الطبقة نفسها. انقسم أعضاء المجلس الأعلى إلى استئصاليين كانوا يريدون دفع جماعة (ب) إلى الثورة ليتسنى لهم قهر «الحركة الثورية» ومن ثمة حلّ الحركة نهائيا.. وعقلانيين، كانوا يعتقدون دائما في إمكانية تدجين الحركة، وأنّ اللجوء إلى التدخل بالقوة لا ينبغي أن يتمّ إلا في حالات الضرورة القصوى. ولما كان عدد الاستئصاليين أكبر وشوكتهم أقوى، فقد تمّ تنفيذ مخطّطهم.

انكبت قوات الأمن على بعث حركة متطرّفة مسلحة من العدم، مستخدمين السّجناء الذين كان يتمّ نقلهم على الباخرة! انتقيت من ضمن هؤلاء المساجين عناصر مطواعة وموثوقة، أعلنت استسلامها واعتزامها تنفيذ المطلوب منها من دون أدنى حرج أو ضمير، ما دامت تضمن لها الحرية في ما بعد! تمّ إطلاقهم على سطح الباخرة، برئاسة (ج)، حاملين راية «الجناح العسكريّ المسلّح لحركة (ب)»! والهدف الأوحد هو إعطاء انطباع للرأي العام بأن حركة (ب) بكاملها تسعى إلى فرض سيطرتها على الباخرة باستعمال القوة. أخذوا يجوبون سراديب السفينة طولا وعرضا ويقنعون الرّكاب بضرورة رفع السّلاح في وجه الاستبداد. كانوا ينجحون في تجنيد ذوي الفكر المتطرف والأيديولوجيا المتشدّدة الساخطين على أوضاعهم.

لكنّ المسار الذي اتخذته الأحداث كان يمضي باتجاه هاوية حقيقة. كانت عمليات استخدام المجرمين والسجناء قد تفاقمت وأُخذت بتهاونٍ، بشكل خرج عن السيطرة. ووقفت خلايا التجسس عاجزة بعد أن غدت غير قادرة على تمييز «عملائها»! كان لكل عضو من المجلس الأعلى عملاؤه الخاصون به، وكلّ طرف كان يعتقد أنه يتعامل مع إرهابيين حقيقيين، في حين أن هؤلاء الإرهابيين كانوا عملاء مجندين من قبل طرف آخر! وأغلق الأمر على مصالح الأمن كافة، وقيادات حركة (ب)، وعات الإرهابيّون الحقيقيّون والمجنّدون في السفينة فسادا!

وفي خضمّ ذلك الالتباس، فقد (ب) ثقته في الحركة ورفاق الكفاح. لم يعد يتعرّف العدوّ من الصّديق، ولا يميّز بين الصّادق والمخادع في دفاعه عن الرؤية الجماعيّة التي جمعت شمل المناضلين في البداية. ومع حملات التجنيد المكثّفة، وحملات التشويه المستمرّة من أبواق المجلس الإعلاميّة، اقتنع الكثيرون بضرورة التسلّح على الفور.. لأنّ المذبحة آتية لا محالة! لكنّ (ب) قاوم بكل ما أوتي من طاقة وسعى إلى ثني رفاقه عن التحوّل إلى العمل المسلح.. من دون جدوى. وفي ذلك الوقت، تبين لـ(أ) بعد بحث واستقصاء أنّه قبل وضع الخطة الشيطانيّة قيد التنفيذ، لم يكن هناك لا جناح مسلّح لحركة (ب) ولا تهديد للمسار الانتخابي ولا نداء للكفاح الدّموي، ولا أدنى أثر للإرهاب! لكنّ الأعمال المتهوّرة التي خطّط لها زملاؤه من الاستتصاليّين هي التي دفعت بالباخرة إلى جحيم العنف التّصاعديّ، فتصدّعت ثقته في كلّ المحيطين به.

- ما الذي فعله إزاء هذا الموقف؟

- ما رأيك أنت؟ هل كان (أ) يملك خيارا ما؟ هل تعتقد أنه قد ينضمّ إلى الثوار كما فعل (ب)؟ الانتقال كان أسهل بالنسبة إلى (ب)، فهو حرّ، لا عائلة ترافقه، وهو ينتمي إلى طبقة متوسطة.. لا ثروة ولا ممتلكات يخشى عليها. أمّا (أ) فهو في وضعه الطبيعي بين أبناء طبقته. حتى لو استشعر منهم تغيرا فهو لا يملك لمحيطه ذاك بديلا.. سيجد لهم الأعذار، ويتقبل

طغيانهم.. لذلك فإنّ انقلاب أبناء الطبقة الرفيعة على النظام السائد نادر الحدوث، والقصص والحكايات مكانه الأثير.. أما الواقع فمختلف.

- ماذا حصل إذن؟

- سأختصر عليك الصّراعات النفسيّة وتفاصيل الانهيار الشامل لعالم الباخرة كما عرفناه في بداية الحكاية.. المشهد الأخير، نرى فيه (أ)، (ب)، (ج) يتواجهون في بهو الباخرة، كلّ يدعم قبيلته، (أ) و(ب) بتردد وقلق، فكل منهما فاقد الثقة في عشيرته، منبتّ عنها رغم الاصطفاف الظاهري، و(ج) في ثبات وعزم. رغم معرفة (ج) بخدمته لنوايا الشرّ فإنّ ذلك لا يثير اضطرابه، فقد فعل ذلك طوال حياته.

- ثمّ؟

- ثم.. لا شيء!

- ما الذي حصل للباخرة؟

- الباخرة؟ ألم أقل لك؟ لقد غرقت!

- غرقت؟ وهل نجا أحد الرّكاب؟

- كلاً! هل نسيت؟ إنّهُ مثلث برمودا الذي لا ينجو منه أحد!

- والحكاية إذن، كيف وصلت إليك؟

- إنّها مجرد حكاية! لم أقل قط إنّها حصلت في الواقع!

رمقته في استنكار.. مجرد حكاية؟ لم تبد كذلك قط. كلّما تقدّم في الحديث ازداد يقيني بأنّ كلّ تلك الأحداث لا يمكن أن يكون مسرحها باخرة ما غرقت ولم يعلم أحد عن مصير رّكابها شيئاً. بادرته في شكّ كأنني قد أمسكت بخيط:

- إنّها ليست مجرد قصّة باخرة ما، أليس كذلك؟ أنت تلمّح لتاريخ بلد ما!

- الباخرة بالتأكيد تجسّد المجتمعات الحديثة بما فيها من تقسيمات

طَبَقِيَّة فَجَّة.. لَكِنَّ الإِطَار الجغرافي ليسا مهمَّما. البلد ذاته لا يعني شيئا..
الأشخاص الذين يعمرونه هم المفتاح.. فذات البلد يختلف عبر الحقب
الزمنيَّة كُلِّما تعاقب عليه أجيال مختلفة. لكن إن كنت مصرًّا على تحديد
إطار مكاني، فلنقل إنَّها أمريكا زمن ثورة العبيد السُّود!

- تكلِّم عن حقبة أعرفها.. فقد زدت الأمر غموضا! أليس في بلاد المسلمين
مثال يمكن أن يجسّد حكايتك بوضوح؟

أستفزّه وأستدرجه. أعلم يقينا أنَّ حكايته واقعة في مكان ما قريب، لكنّه
يتعمّد الترميز. يقول في عصبية:

- ابن المقفّع وأورويل كتباً السِّياسة على ألسنة الحيوانات، وأنت عاجز
عن متابعة حكاية بشر أسماؤهم (أ) و(ب) و(ج)؟! كلُّ بلادنا العربيّة بواخر
تعبر مثلث برمودا.. وهي تغرق واحدة إثر الأخرى، بأيدي ركبها لا بفعل
الموج أو الإعصار. مثلثات برمودا بأضلعها الثلاث.. الديكتاتورية، التطرّف
الأديولوجي بأنواعه، العصبيّة الإثنية والطائفية.. ترزح تحتها المجتمعات،
فتنهك نفسها بنفسها.. ويأكل بعضها بعضا من دون أيّ تدخل خارجيٍّ.
ربّما كانت باخرتنا لتهلك بعد زمن، وربّما كان ركبها ليقضوا بعد أن
ينفذ منهم الزّاد.. لكنّهم استعجلوا النّهاية، وأهلكوا أنفسهم بصراعهم
المستميت على السّلطة والثروات.. ولو أنّهم تعاملوا مع الأزمة برصانة
لربّما خرجوا من التّيّه أو وصلتهم النجدة.. ألم تلاحظ أنَّ انشغال الرّكاب
بمسألة من يتّخذ القرار شغلّتهم عن المعضلة الحقيقيّة.. كيفيّة الخروج
من مثلث الهلاك؟

- أنت تقول إنَّ مثلث برمودا وهم وإنَّ الباخرات المفقودة كانت تتعرّض
لأزمات داخلية تهلّكها؟

- تريد الحقيقة؟ نعم، مثلث برمودا أسطورة يا صديقي! لم يثبت علميًّا
أو إحصائيًّا أنَّ اختفاءات السّفن والطائرات والحوادث في المنطقة تفوق
ما يحصل في مناطق أخرى في المحيط. لكنّ الحكاية كلها كانت مفتعلة

من الصّحافة الصفراء في خمسينات القرن الماضي، كنوع من الغموض والإثارة. وإن أردت رأيي، فإنّ العواصف الاستوائية ربما تكون تفسيراً منطقيّاً محتملاً للحوادث التي أشيع غموضها. مثلث برمودا الحقيقيّ موجود فقط في رؤوسنا. في ما نختار أن نصدّقه!

عندما كنت طفلاً ومراهقاً، لم أكن أفقه الكثير في متاهات السياسة. وحين غدت شاباً، لم تعد السياسة تعينني من قريب أو بعيد. لكن حكاية الدكتور مالك أذكت نارا خامدة وأحيت ذكريات بعيدة سبق وركنتها إلى النسيان.

عمّي كان يردّد كلّما طافت بالأجواء أنباء جديدة عن الإرهابيّين الذين روّعت سيرتهم أفئدة الأهالي شيباً وشباباً: «ليس كلّ ما تراه العين حقيقة. عقلك قد يضلّلك.. لكنّ قلبك سيكون دوماً صادقاً». ما تراه عيني كان دماراً وخراباً وجزعاً مستبداً. كنّا نستغيث من وراء الأبواب المغلقة والجدر السّميكة.. نريد أماناً. نريد استقراراً. ولتذهب إلى الجحيم الانتخابات وحرية القرار! وقلب عمّي وحده كان يحدثه صادقاً بغير ذلك. أمّا قلب أبي - الصادق هو الآخر - كان يؤيّد ما تراه عينه. فهل يكون القلبان صادقين في الوقت ذاته وأحدهما يرى عكس الآخر؟ عمّي كان يقول أيضاً مشيراً إلى سلوك أبي: «أنت تصدّق ما تريد أن تصدّقه. إن جاءك خبر سيئ عن عدوّك، فستميل إلى تصديقه ولو انتفت البراهين». لكنّ العكس بالعكس أيضاً.. إذا ما جاءك نبأ لا يسرّ عن صديقك، فستكذّبه ولو استحكمت الأدلّة!

كم كانت حالنا آنذاك شبيهة بمجتمع الباخرة الذي وّصفه الدكتور مالك في حكايته الغريبة. الإسلاميون كسروا شوكة الجيش بفوزهم في

الانتخابات، فكان لزاماً أن تلغى الانتخابات وتقلب الطاولة بما عليها وتنقلب حرباً شعواء تحرق البلاد والعباد.

وسيطّل يونس راعي الغنم لسنوات يروي تفاصيل الحادثة التي يقول إنّه رآها بأمّ عينه. يقسم بأغلظ الأيمان إنّ شاحنات ضخمة محمّلة عن آخرها كانت تعبر المسالك الوعرة المؤدّية إلى الجبال، متجنّبة القرى والطرق المعبّدة، فتفرغ حمولتها في بقاع مجهولة لم تطأها قدم بشر. يقول إنّهُ اقترب في حذر خلفاً نعجاته شاردة ليلقي نظرة من كُتب، فرأى أكوام السّلاح الذي يخزّن في كهوف جبليّة حديثة الحفر. يقسم إنّهُ ميّز البذلات العسكريّة. كان ذلك طويلاً قبل أن يظهر بعبع الإسلاميين وقبل أن تفتك بنا قبضة الإرهاب الدّامية. لم يصدّقه أحد، يونس «البهلول»، حتّى بعد أن أعلنت الدّولة عن ضبط كمّيات من السّلاح خبّأها الإرهابيون في مغارات جبليّة في الأوراس! لم يعتبرها أهل القرية إلاّ واحدة من الحكايات الخياليّة والبطولات الوهمية التي يدّعيها لنفسه في أثناء هيمنته في البريّة لا يؤنس وحشته غير الثّغاء.

أين الحقيقة من الخداع؟ كلّ يصدّق ما يريد. عمّي صدّق رواية يونس التي تدعم قضيتّه، وأبي وجد الأبناء دليلاً دامغاً على إجرام أولئك الذين يستमित أخوه في الذّبّ عن أعراضهم والدّفاع عنهم! قد يكون الإسلاميون قد تورّطوا في العنف، بل هو الرّاجح عندي.. لكن السّؤال المفتاح هو: متى؟ قبل أن يحيك الاستئصاليون خيوط المؤامرة ويحكموا تخطيطها، أم بعد ذلك؟ هل يملك أحد اليوم بعد مرور عقد كامل على انطفاء جذوة الدّمار واندثار شهوة القتل أن يعلن بوضوح ودقّة، من كان مسؤولاً عن ماذا؟ هل كان يمكن لأمثال مجنّدي (ج) من الأشخاص الأسوياء المسالمين أن ينخرطوا في أعمال شغب متهوّرة -قد تصل إلى إزهاق أرواح بريئة- من تلقاء أنفسهم؟ هل يعرف المسؤولون والمواطنون الوجه الحقيقيّ للإرهاب الذي روّعنا طويلاً؟ لعليّ لن أعرف الجواب أبداً.

في الأسبوع التالي، أعلن المختار أنّ موعد دورتي التدريبية قد حان! تذكّرت كلمات عليّ منذ فترة، فتحمّست. كم سيكون مدهشاً لو أتخلّص من كلّ عقدي النفسيّة.. هوأني بين أهلي، ذنبي تجاه أبي، ثقتي المهزوزة بمؤهلاتي وتقديري لنفسي. انتظرت أن يضغط الشيخ على الزرّ، فأتحول شخصاً آخر! ألم يحصل ذلك مع عليّ ورفاقه؟

لكن ما حصل ذلك اليوم قبل ابتداء الدّورة نفسها، قلب الموازين كلّها.

كنت على موعد مع الشّيخ بعد العصر، فرأيت أن أتسلّل قبل ذلك إلى الجدار وأرمي بقطعة لحم وبعض الخضراوات لكارمن. كنت في ضيق شديد لغيابها الذي طال أكثر من شهر حتّى ذلك اليوم، لكنني قررت أن أفي بوعدني مهما كان، فلا أكون المقصّر واللاملم! انحنيت قرب الجدار وطرقت بخفّة طرقتين موقّعتين، ثمّ ألصقت أذني بسطحه الخشن مثل العادة، أسمع عليّ ألتقط إشارة حضور كارمن وراءه. حين لم يصلني شيء، تنهّدت في ضيق، وتناولت حتّى بلغت أعلى الجدار وهممت بإلقاء قطع الطعام الملفوفة في ورق جريدة. لكنّ كفّاً ضخمة امتدّت من حيث لا أدري وأمسكت بتلابيبي، في حين استلّت الكفّ الأخرى منّي لفافة الورق! صرخ الرّجل في غضب:

- ما هذا الذي تلقيه هنا؟ سرى ما الذي سيفعله المختار بشأنك!

سحبني الأخ الفاضل من ياقتي بغلظة وجرّني عبر درجات السّلم الحجري حتّى القبو، ودخلنا على الشيخ بلا استئذان. كان التّوقيت سيّئاً بكلّ المقاييس. فقد بدا المختار منشغلاً مع أبي أحمد ورجلين آخرين من معاونيه، ولم يسرّه إقحامنا غير المهذّب لـ«غرفة عمليّاته»! أقول

غرفة العمليّات، لأنّ تجهيز الغرفة وديكورها كان يوحى بنوع من مختبرات المعلوماتيّة الحديثة.. شاشات كثيرة، لوحات بياضيّة ومعدّات لا أدرك لها وظيفة.. مكان لم يكن من المفترض بي أن أدخله أو أعرف بشأنه! أيقنت بذلك حين قرأت للمرّة الأولى علامات الانزعاج على سحنة الشيخ دائم البشاشة والابتسام. لقد اقترفت خطأ برمي الطعام فوق الجدار.. وخطأ أكبر لأنني فعلت ذلك في وقت غير مناسب.

أشار الشيخ بعينه إلى مرافقي جهة اليمين، فأومأ الرّجل برأسه ثمّ جرّني إلى غرفة أخرى مجاورة، يمين الغرفة السّابقة. أغلق الباب خلفي بعنف واختفى. حين انفردت بنفسي، أخذت أفرك أصابعي في توتّر، أتعرّق بغزارة وأرتجف من الفرق. الشيخ غاضب منّي! أخذت أرّتب الكلمات في رأسي وأبحث عن الأعذار. كان يجب أن أحدث مضيّفي الكريم بشأن كارمن منذ البداية، لكنّ غيابها جعلني أحجم، وقد بات عليّ أن أطلب المغفرة وأكفر عن سرقتي الطعام من مطبخ عليّ لأطعمها..

رفعت بصري باتّجاه الحائط أمامي، فتعلّقت نظراتي بلوحة كبيرة تتصدّر المشهد، كتبت عليها الآية القرآنية: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يعلوها رسم بندقية تشابك سيفاً. تحرّكت عيناى مثل المسيرّ إلى الحائط التالى وقد شغلت بما أرى عن أفكاري السّابقة، فقرأت:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. تملّكني فجأة فزع شديد وقد أطلقت كلمة «الجهاد» صفّارة إنذار حادة في رأسي وأيقظت مخاوف قديمة متراكمة قد غفلت عنها. تذكّرت كلمات ذلك الشابّ، «أسامة»، عند الشيخ البشير. حديثه عن قتال الكفّار وجهادهم في دار الحرب. فأصابني الهلع. وخيّل إليّ أنّي قد استوعبت فجأة قسماً من حكاية الدكتور مالك.

جماعة (ب) المسلّحة التي تسعى إلى السّيطرة على الباخرة.. أو جماعة

(ج) المندسة التي تبث الخراب في المجتمع. كنت قطعاً أواجه إحداهما. والفرق بين الأولى والثانية مقدار شعرة، كامن في أصل النية وبداية النشأة. أمّا بالنسبة إليّ في تلك اللحظة، فلم يكن هناك فرق على الإطلاق! حين تتناول الموضوع من وجهة نظر محايدة، من دون أن تسمي الأيديولوجيا باسمها، تتخذ حكاية الدكتور مالك بعداً منطقيًا. وقد أتعاطف مع (ب) وأتفهّم رفاقه. لكن لما كان الأمر يخصّ «الإسلاميين»، فالوقت وقت هلع وهلع.. ولا شيء غير الهلع.

سأطلعك على واحدة من أعتى العقد النفسية التي لازمت جيلي، وصدرها لنا الجيل السابق. كانت الكلمات الثلاث (إسلاميون - جهاديون - إرهابيون) مترابطة في ذهني ارتباطاً وثيقاً، تجرّ إحداها الآخرين قسراً إلى وعيي بشكل لا شعوريّ! لم أرث عن أبي طبعه الملتهب، لكنني ورثت نفوره المزمّن من الإسلاميين. ولا تسلي من المقصود بالإسلاميين! فهي عبارة فضفاضة، قابلة للمطّ والتوسعة تبدأ بالمعارضة الإسلامية الناشطة في الساحة السياسيّة الجزائريّة والفصائل المقاتلة التابعة لها.. لتشمل كلّ من لا يرضيك سلوكه في إسداء النصيحة مثلاً أو من يبدي نقداً لسياسة الجيش من منظور أخلاقيّ، أو من يبدو في شكله متديّناً تديّناً بدرجة أعلى من «المتوسّط»، وهي درجة التديّن الشعبيّة التي لا تضايق أحداً.. من قبيل الإيمان في القلب، و«العيب» -محرمات المجتمع- أهمّ من «الحرام» الذي بين العبد وربّه.. صلاة في البيت غالب الوقت، وفي المسجد يوم الجمعة والأعياد، مع عدم تكلف في العبارات اليوميّة، من قبيل «جزاكم الله خيراً» بدل «شكراً»، و «السلام عليكم» عوض «مساء الخير»! فإذا لحظت على بعض معارفك تلك «الميول الإسلاميّة» في الكلام والحركات، أمكنك أن تهمس لجارك في استنكار: إنّه إسلاميّ! وهي تهمة تحتل أقصى أنواع الإدانة! وإذا ما ساور أحداً شكّ ولو بسيط تجاهك بأنّك «قد» تكون من أنصار الإسلاميين، فعليك ألاّ تدّخر جهداً في نفي التهمة عنك، ولو اقتضى الأمر ترك العبادات جملة وتفصيلاً! وإلاّ بقيت ممن يشار

إليهم بالبنان لفترة طويلة بعد، قد تمتدّ إلى أجيال بعدك.

ولعلّك ستدرك أيضا أنّ تهمة «الإسلاميّة» شديدة المحليّة، فهي تقتصر على أبناء بلدك من دون غيرهم. لم يخطر ببالي مثلا أنّ عمر قد يكون «إسلاميّاً»، رغم توافر كلّ شروط التّهمة فيه، من صلاة في المسجد وعبارات متديّنة إلخ.. ذلك أنّه لا يمكن له أن يكون قد تورّط في عشريّة الجرائم السّوداء. فتهمة الإسلاميّ في معجمي تعني بالضرورة «الإرهابيّ»، السّفاح، قاتل الأبرياء! ولم أفكّر -حتّى تلك اللحظة- في أنّ الشيخ المختار، وعليّ وبقية الرّفاق قد يكونون «إسلاميّين» رغم اللّحيّ الكثّة والزيّ الأفغانيّ.. وما الشّيء المدهش في أن يلبس يمينيّ أو باكستانيّ أو حبشيّ الزيّ الأفغانيّ؟ لكنّ الدّهشة، كلّ الدّهشة، تكمن اختزالا في أن يفعل جزائريّ نفس الشّيء! لكن حتّى تميّزي الجغرافيّ هذا تلاشى في ظلمة القبو ذلك اليوم، وقد استغرقني تفكيري في ما سأستحقّه من عقاب على ذنبي المضاعف، من جماعة ديدنها الإرهاب!

ها إنّك قد وقفت على عقدة أيبك الأعماق والأكثر إحكاما في أغوار لا وعيه! عقديّ، هي عقدة أطيفاف واسعة من المجتمع.. الرّكون إلى ما يشبهنا والانزواء عمّن يختلف عنّا، وتقسيم الآخرين إلى من هم معنا ومن هم علينا.. ونظريّة جورج بوش الابن الشهيرة «من ليس معنا فهو علينا»! لم يخترع الرّجل تلك النظرية، فهي قديمة وراسخة في السّواد الأعظم من النّفوس البشريّة! وبناء على ذلك، فقد كانت إشارة الجهاد علامة على وجود «جهاديّين - إسلاميّين - إرهابيّين» في الجوار! وهم بالضرورة سيّئون، بمنطقي الدّغمائيّ المستفحل!

قد أبدو لك من خلال هذه السّطور حكيما راجح العقل، وقد استخرجت العقدة من أعماق اللاوعي وشرّحتها أمام ناظريك.. لكنني لم أوت الحكمة في وقت باكر. بل غنمتها، ذرة ذرة، من خلال التّجارب والخطوب، حتّى استوى عقلي على هيئته الحاليّة. ليس كاملا ولا مثاليا، ولكنّه على بعد أميال كثيرة من عقل الشابّ الغرّ الذي كنته يوم غادرت

قبل حكاية الدكتور مالك، كنت أميل إلى نظرية أبي وأتبنى وجهة نظره.. وبعدها، غامت الرؤية، حين وسّعت زاوية النظر. أن تزداد معرفتك وحكمتك لا يعني أبدا أن يسهل عليك وضع السبّابة على عين الحقيقة، بل هو العكس غالبا. تدخل عليك متغيّرات جديدة فتضع أطروحات مختلفة وتبتعد مسافات عمّا حسبته في وقت سابق حقائق ومسلمات. لكن وأنا أجلس في غرفة مغلقة أنتظر حكما ممّن مثلتهم لي هواجسي سفّاحين، غاب الوعي وتعطّل التفكير، ولم يبق من مكان إلا للعقد الرّاسخة وأشباح اللاوعي الثائرة من مكنيها.

مرّت دقائق راودتني خلالها فكرة الفرار. وأنّي لي الفرار وحرّاس غلاظ شداد منتشرون في السّرايب وعند المداخل والمخارج؟

فزعت حين فتح باب الغرفة وظهر خيال المختار. أمسكت أنفاسي أحبسها برهة حتّى لا يشي تنفّسي المضطرب برهبي، لكنّ ابتسامة الشّيخ التي طالما عهدتها معلّقة بشفتيه جاءت لتربّت على خوفي وتنفض دعر اللحظة. لم يبد الشّيخ غاضبا أو مستاءً، لم يظهر بعباءة «الإسلامي» التي أهمني التفكير فيها. جلس إلى جوارى على الحصير، وقال متمهّلا وبحنوّه المعهود:

- أخبرني، ما الذي يجري عند ذاك الجدار؟

نفضت عني الهواجس التي زرعتها في ذهني ظلمة القبو والآيات الشديدة على قلبي الرقيق سريع التأثر، وعدت إلى مسألة كارمن. واصل الشّيخ موضّحا:

- وجدنا لفافات جرائد كثيرة تحوي بقايا طعام متعفّنة.. ربّما هي تتكدّس هناك منذ أسابيع! أخبرني، لماذا كنت تلقي بها؟

ارتيمت من دون تفكير عند قدمي الشّيخ أطلب صفحه وأستجدي عطفه! لقد أخطأت وقد كان عليّ أن أبدأ بالاعتذار. شرحت بكلمات

مرتبكة شديدة التداخل أمر كارمن. جاءت معي من ليون وفارقتها على حدود الغابة. ربّما كانت تأخذ القليل ممّا أتركه لها وتبقي منه للحيوانات الشريفة والكلاب الضالّة. لم تكن شهيتها وافرة، وشكلها الضئيل الهشّ دليل واضح على ذلك.

نظر إليّ الشيخ بنظرة العارف، وقال بصوت رصين:

- هل يمكنك استدعاء البنت؟

لمّا كنت أجهل متى تأتي كارمن إلى الجدار ومتى ترحل، فقد كان من المتعسّر تلبية طلب الشيخ. قلت مرتبكا:

- سيكون من الصّعب استدعاؤها.. لكنّها تظهر من تلقاء نفسها حين تحتاجني.

هزّ رأسه في جدّية بالغة:

- فهمت. إذن هي تقرّر متى تخاطبك؟

قلت مصحّحا:

- هي لا تخاطبني.. فقدت النطق منذ فترة، لكنّها تكتب أو تشير بيديها.

- ماذا تكتب؟

- كلّ ما تريد قوله.. ما تحتاجه!

- بأيّ لغة؟

- الفرنسيّة.. تعلّمتها منذ زمن قصير.. وهي في تحسّن مستمر!

- هذا مدهش! مثير!

لم أستوعب ما المثير في الأمر، لكنّ تعلّم كارمن للفرنسيّة كان أمرا جيّدا بالنسبة إليّ.

- ما اسمها؟

- كارمن..

بدا عليه الضيق فجأة:

- إذن هي ليست مسلمة؟

- بلى، إنها من الشيشان.

عاد إليه الارتياح وهو يواصل التقصي بشأنها:

- وكيف وصلت إلى فرنسا؟

- كانت رحلة طويلة.. بعد الحادثة التي تعرّضت لها عائلتها، سارت

طويلا في الثلوج.. وكان بعض سائقي الشاحنات يحسنون إليها ويوصلونها
مسافة ما..

- إذن ماتت في حادثة..

قاطعته موضحا:

- عائلتها التي ماتت يا سيّدي!

- نعم، وهي كانت معهم؟

- نعم.. لكنّها نجت!

- كيف ماتت إذن؟

رفعت صوتي:

- من الذي مات؟

- الطفلة! اسمها كارمن، أليس كذلك؟

- كارمن لم تمت! إنها في الخارج.. في الغابة!

حدجني بنظرة طويلة، ثم قال مبتسما:

- هذا أكيد..

بدا كمن يساير طفلا لا يريد مضايقته، لكنّ ابتسامته الغريبة استفزّتني.

سألته بغتة

- ما الذي تفكّر فيه يا سيّدي؟

بدا عليه التردد، كطبيب يخشى على مريضه من إعلان موته القريب.

- قد يكون من الصعب عليك تقبل هذا...

هزرت رأسي متابعا كأني أستعجله.

- الرصاصة.. إنها تتحرك في رأسك..

لم يكن يقول شيئا أجهله.

- حين تتخذ وضعيّة معيّنة في جمجمتك، تكون في موقف فاصل بين الحياة والموت! تدخل روحك عالم البرزخ، وجسدك ما زال بيننا نابضا بالحياة! حين تلامس حدود الموت، ترى الأرواح. أرواح عالقة لم تستقرّ بعد! تكلمك وتتواصل معك.. وكارمن إحداها..

انفجرت ضاحكا وقد راقتني الدّعابة حدّ الاستمتاع.. لكنّ الرّجل ظلّ ساكنا جادا:

- الفتاة، لم يرها أحد معك قط.. وحدك تراها.. وأظنّ الله قد اصطفاك من أجل مهمّة محدّدة.. لديك رسالة، لكنّك تحتاج من يقودك من أجل إتمامها..

أرقبه بعيني الجزع. هل انخبل الرّجل؟ أرواح عالقة، وبرزخ ورسالة؟ أفكّر فجأة بأنّ عليّ الرّحيل من هنا. ثمّ أتذكّر السّبب الذي حدا بي إلى مغادرة ليون. أفكّر بديانا، بمشروبي الصّباحيّ المدهش، وبطلابي النّجباء.. هل يمكنني أن أرحل فعلا؟ أعود إلى الواقع على صوت الشيخ المختار يقول:

- ارتح الآن، وسنتكلّم في ذلك لاحقا..

قد يكون الشيخ مخبولا، لكنّه مضياف وكريم. أهزّ رأسي وأمضي إلى حيث أشار. أتوقّف فجأة. أتذكّر أنّي كنت أريد الحديث إليه بشأن كارمن. عن إمكانية إيجاد مكان لإيوائها. لكنني أعدل في اللحظة الأخيرة. إنّه يحسبها روحا عالقة!

لم أكن قد شاركت يوما في حفلة زار أو وطئت قدمي ضريح وليّ صالح..
ناهيك بحضرة العرّافين والمشعوذين. لذلك فقد كانت جلسة التّحضير
التي دخلتها كضيف رئيسي في منتهى العجب! حكايات الأرواح والأشباح
لم تكن ترعيني صغيرا.. لم أكن أصدّقها. وحين كانت أمّي في قوائل
الصّيف تخربش شبّاك الغرفة من الحوش لتجبرني وأخواتي على الاعتكاف
وقت الظّهيرة وعدم التسلّل خارجا، كنت أقهقه من الضحك وأسخر من
شقيقاتي المذعورات!

أمّا الجلوس أمام الشيخ المختار، يقرأ الآيات القرآنيّة المتعلّقة بالأرواح:
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا
قَلِيلًا﴾ و ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّ نَفْسٍ
بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لَلَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، فقد أدخل الرّيبة في قلبي! الشيخ المختار
شيخ جليل، صادق الكلم.. إن آمن بوجود أرواح تحلّق في الفضاء من
حولنا، فلا شكّ أنّ لديه أسبابه ودوافعه! لو أنّه تلقّظ بشعوذات لسهل
عليّ الأمر.. كنت رميته بالتّخريف والادّعاء. لكن هذه آيات الله تتلى على
مسامعي، والرّجال يهزّون رؤوسهم في خشوع مريبك، فتراقص الشعلة في
الشمعدانات الفضيّة التي كانت الإضاءة الوحيدة لظلمة الحجرة، كأنّ نفخ
روح ما يحركها!

- هل تسمع شيئا؟

كان الشيخ يسألني للمرّة الثالثة في جلستنا تلك.. وربّما للمرّة الألف بعد
لقائنا السّابق. دأب يسألني كلّما التقت مساراتنا أو استضافني في موعدا
الصّباحيّ إن كانت كارمن قد ظهرت لي. لكنّ إجابتي لم تختلف. كارمن
رحلت يوم وصولي ولم تعد.

لذلك فقد وجب استحضارها بالوسائل التقليديّة!

أهزّ رأسي نافيا. فيرفع المختار صوته ويكثّف تراتيله في إلحاح المستجير،

ويزداد تمايل الرّجال المتربّعين في حلقة متّصلة تحيط بي من كل جانب. يلقي الشيخ قبضة من مسحوق بخور وحجيرات أخرى فتفرقع نار الكانون ويتصاعد الدّخان. إن لم تكشف الرّوح عن نفسها فلعلّ الدّخان يتخذ شكلها ويكشفها! تستمرّ الجلسة زهاء السّاعة. أحّدق في القوم المنهمكين في عجب متنام. أبحث عن الخطأ.. هل هو فيّ أم فيهم؟ وكارمن.. ليتها تظهر وتريحني! فيراها الشيخ ويذهب عنه ظنّه المجنون ذاك! ليتها تظهر!

أخرج من حجرة التحضير لاهثاً وقد أنهكني الدّخان وعبقه الخانق. يتبعني المختار مكفهرّ الوجه، ينتظر حتّى ينفّض رجاله كلّ إلى مقصده ثمّ يقول في تفكير:

- هناك ما يمنعك عن عالم البرزخ.. وأظني عرفته!

لم أفهم لكلماته معني في تلك اللحظة، لكن حين زرتّه في جلسة العلاج اليوميّة صباح الغد، استقبلني عند المدخل على غير العادة. أخذني من كّفّي ودعاني إلى النزهة برفقته في السّاحة الظليلة. سرنا نصف ساعة أو نحوها تحت أشجار السّرو والصنوبر، وهو يسألني ويستفسر عن حياتي في الجزائر.. عن عائلتي وتعليمي وعن تفاصيل رحلة الاغتراب.. حتّى إذا ما انتهت أسئلته ودّعني عند مدخل القبو مثلما لقيني على موعد لقاء في الغد! تركته مرتبكا غير مستوعب. أين مشروبي العسليّ المحبّب؟ وأين نصيبي من الأذكار التي أحسبها تحميني من سطوة الرّصاصة؟ أتراه يعاقبني لفشل جلسة التّحضير بالأمس؟ لكنّ سلوكه لا يوحي بغضب أو عقاب. يستقبلني في الغد بنفس البشاشة والرّوح المرحّة، ويسير إلى جوار ييسأل عن حالي وحال طلابي في درس العربيّة.. يذكر نوادر عن بعضهم ويضحك في وقار، ثمّ يودّعني بنفس الطريقة ولا يتطرّق إلى جلسة العلاج بكلمة! في اليوم الثالث، تجلّت أمارات السّهاد على وجهي. زارتنِي الرّصاصة مثل كابوس مريع. يومان من الحرمان من رحيق الفردوس كانا كافيين لأدرك ما

كنت فيه من نعمة! يطرق بابك الألم بعد طول فراق، فتستقبله لا أهلاً ولا سهلاً! لكنّه ضيف ثقل الظلّ لا يضع اعتباراً لآداب الزيارة.. يتربّع من دون استئذان، وينبئ بطول مكوث! الشقشقة والرّنين والأزيز.. أصوات لم أشتق إليها البتّة، لكنّها تطاردني تلك الليلة وتتشبّث بأذيالي وأنا أجرّ نفسي جرّاً لألقى الشيخ.

أرى علامات الطّرب على وجه المختار وهو يهبّ إليّ مهرولاً ذلك الصّباح. يستنطقني:

- ها؟ هل من جديد؟

أقول متبرّماً:

- الألام يا سيّدي.. إنّها تعاودني!

- والرّوح؟ البنت الصغيرة، هل ظهرت؟

أهزّ رأسي نافياً، فيعبس فجأة. تتجلّى لي خطّته في تلك اللحظة. لعلّه يحسب أنّ آلام الرّصاصة ينبغي أن تعاودني، لأبلغ بوابة البرزخ كما يدّعي! أنحني أمامه في ضراعة وأتشبّث بثوبه:

- سألتك بالله يا شيخي.. الدّواء!

يرفعني إليه باسماء، يريّت على كفي ويقول مهوّناً:

- ليس بعد يا بنيّ.. هوّن عليك. إنّما النّصر صبر ساعة!

لا أفهمه. تغلق عليّ فلسفته. أيّ نصر أو أيّ صبر؟ ألم أجئه مستغيثاً من رصاصتي؟ فماله يدفعني إلى جحيمها من دون رحمة؟ يقولها من دون أن يرفّ له جفن، كأنّ الأمر بيدي:

- اذهب الآن.. ولا تعدّ إلا ومعك البنيّة!

أرقبه ذاهلاً. ماذا عن الدّرس والطلبة؟ سيعرفهم اليوم ويلغي دروس الأسبوع.. حتّى يصفو ذهني وأستحضر كارمن. تخاتلني ابتسامته المشفقة وأفكاره السّاديّة المتخفية خلف ستارها. بيده خلاصي ولكنّه يمنع عنيّ،

ولا أدرك الحكمة من وراء ذلك.

أتركه وأسرح على غير وجهة. ما من حلّ إلا أن أجد كارمن! أقصد الجدار الحجري الذي يفصلني عن الغابة. أتسلّقه متعثراً وأنكفئ على وجهي على حشائش الضفة الأخرى. تستقبلني لفافات الجرائد التي دأبت على إلقتها من أجل الصّغيرة. أتبيّن أنها وقد نهشت أطرافها وتعفّنت بعض محتوياتها.. كأنني كنت أطعم جراً شريداً في الأسابيع الماضية. أهيم على وجهي بين الأشجار أقتفي أثر كارمن. أصرخ باسمها، فيردّد الصّدى مقاطع صوتي المتحشرج. يمنعني الصّراخ من الاستسلام لهمسات رصاصتي وهسيسها.

أجدّ في بحثي لساعات.. حتّى إذا خارت قواي، جلست عند جذع شجرة معمرة، أسندت رأسي وأغمضت عينيّ، تظللني فروعها المورقة.. وتوسّلت كارمن في سرّي أن تأتيني، فيرحمني الشّيوخ ويعطيني دوائيّ! لذلك، حين أحسست بلمستها اللطيفة على ذراعي، حسبتني أهذي! ظهرت في لحظة خلتها فيها قد توارت إلى الأبد، كما تفعل دائماً! تنسلّ من أصابعي مثل سمكة لزجة، وتختفي بين حشائش بحر كثيفة، ثمّ تبرز من ورائيّ على حين غرّة.. هكذا انبثقت سمكتي، وقد خلتها أبحرت بعيداً إلى منتهى الأفق.

- كارمن! يا إلهي، هذه أنت!

ردّت عليّ بابتسامتها الوديعة. كانت قذرة ومهوّشة الشعر، كما لم تكن من قبل. قطّة بريّة وحيدة في الغابة، جرح قديم قد التأم يظهر أعلى ذراعها العارية.. ربّما تسبّبت فيه وثبتها من فوق الجدار. تحسّستها بكفّي، أتيقّن من كونها حقيقيّة.. ثمّ سحبتها من كفّها متعجّلاً.. يجب أن نرى الشيخ على الفور!

دفعتها أمامي وجريت، تسلّقت الجدار ثمّ رفعتها إليّ ووثبنا معا داخل السّاحة. حين وصلت عند الشّيوخ كنت ألّهث انفعالا وتوقاً لقراءة الدّهشة في عينيه.

- ها هي يا سيدي!

- أحسنت عملاً! كنت واثقاً أنك ستفعلها!

الرّضا في تعابيره يردّ الدّهشة إليّ. لماذا لا ينظر إليها؟ لماذا تتعلّق عيناه بوجهي؟

- والآن، اسألها.. ما أبقاها؟

- يا شيخي.. انظر إليها واسألها.. وسأترجم الجواب. أم أنك لا تراها؟

- المهمّ هو أنك تراها.. وترجم عنها.

يتلطف في الحديث ويسايرني، ويلحّ عليّ أن أحادثها.

- يا إلهي، أنت لا تراها!

أتلقت حولي في جزع. أضع كفيّ على كتفي كارمن وأهزّها وقد تملكني الهلع.

- يا عليّ.. يا أبا أحمد.. ألا ترونها؟

أستدعي الرّجال بصراخ المستغيث. قولوا إنكم ترونها.. قولوا! لكنّ الرّؤوس تتحرّك يمنة ويسرة. لا! لا يراها أحدهم! قبل أن أسلم بلوثة أصابت عقلي.. أو عقولهم مجتمعين، تراودني فكرة يائسة.. الشيخ يمازحني! عدسة خفيّة يوارىها أحدهم تسجّل الموقف.. وقريباً سيضحك الجميع، ويعانقني المختار ويقول: هوّن عليك، هذا دواؤك! لكنّ ذلك لا يحصل. والمختار يزداد جدّيّة.

- هي معك الآن.. لا تتركها ترحل.

المقلب السّخيف يطول أكثر من اللزوم ويغدو سمجاً مقيماً. فليرحمني أحدكم!

- اسألها.. يجب أن تخبرك!

أنهار على ركبتيّ، رصاصتي تسخر منّي وتقهقه في عنف يملأ أذنيّ. يا شيخ، الدّواء!

- لا دواء الآن.. يجب أن تبقى على أبواب البرزخ!

كيف هو البرزخ.. وكيف تبدو أبوابه؟ كل شيء من حولي لا يختلف عن عادته. لا نور ساطعا ولا درب مضيئا! فقط كارمن التي لا يراها أحد، تتكور على نفسها بقربي في ظلمة القبو.

جرّب الظلمة.. الأرواح تركز إليها.. لذلك انسحبت إلى الغابة.

حافظ عليها قربك، وحاول التواصل معها..

توصيات المختار تفقدني صوابي. أرمق كارمن في حيرة. كان يجب أن أستسلم إلى تلك الحقيقة. كارمن ليست بشريّة. لا أحد يبصرها غيري! تبادلني نظرات باسمة. أسألها في صمت.. ما أنت؟ هل أنت روح عالقة بالفعل؟ ثمّ أستجوبها بصوت مسموع:

- ما هي حدود الحقيقة والخيال؟ هل أنت الوحيدة.. روح أو شبح؟ أم هناك غيرك؟ هل كانوا بشرا.. القرصان وعصابته؟ فهناك لقيتك! ماذا عن الدكتور عمر؟ ماذا عن جابر وعزّوز، ديميتري وعمّال الورشات؟ من منهم شبح ومن البشريّ؟ تكلمي! لا تتظاهري بالكم بعد الآن!

ينتابني الغضب. أستفزّها لتسمعي ردّها. لا أعلم إن كانت الأرواح تخاطب البشر! المختار لم يشرح لي الأمر. هل تراه تعامل مع روح من قبل؟ يبدو ملما بالمسألة.. لكنّه لم يشرح لي. يقول «تواصل معها» ويمضي! لكنّها كانت صامتة حتى ذاك الحين.. ربّما لأنّ هذا هو طبع الأرواح، لا صوت لها.

يأتيني صوتها فجأة. يشقّ الصمت الذي غلّفنا حتى تلك اللحظة، فأنتنفّض. صوت هادئ عميق ورصين. ليس صوت طفلة أبدا:

- لعلّك لن تعرف أبدا..

- وأنت؟ هل لقيتك حقا؟ لعلّك توفّيت في حادث بعد أن تركتك وذهبت عند عمر؟ أو بعد أن لقيت جابر؟ لعلّك كنت معي قبلها؟ ثم رجعت روجا؟

تهزّ رأسها الصّغيرة ساخرة من افتراضاتي واستماتتي في تمييز الحدود بين عالمها وعالمي. تستمتع بحيرتي ولا تبدّد شيئا من شكوي. ألمحها تبتسم، وتتجاهل أسئلتني. أصرخ فيها: لا تبتسمي! أنت لست بشرا حتّى! فتضحك الرّصاصة في رأسي حتّى يعبث بي الألم. اسكتي أنت الأخرى! ليس وقتك! لكنّه وقتها.. بل وقتها وحدها. لا أحد غيرها يسيطر الآن على الزّمان والمكان. أنا الآن مجرد ثقب تبختر داخل فراغه بتؤدة قطعة معدن صدئ، تفقدني صوابي.. وكارمن تبتسم.

أقف من مكاني، ألفّ حول نفسي، ثمّ أنهار عاجزا. يجب أن أعرف. لكنني مرتعب ممّا قد يتبيّن لي. لا أريد أن أعرف. أريد أن أرجع جاهلا مغفّلا، أحنو على صغيرتي كارمن وأستمتع بدروس العريّة. أمّا المعرفة التي تجعل عالمي ينهار، فلا أريدها! لا أريدها! أخفي وجهي بين كفيّ وأبكي.. ألما وخوفا. جنّتي الموهومة المؤقتة تنهار!

لن تعرف أبدا..

أتخبّط في العتمة، فريسة سهلة لأطياف برزخ وهميّة، وتستبدّ بي رغبة المعرفة. ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾. أغالط نفسي.. ماذا لو كان خلاصي في المعرفة؟ هل ليليان وديانا شبهان؟ ليليان ليست شبحا.. لقد ناداها عليّ بالكافرة، وأبو صالح غازلها.. ليست شبحا، إلا إذا كان عليّ وأبو صالح شبحين.. لكنّهما ليسا كذلك.. المختار وجماعته يعرفانهما. لكن ماذا عن ديانا؟ كلّ همّي ديانا.. إنّها لا تكلم أحدا ولا تلتفت إلى أحد. ربّما لم تكن ليليان شبحا، لكنّها قد تحتفظ بشبح ابنتها قريبا منها.

لكن ماذا لو.. ماذا لو كانت كارمن حقيقة، وكلّ ما عداها وهم؟ ماذا

لو كان المختار هو الشّبح؟ ماذا لو كنت نائماً الآن، في شقّة عمر.. أنتظر
أن يوقظني لصلاة الفجر؟ لكنني أرى كابوساً ممتدّاً مرهقاً لا ينتهي! ليتني
أستيقظ الآن.. هذا إن لم يكن عمر شبّاح هو الآخر! ألم يختف فجأة
كأنّه لم يكن؟ أولئك الذين يظهرون ثمّ يتلاشون بلا رجعة، أغلب
الظنّ أنّهم أشباح! إن كنت قد لقيت هذا الكمّ من الأشباح في رحلتي،
فكيف كنت أعيش؟ كيف أقتات وأين أبيت؟ هل تفقدني مخالطة الأشباح
إحساسي بالعالم الحسيّ؟ أم أنّ الاثنين يتزامنان في وعيي بانسجام لا يؤثر
أحدهما في الآخر؟ أين تكمن الحدود؟ أين ينتهي الواقع ويبدأ البرزخ؟
على حدود الجنون، طلب عقلي مهلة: «اسحب القابس، أريد بعض
الرّاحة».

فقدت الوعي.

تخطئ حين تحسب أن المرء يموت مرّة واحدة. تموت حين تقتل
الحياة داخلك. ينسحب الضّوء من روحك تدريجيّاً، مثل مدينة انطفأ
مولدها الكهربائيّ فغرقت في الظلام. أمّا عنيّ، فقد متّ الموتة الثانية في
ذلك اليوم.. باحتساب موتي الأولى غريقاً، وبافتراض أنّ جثتي المتحرّكة،
متبلّدة المشاعر التي كانت تهيم بين البيت والمقهى قبل ذلك في عناية
كانت على قيد الحياة! حين يموت قلبك، وتختنق داخلك رغبة العيش،
يتلاشى كيائك، وتبقى جسداً.. ينتظر أن يفنيه دود الأرض.

متّ يومها من دون رصاصة.. وأنا الذي عشت قبل ذلك رغم الرّصاصة!

لمدّة ثلاثة أيّام متواصلة بلياليها، بقيت محبوساً في تلك الغرفة. يأتيني
أبو أحمد بطعامي وشرابي. ينفرج الباب مقدار سنتميرات كافية لتمرّ
ذراع النخيلة وطبق الأكل الزهيد، فتتسلّل خيوط نور رقيقة إلى مساحتي

القائمة، ثمّ تنسحب بسرعة حين تعود دفّة الباب إلى وضعها الأوّل.
قال المختار: تشبّع بحياة البرزخ، تآلف مع الأرواح العالقة، واثني
بالجواب!

أيّ جواب؟

لم يقل..

حين دخل عليّ في اليوم الثالث، كنت قد غدت جثة هامدة، قتلني
الألم حتّى تخدّر إحساسي، وقتلني التّفكير حتّى تخدّر عقلي. سألني:
- أنت جاهز؟

أومأت برأسي أن «نعم» وأنا لا أدرك ما يعنيه.. لكنني كنت جاهزا لأوارى
التّراب.

- هل حان الوقت؟

وقت ماذا؟ يتساءل ما تبقى من خلايا عقلي التالفة.. لكنّ رأسي يهتزّ
مرّة أخرى، فيبتسم الشيخ راضيا. كنت أستجيب وآتيه بتعليمات «العالم
الآخر» التي يترقبها. أتجاهل كارمن التي تضحك منّي وتتقلّب على الأرض
ساخرة. كنت أنجز الرّسالة التي من أجلها حبسني المختار.

- كنت أعلم، منذ وصلت إلى هنا.. أنّك البشير حامل الإشارة!

لم أحاول أن أفهم.

- معنا الليلة، المرشح اليساري المستقل عن دائرة «نوبي سور سين»، السيد خليل دانيال الشاوي.. مرحبا بك.

يبتسم للكاميرا التي تسلط عدستها عليه، ويتابع حركة المخرج الذي يوجّه كل من على المنصة. الأضواء تبهر عينيه وتشعره بدوخة بسيطة، لكنه يستردّ تركيزه حين تسأله المحاورة:

- كيف تفضّل أن أناديك؟ أستاذ خليل أم.. أستاذ دانيال؟

- خليل هو الاسم الذي منحني إياه والدي وسجّله في الأوراق الرّسميّة، ودانيال هو الاسم الذي أعيش به ويعرفني به كل من حولي.. لذلك أفضّل دانيال، إذا تكرّمت.

- أستاذ دانيال، لدينا اليوم مجموعة من الضيوف سيوجّهون إليك رسائل خاصّة، وسيكون عليك أن تردّ عليها.. اتفقنا؟

هزّ رأسه في اهتمام، ثمّ أظلمت القاعة. مرّت ثوان رهيبة، قبل أن تظهر بقعة ضوء أنارت جزءا من الجمهور الجالس من حوله. أخذت تتنقل بتوتّر قبل أن تتوقّف على أحد الوجوه. يطالعه في دهشة ولهفة. أنت هنا! لكنّ الموقف لا يسمح بأحاديث جانبية. ينتظر في شوق وعيناه تكادان تغادران محجريهما، يلتهم الرّجل الخمسيني بعينين جزعتين، بينما تسأله المحاورة:

- اسمك سيدي؟

- نادر الشاوي.

- تفضّل برسالتك.

- بني.. أحبك كثيرا.. وأتمنّى أن تحبّني يوما.

ينطفئ النور الذي أضاء وجهه للحظات، وتبقى ماثلة أمام عينيه تلك النظرة المنكسرة. يرتبك تنفّسه ويضيق صدره، لكن بقعة الضوء تواصل دورانها في حركة لولبيّة، ثمّ تتوقّف على وجه آخر.

- اسمك أنستي؟

- مريم رستم.

- تفضلي برسالتك.

حدّق فيها في فزع هذه المرّة، وسالت أنهار من العرق على وجهه. نظرتها ناريّة محرقة، فيها تشفّ وشماتة. قد حانت ساعة الانتقام. تقف، وتستدير كلّ الكاميرات تجاهها. تظهر ملامحها مضخّمة على كلّ شاشات القاعة، كأنّما تشرف عليه من جميع الاتجاهات، تحاصره. تمدّد نحوه إصبع الاتّهام، ويدويّ صوتها بلهجة قويّة تكاد تثقب طبلة أذنه:

- أنت شخص حقير!

فتح عينيه وهو يلهث، غارقا في عرقه.

غادر السّرير، وسار حافي القدمين حتّى المطبخ. أفرغ في جوفه كوب ماء بارد دفعة واحدة، ثمّ وقف مذهولا لبرهة، يسترجع تفاصيل الكابوس المريع. هل هو سريره القديم الذي لم ينم فيه منذ سنوات؟ أم هي تلك الحكاية التي تقف شوكة في حلق ضميره؟ يجب أن يفعل شيئا إزاء هذه القصة، ليسكت لاوعيه عن إلحاحه الممضّ. الحوار التلفزيونيّ كابوس بمفرده، فكيف إن صاحبه ذلك الهاجس المقيت بالذنب؟

بعد ساعات تقلّب خلالها على الفراش من دون أن يواظنه نوم، تناول هاتفه وأرسل إلى جانب، يخبرها باعتزامه أخذ أجازة استثنائيّة.

حين غادرت أمّ خليل سريرها على الساعة السابعة، تقدّمت في اتجاه المطبخ في دهشة متبّعة رائحة البيض المخفوق على الطّريقة الفرنسيّة التقليديّة.

- أراك مبكراً في الاستيقاظ!

ابتسم رغم عبوس عينيه:

- لم أستطع النوم..

قالت مداعبة:

- هل أخافك حديث الأرواح والأشباح؟

- لا أصدقه لحظة واحدة! لكن يشغلني إيجاد منطقي لما عرفه في تجربته تلك.

لاحظت تجنبه للفظ «أبي». سيحتاج بعض الوقت ليعتاد على كون ذاك الرجل، ذي الحكاية الشبيهة بقصص «ألف ليلة وليلة»، أباه. لكنّه على الأقلّ يبدو على درجة أدنى من الانفعال والعدوانية ممّا كان عليه بالأمس. تناولوا وجبة الفطور التي حضّرها في ركن المطبخ الحميميّ الذي لطالما احتوى جلساتهم الثنائية. حين تنضمّ إليهما سيلين ومريم، تفضّل غرفة الطعام المتّصلة بالشرفة.

- كيف ترك نفسه يسقط فريسة سهلة بين أيدي أولئك النّاس المتخلّفين؟

- ألا ترى أنّه كان يحتاج البقاء هناك في تلك الفترة؟ لم تكن لديه بدائل ممكنة..

سكت ممتعضاً. في طفولته، كانت تقول إنّ والده مدرّس. أهذا هو نوع التّدريس الذي مارسه؟ شهران يتيّمان من حصص العريّة في قبو جماعة إرهابيّة؟ يا للهول! حاول ألاّ يهوي باتّجاه استنتاجات سابقة لأوانها. سيعطيه فرصة إلى النهاية، ربّما تستقيم حياته قبل أن تنفد الرّسائل. أيكون لقاءه بها قد قوّم اعوجاجه وصحّح مساره؟ إنّها ما تنفكّ تدافع عن خياراته. تطلب منه أن يتفهّم ويجد الأعذار. لماذا إذن؟ لماذا حجبت عنه الحقيقة؟

أنهيا وجبتهما في سكون خاشع. كلّ شارد في عالمه. ثمّ استأنفا جلسة
الأيّام الماضية. تنهّدت أمّ خليل وهي تتناول رزمة الرّسائل، وقالت في
جديّة:

- إذن.. أين وصلنا؟

يوم الجمعة التالي، تمركزت دوريات شرطة أمام المساجد الصغيرة المرخص لها في كل أنحاء فرنسا، ورفعت دروعها وعصيها، ومنعت المصلين من دخول بيوت الله وقت صلاة الجمعة. كثيرا ما كانت المساجد تمتلئ عن آخرها، وتفيض بمرتاديها على الشوارع القريبة. فتلک البناءات الضيقة لم تكن تتسع إلا لأعداد قليلة، والحكومة الفرنسية رأت أن حتى ذلك القليل كثير من وجهة نظر أمنية. فأدى خبراء الهندسة والبناء واجبههم وقاموا بحساباتهم وسودوا أوراقا كثيرة ذيلوها بتوقيعات رسمية. وباعتبار ذلك، أصبح على المساجد أن تلفظ المزيد من المصلين في اتجاه الشارع. تلقت الدوريات الأوامر باحتلال الساحات المحيطة بالمساجد وتسييجها، من باب حفظ الأمن وتيسير حركة العربات، وطرد من سؤلت له نفسه فرش سجادة صلاته على الرصيف. ووقفت زرافات من النساء والصبية في رؤوس الشوارع يرقبون الحراس بأعين شاخصة، وقد منعوا من الاقتراب بعد أن احتلت الغرف المخصصة لهم من قبل الرجال المصلين تحت ضغط الضرورة. في بعض الأحيان، وطأ الشباب المسلم بنعاله السيّارات المصفوفة على جانبي الشارع في تحدّ وأدوا الصّلاة على سطوحها المعدن. في حيّ آخر، انفعل شابان وصلا بعد إيصاد البوابة وتشابكا مع أعوان الأمن للحظات قصيرة، قبل أن يتمّ اقتيادهما إلى مركز الشرطة. في حين استسلم الباقون وانسحبوا في صمت ساخط.

في الأسبوع التالي، نادى أئمة مساجد باريس وجمعيات تُعنى بشؤون المسلمين بالخروج أفواجا لإقامة الصّلاة في السّاحات العامّة، احتجاجا على التضييق الذي كانت الحكومة البادئة والأظلم فيه. ولا بأس في خروج النساء والأطفال، دعما للصفوف وزيادة في العدد.

لكنّ الشيخ المختار الذي حصل للتوّ على الإشارة من العالم الآخر، كانت لديه خطّة أكثر جسارة. رأيتهم لأوّل مرّة، بأحذيتهم العسكريّة الثقيلة وعصابتهم السّوداء التي تربط جباههم. جيش منظّم يتقدّم في خطوات ثابتة ومشية مهيبة، يقوده المختار وأبو أحمد. فرقة «حراس العقيدة». ليسوا حراس قلعة أو قصر، ولا مجمع سكنيّ حتى. لكنّه الاسم الحركيّ الذي أطلقه المختار على عصابته الصّغيرة التي يريد لها احتلال فرنسا.

مشيت إلى جواره، أنا البشير حامل الإشارة، أجرّ كارمن التي تطلّ من عينيها نظرة عابثة، وقد تحوّلت إليّ كائن لا أعرفه. لم تعد طفلي الصّغيرة الوديعه. بل شبح ساخر، لا يخيفني. تتابعنا أعين المارّة مشحونة بالجزع والحذر ونحن نغادر القبو ونتقدّم في ممّرات المجمع السكّنيّ. من دون أن أشعر، رفعت عينيّ إلى أعلى حين مرّت القافلة أمام العمارة الرابعة. هناك من شرفتها، أطلت عليّ ليليان وعلى وجهها علامات الاستياء. أحسست بثقل في قلبي وأنا أراها تغلق مصراعي النافذة معلنة عن إعراضها. لم تكن ديانا معها.. شبّحي الملائكي. ازداد الألم في صدري وقد تغشاني يأس جارف.

أنا ذاهب إلى الموت!

تابعنا تقدّمنا عبر الشوارع والأزقة بنفس النّسق العسكري الذي يجعل الأعين تلتفت لمتابعتنا، حتى وصلنا إلى ساحة كتدرايّة سان-دنيس. لا أدري على وجه الحقيقة، هل وقع اختيار المختار على السّاحة الواقعة قبالة مبنى الكتدرايّة المهيّب بمحض الصّدفه، لأنّ السّاحة شاسعة وتتسع لأعداد غفيرة من متفرّجين ومحتجّين؟ أم من باب استدرار مساندة الإخوة المسيحيين في الأزمة التي تلحق بإخوانهم المسلمين؟ طردت بسرعة الفكرة الثانية وقد تذكرت خطاب عليّ عن الكفّار، ورجّحت أنّ الاختيار -لو كان مقصودا- فهو بالأحرى من باب الاستفزاز لا التّسامح!

وقف الحراس مصطفىين بطريقة مدروسة، وأنا أقلدهم منساقا. كنت قد حصلت على جرعة من المشروب ذلك الصّباح، مكافأة على حملي البشارة! فتمكّنت من التحركّ باتّزان مثل آدميّ استرجع تحكّمه في أطرافه. حين استقر بنا المقام، رفع أبو أحمد مكبّر الصوت إلى فيه وهتف:

- تكبير...

فرّد الحراس وراءه بصوت واحد مزلز: الله أكبر! كان لأصواتهم هدير يهزّ القلوب، حتى خُيّل إليّ أن الأرض ارتجفت تحت أرجلنا. تکرّر التكبير ورَجَّعه مرّات لم أحص حسابها، ثم تقدّم شاب أخاله لم يبلغ العشرين ليمسك مكبّر الصوت وأخذ يرتل ما تيسّر من ذكر الله الحكيم بصوت رخيم، بينما أصغى له البقية في خشوع. حين فرغ، عادت المجموعة إلى التكبير بحماس أقوى بينما لوّح البعض بعصي وسلاسل ممّا يستعمل في الرّياضات القتاليّة.

ردّدت جدران الكتدرايّة العالية النداءات ودفعتها أمواجاً باتّجاه الأزقة والشوارع المحاذية، فسالت مثل نهر جارٍ يطرق الآذان ويدير الأعناق، وتقاطر المازّة والفضوليّون على السّاحة يستطلعون الأمر. كانوا يتوقّفون للفرجة برهة يسيرة، ثمّ يسحبون أطفالهم كأنّما يحمونهم من خطر يهدّد وعيهم وسلامة أفكارهم ويمضون متعجّلين. ولا يبقى في السّاحة إلا متعاطف، أو من غلب فضوله حذره، فيقف على مسافة كافية متوخيا قواعد السلامة.

في الأثناء أخذ الشيخ المختار الكلمة. تتحنّج ثم قال بصوته الوقور النافذ ولكنّه الشرقيّة:

- يا أيّها الناس، إنّ الدّين عند الله الإسلام. يا أيّها الضّالون الهائمون على وجوهكم، تعالوا إلى دين الله فهو خير لكم. يا أيّها العصاة المذنبون عودوا إلى الله يغفر لكم. هذا الدّين منتصر لا محالة شئت أم أبيت، فانضمّوا إلى الفئة الغالبة قبل فوات الأوان! الإسلام سيصبح

قريباً دين أوروبا الأول مهما قاومتهم وعاديتهم. لن تضرنا عداوتكم ما دام الله معنا. وإن تنصروا الله ينصركم...

استمرت خطبته ردحا من الزمن مراوفاً بين الترهيب والترغيب. ثم عاد التكبير مرة أخرى، قبل أن يندفع الحراس في استعراض رياضي كل حسب طاقته وموهبته. بعد نحو نصف ساعة، لم يكن العرض قد انتهى بعد حين توقفت سيارة شرطة في رأس الشارع ونزل منها أربعة رجال أمن. تقدّموا في اتجاهنا شاقين طريقهم بين الحشود المترقبة. حين انتبه الحراس إلى القادمين الجدد، توقفوا عن عرضهم وأعادوا تنظيم صفوفهم في حركة دفاعية. لم تكن المواجهة الأولى لهم مع رجال الشرطة. مهما غيّرنا مكان دعوتهم وتنقلوا بين الساحات، كانت الشرطة على موعد معهم في كل مرة، لكنّ المختار تمادى هذه المرة في استعراض العضلات وأظهر جرأة لم تكن في سمته قبلاً. تكلم الضابط الأعلى رتبة من بينهم: - سيد مختار، أظنك تعلم أن هذا إخلال بالأمن العام واستغلال للفضاء العمومي من أجل نشاط غير مرخص له...

أخذ أحد الشباب يحرك هراوته في الهواء معلناً عن استعداداته للقيام بأيّ عمل متهور. لكن الشيخ المختار أشار إليه بكفه أن يلتزم الهدوء، بينما أمر الشرطي محتدّاً:

- فلينفذ الجميع من هنا، وفوراً!

لم يتحرّك أحدنا من موقعه قيد أنملة في حين كرّر الضابط أمره في عصبية. مرّت لحظات من الصّمت اختفت خلالها الابتسامة من وجه رجل الأمن وتحوّلت إلى شفّي المختار. رفع بعض المتفرّجين جوّالاتهم ملتقطين المشهد، فسارع الشرطيون الثلاثة لانتزاعها من أيدي أصحابها ومصادرتها. لعلّ المختار كان يستمتع بلحظات السيطرة تلك، لكن لم يكن من الحكمة إطالة أمدها بقدر يستفزّ السلطات. ولما كان رجلاً حكيماً، فقد رفع يده طالباً من الانسحاب. عندئذ تحركنا ببطء وهدوء

وقفلنا راجعين إلى المجمع السّكني بنفس الخطوات المنظمة.

لم تخاطبني ليليان منذ ذلك اليوم.

ولم تعد حياتي تشبه ما كانت عليه.

صرت ظلّ المختار الملازم له. يسألني بين الفينة والأخرى: هل ترى البنت؟ فأهزّ رأسي موافقا أو نافيا، حسب الوضع.. فيستفسر عن «الرسائل الربّانيّة» التي تصلني من خلالها. لكنني كنت قد وعيت الدّرس. إن أردت الحصول على دوائي، فيجب أن أمنحه الرّدود التي يريد! ردود ساذجة وفضفاضة ومجتزأة، لا تعني شيئا غالب الأحيان.. لكنّها تفي بالغرض! ليس بعد.. خلال أيّام.. كن مطمئنا.. قدّم صدقة.. بعد العصر..

فيتهلّل وجه الشيخ ويهرع إلى تنفيذ ما تمليه عليه الرّسالة مهما بدا غامضا وغير ذي بال، فالمختار لديه ملكة تأويل لا تضاهى! يجد لكلّ عبارة ترد على لساني مغزى واضحا يصله بمطلبه، ويُتبعه بخطوات دقيقة. كأنّه على الدّوام مخير بين أمرين، والرّسالة تدفعه نحو أحدهما. قد أبدو لك محتالا ومستغلا لحاجة الشيخ تلك، لكنك تدرك حتما أنّ سلوكه هو الذي دفعني إلى ذلك النّهج! ليالي القبو الرّهيبية من أجل بلوغ البرزخ كانت موتا حقيقيّا، والشيخ لم يرضخ لاستعطافي ولا حرّكه رجائي، لذلك فقد كان لزاما عليّ أن أجاريه في جنونه ريثما أجد مخرجا من وضعنا السّخيف ذاك.

لكنّ الأمور كانت تمضي من سيّئ إلى أسوأ.

في تلك الفترة، انقطعت عن دروس اللغة العربيّة، وانقطعت عن شقة ليليان بعد أن كانت لي فيها محطة يوميّة بعد العصر، لاحتساء كوب

من الشاي من يدي العجوز الخمسينيّة، والتهام قطعة حلوى من صنع ابنتها الحسناء. تعودت على ديانا، ولعلّها تعودت عليّ. وكان ما بيننا أحاديث وديّة بريئة، لم تخرج عن حدود الأدب واللياقة. كانت المسافة بيننا تتقلّص بأكثر ممّا كنت أمل. كنت أستميت في إبقاء فضولها متّقدا حتّى لا تفقد اهتمامها تجاهي. وكانت ليليان ترّحب بوجودي دونما تكلف، وقد وجدت ابنتها تتفتّح في رفقتي مثل وردة طال سباتها الشّتويّ. وقد ظننت أنّ الوضع سيستمرّ إلى ما لا نهاية، حتّى حصل ما لم يخطر لي ببال.. اختفت ديانا من دون سابق إخطار.

طرقت بابها ذات يوم، لتقول أمّها إنّها ليست بالبيت. وتكرّر الأمر في اليوم الثاني، وفي الثالث أيضا! حتّى شككت بأنّه لم يعد مرحبا بي في منزل الأرملة وابنتها المقعدة. والأدهى هو أنّ ليليان لم تكن تكلف نفسها عناء تفسير أو توضيح، تماما كما لم تحاول تبرير رغبتها في حضوري بشكل شبه يوميّ إلى شقّتها. كأنّما كان حضوري جزءًا من علاج ابنتها.. أمّا وقد استعادت ديانا نضارة الروح وإقبالها على الحياة، فما عدت أفيدها بشيء، وما عاد لتردّدي على شقتهما من معني! ولعلّ فترة انقطاعي السّالفة وخروجي ذاك اليوم مع حرّاس المختار قد زاد الطّين بلّة وقضى على آخر حظوظي.

أصابني التحليل في مقتل. فقد كنت أوهمت نفسي في الأسابيع الماضية بحظوة ضمنتها عند أميرتي الصّهباء. وبنيت قصورا من الآمال، بتراب الوهم وأجره! فانهار البناء الذي شيّدته على رأسي، كما قُدّر لكلّ بناء كانت أسسه واهية. غمرني انقباض رهيب. كنت قد انحدرت خلال أيّام قليلة إلى قعر اليأس، حتّى خلّطني صرت شخصا آخر. كان هناك إحساس جميل بالألفة تجاه العمارة الرّابعة وسكّانها، تبخّر من صدري كأنّما لم يكن.

جفاء ليليان ونظراتها المظلمة، واختفاء ديانا الكامل كانا مصدر وجع مزمن، لكنّ لكدرتي أسبابا وأسبابا. الدّواء.. لم يعد كما هو. أو ربّما

مفعوله مختلف. لا أدري إن كان المختار يلاعبني. لعلّه لم يكن بالسّذاجة التي ظننتها، فعمل على تقييدي إليه أكثر. لم تعد جرعة الصّباح تكفيني. ما أن تغيب الشّمس حتّى تتمايل ضلّالات الموت أمام عينيّ، ويشقّ الألم رأسي نصفين، كأنّما انقطع عنيّ تيّار طاقة ما!

كانت البداية شبيهة بليالي القبو. ألم مميت لا ينبلج عليه الصّبح إلا وقد أوهن جسدي وأذهب عقلي. ولعلّها بغية المختار.. أن يبقيني على اتّصال دائم بعالم الأرواح! لكنّ خلاياي العصبيّة سرعان ما تكيفت مع وخزات الإبر ونقرات المسامير وألفت أزيز المنشار الذي يقطّعي من الدّاخل. فتتظّره، وتعرّف مقدّماته.. وتأنّهب لحضوره في مواعده. حتّى آل بي الأمر إلى استسلام كامل لسطوته.

هل يمكنك أن تتخيّل كيف يكون الألم الذي لا غنى لك عنه؟
ألمّ يؤكّد لك وجودك!

فما عداه هياكل هلاميّة طافية لم أعد أدرك حدودها! أصبح الوجود بالنسبة إليّ هو الألم، كارمن، الرّصاصة. أمّا السّاعات التي يكون فيها لدواء الشيخ المختار المخدّر الغلبة، فهي مثل الحلم الذي لا تفهمه ولا تستسيغه. تعلم يقينا أنّك ستنتهي منه خلال وقت قريب، حين تستيقظ -حين ينتهي مفعول الدواء- وهو حلم تتعطلّ خلاله الحواس، لا تكون خلاله نفسك، لا تؤدي وظيفة منطقيّة ترغبها ولا تتحرّك بمحض إرادتك! كنت الدّمية التي يحتاجها المختار، وكنت أستسلم لذلك.

لا أذكر يقينا كيف ومتى حصل ذلك، لكنني لم أعد حريصا على الدّواء حرصيّ الأوّل. كنت أحمّل سويغات من الأرق قبل أن أبتلع جرعات السّائل، أختبر حدود تحمّلي وأدفعها دقائق إضافيّة في كلّ مرّة، كأني أزيد اتّساع مجال حريّتي الشخصيّة! أتحدّي الرّصاصة والمختار معا.

أنا باق رغم الرّصاصة.

أنا باق من دون الدواء!

وحين كنت أنفرد في خلوتي الليلية، أترقب أن تستلمني الرّصاصة فتأتي على أعقابها كارمن تجرّ إحداهما الأخرى كتوأم متلاصق، كنت أسترسل في أحاديث ميتافيزيقيّة موعلة في الوحشة.

هل أنا موجود؟ ماذا لو كنت قد متّ فعلا؟ ماذا لو كنت روحا مثل كارمن، أتطفّل على عالم الأحياء؟ يستحضرني المختار في جلسات زار، ويسقيني شرابه ذاك ليقيدني إلى عالم البشر؟ لم أعد أعلم يقينا أين كنت وكيف أصبحت. هل كنت أكل في تلك الفترة؟ وأقضي حاجات بشريّة عاديّة؟ لو أنني كنت متيقنا من ذلك لالتّضحت الرؤية! لكنّ كلّ شيء يحصل من حولي بعد أن آخذ الدّواء أصبح يبدو ضبابيّا مرتجّبا بشكل كبير. الصّور تتقاذف أمام عينيّ ولا تثبت في مكانها. وأصابتني الدّهشة. لم يكن ذلك يصيبني في وقت سابق! كان الدّواء عامل استقرار يمكّنني من مزاوله حياة طبيعيّة في ما مضى، لكنّه اليوم يتركني كالمسرّنم.. أتحرك ولا أعي حركتي.

ومع ذلك فقد كنت أمرّ بحالات صفاء شديد، تتيقظ خلالها حواسي كأنّما قد تضاءعت، فألتقط أبسط صوت وأسجّل أدنى لفظة. وفي أوقات أخرى، أرجع طبيعيّا لا أشكو شيئا، كأنّما قد أفقت من نوم الدّهر! وقد كانت تلك الأوقات شحيحة نادرة الحدوث بادئ الأمر، ثمّ أصبحت أكثر تواترا حتّى استقرّ الوضع بعد أن استوثق المختار منّي ورضي عنيّ.

وكنت في تلك الفترة قد انقطعت تماما عن شلة المقهى وجلساته. وحين عاودتني حالات الصّفاء، لم أجروّ على الظهور بعد غياب لا يمكن تفسيره وحضور لا يسعني تبريره! لكنّ الحاجة دفعتني إلى دخول دكان أبي صالح ذات مرّة. كان بالمحلّ زبائن آخرون، فحدجني بنظرة صامتة ولم يعلّق. اختلست إطلالة عابرة على شرفة المقهى وأنا أعجل بالعودة أدراجي. تميّت لو لمحت الدكتور مالك، لعلّه كان ليفهمني. حين يكون ما يلزم بك مشطّا في الغرابة، يتعسّر على عامّة البشر استيعابه وتقبّله، تحتاج عقلا جامحا يعالج كلّ واقع بقاموس المنطق الخاصّ به. وهذا

هو الدكتور مالك.

لكنّ حظي العاثر جعلني أقع على أبي مازن. لوّح لي بحرارة ثم هرول في اتّجاهي رغم سنيه التي تراكمت شحما في كرشه المكور وضعفا في ركبتيه الهزيلتين. تأبّط ذراعي وسار بي بمحاذاة الشارع الرئيسيّ. كنت أرغب في الفكّ، لكنني قدّرت الودّ البالغ الذي أظهره المهندس المتقاعد. سأل كثيرا عن أحوالي وأبدى افتقاده لشلة المقهى التي انفرط عقدها منذ حين. من دون استفسار منّي، ذكر اختفاء الدكتور مالك الغامض بعد انقطاعي بأيام قليلة. فاجأني الأمر، وأعفاني من السؤال عن الرّجل. لم يبق إذن سوى العجائز والنرد في صندوقه الخشب.

وقفنا قبالة محطة الحافلات، وأبو مازن ما زال يثرثر. يحوم حول السّؤال من الجهات الأربع ولا يقتحم سور الخصوصية الذي لطالما بقيت جدرانها مرفوعة منذ أيّام الشّلة. لعلّه يتساءل، هل من حقّه أن يسأل أين كنت وما الذي حلّ بي؟ ولما كانت رغبة الإفصاح منعدمة لديّ، فقد تجاهلت ما في لهجته من تلميح. انتبه فجأة إلى شرودي عن حديثه ونظراتي السّاهمة في اتّجاه بناية قديمة ترتفع طوابقها خلف مأوى المحطة. قال فجأة:

- تلك بناية مسكونة!

التفتُ إليه مبغوتا، وقد استحوذ فجأة على كلّ انتباهي.

- ماذا تقصد.. بمسكونة؟

- لقد هجرها سكّانها منذ سنوات. وكلّ متعهّد حاول ترميم المبنى وتجديده كان يفرّ بعد برهة وساقاه تسابقان الرّيح. الغالب أن أرواحا ما تسكنها، وتأبى أن يشاركها البشر ملجأها.

- أيّ نوع من الأرواح؟ أشباح موتى؟

كنت أستعلم في ظاهر الأمر عن بناية لا تهمني في شيء، بينما أستطلع في الحقيقة رأيه في نظريّة المختار عن روح كارمن.

- دعك من هذا الهراء. أرواح الموتى ليست فارغة لهذا العبث، وهي المشغولة بمصيرها وحسابها. فهل يمكن أن تكون مع هذا طليقة من كل قيد، تروّع البشر وتستحوذ على البنيان؟
انتابني الرجفة مع كلماته الواثقة. وتساءلت في صمت: إن لم تكن هذه الأرواح لموتى البشر، فما تكون؟
- إن شئت رأيي، لا يمكن أن يكون إلا من الجنّ والشياطين!

- إنها جنّية!

قلتها بلهجة من يكشف عن سرّ خطير. ما عدت متيقنا فيم كنت أفكر، حين قصدت المختار أنبئه بما خلّصت إليه بعد حديثي العابر مع أبي مازن. ربّما طمعت في نفوره، فيطلقني من جلسات زاره.. أو شففته، فيسعى إلى تحريري منها بدل الحرص على استبقائها؟ رأيته يتفحصني باهتمام واستغراق بالغين، دار حولي ساهما كأنّما يزن كلماتي بميزان العقل والخبرة.. والنفع أيضا. ثمّ ظهرت على جانب فمه بادرة ابتسامة، توسّعت تدريجيّا حتّى ملأت وجهه. ثمّ تركني من دون أن ينطق بحرف وهرول إلى الخارج لا يلوي على شيء.

لم يطلبني ذلك اليوم، ولم أجد له أثرا في المجمع كلّه. ولم أقدر أن أخمّن كيف يفكر المختار. بدا أنّ اعترافي قد كشف له عن شيء ما.. شيء يتجاوز تفكيري. لكنّ الأمور اتّضحت حين دعاني إلى مجلسه تلك الليلة.

أمرني بشرب وصفة الأعشاب في حضرته، ثمّ بعد أن بدأ تأثير المحلول يُلاحظ على وجهي، أخذ بيدي وقادني بخطوات متّدة عبر دهاليز القبو. رأيت في ما يرى النائم -أو المخدّر، أيّهما أقرب- قاعة فسيحة ومضاءة بشكل مبهج، لا تكاد تصدّق أنّها تقبع في أعماق القبو! فرشت أرضها

بطنافس وسجّاد فاخر، وأرائك منخفضة وثيرة، وتناثرت هنا وهناك
وسائد طريّة ومغرية في فوضى مدروسة. لم أكن أدرك مصدر الضوء،
لكنّه يبهّر عينيّ ويبقي رؤيتي مهتّزة. فجأة تركت كفّ المختار كفي، والتفّ
حتّى صار أمامي وخاطب قوما كانوا مجتمعين في بلاطه ذاك، الذي يشبه
ما رسمته في خيالي لبلاط خليفة عبّاسيّ ما! كنت أنتبه للتوّ إلى وجودهم،
والمختار ينزاح جانباً وينحني، ليقلّده رفاقه انحناءً.. في اتّجاهي! ثمّ حصل
ما هو أعظم.. نزع المختار عنه عباءته ورماها على كتفيّ! مثل خليفة
يخلع عباءته على وزير من وزرائه يرضيه أداؤه! عباءة خضراء ذات ملمس
حريريّ ناعم كانت، رفرفت من حولي وأنا أتقدّم في غير ثبات في اتّجاه
المقعد المرتفع الذي يتصدّر الجلسة. كان القوم يحتفون بي!

- كليم الجنّ!

قدّمني المختار في فخر واعتزاز، فأتّسعت عيناى ذعرا. لا شكّ أنّي ترقّيت
في سلّم الكفاءة عند الشيخ حين تبين أنّ رفيقتي جيّنة، لا مجرد روح
بشريّة شاردة! لا تسألني أرجوك كيف ولم.. لكنني وجدتني أستسيغ
الدور. هالة التعظيم التي أحاطت بجلسة ربّما هوّل لي الدّواء أبعادها،
فتخيّلتها جديرة بالخلائف، وهي مجرد صالون مغربيّ ممّا انتشر في أسواق
الأثاث الباريسيّة - كانت تروقني! هل تتخيّل كيف يمكن لبشر أن ينتقل من
مكانة الخدمة والتّبعيّة إلى مكانة النّديّة والتّبجيل عند رجل فاضل ومقتدر
مثل المختار؟ كنت ممتّناً تلك الليلة لكارمن والرّصاصة أكثر ممّا أمكنني أن
أكون في أيّ وقت آخر. جيّتي الصغيرة التي أربّعتني اكتشاف حقيقتها تلك
الظهير، تجلّت ميزة لا يستهان بها.. عند من يقدرها حقّ قدرها. وقد كان
ذاك المجلس هو ما رفع قدرها.

كانوا رجالاً أثرياء من عليّة القوم، يؤمنون بقدرة الجنّ على تيسير
أمورهم الدنيويّة بالغة التأثير والأهميّة. مثل الشيخ المختار كانوا
ينتظرون منّي إشارات وإجابات. أنا الرّسول حامل البشارة! كان من السّهل
عليّ بعد عمليّة التنصيب والاعتراف التي أتقن المختار إخراجها أن أسعى

إلى السّاحة، فأنصب في قلبها خيمة من وبر الجمال، وأترّع ساعات
النّهار أمام كانون يطقق في جوفه البخور، فأتتم بكلمات مبهمة وأحلّ
مشكلات الخلق بمشورة جنّيتي! تراءى المستقبل سهلا والحياة منبسطة
ممتعة، وقد وجدت أخيرا المهنة التي تناسبني!

أراك تقهقه وقد وصلت عند هذا الحدّ. كم كان أبوك ساذجا حينها.
أحاول قلب موازين الأمور واستغلال الموقف ولو إلى حين. ما دامت
رصاصتي في رأسي وكارمن تقبع إلى جوارتي، ألا يحقّ لي تحقيق بعض النفع
من مصيبتيّ؟ أم أنّهما لا تصلحان إلا للألم والعذابات الليلية حين يغيب
تأثير الدّواء؟

ولأيّام تلت، استغرقني الدّور الذي كُسيت جلبابه حتّى تخالني من
المشعوذين الأصليين.. لا تقليدا يُمهر بعبارة «صنع في الصّين»! لم أكن
ذا تجربة مع الدّجالين والوسطاء الرّوحانيّين، لكنّ حفلة الزّار الأولى خلّفت
في ذاكرتي تتفا من العبارات البليغة التي تردّدت مرارا على مسمع منّي،
وخلّطني صرت قريبا من هيئة الشيخ المهابة وقد اعتمدت عمامته ورفلت
في حلّته، فاجتهدت في تقليد صوته وشكله وهو يحاول استحضار كارمن في
المرات الخالية. وما بدّأته متصنّعا متكلّفا، انتهيت إلى ممارسته في سلاسة
لا تضاهى.. كأنّني تربّيت في حجر أحد شيوخ الطريقة.

خلال وقت قصير، ذاع صيتي في المنطقة واشتهرت في الأوساط الشعبيّة. أصبح المریدون یفدون من أجلي، ولن أبالغ إن قلت إنني نافست المختار نفسه! ولم یکن یبدو علیه الضيق لذلك، فزواج تجارتي كان مدعاة فخره. ألم أكن صبيّه وصنيعته؟ ألم تكن جنيتي من اكتشافه؟ بل لعلّ وجودي خفف علیه ضغط المریدین المتزاحمین علی بابہ سائلین الشفاء. ولعلّه كان یوجّه بعضهم إليّ، ناصحا إياهم باختبار شيء جديد.. استشارة الجنّ مثلاً!

كان المختار قد أفرد لي شقّة في إحدى عماراته، تتصل بمدخل أرضي مباشر. ولعلّ أطباء ومهندسين حسدوني علی موقع «مكتبي» القريب من الطريق العموميّة، فلا تخطئ العين لافتته من بعد مئات الأمتار.. «حكيم روحاني». لم أكن آخذ أجرا من أصحاب الحاجات، لكنّ علبة معدن كانت تُترك بإهمال في مدخل الغرفة، والمقتدرون یلقون في جوفها قطعاً نقدية.. كلّ حسب طاقته، وعرفانه.. فكثيراً ما يرجع المرید ليدفع بعد أن تُقضى حاجته أو یجد ضالته. وإن كان ذلك یحصل، فهي بالتأكيد صدفة أو قدر! فلا أدّعي أنّ كارمن كانت تنطق بما یفید! لكنّ تكرار الصّدف وتواترها جعل من جنيتي الصّامته أداة معجزات!

في ذلك اليوم، كانت غرفتي المخصّصة لاستقبال الزوّار غاصّة عن آخرها. وكانت قد مضت عدّة أسابيع علی مزاولتي «المهنة». كنت أتمتم مثل العادّة، وأودّي حركاتي الغريبة مثل مشعوذ محترف. ثمّ تراءى لي خیال من نافذة الغرفة المطلّة علی السّاحة، شتّت انتباهي. رأيت ليليان، قادمة من بعيد، تدفع كرسيّ ديانا عبر السّاحة! كانت معجزة بحقّ، أن ألمحها بعد غياب قد طال وراء الجدر المغلّقة، حتّى ظننتها اختفت إلى

كانت لحظة خاطفة قطعت أنفاسي، قبل أن يجتذبني عبق البخور وصوت المرأة المسكينة المتربّعة قبالي تسأل عن سوارها الذهبي الضائع، فرجعت بتركيزي إلى الواقع مرغما. كنت أحاول جاهدا أن أبعد عيني عنها، فأرقبها خلسة بطرف عيني، أتأكد أنّها هي هي.. حتى رأيته ترفع رأسها. واجهتني عيناها لبرهة قصيرة، لمعت خلالها نظرة استخفاف لا ترحم، قبل أن يغيبها وأمّها منعطف في نهاية الدّرب. كانت ترحل أمام عيني، وأنا عاجز عن استيقافها.. أنا الذي أحدثّ الجنّ بزعمهم، وأحلّ المشكلات المستعصية، لم أكن قادرا على فعل شيء أردّ به نظرتها القاتلة.

في ذلك المساء، بتّ معذّبا مكلوما.. كأني رأيت حقيقتي في تلك النظرة. وتساءلت لأول مرة مذ لبست عمامة الدّجالين، ما الذي أفعله بنفسي وبخلق الله المساكين؟ لم أكن دجّالا مثل الآخرين.. فجئيتي حقيقة. لكنني بُليت بجنيّة مراهقة ترفض أن تجيب عمّا أسألها عنه! كانت ترقبني من ركن الغرفة، حيث تجلس طوال النهار تخريش بطرف عود على الجدار الكلسي.. وأنا أستميت في اجتهاد أقرب إلى الاختلاق في تخمين صور ذات معنى لخربشات العقيمة تلك! مذ عرفت أنها وهي تخريش.. تحدثنا طويلا وتسليّنا في عهدنا الأول، خالي البال من الفروقات الحسيّة بيننا. كنت أجد متعة في تأويل رسومها ومبادلتها الحديث من خلالها. لكنّها اليوم باتت تتجاهلني حين أحدثّها، تنكمش على نفسها وتسحق العود بين أصابعها لتزداد رسوماتها تعقيدا وسرياليّة.. كأنّما تتحدّاني في صمت أن أقدر على التخمين.. ولم تعد اللعبة تستهويني وتمتعني. لكنّها غدت مصدر قوتي وقوّتي! فقبلت التّحدّي مجبرا لا بطلا.

نمت تلك الليلة بعد أن اتّخذت قرارا بالتّوقف. لم تكن ديانا راضية عن شعوذتي، وكنت لأفعل المستحيل في سبيل رضاها. على السّاعة الثامنة من صباح الغد، كنت أطرق باب شقّتها. هل رأيت جسارة كهذه؟ بعد أن طُردت مرّة واثنين وثلاثا، أراني أركب المصعد كرّة أخرى، أبحث

عن الخيال الذي عبر أمام نافذتي بالأمس، وقد اشتقته بكلّ جوارحي.
بعد ثوانٍ، فتح الباب، وظهرت ديانا على كرسيّها. رمقتني في دهشة. لم
تكن زيارتي متوقّعة بعد القطيعة الطويلة. قالت وهي تدفع عجلاتها إلى
الوراء في إعراض:

- أمّي ليست هنا.

تمنّيت لو امتلكت الجرأة لأشرح ظروفِي وأعلّل غيابي، أو أسأل عن غيابها
وإعراضها. لكنني لم أفعل. ما نفع العتاب، ما دامت عيناها تجاهران
بالصدود؟ لبثت عند الباب المشرع، بينما انسحبتُ إلى الصالة، من دون
أن تدعوني إلى الدّاخل. مرّت لحظات من انتظاري المتوتّر، بينما استمرّت
هي تراقب مشهد الحياة في ساحة المجمع السّكني من نافذتها الشّاهقة.
سألني فجأة من دون أن تواجهني:

- هل لديك جيّة حقّا؟

ابتسمت. لم يسألني أحد ذاك السّؤال من قبل. الكلّ تقبّله في تأمينٍ
مُسَلّمٍ.. ومن لم يصدّق صدف عني ولم يسأل. فكّرت كيف أجيبها، ثمّ
ارتأيت الصّدق. رغبة عميقة في داخلي كانت تقتضي ألا يرد على لساني غير
الصّدق في حضرتها. قلت:

- يبدو ذلك. هي جيّة صغيرة متمرّدة.. صامتة معظم الأحيان. لكنّها
تلازمني غالب الوقت!

سألت متشككة تختبرني:

- هل هي هنا الآن؟ صفها لي؟

نظرت إلى طيف كارمن الذي ينحني في منتصف المسافة التي تفصلنا،
يرسم خطوطا وهميّة على سجّاد الصّالة القديم.

- إنّها خفيفة رقيقة العظم، بشرتها شاحبة توحى بالعلّة.. شعرها بنيّ
قصير، ونظراتها ساخرة. إنّها تسخر منّي طيلة الوقت.. وتشعّرني بالسّخافة!

كنت قد قرّرت هذا الصّباح أن أتوقّف عن تأويل خربشاتّها إلى الأبد. فقد
بلغ منّي الضيق مبلغه!
قالت في عبث ساخر:

- ماذا تقول جنيتك؟ هل يتلبّسني جنيّ ما؟
انحنيت فوق كتف كارمن أتأمّل رسما وهميّاً ربّما تكون خطّته على
السّجاد. كانت تبدو وديعة ذلك الصّباح، تحرّك سبّابتها في شكل دوائر
رقيقة، وتطالع ديانا في اهتمام.
قلت معترفاً:

- لا أدري! لا يمكنني فهم خربشاتّها غالباً.. لكنّها هادئة اليوم وسخريتها
منطفئة. أظنّها أحبّتك.
استدارت لتطالعي بنظرة مستغربة. لم أكن أبداً مشعوذاً محترفاً في
تلك اللحظة، وقد نزعت عني العباءة وقناع الوجه. قلت على الفور
مستغلاً لحظة التّواصل البصري بيننا:
- لقد تركت السّعوذة. لن أفعل ذلك مجدّداً.
مرّت لحظة من الصّمت، لعلّها حاولت تقدير مدى صدقي، ثمّ سألت:
- وما الذي تنوي عمله الآن؟

انعقد لساني ولم أجد الكلمات المناسبة. ما الذي أنوي عمله؟ لم
أكن قد فكّرت في الأمر. كنت أودّ العودة إلى دروس العريّة، لكن خشيت
أن يعارض المختار وأتعرّض منه لعقاب جديد.. وهو الذي لم يتوان عن
حرمانني من الدّواء لأبقى على حدود ما توهمه برزخا! أيّ وعود يمكنني أن
أقدّمها لأميرتي التي تستفسر عن مشاريعي المستقبلية؟ طال صمتي حتّى
قالت منهية مهلة الانتظار:

- عليك الانصراف الآن.. أمّي ستصل في أيّ لحظة.
انسحبت في صمت، مكسوراً، أجرّ أذيال الخيبة.

كنت قد تركت الشعوذة منذ ذلك الصّباح. منذ عاودت ديانا الظهور في حياتي. تظاهرت بالمرض فترة، ثمّ اشتكيت إلى المختار كسل جنيتي وغيابها عني، فأوصاني بالخلود إلى الرّاحة على أن أستأنف في القريب. لكنّي لم أكن أنوي شيئاً من ذلك.. أتلكأ وأسوّف اتّخاذ قرار في ما أصنع.

حين صادفت ليليان الأسبوع التالي، لم أتوقّع منها غير التّجاهل كعادتها مؤخّراً. كدت أشيح عنها بوجهي، لولا حقّ الجيرة الذي كنت أوّمن به. لم تتوقف وهي تسير متعجّلة عبر السّاحة، لكنها همست إليّ حين مرّت بجواري وهي تحتّ الخطى:

- اتبعني...

سرت خلفها في إذعان متوجّساً من همسها ولهجتها الغامضة. انتظرنا المصعد في صمت ثمّ دلفت وراءها إلى شقتها. أغلقت الباب خلفها في إحكام ثم طلبت مني الجلوس على الأريكة القريبة. أطعتها من دون تردّد، وعيناي تنشطان بحثاً عن خيال ديانا الذي لم يظهر بعد. جلست ليليان قبالي وسألتي في اهتمام:

- أنت لست متورّطاً معهم، ألسن كذلك؟

انفجرت شفتاي لأردّ، لكنني عدمت الجواب. عن أيّ درجات التورّط تتحدّث؟

أضافت هامسة كأنّما ضمننت براءتي:

- أنت ولد طيّب.. ولست معنيّاً بالمصائب التي ستحلّ بأهل القبو! اسمع نصيحتي وغادرهم قبل أن ينطبق فكّا المصيدة!

طالعتها في ارتياب ودهشة، فعادت للهمس كأنّما تخاف أن يتسلل صوتها خارج جدران الشقة ويصل إلى آذان تترصّدنا بسوء:

- هناك شخص أعرفه.. صديق قديم لزوجي رحمه الله.. ضابط شرطة.

رأيت سيّارته مختفية قرب مدخل المجمع السكني. إنّ الشرطة تستعدّ لمداهمة ما.. لم تعد إلاّ مسألة وقت...

أقلّب كفيّ في عدم فهم. وما علاقة حراس العقيدة والشيخ بمسألة كهذه؟ لعلّهم يترصّدون منحرفين ما.. لصوصا أو تجّار مخدّرات؟ تردّ محتدّة على تساؤلي الصّامت:

- أنت لا تفهم! من غير المختار وعصابته يكون بغيتهم؟ نشاطهم المشبوه محطّ أنظار السّلطات منذ حين، ينتظرون الزّلة الكبرى.. الخطأ الفادح الذي يكشف المستور. وقد بات المختار يعلن عن نفسه أكثر من ذي قبل، ويستعرض قوّته أكثر ممّا يحتمل الصبر.. وقد غدا قريبا من ارتكاب ذاك الخطأ القاتل!

همست بصوت مبحوح:

- لكن، الشيخ المختار.. رجل صالح ذو أفضال...

- كأنّما توقّعت أن أرفع حجّة الدّواء، هتفت بي كما هتفت مرّة من قبل:

- دع الدّجل والشعوذة واستشر طبيبا حقيقيا!

ثمّ أضافت بصوت يحمل ضغينة لم تحاول إخفاءها:

- أراهن على أنّ دواء شيخك يضرّ أكثر ممّا ينفع.. سيظهر ذلك ولو

بعد حين!

- أرجوك.. لا تقولي هذا. الرّجل أحسن إليّ ولا يمكنني إنكار جميله مهما

اختلفت معه.

ابتسمت ليليان وهي تقول في حنو:

- ألم أقل لك من قبل إنّك ولد طيّب؟ حسن، دعني أفكر في حلّ ما..

أما الآن...

أخرجت رزمة من الأوراق النّقديّة ودسّتها في كفيّ وهي تقول:

- أنت لا تريد أن تكون منهم أليس كذلك؟ خذ هذه واذهب إلى الحلاق

لتهذب شكلك، ثم انزع عنك زيّ البهلوان واشتر ثيابا جديدة.. جميلة وشبابية. ستشعرك بحب الحياة من جديد!

ترددت وأنا أقلب المبلغ الذي لم أمسك مثله منذ زمن طويل. كنت أقدر لها اهتمامها لأمرى، وأشفق على محاولتها أن تكون ندّا للمختار. تابعت تقول بنبرة تحدّ:

- إن خاصمك شيخك لخروجك عن طاعته، فلتعلم أنّك ستكون في حماية ليليان روجيه.. ويمكنني أن أدبر لك مسكنا وعملا إن شئت!

لا ينجح تحريضها في إقناعي بالخطر المفترض، وتسرح نظراتي تحاول عبور الأبواب المواربة. فكلّ ما كان يشغلني آنذاك هو أن ألقى أميرتي التي غابت عن مجلسنا.. لماذا لا أجد لها أثرا، ولا تقابلني غير هذه العجوز الحانية المسكونة بنظريّة مؤامرة تحاك ضدي وترتعب من أجلي كأني بعض أهلها؟

- لا تنس أن تمرّ عليّ حين تعود من المحلّات، أريد أن أرى حلّتك الجديدة.

أشكرها لاهتمامها وكرمها وأعدها بالتفكير في عرضها، وأنهض متثاقلا وقد مُنيت آمالي برؤية ديانا بخيبة ممضّة. لم تتجح غريزة ليليان تجاه الخطر في رفع مستوى حذري، لكنّ المختار تنبّه بشكل ما إلى أنّ أحدهم يحاول سحب البساط من تحت قدميه، فعمل على تثبيت أوتاد سطوته في أرضي بضربات ثقيلة لا قبل لي بمقاومتها. كان بانتظاري حين رجعت من عندها، تلقّاني بنظرته الحصيفة التي تسبر أغوارى من دون عناء وقال:

- كن في موقعك صباح الغد.. فلدينا ضيوف مهمّون.

هزرت رأسي مستسلما. لم أكن أستطيع أن أرفض له طلبا. فيّني أدرك نوع العقاب.

لعلّك تتوقّع مصيبا أنّي لم أعد لرؤية ليليان كما وعدتها. ولا قصدت الحلاق ومحلّات الأزياء الشبابية حسب وصيّتها. فقد رقدت أوراقها

التَّقْدِيَّة في دعة داخل جيب بنطالي القديم الذي استبدلت به صباح الغد جلباب الحاوي وعمامته.. لأعود صاغرا إلى حرفتي المستجدة. لكنّ العجوز الطيّبة لم تياس من أمري، وأرسلت تطلبني غير عابئة بأعين المختار المبتوثة من حولنا. دخل عليّ ولد من أبناء الجيران وأنا أتربّع وحيدا أمام كانوني. كان انقطاعي في الأيام الماضية قد فضّ المريدين من حولي. انحنى عليّ الولد وهمس بكلمة السرّ التي ما حسبت غيري يعرفها:

- الخالة ليليان تطلبك لأمر عاجل يخصّ ابنتها!

ابنتها؟ وهل ليليان ابنة غير ديانا؟

نسيت الدّور والجنّ والشيخ وضيوفه، خلعت عنيّ العمامة والعباءة وهرولت إلى البناية الرّابعة. حين أذكر ذلك اليوم، يتابني إحساس من حُذف بدلو ماء مثلّج في عزّ ظهيرة يوم شديد القيظ. كأنّها استفاقة من سبات شتويّ. ديانا.. يا إلهي، ديانا! خشيت أن يكون قد أصابها مكروه ما!

حين دخلت الشّقّة، لم تكن ديانا في مرمى بصري. إلى جوار ليليان على أريكة غرفة الجلوس، كانت تجلس فتاة أخرى لا أعرفها. طالعتهما في شكّ، وساورني إحساس سخيّف بابتلاع الطّعم. لكنّني جلست مستسلما أنتظر أن يُسمح لي بالحديث. كانت تفصلني ساعة واحدة عن الموعد الذي ضربه لي المختار. ولم تكن ليليان قد جازفت بدعوتي إلّا بعد أن تأكّدت من خلوّ المجمع السّكني من المختار وحرّاسه. لذلك بقيت مكاني مترقّبا.

- شاي أم قهوة؟

- قهوة من فضلك...

لم تسألني ليليان عن مشروبي ونهضت متثاقلة باتجاه المطبخ لتحضر طلب ضيفتها. تضع الفتاة الأنيقة حقيبتها إلى جوارها وتقبّع ملفاتها على الطاولة المنخفضة بينما تسترخي في جلستها من دون أن يبدو عليها الاهتمام بحضوري. أرمقها من دون تركيز، فانتباهي منصبّ على الملاك

الغائب عن الجلسة، وأنا الذي طرت بلا جناحين قلّقا لأمره.

- قهوتك أستاذة رنيم.

وضعت ليليان فنجان القهوة أمامها وكوب الشاي العابق برائحة نعناع طازج وملعقتي سكر أمامي، وتكلّمت موضّحة:

- في اتصالي الهاتفي لم أوضّح الموقف بشكل كافٍ.. نظرا لدقّة الموضوع فضّلت أن أشرح التفاصيل مباشرة.

قدّمتني وهي تشدّ على ذراعي تبثني ثقتها:

- نادر صديق للعائلة.. ونحن نثق فيه كثيرا. بيتي مفتوح له متى شاء.. وأمره يهمّني. لقد مرّ بتجارب قاسية على صغر سنّه وظلمته الظروف. وقد دعوتك اليوم لشأن يخصّه. أريد ترتيب وضعيّته القانونيّة في أقرب وقت حتّى لا يتعرّض للمزيد من المضايقات.

استمعت إليها في صمت. لكنّ مرافعتها لم تشدّني في شيء بقدر ما شدّتي كلمة «نحن» التي بدأت بها خطابها. أين باقي الضمير يا امرأة؟ لماذا يستتر عنيّ؟

- إذن، هل يمكننا استخراج أوراق هويّة لنادر؟

- الأمر ليس بهذه البساطة.. أوّلا نقصد مركز الشرطة ونرفع شكوى بضياع أوراقك، ثمّ نتوجه إلى سفارة بلادك للحصول على جواز سفر جديد وأوراق هويّة كاملة. كلّ هذا في غاية البساطة ويمكن الانتهاء منه في وقت قصير.. لكن لا يمكنك الحصول على بطاقة إقامة بنفس الطريقة. الدّاخلية يمكنها التّثبت بسهولة من سجلات البطاقات المصدرة وسيتبيّن لديها أنّ اسمك لم يرد فيها.. بل لم يتمّ إصدار تأشيرة لك مطلقا، ما سيسبّب متاعب أنت في غنى عنها.. إذن لا مفرّ من سلسلة العرائض والمناشدات والمرابطة أمام مفوضيّات الهجرة ومكاتب شؤون المهاجرين، عسى أن يحنّ عليك أحد المسؤولين ويتجاهل طابور الانتظار المتراكم منذ سنوات، ويتكرّم عليك ببطاقة إقامة تجدّدها سنويّا!

بدا الأمر معقدا بشكل محبط. أشحت بوجهي في ضيق بينما غامت نظرات ليليان التي كانت تأمل الكثير من لقاء المحامية. فواصلت رنيم تقول مفتعلة بهجة مفاجئة:

- أو تختار الحلّ السحريّ الذي يختزل المسافات، وتتزوّج بفرنسيّة!

قاطعتها في انزعاج غير مبرّر:

- انسي الأمر! لست في وضع يسمح لي بالزّواج.

- هل سمعت بالزّواج الأبيض؟ الكثير من المهاجرين بصورة غير شرعيّة يصلحون أوضاعهم بهذا الشكل. ربّما يمكنك أن تجد امرأة تقبل بتسجيل هذا النوع من العقود.. نظير مبلغ من المال؟ وبعد أن يتمّ إصدار الأوراق يمكن لكلّ منكما أن يذهب في حال سبيله.

عمّ الوجوم للحظات وران صمت ثقيل على ثلاثتنا. لم أجرؤ على إبداء موقف من اقتراح المحامية الذي بدا بغیضا إلى أبعد الحدود. كانت تحاول المساعدة، لكنّ اقتراحها لم يكن موفقا على الإطلاق. زواج، نظير مبلغ ماليّ؟ قاومت رغبة مفاجئة بالتقيؤ، بينما قالت ليليان أخيرا:

- سنجد حلا...

خرجت رنيم من الشقة واستقلت المصعد. بعدها بلحظات، نزلت درجات السلم بخطوات واسعة لأدركها وهي تسير الهوينى على الممشى المفروش بالحصى. هتفت من خلال أنفسي اللاهثة:

- أستاذة رنيم.. برأيك.. هل هناك حلّ.. معقول؟

كنت أشير إلى رفضي اقتراح الزّواج الأبيض، فقالت في جدّة:

- السيّدة ليليان.. إنّها تهتمّ لأمرك.

- نعم، أدري...

أضفت بسرعة قبل أن يقطع خيالها مسافات بعيدة:

- إنها في سنّ والدي.

- لكنّها ليست والدتك.. ويمكنّها أن تقدّم لك خدمة جليّة إن هي أرادت...

- من فضلك، لا أريد المزيد من هذا الحديث! ولا تذكري الموضوع أمامها على الإطلاق! عديني!

كنت منفعلا ومستاءً. كان يجب أن أنغمس في الدّناءة حتى أذنيّ لأقبل بحلّ كهذا.

هزّت رنيم كتفيها في استهانة وهي تستأنف السير:

- كما تشاء.

قلت في سخرية بعد أن قطعنا بضع خطوات صامتتين:

- من حيث أتيت، لا يمكن لأحد أن يتوقع كيف يمكن للزّواج أن يكون حلا لمشكلات الرّجل. من الطبيعي أن يكون حلا لمشكلات المرأة.. فهي تفرّ من شبح العنوسة منذ يوم ولادتها، وتجهّز للزفاف بمساندة حثيثة من أمّها وشقيقاتها، بتكديس مختلف المقتنيات بمناسبة ومن دون مناسبة. أمّا الرّجل فزواجه ثقل ومسؤوليّة وتعب جسد وقلب!

ضحكت، فنفضت عن أهدابها ظلال الحزن التي كانت ملتصقة بها.

- هل تتأثرين هكذا بقضايا موكلتك، أم أنّ لحزنك أسبابا أخرى؟

لم أتوقّع أن تكدرها دعابتي بذلك الشكل، فقد تلاشت الابتسامة على الفور. كنت أهمّ بالاعتذار، حين وجدتها تقول ولما يفارقها العبوس:

- هناك قضية تشغلني بشكل خاص.

هزرت رأسي متفهّما. ولم توضّح أكثر.

سأختصر عليك تفاصيل الرّوحات والجيّئات إلى مباني الإدارات الرّسمية سعيًا وراء وثائق الهويّة. فمع أنّ حضور الأستاذة رنيم قلّص الطوابير ويسّر الإجراءات، فإنّ ساعات كثيرة أُستهلكت في قضاء المشاوير.. ولم يكن ذلك ليمرّ من دون أن يلحظه المختار. كنت لأخدع نفسي إن ظننت إخفاء ما أنا بصدده عن الشيخ ممكنا. فقد عرفته يقظا فطنا لا تفوته مسألة تخصّ رجاله.. فما بالك إذا كان الرّجل كليم الجنّ المبجل!

دخل عليّ مهموماً ذلك المساء. تربّع على الحصير إلى جوارِي ولبث ساكنا، يهتزّ جذعه في حركة بطيئة وعيناه مغلقتان، كأنّما تستغرقه تراتيل داخلية. وضع كفّه على ركبتي، كما فعل أوّل مرّة منذ شهور طويلة، يتلمّس موطن الداء. سألني في حنوٍّ بالغ، بذاك الصّوت العميق الوقور الذي لا سبيل لبشريّ إلى مقاومته:

- كيف أنت هذه الأيام؟

- بخير.. بخير يا شيخي. الفضل لله ثم لكم.

- هل ينقصك شيء؟ هل أساء أحد معاملتك؟

سارعت أهتف نافيا:

- لا يا شيخي! لم يحصل مطلقا!

ابتسم الشيخ وهو يقول بلهجة عتاب رقيقة:

- إذن ما الذي غيّرك علينا؟ لماذا التمسّت يد المعونة لدى غيرنا؟ لو

كنت سألتنا لكفيناك.. أو لم نفعل في سابق العهد؟

تاھت الحروف منّي وألجمني عتابه. ماذا أقول؟ أرّتب أموري القانونيّة

لأرحل من هنا إلى غير رجعة؟ أتعمّد إخفاء ما أفعله لأنّ ليليان تسكنها

مخاوف جمّة تجاهكم؟ لم يكن شيء من ذلك مبرّرا حتّى تلك اللحظة.

- هل تعلم كم يكلفني غرام واحد من دوائك؟

رفعت رأسي مبغوتا مع سؤاله الغريب واللهجة الأغرب التي صاحبتة. لثانية واحدة، لمحت في عينيه وميضاً من القسوة.. وميضاً حاداً ظهر لبرهة وجيزة ثم اختفى، وتلاشت القسوة من صوته وهو يضيف بحنّوه المعتاد:

- أنت بحاجة إلينا.. ونحن بحاجة إليك. مكانك هنا يا ولدي. أولم أخبرك أنّك منذور لمهمّة رفيعة؟ والمهمّة لم تنته بعد.

وافقته بحركة آليّة من رأسي ولم أعلّق بكلمة. وقف الشيخ وسار في اتّجاه الباب، وقبل أن يعبره قال ويده على المقبض وقد ولاني ظهره: - لا تستمع كثيراً إلى تخاريف العجائز.. فإن مخالطة النساء مضيعة للوقت مذهباً للهيبة.

- ليس لدينا جنّ هنا يصلح أن تكلمهم!

تجاهلت ابتسامة أبي صالح المتهكّمة وأنا أعبر أمام دكان البقالة. كان الرّجل مغتاضاً منّي، منذ قاطعت جلسات المقهى واستلمت عملي الجديد في الشعوذة. إذا مشيت في الشارع، فيأني أكون مطأطئ الرأس، كمن ينقّب عن شيء مفقود على الأرض. لم يكن يمتعني أن يتعرّف إليّ أحد زبائني، فيخرجني بعبارات اهتمام وتبجيل. لذلك لم أنتبه حين مرّت بقربي ليليان.

- يجب أن نتحدّث.

جاءني صوتها هامساً، فرفعت رأسي. همست من جديد وهي تهتمّ

بمواصلة المسير:

- لاقني بعد ساعة من الآن.

تسلّلت في الموعد متوخيّا ما أمكنني من الحذر. لم أكن أرغب في عتاب آخر من المختار. وقفت متواريا في ظلال الأشجار أراقب حركة السّاحة. حين تيقّنت من غياب الأعين، توجّهت إلى العمارة الرابعة. قالت ليليان حين استقرّت بنا الجلسة:

- تلقيت اتصالا من المحامية، الأوراق ستكون جاهزة خلال أسبوع على الأكثر...

ثمّ ران الصّمت. لم يكن هناك أثر لديانا، كالعادة. هل تكون دعّني لتكتفي بتلك الكلمات؟ فكّرت كثيرا بتلميح المحامية في الأيام الماضية. لن أقبل أبدا بزواج بلييان حتّى لو كان صوريّا أو «أبيض» أو حتّى «أسود». هناك حدود لتحملّي الشفقة والإحسان. إحساس راودني بأنّ عليّ أن أنقذ ما تبقى من كرامتي وأحفظ ماء وجهي.. أمامها. ماذا ستظنّ بي ديانا إن تزوّجت أمّها؟

نطقت ليليان بعد برهة في سكينة، كأنّها تخاطب نفسها:

- أنا وديانا لا عائلة لنا، والداي توفيا منذ زمن طويل وأنا كنت ابنتهما الوحيدة. حين توفي زوجي، تفرّق عنا إخوته ولم أر وجه أحدهم بعد المأتم والدّفن. لم يهتمّ أحد منهم بمصير أرملة شابة وابنتها المقعدة، كان علينا أن نشق طريقنا وحدنا في السّراء والضّراء.. لولا الإيمان ومساعدة الرّبّ...

قالت ذلك وهي ترشم الصّليب ثم أضافت:

- لذلك أحسست بمعاناتك في غربتك لأنني وابنتي جرّينا الوحدة، والغربة بين الأهل من قبل.. نحن نعيش في مجتمع قلّما يشعر بعضه بالبعض الآخر. كلّ منعزل في عالم مغلق. تحيا وتموت في صمت ولا يدري عنك أحد.

صمتت مرّة أخرى، ولم أحاول أن أقاطع إطراقها العميق. كانت ملامحها المشدودة تشي بعزمها على اتخاذ قرار حاسم في تلك اللحظات. قالت مغيرة الموضوع:

- حين كانت في سنّ العاشرة، تعرّضت ديانا لحادثة.. كانت تركب الدّراجة في طريقها إلى منزل رفيقة لها، حين دهستها سيّارة مسرعة. منذ ذلك الحين فقدت القدرة على المشي، وأصبحت انطوائية وميالة إلى العزلة.. واصلت التردّد إلى المدرسة، لكنّها كانت قد وضعت ستارة بينها وبين العالم. أنا وهي عشنا في وحدة لفترة طويلة بعد رحيل والدها. لم تسمح لشابّ واحد بالتقرّب منها أو مغازلتها في الجامعة، وبعد الجامعة انتهت كل علاقاتها بالعالم الخارجي. كانت ترفض الحديث إلى الغرباء وتغرق في كتبها، حتى حين نقصد جلسات العلاج الطبيعي. ظننت أنّها قد ترتاح إلى أشخاص يعرفون معاناتها ويعيشون إعاقة مثل إعاقتها.. لكنها لم تفعل. لفترة طويلة صارت تخشى مغادرة عتبة البيت. إنّها عابسة ومنقبضة طيلة الوقت.. حتّى لقيتك! راودني الأمل حين وجدتّها تنفتح أمامك وترسم البسمة من جديد على شفّتها.. ولبعض الوقت، أحسست أنّ عائلتنا الصّغيرة المنعزلة ازدادت فردا...

ازدردت ريقى بصعوبة حين وصلت عند ذلك الحدّ. لم أستطع النطق بكلمة. أرسلت نظراتي عبر زجاج الشرفة، أنتظر بقيّة الكلام في قلق ونفاد صبر. كنت أتساءل، أيّ نوع من أفراد العائلة قد أكون.. أخ؟ زوج؟ أم.. زوج أم؟ استبعدت هذا الاحتمال الأخير على الفور حين استطردت بلهجة جادة:

- بنيّ، لقد صرت عجوزا تقترب من السّتين.. وقد شاخ قلبي بسبب داء الكوليسيترول ولم تعد دقائقه منتظمة كالسّابق. قد لا أعيش طويلا، والأعمار بيد الربّ.. لكنني أحاول تصريف الأمور بحكمة حتى لا أدع مجالا للنّدم.

انتظرت أن تفصح وتريحي، لكنّها بدت مشتّة.. ربّما تنتظر أن أبادر بكلمة:

- نحن لسنا أغنياء، نعيش على معاش زوجي الراحل الذي يكفينّا..
لم ألمس الميراث قط، لأنّه حماية لمستقبل ابنتي الوحيدة وليس من الحكمة تبذيره. سيكون عليّ أن أنفق قسطاً منه على زواجها.

أمّنت على صواب تفكيرها بهزّة من رأسي وواصلت إطراقي. رمقتني فجأة بشكل مباشر وارتفع صوتها بعد طول همس:

- حسناً؟

بادلتها النظر في سكوت. فاحتدّت:

- ألن تقول شيئاً؟

كان يفترض بي أن أقول أشياء كثيرة بعد فضفضتها تلك، لكنني كنت معقود اللسان ثقيله.

- ربّما تودّ أن تخطبها منّي مثلاً.. قبل أن أغيّ رأيي؟

انفكّ عقدتي مرّة واحدة وسارعت أقول في لهفة:

- نعم.. أريد!

ظهرت على وجهها ابتسامة صغيرة، ثمّ عادت إلى الهمس لتسترسل من دون توقّف:

- إنّها فكرتها.. ديانا اقترحت الأمر. أعلم أنها تروّك أيضاً، وهي تشعر بالارتياح في حضورك. الأمر أصعب ممّا تتصوّر بالنسبة إليّ.. فهي ابنتي الوحيدة! حين أحسست بالتقارب الذي نشأ بينكما، حاولت إبعادك عنها.. لم يكن من المناسب أن تتعلّق بصبيّ تائه تسكن رصاصة في رأسه! لكنّها تبدو واثقة ممّا تريد. هذا جنون! هذا جنون! أنت مرّة مدرّس عربيّة ومرّة شحاذ.. ومؤخراً مشعوذ مبتدئ! أشكّ أحياناً في رجاحة العقل الذي تحمله داخل رأسك! لكنّك ولد طيّب.. قلبي يستشعر هذا، ولذلك أرتاح

إليك.. وأحبّ وجودك إلى جوارنا.. لكّثك ولد كبير يحتاج إلى العناية. أرجوك اكبر بسرعة! حاول أن تفعل من أجلها.. من أجل ديانا التي تضع فيك ثقتها وأملها. لا أريد لابنتي أن تعيش الخيبة. هل تعديني أن تجد عملا جادًا بعد الزّواج وتترك حياة النزق هذه؟ أنتما طفلان تائهان وتحتاجان إلى العناية. لن أعيش لكما طويلا.. وأنا حقًا أحبّ هذه الفكرة.. أن يعتني أحكما بالآخر. سأكون سعيدة إن خلّفتكما في استقرار وارتياح..

غاب عقلي في عالم الأحلام بعد ثوان، ولم تعد كلماتها المتدفقة تصلني. تمثّلت ديانا من خلال غشاوة دمع رقيقة أغشت عيني.. تخيلت ملاكي الأصهب يجلس على الكرسيّ ذي العجلات بالثّوب الأبيض، وطرحه الدانتيل الرقيقة تغطي لفائف شعرها ووجهها الصغير المنمّش.. وابتسامة عينيها الخضراوين تطلّ في خفر.. فشعرت بالدّوار.

أيقنت أنّ هناك لحظات جميلة في هذه الحياة تستحق الانتظار والمعاناة.

خلال وقت قصير غدا موضوع الزّواج جدّيّا. في الأحوال العاديّة، كنت لاّتّصل بأمّي.. أحدثّها عن العروس، أطري على خصالها وأطلب مباركتها. لكنني لم أقدر. ثقل غريب نزل على صدري.. الشيخ البشير سيفي بالغرض.

انبريت أقصّ على أسماعه قصّتي المختصرة. شابّ ضائع بلا وثائق إقامة رسميّة، وعائلة مسيحيّة كريمة تعرض عليه ابنتها البكر وحلّا لكلّ مشكلاته. استمع إليّ الشيخ في صبر وسعة صدر حتّى خلصت. بدا مهموما وهو يقول في تفكير:

- أمهلني بعض الوقت يا بنيّ.. يمكننا أن نبحث لك عن فتاة طيّبة من

بناتنا المؤمنات تسترها وتسترك.

تلعثمت. لم يكن ذاك الرّدّ قد خطر لي ببال:

- ولكن.. ليس هناك وقت.. أنا في حاجة إلى تسوية وضعيتي في أقرب وقت.. ثمّ..

- فهمت.

- لم تفهم يا سيّدي.. دعني أشرح لك!

- قلت فهمت! أنت تريد هذه الفتاة بعينها؟

اضطرب تنفّسي وارتبكت خلجاتي. نعم أريد، بكلّ جوارحي وكلّ عذابات كياني التعس أريد! لكنني استحييت من الشيخ. في الحقيقة لم أكن أطلب مشورة أو نصيحة.. بل مجرد مباركة. سأل الشيخ بعد تفكير:

- هذه الفتاة، هل هي مؤمنة عفيفة؟

هزرت رأسي موافقا في لهفة كأنّما قد مدّ إلي طوق النجاة:

- إنّها نصرانيّة ملتزمة يا سيّدي.. بكر عفيفة من عائلة طيّبة.

- حسن إذن. تزوّجها على بركة الله.. ثمّ احرص على دعوتها إلى الإسلام، فربّما يكتب الله هدايتها على يديك.

ثمّ تزوّجت.

لو كانت جدّتك حضرت حفل زواجي لكانت لطمت وولولت. فمفهوم حفلات الزّواج التي تشهدها قبيلتنا الجبليّة بعيدة مسافات شاسعة، بقدر الأميال التي تفصل باريس عن تبسة، عن الاحتفال المحتشم الذي أقمناه خلسة من الزّمن والجيرة والأعين المتطفّلة. فكيف بحفل زواج الذكر الوحيد في سلالة خليل الشاوي؟

لم يعلم أحد بأمر العقد، ما عدا الشاهدين، أبو صالح وأبو مازن.. والشيخ البشير الذي أبرم العقد الشرعيّ، وممثّل عمدة البلدية الذي سجّل العقد المدنيّ.. والأستاذة رنيم شاكّر التي استقبل مكتبها جمعنا.

لم تلبس أميرتي ثوبا أبيض ولا تهدّلت على وجهها طرحة دانتىلا شفافة..
فقد كان من الضّروري ألا نلفت الأنظار إلينا. لكنّها كانت أنيقة، كما هي
دائما، في ثيابها العاديّة. فستان طويل من الساتان، لونه ورديّ تتخلّله
ورود بيضاء منمنمة. ما زالت صورتها فيه واضحة بين عينيّ. تلك الصّورة
الحقيقيّة التي أطاحت بصورة الحلم التي تمثّلتها وفاققتها روعة وفتنة.
ببساطة لأنّها حقيقة لا خيال. أمّا أنا، فقد استعرت بذلة قديمة من أبي
مازن ما زالت تحتفظ برونقها، رغم كونه لم يلبسها منذ عقود. أحضرت
ليليان خاتما ذهبيا. خاتم زواجها. وطلبت منّي أن أضعه في بنصر ابنتها.
تملّكني الخجل. لم أكن قد فكّرت في شيكّيات الزّواج في دوّامة العجلة
التي تلبّستنا جميعا. تلا الشيخ البشير آيات عن الزّواج، ثمّ تحرّى موافقة
العروسين قبل أن يعلننا زوجين. وفعل ممثل العمدة الشيء نفسه، مع
اختلاف التّفصيل. وقّع الجميع في الخانات المناسبة، واستقرّ الخاتم
العائليّ في بنصر ديانا. وصرنا عروسين. وزّعت الأستاذة رنيم كؤوس
العصير وقطع حلوى وشوكولاتة. ثمّ تفرّقنا.

حين أفكّر في تلك الفترة، لا أدرك تماما لماذا كنّا مذعورين وخائفين
من الشيخ المختار وردّة فعله تجاه هذا الزّواج؟ أعلم أنّ ليليان لم تكن
تطبق الرّجل، وكانت تتوقّع أن يقف عقبة في طريقنا. لكنني حينها لم أكن
أتصوّر أن المختار يظنّني صبيّا عنده يمثل لأمره في الصغيرة قبل الكبيرة.
لم أعتقد حتّى أنّ خبر زواجي سيدخله في نوبة غضب غير مسبوقه، وهو
الرّجل الذي حسبت الحلم والسّكينة متجسّدين فيه! كنت أجاري ليليان
في حذرهما وحسب، لكنني مطمئن داخليّا بألا شيء سيطالني، كان ذلك قبل
أن أرجع إلى قبو العمارة الثامنة وابتسامة السّعادة تشقّ وجهي نصفين،
فيقابلني المختار بوجه مريدّ تكاد عيناه المتقدّتان تخرجان من محجريهما،
فيففعني بملء كفّه حتّى أسال دماء شفّتي، ويصرخ في غضب جبار:

- فعلتها؟ فعلتها وتزوّجت النّصرانيّة؟!

توقّفت ديانا عن القراءة، لملمت الأوراق وهي تقول بصوت مخنوق:

- هل يمكننا الاكتفاء بهذا القدر الآن؟

كانت مرهقة، ساعات القراءة المتواصلة تأخذ من روحها قبل صوتها. لكنّه لم يستوقفها. ما دامت راغبة في الاستمرار فلتفعل. أمّا وقد وهنت، فالأمر لها أيضاً. بدا أنّ ذكريات تلك الفترة تضغط على روحها أكثر من كلّ ما سبق. قرّر خليل أنّ من حقّها الانفراد بنفسها لبعض الوقت. إن كانت بحاجة إلى البكاء، فلعلّها لن تقدر على التّنفيس عمّا يجيش في صدرها أمامه.

- سأخرج لشأن مستعجل وأرجع.

ابتسمت. كانت تدرك أنّه ما من أمر مستعجل جاء فجأة، لكنّه يجاريها. حين أصبح أمام المقود، تساءل، إلى أين الآن؟ لقد طلب إجازة، إذن لن يقصد المكتب. سيلين في مكتبها ومريم في مدرستها.. يمكنه أن يذهب إلى منزله، ويحظى بقسط من الرّاحة يعوّض سهاد ليلته. لكن بدلا عن ذلك، شغلّ جهاز الملاحة واختار العنوان الأخير الذي أدخله منذ يومين. هناك مسألة أخرى آن أوان حسمها.

بعد نصف ساعة، كان قد وصل إلى الوجهة التي تظهر على جهاز الملاحة، لكنّه لم يتعرّف على المنزل الذي سبق وزاره. تلقّت في شكّ. هل يُعقل أن تتغيّر ملامح الحيّ بتلك السرعة؟ بدلا من المنزل الشرقيّ البديع الذي استحقّ إعجابه وثنائه في الزيارة السّابقة، كانت هناك.. خرابة! اختفى سور المنزل والحديقة. كانت قد دُمّرت بالكامل، ودهست النباتات الهشّة تحت وطأة معدّات ثقيلة. غير بعيد عنه، كانت هناك رافعة متوقّفة عن

العمل. على واجهة البناء تظهر آثار تدخّلها السّابق، حيث انهار جزء من الطابق الأول للمنزل. لمح سائقها داخل حجرة القيادة، يلتهم وجبة خفيفة. لم يكن إلّا توقّفًا مؤقتًا، بعده سيعود للإجهاز على البناء كلّه!

هرول خليل خارج سيّارته واقترب من الرّافعة. طرق الزّجاج الجانبيّ ليشدّ انتباه السّائق:

- ما الذي يحصل هنا؟!

ترك السّائق وجبته وأنزل زجاج النّافذة:

- كما ترى.. سنزيل البناء القديم!

- والسّكان؟ أين ذهبوا؟

- رحلوا بالأمس.. أمر الهدم كان جاهزًا منذ فترة وقد تلقيت إشعارًا بالتنفيذ صباح اليوم. المالك الجديد يريد إنشاء عمارة سكنيّة حديثة.
- أين ذهبوا؟

كان يعلم أنّه سؤال لا طائل وراءه، كان من المستحيل أن يعرف سائق الرّافعة العنوان الجديد للعائلة المطرودة من منزل يعمل على هدمه. هزّ السّائق كتفيه علامة الجهل، ثمّ مسح كفيه واستعدّ لاستئناف مهمّته. فجأة، صرخ خليل وأخذ يضرب على الباب:

- توقّف! توقّف الآن!

لم يكن يدرك ما الذي يفعله بالضبط. لكنّه كان مدفوعًا بطاقة خفيّة. لم يكن من الوارد أن يسمح بهدم البناء من دون أن يفعل شيئًا للحيلولة دون ذلك. يستوعب متأخرًا أنّه بصدد تعطيل القانون! لكنّ ذلك لم يردعه. أشار إلى السّائق في عصبية:

- لن يتمّ هدم البيت! ليس قبل أن تنظر المحكمة في شكوى أصحاب المنزل.

راقبه السّائق في بلاهة:

- أيّ شكوى؟ لقد تلقّيت الإشعار اليوم، وكلّ شيء قانوني!

- لا لوم عليك، الأمر تأخّر في الوصول.. لا أكثر.. وأنا هنا للحرص على ألاّ يتمّ الهدم قبل أن يصل إشعار المحكمة لكلّ الأطراف المعنية.. أنا دانيال الشاوي المحامي.

نظر السائق في بطاقة خليل المهنية في حيرة، ثمّ تناول الجهاز ليتّصل برئيسه المباشر. تابع خليل حركته من دون أن يغادر موقعه. بعد لحظات، كان الرّجل يمدّ إليه بالهاتف. تكلم بثقة وهو يستمع إلى صوت الرّجل الغاضب:

- نعم سيّدي، هناك دعوى قضائية جارية بخصوص المنزل المعنيّ.. وأخشى أنّ أيّ تجاوز بالهدم قد يعرّضكم لدفع غرامة مالية ضخمة وتعويض كبير للعائلة المتضرّرة.. خاصّة وقد ثبت أنّي تبهتكم في الوقت المناسب.. والسائق هنا سيشهد بالحادثة..

امتقع وجه السائق، وما أن ردّ إليه خليل هاتفه، حتّى سارع بالابتعاد عن موقع الهدم.

عاد خليل إلى سيّارته، ارتقى على المقعد وعلى شفّتيه ابتسامة ساخرة. والآن، ماذا بعد حركة الشّهامة الطارئة هذه؟ لم يكن هناك مفرّ من إجراء الاتّصال الذي تهرّب منه كثيرا. استمع إلى الرّنين من الجهة الأخرى يتكرّر من دون ردّ. ثمّ أعاد الاتّصال، ثانية، وثالثة. من دون فائدة. لم يكن من الممكن رفع الشكوى من دون تفويض من مريم وأبيها.. والآن كيف سيجدهما؟

أدار المحرّك، وانطلق باتجاه العنوان الآخر الذي قد يوصله إليهما. توقّف أمام مبنى السّجن في الدّائرة السّابعة. قطع الطريق نفسها إلى الكوّة الخارجيّة، وتلفّظ بالاسم نفسه. محمد رستم. هذه المرّة لم يفتح الحاجز المعدن، بل رفع الموظّف رأسه وقال:

- لقد أفرج عنه بالأمس.

- ماذا؟! هل ترك عنوانا؟

- لا شيء في ملفه.

لا شيء. هل يعقل أن يتبخر كل أثر لهم بهذه البساطة؟ لقد وصلت متأخرا يا خليل. متأخرا جدا. عاود الاتصال برقم الهاتف مرّات أخرى، حتّى أصابه الملل. ثمّ اتّصل بالمكتب.

- جانيت، أريد كلّ المعلومات الممكنة عن محمد ومريم رستم، ووالدهما الكفيف.. هل من أقارب، أرقام هاتف، عناوين.. أيّ شيء! يسخر في سرّه من القدر الذي يجعله يقتفي أثر عائلة غريبة تبتى قضيتها في لاوعيه قبل أن يتخذ قرارا واعيا بنصرتها، تماما كما كان والده منذ سنين خلت يجوب الشوارع بحثا عن فتاة يتيمة تدعى كارمن! لكنّهم ليسوا أشباحا، مريم ومحمد وأبوهما.. بل هواجس تثقل ضميره. إحساس مقيت باغته بأنّ السّخط على نفسه سيلازمه إلى نهاية أيّامه إن هو لم يفعل شيئا من أجلهم.

يعود أدراجه الآن إلى شقّة والدته. لعلّها هدأت وتصالحت مع ذاكرتها. يجمعهما ركن المطبخ مرّة أخرى، بينما ينهشه القلق وتتقاذف في رأسه المتناقضات.

- هل تعلمين؟ مهما حاولت أن أقنع نفسي بأنّ تلك هي جذوري وعليّ تقبّلها.. فإنّ أمثال أولئك الأشخاص، المختار ورجاله، يجعلونني أثور وأرفض. لا يمكن أن أنتمي إليهم! رمقته أمّه بابتسامة هادئة:

- لا أحد يقول إنك تنتمي إليهم.

- بلى! العرب كتلة واحدة.. ما أن تنطق بالكلمة، حتّى تتداعى من ورائها قائمة طويلة من الأوصاف، من ضمنها الهمجيّة والتخلّف والإرهاب.

- هل تقول هذا وأنت المحامي المثقف والرجل المتحضّر؟

- كفاك يا أمي! هناك نظريات مكانها الأطروحات الفلسفية، وواقع نعيشه!

قالت في حسرة:

- في زمننا، لم تكن الفطرة مشوّهة إلى هذه الدرجة. لقد عرفنا كيف نعيش معاً، مسلمين ومسيحيين، عرباً وأوروبيين.. كان هناك تطرّف وإرهاب، لكنّه الاستثناء لا القاعدة. كان بيننا ودّ، وتضامن في الأزمات. حين تكون قريباً من ساحة الأحداث، يمكنك أن تميّز بين الخير والشرّ ودرجات الرّمادي التي تفصلهما. أمّا اليوم، فأنت تجلس وراء مكتبك، تدسّ أنفك في شاشاتك وأجهزتك وتطلق أحكاماً وتعمّم.

هتف في يأس:

- لست أنا من يفعل يا أمي! العالم كلّه يفعل! ألا تنظرين حولك؟

هزّت رأسها وطفرت عبرة من مقلتيها. معه حقّ، لقد تغيّرت المقوّمات في السّنوات العشرين الأخيرة، وبعدت الشقّة بين مكوّنات المجتمع الواحد وانحاز كلّ طرف إلى أصله على حساب القواسم المشتركة. احتفظت بشقّتها القديمة التي أصبحت الآن في قلب حيّ «العرب». لكنّ غيرها لم يفعل. لعلّها تعدّ ممّن يسمّيهم خليل «المقاومين» القلائل. هل يمكنها الآن أن تنفي أنّ العالم لم يعد كما عرفتّه وتريد أن تذكره؟ هل تكفي رحلة عبر رسائل من الماضي لتعيدها إلى زمن غابر لم يعد له وجود إلا على الورق.. وفي ذاكرتها؟

- ربّما كان هذا الوقت المناسب للرسائل.. لعلّك تفعل شيئاً من موقعك في البرلمان حيال هذا الوضع...

يفعل شيئاً؟ يغيّر خارطة البلاد؟ من موقعه في البرلمان.. الذي لم يخط في اتّجاهه بعد؟! يتذكّر عائلة رستم. لعلّه قد بدأ بالفعل وأقحم نفسه في قضيّة لا يُدرك أبعادها. هل يمكنه بين عشية وضحاها أن يتقمّص قضيّة أناس لطالما تنصّل من انتمائه إليهم وأنكره بكلّ جوارحه؟

يجيئه صوت أمّه مجدّدا، تدافع عن وجهة نظرها:

- ليسوا سواسية.. الإرهابيّ المعتدي، والمواطن الصّالح الذي لا يسيء إلى أحد، ليسوا من طينة واحدة. أبوك لم يكن منهم. وأنت لست منهم.

- لماذا إذن؟ لماذا أخفيت كلّ هذا؟

شحبت سحنتها، وارتجفت شفتاها:

- كنت خائفة عليك. لم يكن العالم آمنا. أردت لك أفضل الفرص.

- أيّ فرص؟ أيّ فرص في أن أنشأ ممزّقا من الدّاخل، بين هويّة أرفضها ولا فكاك لي منها.. وأخرى أنتمي إليها بكلّ كياني وتلفظني؟

فغرت فاهها، مبهوتة. للمرّة الأولى، يفصح بذاك الوضوح عن معاناته. ما الذي فعلته بخليل، يا أمّ خليل؟ أهذا نتاج تربيّتك المتفانية وسياستك الحذرة؟ كيف لم تدري مبكّرة وجود ذاك الشّرخ في أعماقه؟ هل ظننت مهمّتك كلّت بالنّجاح، حين رأيته يتخرّج ويرتقي في سلّم التميّز المهني، يتزوّج وينجب طفلة بهيّة الطلعة، من دون أن تقف هويّته عقبة في طريقه؟ الآن تتحدّثين عن التّعايش والتواصل والأفكار المسبقة والنظريات المحرّفة؟ لم يسمعك مرّة واحدة، منذ طفولته تمدحين الجانب الآخر. لم يد عليك الفخر يوما بجذور الرّجل الذي تزوّجته، ولا حاولت مرّة واحدة أن تأخذي بيده وتُدخله عالم ذكرياتك المحبوسة في القمقم. الآن؟ الآن تريدان له أن يفهم ويستوعب ويتجاوز مسلّمات حشوت بها رأسه بصمتك ولامبالاتك أمام كلّ ما سقاه العالم الخارجيّ إيّاه؟ الآن تشدّقين بالحقوق والحريّات والفروقات البيّنة بين سلوك المجتمع ووعي المثقّف؟

- أما زلت تعرفين كيف أشعر؟

كانت لهجته متهمّة مرّة.

انتقلت إلى العيش مع زوجتي وأمّها، بعد أن لحقني غضب المختار وخرجت من حظوته. لم يكن شهر غسل كما يمكن أن تتخيّل.. فقد حُفّت أيّامنا الأولى معا بالمكارة والآلام. غياب المختار يعني غياب الدّواء. وغياب الدّواء يعني.. ظهور ذاتي الأخرى للعيان! تلك الذات الممزّقة المثقلة بالوجع التي تعرف عنها ديانا سماعا، لكن لم يسبق لها لقاءها. كنت قد فطنت قبل ذلك بفترة لا بأس بها إلى أنّ المختار كان يلعب بي لعبة حذرة، فيغيّر من مكوّنات المحلول، يزيد وينقص من تركيزه ومقاديره حسب حاجته بي مستيقظا مسالما، أو متألّما فعّالا أو مخدّرا لا يدرك ما حوله. كنت أعلم في كلّ مرّة أنّ مفعول المشروب يختلف عن اليوم السّابق. وقد كان في الأيام الأخيرة مميّزا. لم أكن أكاد أشكو من أيّ ألم، وأمارس حياتي العاديّة من دون صعوبة. كان يحتاجني بكامل حضوري العقليّ لخدمة ضيوفه من الأثرياء السّاعين وراء خدمات الجنيّة. لذلك، فقد كانت أيّام الحرمان الأولى قاسية مريرة.

أحضرت ليليان من الصّيدليّة مسكّنات عاديّة، لكنّها لم تكن تجدي نفعا. كنت قد بلغت مرحلة من التّبعيّة لدواء المختار لا تقبل البدائل! ولم يكن الحصول على مسكّنات فعّالة ممكنا من دون وصفة طبيّة. لذلك، وبعد أربعة أيّام من الوجع المستمرّ، تقرّر أن أزور الطبيب من دون انتظار لبطاقة التغطية الصحيّة. لم تكن حاليّ تسمح بمزيد من التّأجيل. كنا نهمّ بالخروج حين فاجأنا رنين الجرس. ظهر أبو أحمد ووعاء خزف صغير يميناه. لم أسأل ولم أستفسر. ارتميت على الرّجل أفتكّ منه الوعاء، ولم يكن ينوي أن يصدّني عنه! لكنّها اللفّة أنستني كلّ الآداب والأخلاقيات. شربت ما حواه حتّى آخر قطرة، ثم تهالكت على

الأرض في حال يرثي لها. همس أبو أحمد بعد حين وقد ظهر في صوته
التأثر:

- المختار يريدك.

حين وصلت، كان الحراس يقفون في صفوف منظمة، مستعدين لتلقي
الأوامر. رأيت المختار يتهادى في مشيته، يتصفّح الوجوه وهو يعبر
الصفوف عاقدا ذراعيه خلف ظهره، مثل أمير جيش يتفقد استعدادات
جنوده وأهبتهم لهجوم مرتقب. حين انتبه لوجودي افترّ ثغره عن
ابتسامة راضية، وأشار إليّ أن أتخذ مكاني في المقدمة. وقفت حيث طلب،
وما لبثت أن استقرت بين كفيّ صارية طويلة تحمل راية في آخرها. طالعت
أبا أحمد الذي سلّمني إيّاها في دهشة، لكنّه لم يوضّح.

تحنح المختار أخيرا إعلانا عن بدء خطبته ثمّ قال بصوته الجهوريّ:

- اليوم يا أبنائي ستكون مهمّتنا مختلفة عن العادة.. كلّكم سمعتم حتما
عن أخ لنا في الله يقبع وراء القضبان.. تمّ اتهامه ظلما وبهتان بالإرهاب،
وهي تهمة يتفنّون في إلصاقها بكل مسلم لا يعجبهم التزامه وتديّنه. كأنّ
المسلم أصبح كبش الفداء الأمثل لإرضاء الرأّي العام وإغلاق الملفات
القضائيّة المستعصية. يجب أن نعلمهم أنّ المسلم ليس رخيصا وبلا
سند.. إن كان هذا الشّابّ وحيدا ومن دون عائلة أو عشيرة تقف إلى جواره في
محنته وتذبّ عن عرضه، فنحن سنكون عشيرته وعصبته! سندافع عنه في
العلن ونؤكد على حقه في محاكمة عادلة وفي محامي دفاع حقيقي وجدير
بالقضيّة. ما رأيكم يا شباب؟

لم ينتظر أبو أحمد الرّدّ وهتف بقوة وهو يرفع قبضته في الهواء في
حركة قتاليّة:

- تكبير!

فرّد الحراس وراءه بنفس الحماس:

- الله أكبر!

ابتسم المختار وهو يقول في رضا:

- بورك فيكم يا شباب. هذا ظني بكم.

تكلم أبو أحمد بلهجة أمرة:

- سننطلق بعد ساعة إن شاء الله. إن لم يعلم أحدكم عائلته فليفعل،
فقد لا نرجع الليلة...

تفرّق الحراس من دون كلمة إضافية امتثالا للأوامر. مضى البعض
لإعلام عائلاتهم في حين توجه آخرون إلى القبو لإنهاء تحضير اللافتات
والأدوات التي سيستعملونها في المهمة. راقبتهم وهم يتعدون واحدا إثر
الآخر ونبضاتي تتسارع في قلق. إن كانت المهمة تنطوي على قدر من
المخاطرة، فعليّ أيضا أن أعلم «عائلي» بأمر الغياب المحتمل.. لكنّ
المختار لم يمهلني حتّى أأخذ القرار المناسب.

- اغفر لي غضبي يا ولدي، وتجاوز عمّا سلف.. فقد كان غيرة عليك...

تأبط ذراعي في حميميّة غير مسبوقة وقادني إلى درج القبو.

- هذه رايتنا.. شرف الجماعة، أنت حاملها والمنوط برفعها في عنان
السّماء.

لم يكن حمل الرّاية مجرّد شرف، فهو مسؤوليّة أيضا. حامل الرّاية يجب
أن يتقدّم الصفوف ويحافظ على رايته مرفوعة مهما حصل. ويكون أيضا
في مرمى عصيّ رجال الشرطة وهراواتهم. قد يتعرّض للضرب والإصابة من
دون أن يقدر على الدّفاع عن نفسه. كنت أدرك كلّ ذلك، لكنني لم أمتلك
الاعتراض. وهل يمكنني أن أفعل وقد غفر لي المختار واستقبلني تحت
جناحه من جديد؟

لكنني تجرّأت على سؤال أبي أحمد حين أخذ الحراس يتوافدون من
جديد استعدادا للانطلاق:

- هل سنأخّر كثيرا؟

- لا تخش شيئاً يا بني، ليس هناك داع للقلق. جرت العادة أن نودّع أهالينا قبل كل «مهمّة».. فالشرطة تتربّص بنا في كل وقت. لكنّ العقوبة لا تتعدّى ليلة واحدة في الإيقاف. ليلة نغتنمها لقيام الليل والاعتكاف، لنقوي لحمنا يا بني...

استسلمت لقدري وتسلمت مهمّتي من دون حماس يذكر. ستكون المهمّة الأخيرة.

إذن انطلقنا في اتّجاه المحكمة التي تعقد فيها جلسات محاكمة ذلك الشابّ المتهم بالإرهاب. صرخنا وهتفنا ما شاء الله لنا أن نصرخ، ثمّ تدهور الوضع كما هو متوقّع حين التحمنا برجال الأمن، وانهالت علينا الهراوات والقنابل المسيلة للدموع، فتمسّكت برايتي ما استطعت حتّى انتزعت مني بالقوّة.. ثمّ حوصرنا وحشرنا في سيّارات الشرطة مثل الخرفان، واقتدنا عن بكرة أبينا إلى زنزانة الإيقاف.

وهناك.. حصلت المعجزة.

في ركن الزنزانة، مكوراً على نفسه غارقاً في الأسى.. كان الدكتور عمر! لم أصدّق عينيّ حين رأيته. هرعت إليه زحفاً على الرّكب، وعانقته بقوّة. كان قد تغيّر لا شكّ. بدا أكثر نحولاً، وعلامة شائهة تظهر على جانب وجهه. وقد كانت تلك المظاهرة التي خرجنا فيها من أجله!

هناك أشياء لا تعقل في هذه الحياة. حدسي كان يخبرني بأنّ الشابّ بريء. وقد ازددت يقيناً ممّا اعتقدته تخميناً حين لقيت الرّجل بعد كلّ تلك الغيبة. وأخذت أحداث تلك الحقبة تتضح في ذهني. الهزّة الأرضيّة في ليون.. لم تكن غير انفجار مختبره! وغيابه غير المبرّر عن الشّقة.. لم يكن إلّا لإصابته البالغة في الحريق، ثمّ استبقائه على ذمّة المحاكمة، وقد امتدّت تجاهه أصابع الاتّهام. استمعت إليه فاغر الفم، يلخّص بكلمات متعبة آلام فترة الفراق.

كانت ليلة واحدة قضيناها في مسامرة عذبة، وفي الغد اقتيد كلّ منّا إلى

زنانة انفراديّة.. بعد أن أفرج عن باقي الحراس! ما عشته بعد ذلك في السّجون الفرنسيّة كان تجربة أخرى. حديثي إلى الدّكتور عمر تلك الليلة أدّى إلى التعرّف عليّ كمجرم فازّ من العدالة! وقد كان بقاؤنا في الزّنانة نفسها تلك الليلة، تخطيطاً من المحقّقين لكشف علاقة الجماعة المشاغبة بالمتّهم! تذكر يا بنيّ قفزيّ من النافذة والشرطة تداهم شقّة عمر؟ كان ذاك الدّليل الوحيد ضدّي. وخضعت لتحقيق صارم لمدّة أيّام لأعترف. بماذا؟

الانتماء إلى خلية إرهابيّة استهدفت علماء ومنشآت علميّة ومختبرات كيميائيّة.

تعطيل مجرى العدالة بالفرار والتخفي من السّلطات.

التخطيط لتهديب محتجز تحت ذمة العدالة.

دارت بي الدّنيا ولعنت السّاعة التي عرفت فيها عمر، ودخلت شقته وفرت منها! لماذا نجا كلّ الحراس بمخطّطهم ومنفّذهم وشيخهم ومحدثي الفوضى منهم، ووقعت أنا المنقاد قسراً في فخّ نصبته لنفسي؟ نسيت تعاطفي مع عمر وإيماني ببراءته، ولم أعد أذكر سوى نفسي وديانا وحياة مستقيمة آمنة ظنّنتي كدت أبلغها! لكنني رغم سخطي وضيقني مما آلت إليه الأمور، لم أحن الرّجل ولم أظلمه بكلمة. ذكرت أفضاله السّابقة عليّ، ولم أذكر غيرها كقاسم مشترك بيننا في التّحقيق. كنت مشرّداً فأواني.. وكنت خائفاً على نفسي من ترحيل محتمل فهربت. أمّا الآن، فقد غدوت مواطناً شريفاً، ينتظر أوراق ثبوتيّة التي لن يتأخّر صدورها.

وحيث ظهرت الأستاذة رنيم أخيراً، تنفّست الصّعداء. علمت أنّ ليليان وديانا استدعيتا للشهادة، وشهادة عمر نفسه برأتني. وكان عليّ أن أصبر حتّى يُفرغ من الإجراءات الروتينيّة، ويطلق سراحني. وأنّي لي بالصّبر وذاك الدّاء في رأسي! إذن في الليلة الثالثة لاحتجازي، ارتفع صراخي ليملاً آذان

سجّاني وجيران سجنى، ليتمّ اقتيادي على جناح السّرعة إلى قسم الطّوارئ
بالمستشفى العسكريّ.

- هل تشعر بألم في رأسك؟

فتحت عينيّ. طالعت الرّجل الذي كان يجسّ نبضي. وهزّزت رأسي ببطء
علامة النفي وقد انتبهت للتوّ إلى أنّ ألمي كاملاً قد اختفى. كان خدر
خفيف يسري في أوصالي.. خدر مختلف عن مفعول دواء المختار. وما أن
حرّكت أصابعي حتى شعرت بشيء كدبيب النمل في أطرافها. تابع الطبيب
وهو يرفع بين يديه صورة أشعة حديثة ويشير إلى كتلة قاتمة ترتّب
وسط رسم الجمجمة:

- هل تعلم بوجود هذه الرّصاصة في رأسك؟

أومأت بابتسامة ساخرة. وهل يخفى القمر؟

ثمّ شرع الطبيب يشرح في حماس شديد حيثيات الإصابة، مستعملاً الكثير
من المفردات التقنيّة، فقد كنتُ في نظره «حالة فريدة». إنّ السرّ في نجاتي
من الموت يكمن في معطيات كثيرة اجتمعت لتشكّل المعجزة. الرّصاصة
التي أصابتني، لم تكن مباشرة، بل مرتدّة عن جسم صلب. كان واثقاً من
ذلك، من دون أن يطلب روايتي للحادثة. لو أنّها كانت مباشرة لأردتني
قتيلاً على الفور. قال ذلك بلهجة قاطعة أصابتني بالرّجفة. وقد نفذت إلى
الجمجمة بزاوية مائلة قرابة خمس وأربعين درجة، فعبرت العظام ولم
تخرقها، بل استقرّت فيها. وإذ إنّ سمك عظامي سبعة مليمترات، وطول
المقذوف ثلاثة عشر مليمتراً، فإنّ طرف المقذوف وحسب قد تجاوز
العظام، بينما التحم الجسم المعدن بها. مرّة أخرى، لو كانت الزاوية
مختلفة، أو كانت سرعة المقذوف أكبر ولو بمقدار ضئيل، لكان تجاوز

العظام ومرق إلى داخل الجمجمة ليقضي عليّ.

- أنت الآن تحت تأثير المورفين لذلك توقف الألم بصورة مؤقتة. لكنني مدهوش حقاً.. كيف تمكنت من التعايش مع هذا الجسم الدّخيل كلّ هذا الوقت؟

كنت أهتمّ بالحديث عن دواء المختار العجيب، حين انتبهت إلى أنّ الدكتور لابورت لم يكن ينتظر منّي جواباً. فقد رأيته يلتقط من المنضدة ملفاً أخذ يتصفّح وريقاته مواصلاً مناجاته الفرديّة:

- هذه نتائج تحليل عينة من دمك.. كنت تتلقى مواد مخدّرة يعادل مفعولها حقنة مورفين يوميّة. عالجت الألم بالمخدّرات، أليس كذلك؟ كوكايين وهيروين.. وأنواع أخرى!

خرج صوتي محمّلاً بطبقات الدهول التي تراكمت على ذهني قبلدته:
- مخدّرات؟

- لم تكن تعلم؟

طالعني الطبيب لوهلة ليزن بفراسته مقدار صدق دهشتي. ثم مطّ شفتيه وهو يقول مقترحاً:

- هل طلبت المساعدة؟ ربّما حاول أحدهم التخفيف عنك بهذه الطريقة؟

هزّزت رأسي في حركة آلية وما زلت على ذهولي. المختار كان يقصد مساعدتي.. لا شك! لم يسقني السّموم ليهلكني، بل لأنّه لم يكن هناك دواء آخر! أقنع نفسي بسلامة طويّته، وأوثر إحسان الظنّ به.. لكن تداهمني الرّيبة وتنهش في أفكاري. هل كانت الجلسة الرّوحانيّة ومشروب الأعشاب مجرّد تمويه؟ يفرغ القرطاس خلصة في الوعاء، ويستغفني؟ لماذا؟! منذ متى شرع في ذلك؟ طول الوقت؟ منذ البداية؟

- إن استهلاك المخدّرات يعرّض صاحبه إلى عقوبة السّجن.. إلا إن أقررت

برغبتك في التخلّص من الإدمان، وسجّلت في برنامج إعادة التأهيل.

هتفت على الفور:

- أفعّل!

أوماً في رضا، ثمّ أضاف وهو يطالع صورة الأشعة من جديد باستمتاع ظاهر:

- قبل ذلك، سيكون علينا التخلّص من هذا الجسم المعدن.. ذكرني كيف وصل إلى هنا؟

لم ينتظر ردّاً على سؤاله، وواصل تشخيصه، بنفس الحماس المتّقد. بعد الإصابة فورا، شرع الجسم في تكوين أنسجة ليفيّة لتحيط برأس المقذوف المنغرس في أنسجة المخ. هذه الكتلة الليفيّة يزداد حجمها مع الزّمن، لتغدو ورماً. وإذا ما تمّت الجراحة، فسيكون الهدف استخراج الجسم الدّخيل -المقذوف- وحسب! فالورم قد غدا جزءاً من الدّماغ، ومن العسير على أمهر الجراحين أن يستأصله من دون إحداث تخريب بالغ بأنسجته. زد على ذلك أنّ الإصابة كانت فوق الأذن، على مستوى الفصّ الصدغي، في الشقّ الأيسر من الجمجمة، وهو الشقّ السائد أو المتحكّم في معظم الوظائف الدّماغية، كالنطق والذاكرة والبصر والتّوازن، وأيّ عبث بتلك المنطقة قد يتسبّب في فقدان للاستقبال السّمعّي والبصري، وفقدان كليّ للذاكرة!

أفزعتني كلمة «ورم». يُخرج الرّصاصة ويخلّف ورماً في رأسي؟

أضاف مطمئناً:

- بعد إزالة المقذوف، ستراجع الكتلة الليفيّة لتحتلّ مكانه السّابق، ويقلّ ضغطها على الفصّ الدّماغي، وبالتالي مركزي السّمع والبصر.. وربّما تتوقّف عن النّموّ وتستقرّ على وضعها الحالي.. حينها لن تهدّد حياتك من جديد.

ربّما! يقول ربّما!

في غمرة الجزع والهلع، يراودني سؤال قديم، فاستوقفته فجأة:
- دكتور.. هل يمكن للرّصاصة في الدّماغ أن.. أن تجعلني أرى.. أو أتواصل
مع كائنات غير محسوسة ولا مرئية؟
- تعني أنّك كنت ترى أشياء لا يراها أحد سواك؟
- هو ذاك!

- من دون شك! نوبات الصّرع والهلوسة من الأعراض الملازمة لمثل
هذه الحالات.. بل إنّ الهلوسة غالباً ما تكون مركّبة، فتكون تهيوّاتك
صورة وصوتا ورائحة وحتى استرجاع ذكريات عن أشخاص عرفتهم.
قال ذلك ببساطة شديدة، ثمّ انسحب من الغرفة، وقد خلفني كتلة
من الدّهول لا يميّز بعضها من بعض!

كان آخر عهدي بكارمن في زنزانة الإيقاف تلك الليلة. تمنيت لو أنّني
ودّعتها كما يجدر بي أن أفعل. كانت رفيقة درب استثنائية، ولو أنّها من
صنع خيالي! عاملتها كبشر، ثمّ روح عالقة، وانتهيت إلى اعتبارها جنيّة..
لكنّها سخرت من سذاجتي حتّى النّهاية، فتبخّرت كما تفعل الهلاوس!
فكرت بالمختار.. وبضيوفه الأفاضل.. وعامّة المريدين الذين قصدوني
لأكون وسيطهم، ألتمس قضاء حاجاتهم من الجنّ.. فضحكت كما
لم أضحك من قبل. ثمّ بكيت.. وسألت الله أن يغفر لي خداعي غير
المقصود. كنت أصبّ في آذانهم هراء ما أنزل الله به من سلطان.. لا هو
وسوسة شياطين ولا ممّا تتسمّع له الجنّ ولا خبر من عالم البرزخ.. كان
خيالي الخصب يشطح في كلّ الاتّجهات. كان ذلك كلّ ما في الأمر! وإن كنت
قد حزنت من أجل النّاس الذين وضعوا ثقتهم فيّ، إلّا أنّ المختار استحقّق
ما طاله. ألم يعبث بعقلي ويغرق وعي بسمومه؟ إذن عليه من الله ما

هو أهل له!

غرقت في الأيام التالية في دوامة التحاليل وصور الأشعة.. استعدادا للعملية الجراحية. صار لزاما أن تخرج الرصاصة من مكنها، مهما كانت النتائج المحتملة. فقد أصدر الأطباء حكما باستحالة التعايش معها وقتا أطول. كان الورم ينمو ويضغط على الدماغ، والهلوسة ما هي إلا مقدمة لسلسلة من الأعراض من شأنها أن تدمر وظائف المخّ واحدة إثر الأخرى! إذن فقد كنت مخيرا بين أمرين أحلاهما مرّ مرارة العلقم. فإما موت بطيء مع رصاصة في الرأس.. وإما موت مفاجئ على طاولة العمليات! فنسبة النجاح كانت ضئيلة جدّا. كان شبح الموت يجثم على صدري مهددا بقرب اللقاء.. وكان عليّ أن أدفع عني هاجسه متشبّثا بأمل شحيح لحياة ممكنة.

ثمّ جاءت ديانا لزيارتي.

كرهت نفسي حين رأيتني على تلك الحال بعد زواجنا بأيّام. كنت أتمنى أن أثبت جدارتي بثقتها. لكنّ البداية كانت متعثّرة. وحين غابت عن ناظري فترة إقامتي في المستشفى، راودتني الوسوس. أتراها كرهتني؟ كانت مخاطرة من قبلها أن تقبل بزواج كهذا.. وزوج كهذا! فلا ألومها إن هي تراجعت وغيّرت رأيها. بل لعلّ فكرة الزواج الأبيض بدت مواتية آنذاك أكثر من ذي قبل. ولم يكن يضاهاى إشفاقي ممّا ينتظرني إلا التفكير بوجهها، وقد عاد الحزن ليغلف قسماته وغادرته البهجة التي سكنته أيّام تقاربنا. ونويت أن أفكّ ارتباطنا في أقرب وقت.. لأزيح عن كاهلها عناء لا تستحق أن تحمل ثقله بلا ذنب اقترفته، غير أنها صادفت طريقي ذات يوم! كنت مستعدّا للتخلي عن أميري، إن كان ذلك ما تريده. وقد خلّف تنفيذ القرار قلبي رمادا...

لذلك، فقد فاجأتني تلك الطرقات الرقيقة على بابي، معلنة عن زائر غير متوقع. عدا الدكتور لابورت، الممرضة جيني، الطبيب النفسي

بوريس.. لم أكن أتلقي زيارات أخرى. رأيت الباب ينفرج ببطء، ثم ظهرت عجلات مقعد متحرك. امتدّت كفّ صغيرة بيضاء لتبعد دفّة الباب بقوة ثم عادت لتستقر على العجلات وتديرها في سلاسة لتدفع بالمقعد إلى الأمام.

- ديانا!

هتفت بكلّ فرح الدّنيا، ودهشتها وذهولها. ابتسمت وهي تقترب أكثر وهمست:

- كيف حالك؟

لعلّها رأت بعينيها ما صارت عليه حالي. كنت أفضل مئة درجة بعد أن كحلت نظري بابتسامتها. حدّقتُ بالباب الذي عاد مغلقا بعد دخولها، أنتظر أن تخطو ليليان وراءها. لو افترضت أنّها صعدت إلى الطابق باستعمال المصعد ولم تحتج مساعدة أحد هنا، فلا أتصوّر أنها قد كلفت نفسها عناء ركوب وسائل النقل وخوض الشوارع المجهولة بالنسبة إليها لمجرّد رؤيتي. يدغدغ تفكيري خاطر مفعم بالأمل.. أولست زوجها؟ لا شكّ أنّ وقع تلك الكلمة لا يزال غريبا في أذنيها كما هو في أذنيّ.

- أمّي في الخارج تتحدّث إلى الممرّضة. أردت أن أتحدّث إليك قليلا قبل مجيئها.

أعرتها انتباهي خالصا كاملا، وقلبي يتوجّس ممّا في جرابها من حديث. لعلّها تسبقني إلى طلب الفكّك، فيتحوّل المشهد الذي تصوّرتَه مطوّقا بالكرامة والإباء، وأنا أخلي سبيلها في مبادرة لا تخفى الشهامة في ثناياها.. إلى مشهد إذلال لا شفاء منه، وهي تسألني أن أعفيها من خوض مغامرة كهذه غير مأمونة العواقب! تميّت لو أنّها لم تكن بتلك الشجاعة. لو أنّها فوّضت ليليان لتحدّث باسمها. سمعتها تقول، بصوت ملائكي آتٍ من وراء حجب ذهولي:

- لم أستطع القدوم لرؤيتك في الأيام الماضية.. كنت أحضّر مفاجأة..

أرجو أن تعجبك..

حدّقت فيها غير مستوعب. رأيتها تمسك بحاجز الكرسيّ الجانبيّ،
تضغط عليه بملء كفيها، فتحتقن الدماء في وجنتيها الشاحبتين لتلهبهما.
التصميم يملأ عينيها الزمرديتين وهي ترتفع، تقوم من مقعدها حتّى
توشك أن تستقيم واقفة، ونظراتي تتسع وترقبها مأخوذة. ورغم العذاب
الواضح في ملامحها، نظرت إليّ، وأشرق وجهها بابتسامة لا تضاهى في
عذوبتها.

- ما رأيك؟

تركت جسدها ينهار ويستقرّ في استرخاء على المقعد من جديد، بعد
أن بذلت جهدا كبيرا. وعادت لتقول في حياء وقد استمرّ صمتي الأبله:
- كنت أخضع لجلسات علاج طبيعيّ مكثّفة في الفترة الأخيرة.. أردتك أن
تراني أقف. فهذا كلّ ما بإمكانني فعله لأشكرك..

- شكريني؟!!

- لقد أحييت فيّ الإرادة.. وأنا مدينة لك بهذا. لذلك يجب ألا تستسلم
الآن. إن كنت أنا قد استطعت الوقوف بعد كلّ هذا الوقت.. فأنت قادر
على تجاوز الأزمة.. وستصبح حياتك أفضل بعد العمليّة!

كنت خائفا، مرتعبا.. من حتميّة فقدانها. فإذا بها تكافئني بما لا طاقة لي
به من الفضل. حيّرتني تلك الابتسامة الصّافية المشربة بشيء من الحياء.
كانت تمسح عنيّ بيد بيضاء ناصعة كل الشكوك المزمنة. كأنّها تقول
«لم يكن هناك داع للقلق». تقولها في صمت من دون إحراج أو خدش
لمشاعري. وتساءلت في طمع بشريّ يتناول مشربّا ويفرد قامته ليستقيم
جذعه -وأنا الذي شارفت منذ ثوان على العود مذموما مدحورا- هل في
قلبها مثل ما في قلبي؟ وما الذي قد يجتذب حسناء رقيقة مثلها لعليل
سقيم مثلي؟

- سآتي لأراك كل يوم من الآن فصاعدا، لن تحدّث.. أريد أن أعرف كل شيء

عن حياتك الماضية وعن عائلتك وكل ما يهَمُّك. ويمكنك أن تسألني ما تريد...

كنت أعلم أنّ المسلك ليس بعد آمناً.. قد أفقد بصري أو ذاكرتي، أو حتّى حياتي في أثناء العملية. أو قبلها أو بعدها. لا شيء مؤكد. وديانا تريد أن نتعارف أكثر؟ تدفّقت العبرات من مآقيّ في تسارع محموم تطرد فائض التأثير. فكّرت حينها أنّه إن كتب الله لي أن أتعافى وأعيش، فسأكون محظوظاً لوجود امرأة مرهفة الحسّ مثل ديانا إلى جوارى. فكّرت في تلك اللحظة أنني لا أستحقها حقاً. وقررت أن أفعل ما بوسعي لأسعدّها وأكون في مستوى آمالها. عاهدت نفسي على ذلك في صمت. لم أملك الشجاعة على أن أعلق بكلمة على مبادرتها. احتفظت بأفكاري لنفسي واكتفيت بابتسامة ممتنة.

لعلّي كنت أدرك منذ ذلك الحين أنّي سأخذلها!

دخلت غرفة العمليّات. وخرجت منها على قيد الحياة. حين استيقظت على سرير المستشفى، أدركت أنّني بُعثت من جديد. عند رأسي، في كيس بلاستيك صغير، كانت تستقرّ الرّصاصة المشوّومة. جسم معدن ضئيل.. جماد لا حول له ولا قوّة.. يحوّل حياتي إلى جحيم! لكنني أعيش.. والحياة تستمرّ. كنت محظوظاً، لأنّني لم أمت إبان تلقّي الطلقة. ستة عشر عاماً إضافية ليست بالشيء القليل. كثيرون لم تمنحهم رصاصاتهم هدنة كهذه! وأولّهم أبي.

كنت أتعافى تدريجيّاً، وشرعت بالتّوازي في علاج الإدمان. عانيت أعراض انسحاب السّموم من عروقي، فتحمّلتها في جلد وثبات أثارا إعجاب الفريق الطّبيّ. هل تذكر يا بنيّ، تمرينات دفع حدود الألم التي مارستها للخلاص

من سطورة دواء المختار واحتلال الرّصاصة؟ لقد تجلّت ذات فائدة جمّة في فترة الانتقال تلك.. كانت ذاتي تتخلّق من جديد، تغادر شرنقتها وتتفتح على وجود مختلف.. أتحوّل من كائن هلاميّ تتحكّم بمزاجه العقاقير والمسكّنات، إلى شخص سويّ متوازن الحواسّ سليم الوعي والذّائقة. هل تدري كم كان إحساسا مختلفا أن تكون نفسك القديمة، تلك النفس التي باعدت بينك وبينها سنوات ضوئيّة من التجارب والمحن، حتّى ما عدت تذكر ملامحها على وجه الدّقّة؟ أن تتناول طعاما فتشعر له بحرارة، وطعم.. ببرودة، وحلاوة، وحموضة، ومرارة! أن تراودك أحلام وكوابيس حين تخلد إلى النّوم! لا بأس بالكوابيس أبدا.. فهي تشعرّك بحياة دماغك. بوجود وعي ولاوعي.. بعد أن كان ضبابا واحدا!

وكانت حبيبة قلبي ديانا تأتيني كلّ يوم.. فنتحدّث ونضحك، كأنّنا لم نعبر تلك المحنة التي تساوت فيها فرص الحياة والموت. بل لعلّ فرص الموت كانت أوفر. لكنّنا نضحك وننسى، ونتشبّث بآمالنا بمستقبل جميل. كانت حقبة من السّعادة الهادئة تبدأ وتجتاح أيّامي. حقبة استمرّت لسنتين كاملتين، لم يعكّر صفوها شيء. هناك صافي تجرّعته بنهم مثل محروم فتحت أبواب الجنّة أمامه على مصراعيها.

بينما كنت أنعم بفترة نقاهة مريحة، كان العالم من حولي يستمر في شطحاته الهوجاء!

جنّ المختار بعد رحيلي ولا شك.. فقد خرج عن حذره ونشاطه السلمي، وبعث بحراسه ليهاجموا مقرّات حزب «الجهة الوطنية» ويحرقوها عن بكرة أبيها! وليسقط العشرات ما بين قتلى وجرحى! ما الذي طرأ عليه ليفعل؟! لم أكن أجد تفسيراً. لكنّ ذاك الاندفاع الأحمق كان من شأنه القضاء على فرقة حراس العقيدة نهائياً. لعلّ ليليان كانت محقّة بشأن المراقبة التي تحدّثت عنها، فقد داهمت فرقة التدخّلات الخاصّة المجمع السّكني وهي مدجّجة بالسّلاح، في اليوم نفسه، واقتيد الحراس وعلى رأسهم المختار في ذلّ مهين إلى صناديق العربات، تحت أعين الأهالي الذين راقبوا المشهد من شرفات الشقق.. بين مزيج من الدهشة والحزن والشماتة.

وخلال الأسبوع نفسه، تمّ النطق في قضية الدكتور عمر. ورغم التفاؤل الذي رأيته في وجه الأستاذة رنيم في آخر لقاء لنا، فقد نزل الحكم مثل صاعقة لا تبقي ولا تذر. السّجن عشرين عاماً! أصابني الدهول، متفرّجاً لا حول لي ولا قوّة، أمام شاشة التلفاز التي واكبت الحدث باهتمام بالغ. فاغتممت وبكيت.

في ذلك اليوم، خرج الفرنسيّون إلى الشّوارع في احتفال مشهود بانتصار العدالة. رفعوا اللافتات المناهضة للإرهاب وغنّوا بصوت واحد من أجل وحدتهم وهويّتهم الوطنية التي تقصي كلّ الدّخلاء. رُفع قادة الحزب اليميني المتطرّف على الأعناق وتلقّوا التّهاني من أنصارهم وحلفائهم السّياسيين، في حين رضخ خصومهم أمام المدّ البشريّ والتواطؤ الإعلامي

واستعاروا خطابهم العنصريّ المتطرّف ليوم واحد. كان سلعة رائجة في خضمّ الأحداث الأخيرة التي سيطرت على الرّأي العام.

هرول الرّئيس الفرنسيّ ومعاونوه لإعداد خطبة تليق بالمناسبة، وقد أعادت إليه شعبيّة «الجهة الوطنية» الصّاعدة كوايس انتخابات ٢٠٠٢ الرّئاسيّة، حين أوشك مرشّح الجهة الوطنيّة على اعتلاء منصّة الحكم، في مواجهة ألهمت صناديق الاقتراع الفرنسيّة بشكل غير مسبوق. القبض على الجماعة الإرهابية الخطرة والحكم على الإرهابي الذي اضطلع بالتفجير الأخير، كان حدثاً مشهوداً يجمّع ولا يفرّق. كانت مناسبة لالتفاف كلّ الفصائل الوطنيّة حول شعار واحد «لا للإرهاب».

في ذلك اليوم، امتلأ مسجد الحيّ عن آخره. روّاد مساجد أخرى قريبة منعهم نفورهم من المختار من وطء أرض مسجده، ومريدون قطعوا مسافات شاسعة من مدن وضواحي بعيدة ففوجئوا بما حصل، وصبية صغار ورجال لم يرتادوا مسجداً يوماً وأغراهم الفضول وحبّ الاستطلاع بالاقتراب وإلقاء نظرة من كثب. أمّا تلامذة المختار وأحبّائه الذين صدمتهم الأحداث، وآخرون لم يسمعوا بأمره يوماً وأهمّهم ما طال الإسلام ومعتنقيه من لعنات منذ شاع الخبر، فقد كانت أرواحهم غاضبة وقد ناءت بحمل لا قبل لها به من خزي وهوان. كنت لتشتّم رائحة خانقة في الجوّ، تنبئ بانفجار وشيك مع أدنى شرارة. كانت نفوسنا كسيرة بعد اقتحام قوّات الأمن للمجمع السكّنيّ وخروج إخوان لنا مقيّدين بالسّلاسل. كثيرون لم يتّفقوا يوماً مع الشّيخ المختار وجماعة الحراس، لكنّ المصاب يجمعهم حين تطال الألسن السّليطة الإسلام ومقدّساته من دون تمييز أو حياد. وجيء بالشّيخ البشير من غرفة صلاته المطمورة ليؤم المصلّين بدلا عن المختار. وقف تجاه الشّباب الثائر وصدق بصوت مؤثّر:

- هل تعلمون يا إخواني؟ نحن في زمن أوشكت فيه طينة المسلم الوسطيّ المعتدل أن تندثر! فإن كان المرء هيّنا ليّنا أقرب إلى التساهل،

فسيجد من يغريه بالنساء والخمور ويغمره بالملذات ليحيد عن الطريق.. وإن كان حازماً جاداً أقرب إلى التشدد، فسيجد من يجذبه إلى التطرف والعنف ويملاً رأسه بأحاديث التكفير وآيات الجهاد محرّفة عن مواضعها. شياطين الإنس والجنّ سيعلمون من أيّ مأتى يأتونك، ومن أيّ مدخل يتسلّلون إليك ليفتنوك! لكنّ المغالي أصبح في عصرنا هذا أخطر من الفاسق.. وكلاهما شرّ مستطير. فالفاسق عدوّ نفسه، لا يضرّ غيرها -إن لم يغر غيره باتّباعه- وقد يستغفر فتزل عليه رحمة الله فيتوب! وأمّا المغالي الموغل في الجهل فعّدو النّاس أجمعين، فهو يرى نفسه يد الله على الأرض المحققة لعدله، فيبطش ويقتل النّفس التي حرّم الله ﷻ أنّه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنّما قتل النّاس جميعاً. ثمّ إنّهُ يرسم صورة سيّئة للإسلام في نظر غير المسلمين، فيصرفهم عنه بدل أن يكون سبباً في هدايتهم! وما دام يعتقد بصواب مساره فلن يستغفر يوماً أو يتوب! زد على ذلك أنّ التطرف اليوم قد غدا صناعة رائجة، وهذه الجماعات المتطرّفة المنتشرة في ربوع الأرض، تتفانى قوى عالميّة كبرى في دعمها لتكون أكثر فتكاً وضراوة.. بل يبذلون الجهد والمال في سبيل تنميتها ورعايتها، ويوفّرون المناخ المناسب لحضانتها واستمرارها.. هتف شابّ متحفّزاً:

- هل تقصد أنّ الدّولة الفرنسيّة تموّل التطرف؟

- لم أقصد الدّولة بمعنى الحكومة أو رئيس الدّولة أو مجلس النّواب.. فكلّهم يتغيّرون وتُدور عليهم الدّوائر.. بل قصدت أطرافاً متنفّذة، مستقرّة ومتمكّنة. لوبيات عالميّة السّيطرة تحرّكها أهداف سياسيّة واقتصاديّة وإستراتيجيّة تتجاوزنا نحن العباد الضعفاء الكادحين من أجل قوت يومنا! همّهم أن يغيّروا خريطة العالم، فيرفعون من شأن جبهة لتضرب جبهة أخرى، ويفتعلون حرباً ليسيّطروا على ثروات باطنيّة ومنجميّة، ونحن بيادق على الرّقعة نتحرّك بما عهد إلينا به من متاع قليل.. فإذا شاؤوا تأديب بلد ما لم تناسب سياسته هواهم ومصالحهم، سلّطوا

عليه جماعة متطرّفة، أغروهم بمسميّات الجهاد.. ضدّ الكفّار تارة، وضدّ طاغية دكتاتور تارة أخرى.. وليس يهمّهم من طغى ومن كفر!
وماذا يحلّ بنا من وراء كلّ هذا؟ يبقى المسلم البسيط الذي لا ناقة له ولا جمل في كلّ هذه اللعبة القذرة، مسحوقا داخليًا بعقدة ذنب تجاه المجتمع، حاملا تهمة أبناء دينه المزعومة.. متقبّلا للإقصاء بسكينة وقلة حيلة، لأنّ ذلك هو قدره! أن يصنع دينه الإرهاب ويتحمّل عنه التّبعات بلا اعتراض! فكّلنا مشتركون في الجريمة التّاريخيّة.. لمجرّد ولادتنا مسلمين! ألم يأنّ الأوان لنتمرّد على هذه الصّورة المهينة؟ لسنا مضطّرين للدّفاع عن أنفسنا ودفع تهمة الإرهاب في كلّ محفل! لسنا فرنسيّين من الدّرجة الثّانية! لسنا سجناء الصّورة التي صاغوها لنا وارتضيناها صاغرين!

تكلّم شابّ آخر في مرارة:

- وماذا بأيدينا؟ غير أن نشجب ونستنكر وندين الإرهاب؟
- بأيدينا الكثير! بأيدينا أن نقدّم أنفسنا للعالم بما نحن عليه.. لا الاكتفاء بنفي ما لسنا عليه!
ثمّ أضاف وهو يتطلّع من النّافذة إلى جموع المتظاهرين الذين أصبحوا عند رأس الشّارع، يُسمع لهم طنين كدويّ النّحل:
- يا أبنائي، هذه فرصتكم. افتحوا أبواب المسجد واستقبلوا ضيوفكم بما يليق..

تبادل الرّجال نظرات حائرة مستفسرة وقد أغلق عليهم فهم ما يريدّه الشّيخ. كيف يستقبلون المتظاهرين الذين جاؤوهم يرفعون رايات العداء والعدوان؟ لكنّ أبا صالح فهم. وقف من بين الجموع وهتف:
- العصائر والكعك عليّ، البقالة كلّها تحت أمرك يا شيخي.
ثمّ أشار إليّ مستعجلا:

- قم يا ولد وسخّن الماء لتحضير الشاي. وأنتما هناك، تعاليا لمساعدتي

على تحميل الحاجيات إلى هنا.. لقد أوشكوا على الوصول.

تفرّقنا مرتبكين ننفذ المهام التي أسندت إلينا والفهم يتسرّب إلى نفوسنا في جرعات.. على أثرنا، تحرّكت جماعات من الشباب المثقف والمفوّه لتنضمّ إلى الإمام عند مدخل المسجد المفتوح على مصراعيه. ثمّ وقفنا وجلين مترقّبين. نلمح من موقعنا لافتات عريضة في رأس الشارع ترفع فوق الرؤوس، كتب عليها بحروف ضخمة لا تخطئها العين «الإسلام خارج فرنسا!» و«لا مكان للمسلمين!». ألقى نظرة على الشيخ البشير وأنا أزدرد لعابي بصعوبة. رأيت موجة عابرة من التوتر تعكّر صفاء نظرتيه، لكنّه استعاد رباطة جأشه على الفور، فإن لم يفعل فمن يبتّ العزم في كلّ هؤلاء المصطفيّين خلفه السائرين على خطاه؟ كانت لحظات عصبية، هي تلك اللحظات الفاصلة التي تمتحن الصّدق والثبات. فإمّا انقلاب على العقبين، أو التحام عنيف مستमित، أو خيار ثالث يريد لنا الشيخ أن نتّخذه، ونحن نجهل ملامحه!

ثمّ حصل أمر غير متوقّع.

من شارع جانبيّ يمرّ بمحاذاة المسجد، انبثق على حين غرّة تيّار من البشر. متظاهرون آخرون، يمشون بهدوء لا يثيرون صخباً من حولهم. قطعوا الطريق بيننا وبين المهاجمين، وحين التقت صفوفهم، رفعوا عقيرتهم يصيحون: «فاشيون».. «ارحلوا من هنا».. «متعصّبون»! لم تكن تلك الكلمات موجّهة إلينا، بل إلى الآخرين! تواجعت المجموعتان لدقائق قليلة، وجوه بيضاء حليقة وشعور شقراء مسترسلة من الجهتين. وتساءلنا في حيرة من يكونون ومن أين جاؤوا فجأة؟ ثمّ غلبت الكثرة. كان الذين تصدّوا حماة لسور المسجد أوفر عدداً وأقوى حجّة وحنجرة. فتفرّق دعاة العنصريّة عن بكرة أبيهم بعد أن تصدّى لهم أبناء وطنهم، فرنسيّون أصليون مثلهم، لم ترهبهم لافتات العداء والتفرقة.

تنفّسنا الصّعداء، وقد كفانا الله شرّ قتال ما كنّا لنجتازه إلا مشخين

بجراح نفسية وجسدية. حين خلت السّاحة من المتطّرفين، تقدّم الإمام مبتسماً ليرحّب بمنقذيه، ودعاهم إلى تناول الشاي والكعك. ثمّ تفرّق الشباب المسلم ليتخلّل المتظاهرين. يصافح الرّجال بعضهم بعضاً، يتعارفون ويكتشفون قواسمهم المشتركة، مبادئهم الإنسانية ووحدتهم الوطنيّة في وجه التّطرّف، ويناقدون وجهات النظر المخالفة بتحضر ورفق. استمرّ النقاش ردحا من الزّمن بين أخذ وردّ واقتناع وشكّ، قبل أن يدعو الإمام الجميع إلى دخول باحة المسجد لمزيد من الألفة والحميميّة.

وقفت إلى جانب أبي صالح، أملاً أكواب الشاي وأهرول في حماسة أوزعها على الحاضرين ثمّ أعود لأملأها من جديد من دون شكوى أو تذمّر. عيناى مفتوحتان على اتّساعهما، أملاً بصري من المشهد، مثل طفل ريفي يحضر مهرجان المدينة لأول مرّة. كان يوما سأذكره ما حييت بدمعة وابتسامة. رأيت في تلك اللحظات كيف تكون العزّة في أحضان التّسامح. رأيت بعيني كيف يكون الفرق بين الوفود العريّبة التي تحضر إلى باريس متزّلّة ومعتذرة، كأنّما تعترف بذنبها وتساءل الصّفح.. وبين ذاك الاستقبال الكريم والشامخ الذي لاقى به الشيخ البشير شركاءه في الوطن. كانت لحظة تاريخيّة، في حياتي القصيرة. وكان التّاريخ ليذكرها، لو أنّ مدوّنيه انتبهوا إلى جمعنا ذاك.. وكيف يفعل، وقد انصرفت الآلات الإعلاميّة كعادتها إلى نقل موجات العنف والاعتداءات!

حين استقرّ بنا المقام في ساحة المقهى مثل الأيام الخوالي، سألت الدّكتور مالك في أسى:

- ما الذي سيحلّ بالحراس الآن؟

قال ببساطة من يصف مشهدا يراه رأي العين:

- سوف يُسجنون طويلاً.. حتّى ينسى الرّأي العامّ أمرهم. ينفق من

ينفق في السّجون المعتمدة، ويحيا من يرضى بالشروط التي تملى عليه، يُدجّن، يُؤهل ويتشرّب التّعليمات، ثمّ يخرج حرّاً طليقاً بعد فترة من

الزّمن.. ويُبعث إلى أحياء فقيرة أخرى وتحت ذراعهِ صرّة مال وفير.. فيجمع المنحرفين وذوي السّوابق ويصنع منهم رجالا شرفاء منحرفي العقيدة.. وتبدأ حكاية حرّاس أخرى..

رمقته في ذهول. لم أدر ما المفترض بي أن أفهم. أتذكّر قصّة (ج) على متن السّفينة التّائهة. (ج) ذلك البيدق بيد قوى الظلام المدمّرة.. وأفسّر ما يسرده الدكتور مالك. قصّة حرّاس أخرى؟ إذن هناك قصّة أولى، قصّة المختار وحرّاسه! لا أستطيع أن أصدّق ما يصل إليه فهمي. أهمّ بالاستنكار، فيسبّني مالك بخطوة وهو يقول في اهتمام:

- لكنّ ما يحيرني حتّى اليوم هو.. هل كان المختار مقتنعا بما يفعل؟ هل كان صادقا مع نفسه حاملا لذاك الفكر المنحرف؟ أم أنّه مجرد عميل متنكّر يفعل ما يؤمر به؟ يغرّر بالشباب المساكين وهو يدرك أنّه يفعل؟ أعترف أنّه كان مقنعا -لو كان عميلا- فقد بدا لي غارقا في الدّور حتّى أذنيه!

يقاطعه أبو صالح مؤيّدا:

- لا شكّ عندي في عمالته. فكيف يكون أمثاله شيوخا؟ وكيف يجد الإيمان موضعا في قلب عمّره الجشع والطمع وحبّ السلطة؟
- ليس بالضرورة عميلا لأطراف معيّنة، يستقي منها أوامره ونواهيه.. لكن كم من عميل يخدم مصالح أعدائه بغبائه وسوء تدبيره؟
أبادره متعجّلا وقد تقّنت إلى الكشف أخيرا عن غموض الأحجية:
- ومن يكون الآخرون إذن.. (أ) و(ب)؟

رمقني بنظرة هازئة وقال:

- ألم أقل إنّها مجرد حكاية؟

لمح في عيني نظرة رجاء. يدرك أنّني لن أستسلم بسهولة هذه المرّة. تنهّد وقال:

- الشيخ البشير.. أعتبره مثالا لما عاشه (ب). ضحى بوظيفة مرموقة - أقصي لميوله الإسلامية- ودفن نفسه في قبو رطب، من أجل دعوة الشباب إلى الدين الصحيح.. علّه يحدّ من تأثير (ج) في المنطقة! له صداقات كثيرة في صفوف ممثلي السلفية والإسلام السياسي، لكنّه لم يتم يوما لجماعة معروفة. أمّا (أ) فعمله نادرة، ربّما لقيت بعضهم في مظاهرة اليوم، ضمن زوّار المسجد الذين ذبّوا عنه اعتداء المتطرفين..

قاطع حديثنا الثنائي صوت أبو محمّد، الضابط السابق، وهو يهتف مستاءً:

- هذا الإرهاب.. إنّهُ مثل الخلايا السرطنة. لا سبيل إلى الخلاص منه إلاّ باستئصال الورم من جذوره ما دام ذلك ممكنا.. أو بالعلاج الكيميائي! انبرى أبو مازن يقول معترضا:

- يجب أن تستطيع تمييزها، تلك الخلايا السرطنة حتى تستأصلها! حين نتحدّث عن السلوك البشريّ، فليس من السهل أن تكشف الخبايا والنوايا من خلال قراءة صفحة الوجه! أمّا الكيميائي فهو يؤذي الخلايا السليمة أيضا، ويهلك دفاعات الجسم ويتسبّب في أعراض جانبية كثيرة، قبل أن يؤدي الغرض منه! أن تطبّق الكيميائي هنا يعني اعتقالات بالجملة وحملة شرسة ضدّ كلّ من تشبه فيه، مجرد الشبهة، لعلّك تقبض من بين المئات والآلاف على بضع خلايا سرطانية!

- هو ذاك! التضحية ضرورية.. والمجتمع كلّهُ يجب أن يتعاون مع السلطات لكشف الخلايا السرطنة. من يخفي خلية مريضة يعرّض نفسه للعدوى!

كانت اللهجة العسكرية الصارمة واضحة في صوت أبي محمّد، في حين حاول أبو مازن أن يطرح وجهة نظر أقلّ راديكالية:

- إن شئت تشبيه الإرهاب بمرض ما، فإنّني أراه مثل السّيدا.. مشكلة السّيدا هي شكل الفيروس الذي يتحوّل ويتبدّل بصورة لا يمكن ضبطها

وحصرها. كل ما يمكن عمله هو تحسين الأعراض! يمكنك أن تعطيه المزيد من الكريات البيضاء لترفع مستوى مناعته.. تزوده بمخففات الألم، لتستمر مقاومته، لكنك لن تشفيه مرة واحدة. وهكذا الإرهاب من حولنا.

قلت مازحا وأنا أومئ باتجاه الدكتور مالك:

- أظننا نحتاج طبيبا حقيقيا.. طبيبا ماهرا.. يمكنه تشخيص المرض بشكل دقيق قبل الشروع في أي علاج!

قال مالك بلهجة ساخرة:

- المشكلة هي أن من يدير الحرب ضد الإرهاب اليوم لا يستعين بأطباء جيدين، بل يعهد إلى عسكريين ومهندسين بتشخيص الحالة! قهقهه أبو صالح، في حين شحبت سحنة أبي محمد وهو يقول في غيظ مكتوم:

- أتحننا بتشخيصك، أيها الطبيب الجهيد!

تنح مالك قبل أن يقول بجديّة بالغة:

- في نظري، الإرهاب ليس سرطانا أو ورما. لأنّه متخفّ غير بارز للعيان بحيث لا يمكن استئصاله. كما أنّ انتشاره محدود ولا يمكن له أن يغزو الجسم كلّهُ ولهذا السّبب ذاته هو ليس مثل السّيّد أيضا. الإرهاب يا أصدقائي أبسط من هذا بكثير.. إنّهُ مثل نزلة برد صغيرة!

ارتفع ضحك وأصوات مستهزئة عابثة، في حين تابع مالك شرحه:

- لماذا يدهشكم هذا؟ هل رأيتم مرة شعبا كاملا يتحوّل إلى الإرهاب؟ هل ينقلب السّواد الأعظم من المجتمع إلى العنف والعدوان؟ إنّها حالات قليلة إذن، محدودة الانتشار، لكنّ أعراضها كبيرة ومبهرّة. تماما مثل نزلة البرد. فيروس صغير يتسبّب بحمّى وإنهاك عامّ وربما صعوبة في التّنفّس واحتقان في الغدد. ماذا يحصل لو حاولت علاج الزّكام أو

الرّشح بالكيميائي؟ أو حتّى بالمضادات الحيويّة؟ إنّك تستعرض آليات ضخمة أمام فيروس صغير! ولكنّه سيتعلّم من التّجربة، وتصبح السّيطرة عليه أصعب في المرّات المقبلة، ودفاعات الجسد ستنتهار بسبب الأدوية القويّة. هذا ما يحصل تماماً، حين نحارب الإرهاب بقصف أفغانستان والعراق والسّودان. مدارس ومستشفيات ومنشآت، بل مدن كاملة تدمّر بحجّة القضاء على الإرهابيّين. هل تقضي على الإرهاب حقّاً، أم تصنع إرهابيّين جدداً؟ تهيج المسالمن وتتسبّب في نقمة لا متناهيّة.

- إذن كيف تقضي على الإرهاب في نظريّتك؟

تجاهل مالك لهجة الاستخفاف في سؤال أبي محمد وقال:

- تماماً كما تعالج نزلة البرد. بالمقويّات الطّبيعية.. عسل وليمون وزيت زيتون وثلوم. ولكنّ الأهمّ هو الوقاية والتّغذية الصّحيّة. إذن عدالة اجتماعيّة ووعي وتعليم وحرية واحتواء. لو وجد أصحاب السّوابق تأطيراً كافياً وإعادة تأهيل غير مشروطة، هل كان المختار ليجد فيهم فريسة سهلة لمآربه الدّنيئة؟ لو تعلّم كلّ واحد منهم في فترة سجنه حرفة أو نال شهادة في مجال ما، هل كان ليتبطّل ويمتلئ حقداً ويحتقن عنفاً ويبحث عن مساحة تنفيس مهما كان نوعها؟ لو كانت الفرص أمام الشّباب متكافئة مهما كان أصله ومستواه الاجتماعي ودينه، هل كان ليبحت عن الإنصاف في عقيدة محرّفة تضمن له جنّة فوريّة؟ لو أحسّ كلّ فرد في المجتمع بأنّ حقوقه مكفولة وحرّيّته الفكرية والدّينية محلّ احترام وتبجيل، هل كان ليتطرّف ويلجأ إلى إثبات وجهة نظر ما بقوة الدّمار والشرّ؟ تشخيص الطّبيب يقول: ادعموا مناعة الجسم ليقاوم الفيروسات الصّغيرة المتطفّلة. لن يقنع الإرهابيّون أحداً بالانضمام إلا لو توافرت لديه أسباب ذاتية للانتقام وإلحاق الأذى.

ساد الوجوم لبرهة بين شكّ واقتناع، ثمّ أفاق أبو محمد من بهتته ليقول بالسّخرية ذاتها:

- أقنع قادة العالم بنظرية نزلة البرد هذه.. وواس عائلات الضحايا
بالثوم وزيت الزيتون والعسل!

أوقف اتّصال جانيت تدفّق الكلمات من شفّتي ديانا. ليس للعائلة أقارب في فرنسا. لا عناوين لديها. لكنّها أصرّت على ألاّ تأتيه خالية الوفاض.. وجدت عنوان المدرسة التي يرتادها محمّد رستم. مدرسة؟ كان خليل قد فهم أنّ الولد قد ترك مقاعد الدّراسة ليعول عائلته، فما شأن هذه المدرسة التي يظهر اسمه في قائمة طلابها؟ فليكن، كلّ خيط جدير بالتّتبّع. سجّل المعطيات، ثمّ عاد إلى جلسة الاستماع. لكنّ شيئاً ما تغيّر في ملامحه. بدا عليه نوع من الاضطراب والتملّص. كان هناك موضوع آخر يشغله عن التّركيز مع الرّسائل التي أخذت منحى مستقرّاً نوعاً ما.. لقد تزوّجا، واستقرّ بهما المقام، اطمأنّ إلى صحّة أبيه وتوقّف قلقه الخفيّ بشأن المستقبل. يعلم أنّ هذا ليس كلّ شيء، ما زالت للقصة بقيّة.. لكنّه الآن غير قادر على مقاومة رغبة في مغادرة المكان وزيارة العنوان الذي وصله للتوّ.

حين أنهت ديانا الرّسالة التي بين يديها، تطلّعت إليه مبتسمة وقالت:
- يبدو أنّ أمرا مستعجلا يشغلك حقّا. اذهب الآن لقضاء حاجتك،
وسأستمرّ في التّرجمة.

هزّ رأسه في امتنان، وقام على الفور.

منذ أحداث ٢٠١٥ الدّامية والضربات الإرهابيّة التي تعرّضت لها فرنسا، تغيّرت أمور كثيرة عن تلك التي يصفها أبوه في رسائله. عندما تنزل المصائب، يتصرّف النّاس بدافع غرائز صرفة. بعضهم ينأى بنفسه عن موقع الحادث، فيحمي نفسه وعائلته، تحرّكه غريزة الخوف. والبعض الآخر يقترب أكثر ليلقي نظرة من كذب، تدفعه غريزة الفضول. ديانا سيطر عليها الخوف، فأغفلت تاريخ أبيه وعائلته وغيّبت عنه معطيات

الماضي لتحمي مستقبله. غيرها كثر دفعهم الفضول إلى الاقتراب والبحث والتقصّي. ثمّ دخلوا الإسلام أفواجا!

ورغم شدّ الدولة لقبضتها الأمنية وتضييقها الخناق على المسلمين بشكل عام -كأنّما تنفذ توصيات أبي محمّد من شلّة المقهى- فقد استمرّ العدد في تزايد. كانوا خمسة أو ستة ملايين نسمة منذ ثلاثين سنة. الآن، يمثّلون ثلث سكّان فرنسا! التّأشيرة الفرنسيّة أصبحت شبه ممنوعة على سكّان المناطق الموصوفة بـ«السّاخنة» و«الحمراء». لكنّ أفواج المهاجرين لا تتوقّف، وزوارق موت ممثلة عن آخرها تواصل رحلاتها القاتلة. من يصل منهم إلى البرّ ينضمّ إلى قافلة اليد العاملة الرّخيصة التي لا تستغني عنها فرنسا، وينهار اقتصادها في غيابها. من الجهة الأخرى، خسرت فرنسا في معركة «هجرة الأدمغة». كثيرون يرحلون باتجاه كندا والولايات المتّحدة، أو الخليج العربيّ وشرق آسيا، حيث يحظى المسلمون بتقدير أوفر. لا يبقى منهم إلا من توّحد مع نمط الحياة الفرنسيّة ولم يعد له غنى عنها.

في طريقه نحو الوجهة الجديدة، عادت كلمات الدّكتور مالك في رسالة أبيه الأخيرة لتتردّد في ذهنه. نزلة برد؟ علاج وقائي لأزمات العالم الأكثر فتكا؟ فكّر.. هل يمكن للزّمن أن يعود إلى الوراء، فيُدمج العرب في المجتمع فعلا وقولا، يستعيدون اعتبارهم كمواطنين أسوياء ومكتملي المواطنة؟ هل كان ذلك ليحدّ من أشكال العنف والاعتداء والسّرقة المتفشّية بشكل يثير الغثيان؟ هل ستبقى للأبواب الحديد والتقسيمات المناطقية ضرورة ومعنى؟ هل سيكون أكثر رضا وقناعة عن اسمه وجذوره؟ ربّما.

بعد ثلاثين سنة من تشخيص الطّبيب، لم يبدُ أنّ أحدا قد اهتمّ بصرف الوصفة واتباع تعليماتها. كلّ شيء يسير في المنحى المعاكس تماما. لم تكن العنصريّة أشدّ وطأة ممّا هي عليه اليوم، منذ العنصريّة ضدّ السّود في أمريكا في خمسينات القرن الماضي! عنصريّة مدّعمة بالقوانين والدّستور، تجاهر بها المؤسّسات الحكوميّة والعامة، وينحني أمامها

المواطن من دون اعتراض أو استنكار. ليست ممثلة في لافتات صفيقة أو علامات وقحة على مداخل المنشآت ووسائل النقل مثلاً. لكنك تتنفس ذراتها في الهواء الثقيل الخانق، وتشرّبها مسامك حدّ التسمّم، كلّما واجهتك النظرات العدائيّة الحارقة.

فهل اختفى الإرهاب؟

ربّما تناقصت وتيرته وانحسر تأثيره.. لأنّ المئات، بل الآلاف من المشتبه بهم يقبعون خلف القضبان، لمجرّد الشكّ والاشتباه. ولأنّ الإعلام يتجاهل الحوادث التي تُثبت أنّ سياسة القمع واستباق الضربات بحشر الأبرياء في السّجون لم ولن تنفع. بعد عشرين سنة من الأحداث التي هزّت استقرار فرنسا وأقامت الدّنيا على المهاجرين من أصول عربيّة، أصبحت فرنسا بلدا منعزلاً، حدوده مغلقة، شديد التقسيم في الدّاخل، ومع ذلك يستمرّ كابوس الخوف من الآخر.

عند إشارة ضوئيّة حمراء، رفع خليل رأسه في اتّجاه اللافتة الإعلانيّة الحديثة، فتعرّف على ملامحه. يبدو في غاية الأناقة والأريحيّة، ببشرة نقيّة وشعر لامع. كانت ابتسامة عريضة واثقة تشقّ وجهه نصفين، بينما يتّخذ جسده وضعيّة مرحة توحى بالشّباب والحركيّة وتبعث على الطمأنينة. تصميم مارغريت الجديد. يذكر جلسة التّصوير الاحترافيّة التي التقطت خلالها الصّورة المستعملة في الإعلان، منذ أسبوعين. يبدو أكثر نضارة ممّا هو عليه اليوم. أم لعلّها التعديلات الرّقمية؟

مرّة أخرى يقع بصره على الشعار الجذّاب: الوطن للجميع! تساءل في سخرية، عن أيّ جميع يتحدّث؟ هل يشمل الجمع مريم وأخاها ووالدهما الكفيف؟

حين توقّفت السيّارة أمام المدرسة، كانت السّاعة تشير إلى الثّانية ظهراً. دلف عبر الباب الجانبيّ ومضى رأساً في اتّجاه مكتب النّاطرة. كان عليه أن يرتجل عذراً يبرّر سؤاله عن محمّد رستم. صافحته النّاطرة وهي تتفرّس

فيه بجديّة، فاختلق قصّته على الفور:

- جئت للسؤال عن محمّد رستم.. أنا ربّ عمله، وقد تغيب عن دوامه بضعة أيّام، ولم يكن عندي وسيلة للاتّصال به.. غير أنّي تذكّرت اسم مدرسته الثانويّة، فرأيت أن أستفسر عنه هنا.. فريّما كان لديكم تواصل معه..

- نعم، محمّد رستم حالة خاصّة جدّا.. لا شك أنّك تعلم أنّه في سنته النّهائيّة، وعليه أن يجتاز اختبارات المرحلة الأولى هذه الأيّام. إنّهُ هنا اليوم.. لديه اختبار رياضيات..

جاء الردّ كأبعد ما يكون عن توقّعاته. فغر فاه وقد تذكّر الخريشات على ذراعيه. هل كان يراجع دروسه من أجل الاختبار حين كان في السّجن؟ تلعثم وهو يقول مرتبكا:

- حقّا؟ هل يمكنني رؤيته؟

- طبعاً.. بعد أن ينتهي من الاختبار.

مضت دقائق انتظار طويلة، استعاد فيها خليل تفاصيل لقاءاته السّابقة بمحمّد وشقيقته مريم، بينما تتردّد في ذهنه كلمات النّاظرة. الولد مسجّل في المدرسة، لكنّه لا يحضر الدّروس. تسمح له المدرسة باجتياز الاختبارات تقديراً لظروفه. إصراره على نيل شهادته ودخول الجامعة يدعو إلى الاحترام، ومثابرته من أجل النّجاح بتميّز أمر يصعب تصديقه. أخته تلقّنه الدّروس مساءً، وتسانده في الاستمرار وإكمال مشواره التعليمي، بينما تمرّ نهاراته بين تحميل ورصف الصّناديق في المخازن! فكّر، لو كان مكانه، لو كان مضطراً إلى العمل مع الدّراسة، هل كان ليوفّق بينهما؟ هل كان يستمرّ ويتحدّى المعوّقات، يُرغم نفسه على عناء يستنزفه إلى الأعماق، يسرق من طفولته سويّعات مرح وبراءة لا تطول، ثمّ يغرق في شقاء مستبق لا تتّسع له هشاشة روحه الغضّة؟

لقد كان كلّ شيئاً سهلاً بين يديه منذ الأزل، رغم التّقشّف الظاهر الذي

التزمت به أمّه، فإنّها لم تحرمه أيّ شيء. كانت طلباته أوامر، وحساب التّوفير الذي حفظته من أجل تعليمه وتكوينه ينفد من دون تجديد موارده. حسبته أنّه لم يخيب أملها، وأنّه تسلّق باتّجاه التميّز غير مدّخر جهدا. حسبته أنّه اعتلى منصّة التكريم في الجامعة وحاز احترام أساتذته وزملائه واستلم وظيفته المرموقة من دون وسائط. لكن.. هل يقارن نجاحه الذي لم تصحبه عراقيل وعثرات، بمسار الولد المحفوف بالمكاره؟

بعد ربع ساعة، ظهر أمامه الوجه البريء، تصحبه الدهشة، ثمّ النّفور.

- ما الذي تريده؟

تغوص نظرة الاتّهام في صدره، فيحسّ لها ألما. ها إنّ الولد يذكّره بخذلانه. أيّ إنسانيّة استيقظت فيه فجأة وقد كان على الدّوام منيعا أمام الاستجداء والتسوّل؟ في بؤرة روحه نمت بذرة على غفلة من وعيه، وأخذت أغصانها تمتدّ وتتشعب حتّى لامست أطرافها مركز الشّعور لديه. هل كنت أنت يا نادر الشّاوي، من قذفت البذرة؟ الرّسائل التي خطّطتها منذ ثلاثين سنة، حُبلى بالبذور التي تنتظر قلبا يحتضنها. بذور وجع وتعاطف وأمل.

- مريم قالت إنّك لن تساعدنا!

- كيف خرجت من السّجن؟ بحثت عنك هناك، فقالوا إنّك غدت طليقا...

حدّق فيه غير مصدّق، يبحث في ذهنه عن حقيقة آمنة يركن إليها. مريم لا تكذب. إن كانت تقول بأنّه تخلّى عنهم، فقد فعل. لماذا يعود إذن للبحث عنه؟

- ذهبت إلى منزلكم، فرأيت الرّافعة تهّمّ بهدمه.. حاولت الاتّصال بالرقم الذي أعطيتني إيّاه، لكن لا أحد يردّ. تتبّعت الأثر، أيّ أثر ممكن.. حتّى وصلت إلى المدرسة.

تدمع عينا محمّد، بينما يغمغم بما أوتي من صلابة، وصورة المنزل الذي سيغدو ركاما ماثلة أمام ناظريه:
- مريم لا تردّ على الأرقام الغريبة..

لحظة صمت قصيرة، ريثما يتلع غصّته، يتواصل مع نظرات خليل، يزن صدقها بميزان حدسه، يحاول استشفاف المقصد من تلك الزيارة غير المتوقّعة، ثمّ يندفع مخلفاً وراءه تردّده:

- أطلق سراحى بعد أن سلّم والدي مفاتيح المنزل. مريم أقنعتة بأن يفعل.. المنزل يعوّض، لكن مستقبلي ودراستي لا يعوّضان.. هكذا قالت. كان يجب أن أخرج من السّجن.. من أجل الاختبارات. المدرسة سمحت لي بفرصة واحدة. إن رسبت، فلن تتكرّر الفرصة..

تصيبه اعترافات الولد في مقتل. ضحّوا بالمنزل، حتّى يواصل تعليمه! سأله بصوت حاول أن يكون متماسكا قدر الإمكان:
- هل أنهيت اختباراتك؟ تعال، سأوصلك.

على الطّريق، ران الصّمت عليهما لبعض الوقت. وحين مرّا على الإشارة الضوئيّة ذاتها، انتبه إلى نظرات محمّد المبهورة. كان يقلّب بصره بين اللافتة المدهشة التي تطلّ على الشّارع، ووجه الرّجل الجالس إلى جواره في سيّارته الفارهة. بعد تردّد قصير، سأله على استحياء وقد استبدّ به الفضول:

- هل هذه صورتك؟

- إنّها كذلك!

تتأبّه سخرية لاذعة من نفسه. منذ يومين، كان يشغله الخوف على سمعته من القلاقل التي قد تثار حوله لتورّطه في قضية تُسائل القانون الفرنسيّ، واليوم يُربكه القلق في عيني شابّ أقرب ما يكون إلى الطّفولة، يسأله في صمت: ما الذي ستفعله من أجلي أيّها المرشّح الموقّر؟

بينما تنساب السيّارة على فراش الأسفلت المصقول، يفكّر في إستراتيجيّة جديدة لحملته الانتخابيّة. مساعدته لعائلة رستم يمكن أن تكون خطوة في اتّجاه خطّة فعّالة. لو أنّه يجلب انتباه الإعلام إليهم وإلى مأساتهم، سيتصدّر المشهد كمنقذ شهم، ويلفت اهتمام النّخبين من أصول عربيّة! سيكون الأخوان وأبوهما سفراء نواياه الطيّبة، وليس هناك ما هو أضمن من السنة بريئة تلهج بالدّعاء له وتلمّع صورته في أعين يملؤها الشكّ! يصيبه الغثيان من حقارة ما فكّر فيه. لعبة السّياسة تسيطر على لاوعيه!

كان الحيّ الذي توغّلا في شوارعه بائسا. تعبق رائحة التعاسة في الجوّ وتقبض على الأرواح منذ منعرجاتها الأولى. كلّ البيوت متشابهة في قدمها وتهالكها. تتسرّب من واجهاتها مشاعر ضيق وسخط، مماثلة لتلك الجائمة على صدور سكّانها. لم يتخيّل خليل، أنّ أحياء بهذا الشّكل توجد في الجوار، على بعد كيلومترات قليلة من ضاحيته المرموقة. تذكّر، لا بدّ من أنّه أحد الأحياء التي أخليت بعد الهزّة الأرضيّة التي ضربت منذ ستّ سنوات؟ تأمل الشّقوق التي تمتدّ عبر الجدران المتصدّعة، لا بدّ من أنّه كذلك. كيف عادت لتوهّل من جديد؟ ألم يصنّفها الخبراء كم منطقة غير قابلة للسّكنى؟ أيّ إجراءات تمّ توخّيها حتّى تسند البيوت إلى عائلات جديدة؟

طرق محمّد بابا خشبا تتراكم على صفحته آثار سنوات من الإهمال، فتناهى إليهما وقع خطوات مسرعة تركض باتّجاههما. أشرع الباب، وظهرت مريم، بملابس منزليّة مريحة، وهي تقبض عند عنقها على حجابها المتراخي على رأسها، وهتفت في حماس ومن دون تفكير:

- طمئنني.. كيف كان الاختبار؟

في تلك اللّحظة انتبهت إلى الزّائر غير المرغوب! وفي الثانية التي تلت، كانت تتراجع إلى الدّاخل وتطبق الباب بعنف. تسمّر محمّد في خجل،

وهمهم بكلمات اعتذار على الاستقبال غير اللائق، لكنّ خيلا كان متفهّما. ترقّبا معا لدقيقتين إضافيتين، عادت بعدها مريم لتفتح الباب وقد أسدلت ثوبا طويلا فوق ملابسها الآتفة، وسوّت غطاء رأسها بشكل محكم. كانت أيضا قد استعارت نظرة جادّة وصارمة أعادت إلى خليل ذكرى اللقاء الأخير في المكتب. فكّر وهو يتأمّلها مأخوذا، هي أنثى تعيش مع رجلين.. لكنّها قطعاً رجل العائلة! قالت بلهجة حازمة:

- محمد، ادخل أرجوك.

امثل أخوها رغم ارتبائه، وألقى نظرة متعاطفة على خليل. هل ستكون المذبحة اليوم؟

- لم أسرق حافظتك!

- نعم، لم تفعلي. أنا آسف.

باغتها ردّ فعله الهادئ، بل خفضه جناح الذلّ وتخلّيه عن النبذة المتعالية.

- هل والدك بالداخل؟ يجب أن أتحدّث إليه.

هذه المرّة، بدت الأرائك الشرقيّة ذات النقوش مختنقة في فضاء الغرفة الصغيرة التي غدت مستودعها الجديد. خبت الرّوح الدّافئة التي دغدغته في زيارته السّابقة. ظهرت اليوم في حال مزريّة تدعو إلى الرّثاء. من خلال الباب الموارب للغرفة المقابلة، يلمح بعض الصناديق المكدّسة. لعلّ ما حوته لم يجد له موطناً في فضاء المسكن الضئيل. ولعلّ نصف ممتلكات العائلة بقي في المنزل الآخر، متروكا ومهملا، ينتظر أن تنهار فوقه الحجارة. مثلما قد تنهار حجارة المنزل الجديد على رؤوس سكّانه! أحسّ خليل ببرودة لاذعة تسري في أوصاله. كان قد وعدها بتسوية عادلة، منزل مناسب، لا يختلف في مواصفاته عن المنزل القديم. لقد أخطأ التّقدير بشكل فادح. المنتقلون الأوائل استفادوا من تسهيلات الدّولة ودعمها لحركة الهجرة، فغنموا مساكن فاخرة حديثة التشييد. كان

انتقالهم طوعياً، فكافأتهم الدولة لدعمهم سياستها المرتكزة على الخوف. أمّا من تلكؤوا وتباطؤوا، وعرقلوا نظام التقسيم الجديد، فقد عوقبوا شرّ عقاب. المطرود من منزله لا يُهدى منزل الأحمال، ولا يُعوّض عن خسارته. إنّهُ يُطرد وحسب. كانت مريم أبعد نظرا منه. بل لعلّه كان مُغيّبا عن الواقع.

في وقت سابق، كان قد حاول أن يعقد مقارنة بينه وبين محمّد، معاناة كليهما أمام العنصريّة، كفاحهما من أجل النّجاح. الآن يعلم ألاّ سبيل إلى المقارنة. هذا الولد قد عاش في سنواته الثمانية عشرة أضعاف ما يدّعيه هو من صراعات. إنّهُ يعرف حقّا كيف تكون الحياة جحيما، ولا يتذمّر. إنّهُ.. إنّهُم متصالحون مع ذواتهم وهويّاتهم، لعلّهم قد توقّفوا عن لومها منذ زمن بعيد، ورضوا بقدرهم. أمّا أنت، فلا تكفّ عن الشكوى من لعنة اسم تحمله وتنصّل منه.. مع أنّ مركزك ووظيفتك ومنزلك وعائلتك، كلّهم محفوظون لك!

استقبله الأب بنفس الدّماثة، كأنّه صديق قديم يزورهم من باب الألفة والمودّة، فازداد حرجه. طرح فكرته في شبه إطراق، عيناه ملتصقتان بالأرض حياء، سيرفع الدّعوى من أجلهم، وسيحضر خبيرا يعاين المسكن على عين المكان ويجهّز تقريرا بعدم أهليّته للسّكنى. سيحرص على استصدار قرار من المحكمة بوقف قرار الهدم. يتابعه الوالد بابتسامة وديعة مسلّمة، ويؤمئ برأسه في رتابة. سيكون خيرا، كلّ الخير. مرّة أخرى يدعوّه إلى مشاركته مشروبه المحبّب:

- هل تشاركنا كوبا من الشّاي؟

بينما تتناهى إليه بقبقة الماء على الموقد، يتساءل، كما تساءل دائما كلّما سمع عن الشغب الذي يثيره المهاجرون العرب والأفارقة، لا الدّولة راضية عن وجودهم ولا هم راضون عنها. يعبرّ عن سؤاله بصوت عال:

- لماذا لا ترحلون؟

- عفوا؟

- ألم تفكروا في الرّحيل كحلّ نهائيّ لكلّ المضايقات والمعضلات؟

- نرحل؟ إلى أين؟

- إلى بلدكم.. الأصليّ!

تصدر عن الرّجل ضحكة مرّة أشبه بالنهضة. ويوقظ السّؤال في داخله ذكريات أشدّ مرارة.

- ليس لنا من بلد أصليّ.. نحن فرنسيّون.. فقط.

لا يبدو على خليل الاقتناع. إنهم يحملون اسما عربيا، وملامح عربيّة كذلك. فكيف ينفي؟

- والدي كان معارضا سياسيّاً، اتّهم بالإرهاب في وطنه، فُلجأ إلى فرنسا، أيّام كانت ملجأً للمنبوذيين في أوطانهم. بعد ذلك سُحبت منه جنسيّته، ومن ذريّته من بعده، وكرّمته فرنسا وأكرمت مثواه بإهدائها إيّاه جنسيّتها ومواطنتها.. قبل أن يستلم هؤلاء الحمقى السّلطة وتسود العنصريّة! وهو يتخطّى عتبة البيت إلى الشّارع، لحقت به مريم. قالت في ارتباك لم يعهده فيها:

- أريد أن أعترف. الحافظة الإلكترونيّة، لم آخذها.. لكنني غيّرت مكانها. كنت أريد الانتقام، من أجل وقتي المهدر.. مجرد عبث بسيط. أردتك أن تجرّب التوهان، وحاجتك الثمينة تضيع منك، والوقت يمضي بحثا عنها. كنت أعلم أنّك ستجدها.. في نهاية الأمر. أنا آسفة، ظننتك شخصا سيّئاً. حين غادر الحيّ الكئيب، كان لا يزال مشوّشا. ضحك من نفسه كثيرا وهو يطالع سحنته في مرآة السيّارة العاكسة، ثم هبط عليه الوجوم حتّى كاد يدمع. ما مدى سوئك أيّها الشّخص، في الماضي القريب والحاضر القائم؟

حين دلف إلى شقة والدته، كانت هناك مفاجأة في انتظاره.

انتابه إحساس غريب بدخوله مكانا مجهولا. كان كمن يتنقل في بهو متحف ما. انتابه الدهول، وهي يطأ على السجاد القديم الذي لم يكن يعلم أنّ أمّه قد احتفظت به كلّ هذا الوقت.. وصُعق لمراى المفروشات البالية التي أخذت مكانها في كلّ ركن من قاعة الجلوس. أمّا الجدران، فقد غصّت مساحتها بأطر مذهّبة لم تعد تناسب ذوق العصر، تشغلها صور باهتة طال تخزينها في الأدراج المواربة، وورود مجفّفة حفظت بعناية بين طيّات الكتب.

رمقت ديانا دهشته باستمتاع. لقد أمضت ساعاتها السابقة تعيد إلى الشقة ترتيبا سحيق البعد، مضى عليه ربع قرن كامل. تنشر ذاكرتها على الملاء، تنفض عنها الغبار وتعيد إليها رونق الأيام الخالية. تعزّز رحلتها عبر الزّمن بأجسام ملموسة تُضفي بعدا آخر على حكايات الرّسائل. هنا في هذه الشّقة، عاشت طفولتها البعيدة، سجت نفسها خلف أسوار الوحدة، ثمّ عرفت عاطفة بريئة ساذجة وتزوّجت فارسها غريب الأطوار! - أحببت أن أستعيد تلك الأيام بكلّ تفاصيلها وعنفوانها.. وأن تعيش معي كلّ ذلك.

كانت في عينيها نظرة منكسرة. كأنّما تعتذر.

- لقد حرمتك من ذاكرتك وتاريخك.. ظننت أنّي أحسنت صنعا. لكنني أتبيّن اليوم مقدار جهلي. لقد تأخّرت كثيرا في تسليمك مفاتيح الماضي، لكنني مستعدّة الآن.. سل ما بدا لك، وسأفصح عن كلّ شيء.

اتّخذت مجلسها على الأريكة الحديثة التي نكّرتها بمفروشاتها القديمة، وأشارت إلى المقعد القريب بابتسامة مشجّعة. راقبها خليل بشيء من الشّفقة. هل تظنّ الماضي يُسترجع بتلك المسرحيّة؟ هل يرجعان الآن في كبسولة زمنيّة إلى تاريخ قديم؟ لا يا والدي، لم نخترع آلة الزّمن بعد!

ما مضى لا يُسترجع، والأخطاء لا تُجور بمجرد الاعتراف بها، والذاكرة التي
لم تُبنَ على أسس سليمة منذ البداية، لا تقوى دعماؤها بمجرد سكب
دلو ذكريات عليها!

فليسأيرها.. فليمنحها الرضا الذي تنشد، عن نفسها وعمّا وهبته إيّاه
من أجل ما توهّمته مصلحته، رحمة بشيخوختها. يُذعن لرغبة طيّبة
بمصالحتها مع ضميرها. يجلس حيث أشارت، ويتأمّلها، بلا ضغينة، وهي
تتناول الرّسالة التالية، وتشرع في القراءة...

إنّ مثل رزق المرء ونصيبه من السّعادة والحكمة وراحة البال كمثّل عقد من الخرز.. يستمرّ في جمع حبّاته، حبة حبة حتّى يكتمل العقد، فيكون الأجل قد حان. وليس يضرّ المرء أن يمشي ساهما، فإنّه سيتعثّر وينتبه إلى مواقع خرزاته ولن يخطئها. وليس يفيدّه أن يدقّق وينقّب في الأرض بعدسة مكبرة، فلن يناله غير ما كتب له.. ولن يجمع من الخرزات أكثر ممّا يتحمّل خيط عقده. ولعلّ حبّات عقدي قد اكتملت حين رزقتك!

وتشكّل في ذهني مفهوم جديد للجنة. وما هي الجنة.. غير جسد سليم لا يشكو سقما، وزوجة حسناء متفانية، وصبيّ صغير بهيّ الطلعة، وأيّام متشابهة في سكينتها ورتابتها، ولقمة عيش حلال، تقيم الأود وتكفي السؤال؟ كنت قد انتقلت وديانا إلى شقة صغيرة ومريحة في حيّ قريب، يناسب إيجارها راتبي المتواضع من العمل في مطعم وجبات سريعة. بينما احتفظت ليليان بشقة العمارة الرابعة. ولم يكن ينقصني إلا أن أقتني سيّارة صغيرة قديمة، لتكتمل لي أركان السّعادة الظاهريّة!

تمضي بنا الأيام، فننسى. نطمئنّ إلى وجهها الهادئ ونعتقد أنّها ستدوم لنا. فكذاك انغمست في حياتي الجديدة واستسلمت إلى الدّعة. ولم يكن طيف الدكتور عمر يزورني إلا لماما. أتهّد وأنا أتذكّر مشهده الأخير وهو يخرج من قاعة المحكمة وفي عينيه نظرة أيّبة تواجه عدسات المصوّرين ورجال الصحافة.. ثمّ أنصرف إلى شؤوني وأنسى. فكّرت مرارا في زيارته في سجنه.. لكنني جنت. كنت أتتبع شعاع شمس مشرقة باتت تدفئ ثنانيا حياتي، وفكرة زيارة السّجن كانت تقبض على صدري بيد باردة مخيفة.. فأنفذ الخاطر وأمضي. لم تكن زيارتي لتغيّر شيئا عند عمر.. أعلّل فراري بذلك.. لم أكن سوى وجه عابر في طيّات ماضيه، بل ربّما جلبت إليه

من المتاعب أكثر ممّا فعله أيّ شخص آخر. لذلك لا حاجة له إلى زيارتي.
ولأنّ جنّة الدّنيا لا تكتمل أبداً، فقد كانت لديّ آمنيات أخرى إضافيّة..
وكان وجه أمّي الذي بتّ أستحضره من الذاكرة في شجن وحزن ركنا آخر،
أتمنّى أن يعزّز رصيد سعادي بحضوره، لكنني لم أجروّ على العودة. في كلّ
اتّصال من اتّصالاتنا القصيرة المحمّلة بدموع الحنين وعبارات الاشتياق،
كانت ترجوني في لهفة الولهان أن تكحلّ عينيها بمرأى زوجتي وابني.. لكنني
كنت منيعاً أمام توسّلاتها بشكل مخزٍ. حين أتفكّر الآن في سلوكي آنذاك،
لا أجد سبباً مقنعاً لصدودي. هل كنت أستنكف أن أرجع ولمّا أحقق
بعد الثروة التي يفترض بي أن أحصلها؟ أم أنّني كنت أخشى نظرة أمّي
وشقيقتي لزوجتي الأجنبية المقعدة؟

هل تعلم يا بنيّ؟ في فترة الاطمئنان تلك التي تلت استقرار العائليّ
والصحّي، كانت تساورني أحيانا أفكار جاحدة ورخيصة. كنت ألحظ
الصّعوبة التي تنهي بها ديانا واجباتها كربة بيت.. وقد كانت مهملة
أحيانا، في ترتيب الألعاب وراءك أو تنظيف الأرضيّة.. ومهاراتها في الطبخ
متواضعة غالباً، لكنّها تحاول. ومثل أيّ زوج شرقيّ، كانت تتابني نوبات
غضب غير مبرّرة، حين أتعرّ في دمية رميتها أنت عند المدخل، أو حين
أنزل بعد يوم عمل شاقّ لاشتراء علبتي بيتزا بعد أن تفسد أمّك طبق
العشاء. ديانا كانت وحيدة والديها المدلّلة، وإعاقتها جعلتها تتكلّ على
أمّها في كلّ شيء.. ولم يكن من اليسير أن تتحوّل إلى سيّدة بيت مثالية،
تنال العلامة الكاملة من جدّتك لأبيك! ورغم تقديري لكلّ ذلك.. ورغم
حبي الكبير تجاهها وعرفاني بجميلها، فقد مرّت بي أوقات ربّما استكثرت
عليها خلالها صحّتي وعافيتي! تخيّل، تلك الصّحة المستجدة بعد أوقات
عصيبة مع الألم والعذاب، كنت أؤمن عليها بها بيني وبين نفسي! وهي
التي لم تتكبر على فاقتي قبلاً، ولم تتردّد أمام مرضي! بل إنّها كانت
تتغلّب على شللها من أجلي، ومن أجلك. ورغم أنّها لم تستغن بشكل
كليّ عن الكرسيّ المتحرّك، فإنّ سنتين مضنيتين من العلاج الطبيعيّ آتت

نتائج طيبة، وها هي تقف من حين لآخر، وتخطو خطوات مترددة..
وليتني كنت سندا نفسيًا يُعتمد عليه!
لذلك اعتقدت طويلا في ما بعد، أنّ الله عاقبني بما أستحقّ حين
تغيّرت الأمور في ذلك اليوم.

كنت أحبّ مهنتي الجديدة وأحظى فيها بقدر من المتعة رغم
الإرهاق. أتجول طوال اليوم مثل نحلة نشيطة بين المشرب وطاولات
القاعة الدّاخلية والشرفة الخارجيّة، وابتسامة واسعة تملأ وجهي.. فحتّى
إذا رجعت إلى البيت، سمحت للتكشيرة بأنّ تحلّ محلّها! هكذا هي
الحال. الابتسامة في مكان العمل جزء من الوظيفة، والعبوس في البيت
روتين يوميّ.

في ذلك اليوم، عدت إلى المشرب بعد أن خفّفت الصّينية من حملها
ثمّ انشغلت بتصفيف الكؤوس المتسخة في المغسلة، بينما كانت نظراتي
تراقب آلة صنع القهوة التي بدأت مؤشراتّها تعلن عن حاجتها إلى تزويد
بالماء والبنّ. تركت الكؤوس وملأت إبريق الماء وتأهّبت لصبّ محتواه في
القسم المخصص من الآلة.

في تلك اللحظة، رأيته!

على الجهة الأخرى من الشّارع، كانت تقرفص في استكانة كما عهدتها
دوما. وترقبني بنظرة باسمة. في الوقت نفسه، أحسست بوخزة فظيعة في
رأسي، فأفلتُ الإبريق الزجاجي ليرتطم بالأرضيّة وتتناثر شظاياه الدقيقة.
استندت على سطح المشرب الرّخام بمرفقي أقاوم إغماءً وشيكا.. وخيالها
الشبحيّ يحثّ الخطى باتّجاهي في إصرار.. ثمّ فقدت الوعي.

حين استيقظت، كنت لا أزال في المطعم. ممدّدا على صفّ متلاصق

من الكراسي، ورؤوس كثيرة تشرف عليّ من عليّ، وقطرات ماء بارد تغمر وجهي الملهب. كنت أشهق وألهث، بينما تتصفّح عيناى الوجوه الكثيرة المحيطة بي في تشوّش أفّتش عن وجهها، عليّ أفند ظنيّ أو أوكدّه.. فرأيتها. تطلّ عليّ بابتسامتها التي أعرف! كانت هناك تلك الصغيرة الغالية التي رحلت من دون وداع.. فتراها كانت تنوي العودة. كارمن!

بعد لحظات، انفضّ الزبائن وعاد كلّ إلى مقعده بعد أن اطمأنوا عليّ، وبقي صاحب العمل ينظّف بقايا الزّجاج المكسور. راقبته بتشوّش ولما يفارقني الدّوار. استمرّت لبرهة تلك الجلسة الصّامتة، وكارمن ثالثنا، حتّى نطق أسأله بصوت متحشرج:

- هل دخلت المطعم اليوم فتاة صغيرة مشرّدة؟

رفع رأسه في شكّ وبدا عليه التفكّر، ثمّ قال:

- لا أذكر شيئاً من هذا.

ازدردت ريقى في ذعر. كان ينظر في اتّجاهها.. ولا يراها. أغمضت عينيّ، والهلع يتصاعد درجات في داخلي. ما معنى هذا؟ كارمن تعود، كأنّما لم تكبر يوماً واحداً.. هي هي، كما عهدتها. وعليها الثياب الممزّقة نفسها التي رأيتها عليها آخر مرّة. ولا أحد يراها غيري. ما معنى هذا؟

استأذنت من صاحب العمل لأغادر مبكّراً ذلك اليوم. خرجت أجرّ قدميّ، وكارمن تسير على إثري بخطواتها الصّغيرة المثيرة للشفقة. بحثت في مفكّرتي عن رقم المستشفى التي أجريت فيه جراحتي منذ سنتين، وطلبت موعداً مع الطبيب الاختصاصي. لم أكن قد احتجت إلى زيارته منذ زمن بعيد. بعد شدّ وجذب مع موظّفة الاستقبال، تمكّنت من أخذ موعد طارئ في بداية الأسبوع التالي. لك أن تتخيّل كمّيّة الشكوك المؤرقة التي عشت في رأسي حتّى ذلك الموعد!

صارت كارمن تلازمي حيثما حللت. في البيت، في المطعم، في الشّارع. تجلس على مسافة منّي، ترقبني ولا تتحدّث. عادت بكاء كما عرفتُها في

عهدي الأول بليون. وكانت رؤيتها تثير توتري إلى المستوى الأقصى! صرت عصبياً، قليل الكلام سريع الاشتعال. لماذا عدت؟ بل كيف عدت؟ إن كنت قد استأصلت الرصاصة فلا معنى لوجودك هنا الآن!

جاء يوم الموعد، فدلقت عيادة الطبيب بساقين مرتعشتين. أجريت الفحوصات، ثم صور الأشعة. وجلست أنتظر في صبر استعرته لا أدري من أين.. فمخزوني منه كان قد نفذ حتى آخر قطرة. بعد ساعتين، كنت أدخل على الطبيب من جديد، لأجد إلى جواره رجلاً آخر لم تسبق لي رؤيته. طبيب آخر. قدمني إليه بابتسامة متشنجة، ثم جلس ثلاثنا في الصالون الملحق. لم يكن كل ذلك يبشر بخير. سألي الطبيب الجديد:

- ألم يرافقك أحد من أفراد عائلتك؟

- لا.. جئت وحدي.

يصمت برهة، وأشعر بتردده. لعله يبحث عن كلمات مناسبة.

- فهمت من ملفك أنك قد أجريت جراحة على الدماغ منذ فترة.. أليس كذلك؟

- نعم. كانت هناك رصاصة.. أخرجها الدكتور. كانت عملية ناجحة.

أردّ بالية، مستعجلاً الوصول إلى لب الموضوع. ثم لماذا لا يحدثني طبيبي؟ من هذا الطبيب الذي يدير دفّة الحديث؟

- هذا ما حسبناه.. حسبناهما ناجحة.

- هل سأحتاج جراحة أخرى؟

لا بأس بذلك. جراحة أخرى لن تضرّ. أقبل بأيّ شيء على أن تختفي تلك الفتاة التي تصنعها هلاوسي إلى الأبد.

- لا للأسف. لن تكون هناك جراحة أخرى.

- آه..

- أنت رجل مؤمن أليس كذلك؟

- لا أفهم ما يعنيه سؤاله، ولا ما يقصده بأنني لن أحتاج جراحة.
- لماذا لا تتصل بزوجتك أو أحد أفراد عائلتك؟ من الأفضل ألا تكون وحيدا في هذه اللحظة..
- من أنت؟
- أقاطععه في سخط. ثمّ أوجّه خطابي إلى طبيبي غاضبا:
- ما الأمر يا دكتور لابورت؟ لماذا لا تخبرني بما رأيته في صورة الأشعة ولننه الأمر؟
- إنّه طبيب نفسيّ.. تحتاج حضوره لتخفيف وقع الصدمة..
- يقاطعه الطبيب النفسيّ بسرعة:
- أحيانا لا تسير الأمور كما نتوقع.. لكنّ الحياة هكذا.. تبتلينا بالمرض أو فقدان الأحبة أو ضيق في الرزق.. ومهما كانت حياتنا، فعلينا أن نتقبّلها، ونعيش ما بقي لنا منها بشكل إيجابيّ..
- من هذا الرّجل؟ طبيب نفسيّ أم شيخ جامع؟ أرمقه في انزعاج.
- هلاّ يوضّح لي أحدكم سبب الهلاوس التي أراها؟
- هل تذكر، حين أجرينا العمليّة الأولى؟ كانت هناك كتلة نسيجيّة تحيط بالمقذوف.. حين استأصلناه، تراجعت وتوقّف نموّها.
- نعم، وقد كنت سليما معافى طيلة السنتين الماضيتين!
- لكنّها قد عادت إلى التمدّد.. كبر حجمها إلى درجة مهولة خلال وقت قصير.. أكثر ممّا فعلت خلال سنوات طوال! وقد أصبحت الآن تضغط من جديد على مراكز الحواسّ.. وإذا ما كبرت أكثر، فإنّها قد تدمّر مراكز الحياة في الدّماغ..
- تدور بي الدّنيا. يضطرب تنفّسي. بينما يواصل الطّبيب شرحه:
- للأسف، كما شرحت لك عند العمليّة الأولى، لا يمكن استئصال الكتلة النسيجيّة. لأنّ الموت سيكون فوريا..

- كم.. كم ما زال من الوقت؟

يخرج مني صوت أجوف لا أعرفه.

- ستة أشهر ربّما.. أكثر أو أقلّ.

يستأنف الطبيب النفسيّ خطابه المستفزّ:

- العلم لا يمكنه تحديد أعمار البشر.. رغم أنّ الورم في مرحلة متقدّمة، فإنّك قد تعيش سنوات أخرى. كلّ ذلك يعتمد على حالتك النفسيّة. لقد أثبتت التجارب أنّ الأشخاص الذين تعاملوا مع مرضهم بتقبّل وانفتاح، وحافظوا على نظام غذائيّ سليم وأحاطوا أنفسهم بأحبّتهم ومارسوا هواياتهم المفضّلة، عاشوا أكثر من أولئك الذين غرقوا في الكآبة وانتظروا الموت وقد فقدوا صلتهم بالحياة...

- ستة أشهر.

غمغمت في سرحان. لم أعد أسمع طنينه المزعج. ثمّ وقفت من دون استئذان وغادرت العيادة.

في الغد، ذهبت لزيارة الدكتور عمر.

كانت أناييّة مني أن أقصده لأرمي بين ذراعيه همومي، ولعلّه في حاجة إلى دعم معنويّ مثلي أو أكثر. لا ليس أكثر.. في تلك اللحظة، بدا لي أنّي منحوس أكثر من أيّ رجل في العالم. وأنّ مواساتي فرض عين على كلّ من عرفتهم أو لم أعرفهم! ثمّ لعلّي توقّعت أن يكون أكثر النّاس قدرة على تفهّم وضعي، وهو المصاب في صحّته وحرّيّته.

قرأت على وجهه علامات الدّهشة والبشر وهو يدخل قاعة الزّيارات ليجدني قبالة. بشر تضاءل حتّى تلاشى، حين انفجرت باكيا بين يديه.

حكيت له عن زيارتي الأخيرة لعيادة الطبيب، ولم أحاول أن أظهر اهتماما زائفا بصحته وظروف حبسه، فقد كان ما ألمّ بي حازما دون شعوري بمآسي العالم من حولي! حين خفت نشيجي أخيرا، هتفت في ثورة وألم:

- أكرههم!

- من؟

- الذين قتلوا أبي.. ووضعوا هذه الرصاصة المقيتة في رأسي!

- الجيش؟

أعجز عن الرّد.. على من أصبّ لعنتي؟

- الإسلاميون؟

لقد ظننت طويلا أنّهم السبب. لو لم يكن الجيش يبحث عنهم.. لو لم يكن عمّي يخفيهم.. لما حصل ما حصل. أجهش ببكاء مرير متّصل في عجز. من العبث أن ألوم شخصا غيري.. أنا وحدي المسؤول عمّا ألمّ بي وبعائلي من شتات..

- أتمنّى فقط لو أعود طفلا.. وأبقى هادئا وراء الباب!

أمنية غالية بعيدة المنال. وآلة السّفر عبر الزّمن لم تخترع بعد.

- لله حكمة أكيدة في ذلك.. وحكمته اقتضت أن يمهلك ثمانية عشر عاما إضافيّة، قبل أن تفعل الرّصاصة مفعولها! ألا تشكر الله على سنين حياتك التي عشتها وأنت لا تدرك حتّى وجود الرّصاصة في رأسك؟ كنت في أسوأ حالاتي النفسيّة، والإيمانيّة أيضا. فأنيّ لي استشفاف حكمة الله من هذا الابتلاء؟ أهزّ رأسي في حركة يائسة، ثمّ أقول متأوّها:

- ليس هناك ما هو أقسى من الموت نفسه.. غير انتظار الموت!

قلتها بلهجة عميقة، كأني قد وضعت السّبابة على سرّ من أسرار الوجود.

- هراء! ترّهات!

باغتني عمر باعتراضه الصّارخ. أرفع إليه رأسي بنظرة مستنكرة. لسان

حالي يقول: وهل تعرف أنت ما أعيشه حتى تستكثر عليّ رثاء حالي؟ لكنّه يواصل بصوت هزّني:

- هذا كلام الملحدين واليائسين من رحمة الله! أمّا أنت أيّها الرّجل المؤمن، ألا تدرك أنّ الموت هو انقطاع عمل ابن آدم؟ هو اللحظة التي لا ينفع بعدها ندم على تفويت في عبادة أو ارتكاب لمعصية! أمّا ما تسمّيه انتظارا للموت، فهو إمهال من الله سبحانه.. فرصة أخيرة، لتحسن العمل لآخرتك! أترّك تستغلّها، أم تقضيها في انتظار مستسلم؟ ألا ترى نعمة الله عليك في تنبيهك لاقتراب أجلك؟ أم تراك تفضّل الموت غافلا.. يسوقك طول الأمل؟ الآن، تفكّر في عملك، وأصلح من علاقتك برّبك، خذ القرارات المناسبة، وعش كلّ لحظة كما يجب!

خرجت من عنده مهزوزا. كيف؟ كيف بالله عليك يا عمر؟ كيف يمكنك أن تنطق بتلك الكلمات وأنت حبيس جدران ضيقة تضغط على نفّسك.. لكنّها لا تسرق نضارة روحك! أقعيت على جانب الطريق، قبالة بوابة السجن، أحاول استيعاب ما قيل بالداخل. وجلست كارمن عند قدميّ.. مصيبي الصّغيرة.

- أنتِ.. لماذا أراك أنت بالذّات؟ لماذا كلّما طاردتني الهلاوس اتّخذت شكلك؟

- اسأل نفسك.. أنت تعرف.

سمعت الصّوت من دون أن تتحرّك شفتها، مثل صدى يتردّد في رأسي. حاولت أن أدّهش، لكنّ دهشتي انحسرت، وقد أضحت رؤيتي واضحة على حين غرّة. نعم أنا أعرف. لقد عرفتك في ليون، طفلة صغيرة بكماء مشرّدة. لكنني تركتك خلفي ورحلت. حين أشرقت الدّنيا في وجهي نسيت أمرك وأنا الذي عاهدت نفسي على الاعتناء بك وحمايتك. إحساس عميق بالذنب تجاهك جعلك تتشكلين هلوسة من دون وعي منّي. أسكت ضميري بإبقاء طيفك قريبا.. ولعلّي لن أعرف أبدا ما الذي حلّ بك على وجه الحقيقة.

أميّز الآن بشكل واضح متى بدأت الهلوسة. حين ظهرت فجأة وأنا أهمّ بالرحيل إلى باريس! كان يؤلمني أن أرحل وأخلفك ورأيي، لذلك تشكّلت في رأسي.. وتبعطني.

أزفر في شبه ارتياح وقد أزحت اللثام عن حقيقة أرقتني في الماضي، ولم يعد لها معنى يذكر في الحاضر. لكنّ إشراقات النور على حجرات كانت مظلمة في الدماغ تصاحبها دفقات خفيفة من المتعة. أسألها وقد باغتني نشاط مفاجئ:

- والآن، ماذا نفعل؟

تلك الصّغيرة سترافقني إلى نهاية المطاف، لذلك صار لزاماً عليّ أن أشركها في التخطيط للأيّام المقبلة. ستّة أشهر من الأعمال الحاسمة تنتظرنا!

كانت صحّة ليليان تتدهور شيئاً فشيئاً، وكانت ديانا تصحبك لتسليتها في بعض الأحيان، فأمرّ لأخذكما من عندها حين ينتهي يوم عملي. وقد بدا أنّها قد مرّت بفترة عصيبة عصر ذلك اليوم.

حين تجاوزتُ مدخل المجمع السّكني، كانت الحديقة شبه مظلمة والمصاييح القليلة المتناثرة تلقي نورا باهتا على الممرّات المفروشة بالحصى. كان المكان يعاني من إهمال شديد في الفترة الأخيرة. منذ فضيحة الحراس والمداهمة التي تعرّضت لها العمارة الثامنة، عانى الحيّ من سوء السمعة وكثر القيل والقال. بيعت ممتلكات الشيخ المختار، بأثمان بخسة لمشتريين متفرّقين بعد أن ظهر ورثة غريباء لا يعرف أهل الحيّ عنهم شيئاً. لم تعد هناك لجنة تهتمّ بالنّظافة والصّيانة العامّة للمجمّع، ولم يتّفق الملاك المختلفون على سياسة إدارة واحدة حتّى آلت المساحات

المشتركة إلى حالة من الفوضى والقذارة لم تعرفها يوما في عهد الشيخ.
تفرّق معظم الحراس الذين أطلق سراحهم وتشتّت شملهم وانتشروا
في أنحاء الأرض. صارت قصّة الحراس بمثابة الخرافة التي يرويها السّكان
همسا. وما لبثت العصابات أن عادت إلى سالف نشاطها بعد أن قطع
عليها المختار الطريق لوقت طويل.
لم أكن أنهار وحيدا. كان كلّ شيء ينهار.. فهل أجد في ذلك تسليّة عن
مصابي؟

انتبهت من أفكاري حين لمحت دواليب كرسيّ ديانا المعدن تلمع
في الظلام. ثمّ سمعت صوت صرخات طفل بين الأعشاب. في ارتباك
واضطراب شديدين، جريت باتجاهكما. جثوت على ركبتيّ قريبك. كنت يا
بنيّ قد شرعت في محاولات مشي متعثّرة، فتسقط معظم الوقت بعد
خطوات قليلة. رفعتك بين ذراعيّ في حنوّ ومسحت التراب العالق عن
كفّيك وركبتيك المكوّرتين، ثمّ التفت إلى ديانا التي اقتربت وهي تدير
عجلات الكرسيّ متجهّما:

- ما الذي دهاك للخروج في هذا الوقت؟ ألا ترين أنّ ذلك خطر على
الولد؟

- نادر، أرجوك.. لم يحصل شيء للولد. لقد وقع في العشب الطّريّ.
نحن لا نخرج إطلاقا، وقد أردت أن أرفّه عن أمّي بعض الشيء..

التفتُ إلى حيث كانت تجلس ليليان على مقعد حجريّ بالسّاحة، وقد
أخفت غلالة الظلام ملامحها. لعلّها كانت ترقبنا في عدم رضا، وتندب
حظّ ابنتها التي ابتليت بزواج معقّد عليل الجسم والروح. واصلت
هجومي المحموم بشكل مبالغ فيه:

- ماذا لو حصل له مكروه؟ ماذا لو جرح أو كسر أو أيّ شيء آخر؟ ماذا
كنت ستفعلين؟ هل يمكنك إسعافه؟

زمت ديانا شفّتيها في ضيق:

- نادر، أنا لست عاجزة. لا يمكنني المشي على قدمي بشكل متزن لكنني أسرع من كثير من البشر الأصحاء بالعجلات.. يمكنني أن أنحني وأرفع الولد إذا سقط. لكنني أعلمه الاعتماد على نفسه والوقوف بعد الوقوع. ثم فلتعلم، ما يوجد من مخاطر في الحديقة أقل بكثير مما يوجد في البيت، حيث الموقد والمكواة ومقابس الكهرباء والسكاكين والدبابيس والمقصّ والأدوية...

سكتّ مضطرا، وبداخلي دفع من السخط لم أفرج عنه بعد. قالت ديانا على حين غرّة ونحن نتوقّف قرب أمّها:

- أعرف ما يلزمنا. إجازة!

- إجازة؟ في هذا الوقت؟

- نعم، الترويح عن النفس لا يحتاج وقتا، بل يفرض نفسه وقت الحاجة، وأنت بحاجة الآن إلى تغيير الجوّ. هل تعرف فيم أفكّر؟ نحن متزوّجان منذ سنتين ولم نذهب لزيارة عائلتك مرّة واحدة! و خليل يحتاج إلى رؤية جدّته وعمّاته. سيكون ذلك رائعا، أليس كذلك؟

أومأت ليليان برأسها مشجّعة. لماذا تبدو فكرة جيّدة لكلّ ما عداي؟

- الجزائر؟ أنت واثقة؟

- أعلم أنّ عائلتك قد لا تتقبّلني ببساطة.. لأنّني مقعدة و..

قاطعها في حزم:

- كفّي عن هذا أرجوك! تعلمين أنّ ذلك لا يشكل فرقا بالنسبة إليّ، ولا يهمّني بماذا قد يفكر الآخرون.

- إذن نذهب؟

كانت ابتسامة تشرق في وجهها وهي ترنو إليّ في حماس. لكنني أشحت بوجهي وأنا أنشغل بملاعبتك وهممت بصوت لم تصبه عدوى الحماس:

- سأفكّر في الأمر...

تلك الليلة، فتحت عيني فجأة لأجد الغرفة غارقة في الظلام. سحبت نفسي بهدوء خارج السرير. على أطراف أصابعي درت حول السرير المزدوج حتى وصلت إلى الجهة الأخرى، حيث سريرك الخشب الصغير. أزحت طرف الستارة السمكية لأسمح لضوء الشارع بالتسلل إلى الشقة. ثم انخفضت على ركبتي وانحنيت فوقك كاتما أنفاسي. لم تكن قد أكملت سنتك الأولى. بأطراف أناملي، أعدت اللحاف القطن المطرّز إلى مكانه، ولامست في خشوع خصلات الشعر الفاحمة التي التصقت بجبينك. كنت صبيًا جميل المحيّا. يشبه والدته. نعمة من الله، أحمدته عليها كلّ يوم. بعد إرهابات الغربة الأولى، أصبحت لديّ عائلة. ديانا و خليل. «كليل»، هكذا تنطقه أمّك. فأصحّح لها المرّة تلو المرّة كما كنت أفعل مع طلبتي منذ زمن.. فيضجّ البيت بالضحك. أضحك من نطقها الخاطئ، فتضحك من نفسها.. وتضحك أنت أيضا لضحكنا، من دون أن تفهم السبب.

لم أكن زوج الأحلام الذي تتمناه ديانا وتستحقّه. إحساسي بذلك كان قائما منذ البداية، رغم صبرها ورضاها الظاهر. ولم تكن شفقتي على عجزها إلا ردّة فعل كبريائي على إحساس مزمن بالنقص! لم يكن عملي نادلا يعدّ مهنة الأحلام أيضا، وآفاقها ليست واسعة بالقدر الكافي. في الحقيقة، كانت المنح الاجتماعية التي تتقاضاها ديانا تغطي معظم المصاريف، وكنت أدفع إيجار الشقة وأدّخر بقيّة أجرتي في حساب توفير ليكون بمثابة تأمين لك حين تكبر. كان هاجس تأمين مستقبلك يلحّ عليّ منذ البداية. هل كان حدسا صائبا؟ نجاتي من الرّصاصة كانت معجزة حقيقيّة. وديانا تواظب على جلسات التأهيل لساقها منذ سنوات من دون فائدة ملموسة. طفل ينشأ بين والدين مبتلين يحتاج إلى أكثر من الحب والرعاية ليضمن الغد.

حين كنت في الرّابعة من عمري، كان والدي - خليل - يرافقني في رحلة صيد مبتدئة إلى مرافئ عتّابة، ثمّ في سنّ السّابعة علّمني كيف أصنع الطعوم بنفسني وأشدّها إلى الصّنّارة، واحتفلنا معا بأوّل سمكة أصيدّها

بعد لأي، قبل أن أدرك أنني لست موهوبا مثل والدي فأترك الصيد إلى غير رجعة.

رفقة والدي جلست للمرة الأولى على المقاهي وأخذت أول نفس من نارجيلته، فكدت أختنق بها تحت نظراته العابثة. لعبت معه الورق وراقبته وهو يغشّ لي بالفوز أولاً ثم ليحتكره لنفسه في مرحلة أخرى. تعلّمت معه ركوب الدّراجة الهوائية والتّدحرج على المروج المعشوشبة وتسلقّ الجبال وخرجنا في نزّهات جبليّة لا تحصى. أمسكني من وسطي وتركني أتخبّط بيديّ وساقيّ في الماء قبل أن أتعلّم السّباحة وعاقبني بصفعة على مؤخرة رأسي في كلّ مرّة نسيت فيها صنبور المياه مفتوحاً، أو لطّخت ملابسي بالوحل، أو حطّمت زجاج النّافذة بالكرة.. أو ارتكبت أيّاً من الحماقات الكثيرة التي يرتكبها الأطفال.

ذاكرتي زاخرة بالمواقف التي جمعتني بوالدي، رغم رحيله عني في وقت باكر، في ذلك المشهد المجلّل بالعار. خمسة عشر عاماً برفقته كانت ممتعة ومنهكة ومريكة، حين أسترجع التفاصيل التي طفت أحداثها إلى سطح الذاكرة. معظمها، بل كلّها، كانت بعد سنّ الرّابعة. خلايا الذاكرة في دماغي لم تسجّل شيئاً يُذكر في سنواتي الأربع الأولى. مع أنني أتساءل بجدّ إن كان دماغي مثالا قويميا عن كفيّة عمل الأدمغة العاديّة. أليس دماغاً متورّماً؟ وربّما تكون الأدمغة القابلة للتورّم مختلفة في تكوينها وأدائها عن بقيّة الأدمغة منذ البداية؟ أسئلة غريبة ومشطّة في التعقيد ملأت رأسي تلك الأيام. كلّها تدور في فلك فكرة واحدة: هل ستذكر عني شيئاً حين تكبر؟

اتّخذت خطوة متهورّة في اليوم التّالي حين دخلت محلّ أجهزة إلكترونيّة وطلبت أحدث نماذج آلات التّصوير الرّقميّة! كنت قد عزمت على صنع ذاكرة «احتياطيّة» تساعدك في تنشيط ذكرياتك عني في ما بعد. لم أضيّع الوقت، وبدأت التّصوير على الفور. كنت أوقف المارّة في الشّارع وأطلب

منهم أن يلتقطوا لي صورة أمام بعض المباني، في محطة المترو، أمام نافورة عموميّة، إلى جوار سيّارة فاخرة...

في غمرة إقبالي على تزويدك بذكريات مستقبلية، خطرت ببالي أمّي التي ما زالت على قيد الحياة. إنّ من العسير أن يرحل والدك ويتركك يتيما، لكن أن ترى ولدك اليافع يرحل قبلك، فذلك حتما ألم لا يحتمل. أقعيت على قارعة الطريق واستغرقني بكاء مرّ. طوال حياتي كنت سبب قلق لها، وحين قرّرت أن آخذ الحياة على محمل الجدّ وأصنع شيئا يُسعد قلبها، كان المرض لي بالمرصاد. تذكّرت عددا من أولاد الجيران أو الأقرباء الذين جرّبوا مثلي الهجرة الممنوعة، ثمّ عادوا إلى ديارهم محمّلين في نعوشهم. تذكّرت ملامح الأمّهات المفجوعات في فلذات أكبادهن، تذكّرت الحسرة واللوعة في نحيبهن المتقطّع الصّاعد من أعماق الأفئدة.. ثمّ تخيلت وجه أمّي وهي تستقبل نعيي بعد ستّة أشهر من الآن. في تلك اللّحظة، اتّخذت قرارا. لن أسمح لذلك بالحصول.

حين دخلت الشّقة، جاءني صوت خطواتك المتردّدة وأنت تلقي بنفسك باتجاه الباب لاستقبالي. أخذتك بين ذراعيّ في حبّ جارف وقبّلتك في لهفة ثمّ تفرّست في ملامحك الباسمة المنشرحة كما لم أفعل من قبل. ثمّ التفتّ إلى ديانا التي كانت متهلّلة الأسارير، كما هي على الدّوام. رددت لها الابتسامة بمثلها ثمّ أعلنت عن المفاجأة التي تدبّرتها على الطّريق:

- سأخذ إجازة ونستمتع بها معا.

هتفت ديانا غير مصدّقة:

- هل نذهب إلى الجزائر؟

تغضنت ملامحي وشاهت ابتسامتي وأنا أردّ في فتور :

- ليس الآن، ربّما في وقت لاحق.. أما هذه المرّة، فسنجوب أنحاء باريس

مثل السيّاح، ونأخذ الكثير من الصّور!

قلت ذلك وأنا أخرج آلة التصوير الجديدة من مخبئها. أطلقت ديانا

صيحة مرحة مثل طفل حظي بلعبة العيد التي تمنّاها.

- إنّها تبدو غالية! كم دفعت ثمنًا لها؟

- لا تهتمي لثمنها، لقد استحققت كلّ سنتيم دفعته لقاءها.

لا أنسى النظرة التي أطلّت من عينيها آنذاك. قرأت فيها مزيجًا من الحبّ والعتاب. كنت غالبًا ما أرهق نفسي بالعمل، وأحرمها من كثير من الكماليات في سبيل تحصيل المال وتوفيره. ولئن كان إقدامي على اشتراء جهاز غالي الثمن يفاجئها ويربكها، فإنّها لا شكّ ترتاح لتلاشي عقدة المال من ذهني. تلك العقدة التي تمنعني من الإقدام على إنفاق أيّ مبلغ مهما كان تافها إلا بعد تقليب الأمر على كلّ وجوهه بشكل يثير غيظها. كنت حريصًا في تعاملاتي الماليّة، وهي كانت تخشى أن يتحوّل محور حياتي إلى جمع المال لا غير. لذلك، وإن بدت عمليّة الاشتراء تلك تبذيرًا لا مسوّغ له، فإنّها تعتبر نزوة محمودة في نظرها، لأنّها علامة على استرداد زوجها لصحّته الماليّة وتوقّفه عن سياسة التقتير التي لا وجوب لها.

لكنّها لم تعلم أنّ غمرة الجود التي حلّت بي لم تكن نزوة أو عابرة، ففي الأيام القليلة التي تلت تلك الوقفة، رأت وجهًا جديدًا لزوجها. كما وعدتها، انطلق ثلاثنا في جولة باريسيّة مرتجلة، مثل سيّاح يزورون المدينة للمرّة الأولى. لم تكن الرّحلة منظّمة أو محدّدة المراحل والخطوات، بل انطلاق منذ الصّباح وانتقال تلقائيّ من معلم إلى آخر، وتوقّفات عشوائيّة لتناول أكلة خفيفة أو مثلّجات أو احتساء فنجان قهوة. الكثير من الضّحكات والنّظرات المشرقة، ومتعة عارمة لك وأنت تطعم الحمام في ساحة «نوتردام» وترشّ رذاذ الماء علينا في ساحة «سان ميشال» وتركب السفينة السّياحيّة على نهر السّين.

في مساء اليوم الثالث، غبت لساعة واحدة بعد أن أوصلتك وأمّك إلى الشّقة. ولمّا كان التعب قد بلغ منكما مبلغًا عظيمًا بعد جولات النهار الخارقة، فقد غسّلتك ديانا وخلدت وإياك إلى النّوم على الفور، لذلك

لم تلحظ حركتي وأنا أتسلّل على أطراف أصابعي لأخفي بين ملابسي
تذاكر السّفر التي اقتنيتها للتوّ.

مرّ اليوم الرّابع مثل سابقه، وبدأت ديانا تنتبه إلى هوسي المحموم
بالتقاط الصور. كثيرا ما كانت تشدّ ذراعي لأتوقّف عن التّصوير وأعيش
اللحظة الرّاهنة. حين أخذت قطرات المطر المتفرّقة في الهطول، اقترحت
ديانا إيقاف التّزهة والعودة، لكنني كنت مستمتعا بالرّكض معك عبر
ممرّات حديقة «التويلري» والقفز بين البرك الموحلة ببراءة تضاهي براءة
الأطفال، بينما اكتفت ديانا بالضحك وهي ترقب الولدين اللذين كُناهما
يمرحان تحت زخّات المطر.

كان يوما منها كعادة أيّام الإجازة المتتالية، فتولّت ديانا جمع الثياب
المتسخة ووضعتها في آلة الغسيل ثمّ حمّمتك واستلقت إلى جوارك في
إعياء حتّى غلبها النّعاس. مرّة أخرى، تسلّلت على أطراف أصابعي إلى
الخزانة. استخرجت تذاكر السّفر وأنا أرقب ديانا النّائمة من وراء كتفي في
حذر، ثمّ أخذت أجمع ثيابي النظيفة وثيابك في حقيبة متوسطة الحجم.
سحبت الحقيبة بهدوء وتسلّلت إلى الخارج مجدّدا.

- نادر، هذا أنت؟

كانت الحركة المطّردة في الغرفة قد أخرجت ديانا من نومها. تقلّبت على
جانبها وتساءلت ثمّ استندت على كفيها محاولة النهوض. ظهر رأسي من
خلال فتحة الباب وهمست مطمئنا:

- عودي إلى النّوم يا عزيزتي، سأغسل أطرافي وآتي في الحال...

هزّت رأسها وهي تفرك جفنيها الثقليين بالنّعاس، ثمّ عادت إلى
الاستلقاء. انتظرت خلف الباب لدقائق طويلة. راقبتها من طرف خفيّ
وهي تغفو بالتّدرّج حتّى اطمأنتت إلى انتظام أنفاسها المؤذنة بانغماسها
في نوم ثقيل. عندئذ، تحرّكت بنفس الخفّة واقتربت من السرير الصّغير.
أبعدت اللّحاف عنك وحملتك بهدوء بين ذراعيّ محاذرا أن أوقظك. رأيتك

تتمطى وتتخبط في انزعاج لمقاطعة نومك، فهددتك برفق ومسحت على رأسك حتى سكنت حركتك. ابتعدت بهدوء في اتجاه باب الشقة. كانت الحقيبة جاهزة هناك. أضفت إليها حذاءك ومعطفك، فلم أكن أريد أن أغامر بوضعهما عليك حينها لتجنب استيقاظك في وقت غير ملائم، ثم ألقيت نظرة تفقدية أخيرة على أوراق الهوية وتذاكر السفر، قبل أن أنسحب خارج الشقة وأنا أحملك نائما على كتفي بذراع وأسحب الحقيبة بالأخرى. هرولت بقدر المستطاع نحو الشارع الرئيسي، حيث كان موقف سيارات الأجرة.

حين استقرّ بي المقام أخيرا في السيّارة التي تطوي الأرض في اتجاه مطار باريس شارل دو غول، تنهّدت في إعياء. أخرجت حبة دواء مسكّن رميتها في فمي لأبتلعها من دون ماء، ثم غامت نظراتي بقطرات دمع أبت إلا أن تغالبني. ديانا، يا حبّ حياتي.. كيف ستشعرين حين تستيقظين صباحا لتجدي الشقة خالية؟

ثلاث إناث شكلن خارطة الوجدع في غربتي. أُمي التي ما جفّ الدمع على خدّها منذ رحيلي، ديانا التي وثقت بي فسرقت بسمتها ووادت فرحتها، وكارمن الصغيرة التي نسيتها، والنسيان في حقّها جريمة لا تغتفر.

ترقرقت دمعة حارة على وجنة ديانا. لم تمسحها، بل استمرت تطالع ولدها في حنو. أخذ منها خليل الورقة الأخيرة من رسائل أبيه، قلبها متفحّصا، يبحث عن بقيّة.. ثمّ رفع عينيه إليها ليهتف في صدمة:

- هرب بي إلى الجزائر؟ وكيف رجعت إلى فرنسا؟ كم عشت هناك؟

ابتسمت في صبر وأشارت إلى الرّزمة الثانية:

- هذا ما أحكيه لك في رسائلي.

آه، أخيرا جاء دور الرّسائل المكتوبة بلغة يفهمها! قلب الرّزمة بين يديه مقيّما سمكها ودسامة محتواها. سيكون قد انتهى منها خلال ساعتين على الأكثر. رمى بفردتي حذائه واستلقى على الأريكة في وضعيّة أوفر راحة، ثمّ فكّ الشّريط الذي يجمع الرّسائل وشرع في القراءة. كانت ديانا تهتمّ بدخول مطبخها لتحضير وجبة عشاء يتناولانها معا، للمرّة الرابعة هذا الأسبوع، حين استوقفها خليل ليسأل في اهتمام:

- لم تقولي.. كيف تعلّمت العربيّة؟ أنت تقرّأينها بسهولة وطلاقة!

ابتسمت في جذل، وذكريات قديمة تعبر مخيلتها:

- ستعرف.. صبرك عليّ!

- إذن سيّدة ديانا.. دعينا نرى ماذا لديك لترويّه.

الرزمة الثانية

رسائل ديانا روجيه

«الحنين، إنَّه مثل مدّ جارف يغرق القلب فيملؤه إلى حافّته، فما يعود
هناك متّسع لمشاعر أخرى.»

عزيزي خليل،

أذكر نفسي وأنا أجلس أمام تلك اللافتة البغيضة وقد أضاعت كلماتها بضوء أخضر مشعّ. «غرفة العمليّات». كان نادر قد غاب منذ ساعات خلف الباب المغلق، ولم يأت أحد ليطمئنني على مصيره منذ ذلك الحين. زوجي. كلمة غريبة لم آلفها بعد. لا يتجاوز عهدي بها الأيام المحدودة، ولم يتعدّ إحساسي بها تلك الوقفة القصيرة أمام ممثّل البلدية والشيخ اللذين عقدا قرانا. منذ ذلك الحين، تتالت الأحداث مريكة مؤرقة.

هل كنت أتصوّر أنّ أحداثا كتلك قد تقتحم حياتي الهادئة الرتيبة؟ لسنوات طويلة، حسبت أن الإعاقة التي اختارتني من دون كلّ البنات في سنّي هي أقسى الأقدار التي قد تطالني. كنت منكفئة على ذاتي منغلقة على حياتي، أتجرّع في كلّ يوم مرارة إحساسي بالعجز وأندب الحظ الذي لم ينصفني بحرمانني من الحركة. كنت مؤمنة، مع شيء من التمرد الذي أتوب عنه كلّ مساء حين أخلو إلى أيقونة العذراء في غرفتي.

لكنني تعرّفت إلى نادر.. الذي قطع المتوسط واجتاز الأراضي الفرنسيّة من جنوبها إلى شمالها ليحطّ مثل طير مهاجر عند باب شقّتي. كان قد رأى بعينه الشاردتين في شهور قليلة ما يكفي لعمرى كلّه. نجا من الموت غرقا، وعاش بين المتشرّدين واللصوص لأسابيع، ثمّ انخرط مع جماعة إرهابيّة من دون علمه لينتهي به الأمر وراء القضبان.. قبل أن يكتشف الأطباء إدمانه، ويقرّروا استخراج رصاصة تسكن رأسه منذ ستة عشر عاما! ذلك هو زوجي. تلك الخلطة العجيبة من المآسي كانت قدره، وستصبح منذ ذلك اليوم قدري.

كان نادر متخوّفا من العمليّة، وقد دفعته إليها متظاهرة بالجلد والثبات.

من حقّه أن يخاف، فاحتمالات النّجاح كانت واهية. ونتائج من قبيل فقدان البصر أو نزيف الدّماغ أو الشلل الرّباعي كانت ماثلة أمام عينيّ وأنا أقول مشجعة: ستكون بخير! لقد أوضح الطّبيب أنّه لا خيار أمامه غير المجازفة. لأنّ الرّصاصة عدوّ داخليّ متربّص به. وقد تُنهي حياته في أيّ لحظة، وهو في غفلة عن أفاعيلها. أوّليس هذا ما تفعله الرّصاصات في كلّ الأحوال؟

لذلك، حين استمرّت غيبوبته تلك ساعات طويلة، استبدّ بي الجزع. رأيتني أحمل لقب الأرملة وأنا بعدُ لم أعرف كيف أكون زوجة! وإن كان تفكيري بنفسي ضربا من الأنانيّة، فهو -رغم ذلك- التفكير المنطقيّ الذي نخفيه في لاوعينا. وقد كنت صادقة مع نفسي حين عالجت السؤال بوعي كامل. أوّليس ما يؤرقنا حين رحيل الأحبّة هو كيف ستكون حياتنا من بعدهم؟ لا أحد يدري كيف سيلاقهم الرّبّ بعد مماتهم، هل إلى عذاب أم إلى نعيم؟ ومع أنّي اعتقدت أنّ نادرا قد لاقى من العذاب في الدّنيا ما يستحقّ رأفة الرّبّ في الآخرة، فإنّي كنت على ثقة بأنّ أمري من بعده لن يشغله. حالما ترحل روحه عن جسده الفاني، فسينسى أنّه قد تزوّج امرأة تدعى ديانا وخلفها أرملة بعد زواج قصير لم تكن له من فائدة غير حصوله على تغطية صحيّة تسمح بعلاجه على نفقة الصّندوق الاجتماعي! لذلك رأيتني أركن إلى بكاء مريّر، أنعى نفسي قبل زوجي.

لبث نادر في غرفة العناية المركّزة. ولم يكن يُسمح لي بتجاوز عتبتها. كنت أراه من خلف الزّجاج راقدا بلا حركة. وأزيز منتظم يصدر عن الآلات التي تراقب مؤشراتته الحيويّة. في تلك الجلسة الكئيبة، تفكّرت، ما الذي جعلني أوافق على هذا الزّواج؟ بغضّ النظر عن سيرته الغريبة ومغامراته الاستثنائيّة، فقد كان نادر شخصا هادئا، بل خجولا. وكان في نظراته شيء من البراءة. هل تصدّق أنّ حاويا يخاطب الجنّ قد يبدو بريئا؟ لم يكن كذلك وهو يمثّل دور المشعوذ. لكن حين جاء إلى شقّتنا وقد نزع عنه القناع، لمحت في عينيه صدقا ووجعا. وأحسست ناحيته بألفة غريبة،

وأنا لم ألف أحدا غير نفسي لسنوات طويلة!

هل تؤمن بشيء اسمه توأمة الأرواح؟ لم أكن أوّمن بها سابقا. ولست أوّمن بها صراحة اليوم أيضا. لكنني تساءلت حين سمعت منه قصّته، إن كان هذا الرّجل الغريب توأم رُوحِي الذي ساقته إلَيَّ أقدار غريبة من بلاد غريبة؟ وتزايد ذلك الإحساس بداخلي حين تكلمت المحامية عن الرّواج الأبيض لتصحيح وضعه القانوني. كان هاتف في داخلي يقول في إلحاح: هذا قدرك. ورغم أنّ الموضوع لم يرق لأُمِّي بتاتا، فقد وجدتني أصرّ، كأنّني نبيّ قد عثر على رسالته أخيرا! فكان يجب أن أمضي في الطريق إلى نهايته. كأنّ أخذي هذا العبء على عاتقي كان من شأنه أن ينقي رُوحِي ممّا شابها في ماضٍ قريب، من أحاسيس سخط وعدم رضا بنصبي من الآلام. بل إنّني وجدت العزيمة لأستأنف العلاج الطبيعي، واستجابت له ساقي أفضل من السّابق! ألم تكن تلك إشارات واضحة؟

حين فتح عينيه، كنت قريبه. حرصت على أن تكون ابتسامتي أوّل ما تقع عليه نظراته عند استيقاظه. كنت متفانية في أداء مهمّتي، وقد أسبغت عليها صبغة الرّسالة السّامية. الدّهشة الجميلة في عينيه أوحى بأنّه يرى ويعي. وحركة يده نفت شبهة الشلل الرّباعي. واكتنفي زهو لا مثيل له، كأنّ المعجزة من صنيعي! أو أنّ الرّب كان يكافئني على قبولي بالمهمّة بحفظه هذا الرّجل من التّلف! ولعلّه لو انتهى كفيفا أو مشلولاً أو حتّى ذا إعاقة ذهنيّة، لكنت تقبّلت الأمر بحفاوة أيضا. أوّليست قيمة النّجاح تزيد بارتفاع مستوى التّحدّي؟ لكنني شكرت الرّب لرأفته بفتاة ضعيفة مثلي، كان ذلك أوّل عهد لها بالاختبارات الرّبانيّة. ومع ذلك، فقد كنت لأجزع حقّا، لو أنّ نادرا قضى نحبّه في ذلك التوقيت. كان ذلك يعني عدم قبول الرّب لرغبتي في التّطهّر. فكأنّما سحب مني طوق النّجاة لأعود إلى عزلتي وعزوفي عن الحياة.

تماثل نادر للشفاء بشكل سريع. وكانت معجزة شفائه -التي ما فتئ الأطباء يذكروننا بها في كل زيارة- تغمرني ببهجة لا حدود لها، وبامتنان

للربّ الذي أهداني مهمّة ووضعني على الطريق الصّحيح. فأتفاني في إرضاء زوجي وفي رسم الابتسامة على وجهه. وكانت أمّي التي أمضت حياتها قلقة بشأني، ترمقني بعين الرّضا. أمّا الرّصاصة، فقد وضعتها في إطار فضيّ وعلّقتها في غرفة المعيشة، حيث ستكون نصب أعيننا طوال النّهار، ويمكن لزوّارنا أن يلقوا عليها نظرة، ويأخذوا منها العبرة، ويشاركونا امتناننا وسعادتنا. وكانت تلك الحفاوة بالرّصاصة تزعج نادرا، إذ إنّهُ لم يكن يرى الابتلاء بالعين التي أراه بها. وكان يزيح الإطار عن مكانه ويخفيه في أحد الأدراج أو فوق الخزانة -حيث لا يمكن أن أصل إليه- لكنني ما ألبث أن أتمكّن من إيجاده، بمفردي أو بمساعدة صبية من الجيران، وأعيده إلى مكانه. فأرى نظرة ضيق في عينيه حين يرجع من عمله ويجده متصدّرا الجدار! وقد انتهى إلى التسليم بعد أن غلب إصراري عناده الطّفولي.

ثمّ حصل ما تمنّيته وخشيته أكثر من أيّ شيء في الدنيا.. حبلت بك.

كان من الممكن أن أواصل رحلة التطهّر -كما كنت أراها- إلى أمد طويل، لو لم تشرفني بحضورك، وملئك عالمي. فقد كان النّجاح اللامع في اختبارين متزامنين وعلى قدر من الأهميّة والصّعوبة، أمرا عسيرا. وقد أصابني فتور تجاه أشياء كثيرة، منذ بدأت أشعر بحركة أطرافك الصغيرة داخلي، تركل وتضرب وتدغدغ، لينصبّ اهتمامي كلّهُ عليك وحدك. بدأت أفكّر حينها بأنني قد فعلت ما بوسعي في المهمّة الأولى، وأنّ الخطّة التي اختارها الربّ لي تقتضي أن أنتبه لمهمّتي الجديدة. في الحقيقة، كنت أفسّر مشيئة الربّ على هواي، وأختار الرّسالة التي تستهويني! وقد كان الاهتمام بنادر أمرا قد وافق هوى الفتاة اليافعة مشبوبة العاطفة، التي لم تعرف قبل كيف تكون علاقة الذكر بالأنثى.. إلّا من القصص والأفلام. والآن جاء دور المرأة النّاضجة المحترقة شوقا لغريزة الأمومة. وإضفاء صبغة القداسة على كلّ ما أفعله، كان من قبيل إرضاء نزعة دينيّة بداخلي مرّت بفترة تزعزع وارتباك، وقد ساعد ذاك الانهماك والتفاني على ترميمها. فإذا ما وقفت مساءً أمام أيقونة العذراء، كان بإمكانني أن أشكر الربّ صادقة

على الفرصة التي مُنحتها، وعلى النعم التي حظيت بها.. بعد أن كانت
كلماتي لسنوات خلت جوفاء مهتزة.

حاولت أن أكون لك الأم المثالية منذ لحظاتك الأولى. رغم تعب
الوضع وآلامه، فقد حرصت على أن أهتمّ بشؤونك جميعها باذلة طاقتي
كلّها، تحت نظرات نادر القلقة. فإذا ما أغمضت عينيك للنوم، تهالكت
إلى جوارك وقد أخذ منّي الإرهاق مأخذا عظيما. وكم كان يصيبني الفزع
حين أفتح عيني فجأة فلا أجذك إلى جوارِي! فقد كان نادر يحملك إلى
سريرك بينما أغطّ في النوم، لأنّه يخشى أن تختنق إذا ما ألقيت عليك
ثقل ذراعي من دون أن أشعر. وكان موقفه ذلك يخلف في صدري ضيقا
ووجعا. فقد كنت أقف على علامات اهتزاز ثقته بي.

كانت كلمات نادر وتصرفاته تنكت في صفحة قلبي بحبر أسود، وأنا التي
أمضيت شهورا أمحو ما علاها من أدران وأعيد بياضها نقيّا. ولم يكن
هناك إلا احتمال من اثنين، فإمّا أن يتحوّل ذلك السواد إلى مشاعر قاتمة
تجاهه.. وإمّا أن تنهار ثقتي بنفسي وبرسالي، فأتحمل وحدي تبعات
الهزيمة. وقد كنت أختار أحد الخيارين كلّما أثقل روعي حملها، ولم
أنحز إلى أحدهما بشكل نهائي! كنت ألوم نفسي وأقرّعها، حين أجد عذرا
لخوفه وقلقه.. وكنت أبغضه كلّما بالغ في ردّ فعله تجاه هفواتي الصغيرة
التي لا تستحقّ ثورته. لكنّه غالبا ما يرجع ويعتذر ويطلب الصفح، فأعيد
إلى رصيده في قلبي ما سبق وسحبته وقت السخط عليه.

استمرّت حياتنا نحن الثلاثة على هذا النحو، مراوحة بين الهناء
والتعاسة. لا هي سعادة صافية ولا شقاء صرف. ولكن ولدان كبيران
يتعلّمان كيف يواجهان الحياة على علّاتها، وولد صغير بينهما يتحمّل
نزواتهما ومناقراتهما ويأخذه الموح في مدّهما ويعيده مكانه في جزرهما.
لكنني أحسب أنّك كنت طفلا سعيدا.. فقد كنت كثير الابتسام، منطلق
السريّة. ورغم الغيوم التي تلبّدت في سماء حياتنا المشتركة كزوجين، فإنّ
أحدنا لم يفكّر يوما إلا في مصلحتك.. لذلك فقد كانت أمطار الغضب

والحزن تنزل على تربة محايدة. فيترك والدك الشقة لساعة أو بعضها ويرجع بعد أن يكون قد نفّس عن ضيقه. وقد أنعزل في غرفتي للصلاة والبكاء بهدوء، وأخرج وقد عادت إليّ السكينة، فأتلقاك بين ذراعيّ بابتسامة صافية، كأنّ حزنا لم يكن.

لكن في الأيام الأخيرة التي جمعتنا في باريس، بدا نادر مهموما وشاردا معظم الوقت. بدأ كلّ شيء حين رجع يوما من عمله مبكرا على غير العادة، وقال إنّهُ مرهق. ربّما أكون قد أبديت قلقا مبالغا فيه، فهو قد انتظم في مواعيد العودة من العمل في الأيام التي تلت. لكنني لحظته ذات مرّة من نافذة الشقة، جالسا في موقف الحافلات، ينتظر أن يحين وقت رجوعه ليدخل الشقة! أيقنت حينها أنّ أمرا ذا بال يشغله.

أعملت تفكيري وقتلت الأمر بحثا، حتّى استنتجت أنه اشتياق إلى عائلته في الجزائر! الحنين، إنّهُ مثل مدّ جارف يغرق القلب فيملؤه إلى حافّته، فما يعود هناك متّسع لمشاعر أخرى. فأخذت أحثّه على السفر.

كانت ملامحه تتجهّم كلّما جئت على ذكر السفر، ويرفض بغلظة. ثمّ يغيّر الموضوع ويشغلني بأحاديث جانيّة. حتّى جاء يوم بدا فيه أنّ غمامة الحزن قد انقشعت وابتسمت عيناه ببريق ذكّرني بنظرته يوم عقد قراننا! ولعلّه كان حينها قد عقد العزم على ما نفّذه بعد ذلك. فقد عاد بعد أيّام قليلة أخرى وبين يديه «آلة صنع الذكريات» تلك. كان والدك ينوي أن يلقي بي بعيدا، بعد أن يكون قد سجّل ابتسامتي وملاحى الطلقة في صور! هل تراه يكون مرتاح الضمير إذا ما طالعه مبتسمة في الصور التي يحتفظ بها؟

في تلك الأيام، لم أعر اهتماما مسحة الانكسار التي ضبطتها أكثر من مرّة في نظرته إليّ. كلّما بادلتها النظرة نأى عنيّ كأنّما تدفع عيناى عينية، بقوة طرد مغناطسيّة، مثل قطبين متماثلي الشحنة. لكنّه يموّه أفكاره بانشغاله معك، يرفعك ويقفز وإيّاك ويجري ويدور حولك ويمسك بكفّك

ثمّ يدفعك على الأرجوحة. فأنسى، وتروح عني لحظة الشكّ العابرة.
في ذلك الصّباح المشؤوم، استيقظت بعد ليلة نوم هادئة لم يتخللها
إزعاج. كنت قد اعتدت النّوم المتقطع من أجل تلبية حاجاتك الليلية،
لذلك فقد كانت تلك الليلة المريحة مثيرة للريبة. بعينين ناعستين، حاولت
تميز مكانك على السرير الكبير إلى جوارى. مددت ذراعي وتحسّست
الفراش البارد. تملّكني فزع مفاجئ طرد النوم من جفنيّ. استويت جالسة
وتفرّست في الغرفة من حولي في خوف. لم يعد أبوك ينقلك إلى سريرك
منذ فترة، فقد كبرت وامتلاً جسمك ولم يعد يخشى عليك من بنيتي
الهزيلة. ففكرت أنك قد تكون سقطت من السرير. وكيف تسقط ولا تبكي؟
زحفت بكلّ طاقتي في اتجاه طرف السرير الآخر وانحنيت على الأرض،
لكّنتك لم تكن هناك. تنهّدت وقد ذهب عني الذعر. فكّرت أنك لا شكّ
في المطبخ مع والدك، أو تشاهد برامج الأطفال في غرفة المعيشة.

قرّبت الكرسيّ المتحرّك وانتقلت إليه برشاقة، بحكم التّعود، ثمّ
دفعت العجلات لألقي نظرة في أرجاء الشقة. بعد جولة تفقّديّة طبيعيّة
في البداية، جبت المكان مرّات ومرّات بسرعة محمومة وأنا أبحث عن رجُلٍ
الذين اختفيا فجأة من دون إعلامي. أمسكت هاتفي واتصلت برقم نادر.
انتظرت للحظات في توتّر ونبضاتي تتهافت في نسق مرتفع. لم يكن هناك
ردّ. اتّصلتُ بضع مرّات أخرى قبل أن أستسلم. فكّرت في كلّ الاحتمالات..
هل يكون نادر أخذك إلى ساحة اللعب مثلاً، ولم يشأ أن يزعج نومي؟ إنّ
التّغييرات التي طرأت على سلوكه في الأيام الأخيرة جعلتني أتوقّع منه أيّ
شيء. كان منطلقاً ومتحمّساً، وربّما لم يرد تفويت النّهار في النّوم فتصرّف
بما أملاه عليه نزقه المجنون؟ وضوضاء الشارع قد لا تسمح له بسماع
رنين الهاتف الذي كثيراً ما ينساه على الوضع الصامت.

اطمأننت إلى تلك الفكرة واسترخيت بعض الشيء. تنقّلت بين غرف
الشّقة أحاول أن أشغل نفسي بأيّ شيء عن الإحساس الغريب المتشائم
الذي يشوب اطمئناني. بعد نصف ساعة، حاولت الاتصال مجدّداً من

دون جدوى. لم أستطع منع نفسي من مراقبة الساعة التي بدت لي
بطيئة العقارب بشكل مزعج ذلك الصّباح. حين أشارت الساعة إلى الحادية
عشرة، كانت العبرات تطفّر من عينيّ من دون شعور. حدس مفاجئ،
جعلني أهرول إلى غرفة نومي لأتفقد خزانة الملابس. على الفور، لاحظت
الحقيبة النّاقصة. تملّكني الهلع وأنا أفتح الأدراج وأعاين محتوياتها. لم
يكن هناك شكّ.. اختفت ملابس وحاجيات كثيرة! لا يمكن أن يحتاج كلّ
تلك الثياب من أجل نزهة بالخارج!

عاد الشعور المتشائم ليكتسح السّاحة ويفرض سيطرته. كان هناك
شيء ما خطأ! حاولت الاتصال مرّات أخرى في عصبية وجنون هذه المرّة،
من دون أن تختلف النتيجة. وبينما كنت أذرع مساحات الشقة كاللبؤة
الجريحة، كان تساؤل مرّ وممض يتنامى في داخلي. ما الذي حصل فجأة؟
ما الذي تغيّر منذ الأمس؟ ما الجرم الذي اقترفته في حقّ نادر حتّى
أستحقّ عليه العقاب؟ لم يكن العقاب واضحاً في ذهني حتّى تلك اللّحظة،
لكنني أعاقب على أيّ حال بتركي لقمة سائغة للحيرة، والهواجس تنهشني.
حتّى لو رأيته يدخل عليّ آخر النّهار كأنّ شيئاً لم يكن، حتّى لو كان قد
انصرف إلى لهو بريء معك ونسي أن يضعني في الصّورة، حتّى لو لم يكن
اختفاؤه الغامض مقصوداً أو مدبّراً.. فإنّني لن أسامحه، لن أسامحه أبداً
على لحظات العجز والقهر التي عرفتتها طيلة انتظاري المريع.

حين توارت الشّمس في الأفق مؤذنة بالمغيب، أصبحت الحقيقة ناصعة
الوضوح أمام عينيّ.

لن يعود.

عزيزي خليل،

مؤلم للغاية، أنّ تحلّ بك مصيبة، ولا تدري بمن يمكنك الاتصال.. أو ممّن يمكنك تلقي المواساة.

كانت أمّي قد تقدّمت في السنّ وأنهكها المرض. ضغط وقلب وسكّري. وخبر من هذا النوع قد يفعل بها الأفاعيل. لذلك أثرت أن أکتم عنها فرار والدك بك، حتّى يکتمل عندي الفهم.. فأضبط الكلمات التي أنقل بها الخبر، وقد تماسكتُ وسيطرتُ على شتات روعي، فلا تنفعل لانفعالي. من حسن الحظّ أو التدبير.. أو كليهما معاً، كنت قد احتفظت برقم الأستاذة رنيم شاكر. على الهاتف، أفضيت إليها بما وسعني من رباطة جأش بما ألمّ بي. رغم وقت المكالمة المتأخر، فقد استمعت إليّ في انتباه ومن دون مقاطعة، ثمّ قالت:

- سأتحرّى عن الأمر وأعاود الاتصال بك.

انتظرت تلك الليلة متقلّبة على جمر متّقد، وأنا أعلم يقيناً ألا شيء يمكن عمله قبل بزوغ نهار يوم جديد. على السّاعة العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي، وردني اتّصالها:

- إنّها عمليّة اختطاف واضحة. اتّصلت بالبنك، فتبيّن أنّه قد قام بسحب كامل مدّخراته منذ يومين. طلبت من بعض معارفي في شرطة الحدود التأكّد من سفره خارج البلاد.. أنتظر أن يأتيني الخبر بين لحظة وأخرى. سيكون عليك مرافقتي للتّبلغ عن عمليّة الاختطاف...

قاطعتها في وجوم:

- لا.. لا أريد أن أبلّغ.

صمتت برهة، ثمّ عادت تقول:

- بأيّ حال، بما أنّ المختطف هو الأب، ولم يحصل طلاق أو خلاف على الحضانة وما إلى ذلك، فإنّ الشرطة لن تأخذ البلاغ على محمل الجدّ قبل بعض الوقت...

تنهّدت، غير قادرة على التّنفّس بشكل طبيعيّ، وثقل صخرة صمّاء عظيمة يجثم على صدري. حاولتُ أن أقول شيئاً، لكنني لم أعرف. فاندفعت أبكي وأكتم شهقائي. كنت في حاجة إلى المواساة. إلى كتف تحتوي ألمي. سمعتُ الأستاذة رنيم تقول كلمات عزاء مرتجلة، كانت مرتبكة بدورها. ثمّ توقّفتُ عن البكاء، وقلت بصوت متماسك تشوبه بحّة:

- ماذا سنفعل الآن؟

- إن كان قد سافر إلى الجزائر.. فإنّ القانون الفرنسيّ لن يطاله..

- قلت إنّني لن أبلغ!

عاندتُ من دون توضيح. وفي اللحظة نفسها، تفتّق ذهني عن فكرة جنوبيّة لم أكن قد وفيتها حقّها من التّقليب والتمحيص. هتفت بلهجة الـ«يوريكا».. وجدتها!

- نسافر إلى الجزائر!

- نسافر؟

- نعم، أنا وأنت!

كنتُ أطلب ببساطة من المحامية أن تترك أشغالها وموكلّيها وقضاياها، وتسافر برفقتي في رحلة مجهولة العواقب. كان عليّ أن أضع على طاولة المفاوضات مبلغاً يغطّي الأتعاب، ولم أكن أعلم كم سيكون كافياً. قلت متلجلة:

- لقد حافظت على ميراثي.. لم أصرف منه شيئاً بعد.. سأدفعه كلّه إذا اقتضى الأمر من أجل هذه الرّحلة!

تريثت قبل أن تقول في هدوء:

- احتفظي بميراثك.. ودعيني أفكر في الأمر.

لم أتوقع أن تتصل بي مساء اليوم ذاته لتبدأ كلامها قائلة:

- سنكون كمن يبحث عن إبرة في كومة قش!

سألتها غير مصدقة:

- أنت موافقة؟

- لقد تأكد لي أنه سافر برفقة خليل مساء الأحد. تمكنت أيضا من

الاطلاع على نسخ من وثائقه الرسمية.. ونقطة البدء الوحيدة المتوافرة

هي مكان ولادته! وكلما تأخرنا في اقتفاء أثره، تزايدت فرصه في الاختباء

والثواري عن الأعين. متى تريدان أن نسافر؟

عدت إلى الصفحات الأولى التي خطتها وهممت بتمزيقها. ما الذي

تحاول أمك المسكينة إثباته؟ هل أكذب عليك أم على نفسي؟ رسمت

لك حكايتي كما أتمنى لو أنها كانت. كسوت زواجي برداء القداسة لأنكر

مشاعر نبض بها قلبي يوما تجاه رجل غدر بي. وهل يكفي أن ننكر شيئا

ما لنغير حقيقته؟ هل تمحو كلمات أصرح بها بعد سنتين واقعا أصبح

في حكم الماضي وتعذله؟ غالبا ما يدون الجانب المنتصر التاريخ ويخط

ما يناسب هواه، لكنني بعيدة عن مركز المنتصرين.. فإن لم أتمكن من

تزييف الأحداث، فإن مشاعري هي كل ما تبقى تحت إمري!

لكن كيف أكذب عليك يا ولدي؟ لماذا يكون إرثك مني زيفا ووهما؟

إذن فلتعلم أنني لم أكن تلك المرأة التي ادّعت. لم أكن مدفوعة

بإيمان نقي ولا بعاطفة تطهر سامية. كنت شابة سقيمة القلب والروح،

وقد أظّلني والدك تحت جناحه وبثّ فيّ من دفئه حتّى شفيت. همت به غراما، وكان أوّل رجل أوسع له مساحة في وجداني وحياتي. لكنّني تمّنيّت لو أنّي لم أفعل. تمّنيّت لو أنّه لم يفعل. أتمنّى أن يرجع أحدا عن فعله. فإنّما يرجع بي الزّمان إلى الوراء فلا أحبّه ولا أتعلّق به. وإنّما يرجع به الزّمان إلى الوراء فلا يهجّرني. أمّا الفعلان مجتمعان فقاتلان.

حتّى اللحظة الفاصلة، لم أخبر أمّي بالحقيقة كاملة. قلت إنّ نادرا سافر على حين غرّة بعد أن بلغه مرض والدته، واصطحبك معه. بينما تخلفْتُ لأنّ جواز سفري كان منتهي الصّلاحية. كانت نصف الحقيقة، فقد كان جوازي قيد التّجديد بالفعل، واضطّرت إلى تأجيل الخطّة بضعة أيّام.

وخلال تلك الأيّام الكثيرة التي سبقت الرّحيل، اجترت إحساسا مقيتا بالهجر والنبذ، وأنا أدفع بعجلات الكرسيّ ببطء، أعبر مساحات الشّقة الهادئة جيئة وذهابا. حقيبة السفر مشرعة وسط غرفة نومي، أضع قطعة ثمّ أسحب أخرى. أفعل ذلك بتأنّ وتريّث. أطيل فترة انشغالي حتّى أمتنع عن التفكير. بعد يومين سأحلّق لألقاهما. أعدّل. سألحق بهما إلى تلك الأرض المجهولة، لكنّني قد لا أراهما قبل مرور بعض الوقت. ساعات، أو أيّام. لا أدري. كلّه رهن إرادة نادر.

لم أعد أتساءل لماذا هجرني نادر فجأة. فقد كانت حياتي مثل الأرض القفار التي لا يواطنها بشر، فلماذا يكون نادر استثناء؟ سلّمت بأنّ الأمر مقدّر لا محالة، لكنّّ جلّ ما آلمني هو أنّني لم أقرأ بوادر تغيّره قبل فوات الأوان. كان يجب أن أعلم.

لكنّ العزاء الحقيقي كان في غياب القلق من أجلك. كنت أعلم أنّك تحبّ صحبة والدك، ونادر يهتمّ بشؤونك أكثر من أيّ شخص آخر. لم تكن تفارق ظلّه ما دام موجودا في الشّقة. ما عدا الحّمّام والأكل وتغيير الحفظات، لم يكن وجودي يشكّل فرقا. ألوك تلك الأفكار القائمة من

دون رحمة بنفسي. فكّرت للحظة أنّك ستكون بخير بعيدا عني. سيكون نادر هنا بالآبشأن سلامتك ما دمت في منأى عن حركاتي الخرقاء. لكن أنا، هل سأكون بخير بعيدا عنك؟ كيف سيكون لحياتي معنى، بعيدا عن المخلوق الصغير الذي يكمل نقصي ويغطي عجزتي؟ معجزة الحياة التي خلقت في رجلي وأغرّني بالإقبال على الدنيا بأمل وتفاؤل. عشت أمومتي لك مثل حلم وردّي البتلات مزدان بالخضرة، أقبض على تلايبه بكلّ قوّتي حتّى لا يتلاشى كالأوهام. لكنني أفقت بعد سنة واحدة من السعادة المؤقتة لأدرك أنّ حلمي كان أجمل من أن يكون حقيقة خالصة.

أعلم أنّك ستسلوني خلال وقت قصير. تبكي في الأيام الأولى بقوة وتنادي «ماما» التي ما كدت تتعلّم نطقها، ثمّ سرعان ما تتأقلم مع وضعك الجديد. الأطفال ينسون بسرعة. يحبّون بسرعة ويتعلّقون بسرعة. لكن ماذا عني؟ لن يمرّ عليّ يوم واحد لا تسافر فيه أفكاري إليك. لن تمرّ ساعة واحدة. دقيقة واحدة. لا تكون فيها أنت محور اهتمامي. ستكون في ذهني طوال الوقت. ليتني أكون بذاكرة طفل. بل لا، فلتبق في ذاكرتي إلى الأبد. حتّى لو كان قدري ألا أراك بعد أبدا.

أعود إلى حقيبتني. أقلب محتوياتها مرّة أخرى. لست في حاجة إلى متاع كثير. أسبوع أو أسبوعان على أقصى تقدير هي المدة المقرّرة للرحلة. أزر طاردة ضيق نفسي وأفتح خزائني. مرّة أخرى. تهاجمني نزعة أمومة جارفة، فأضع حاجياتي جانبا وأعوّضها بملابس إضافية من أجلك. الطقس آخذ في التقلّب وستحتاج كنزاتك الصّوف قريبا. أفاجئ نفسي وأنا أمعن لإراديا في تفكير سلبيّ موجه. أتوقّف عن الحركة وأغطي فمي بكفّي لأمنع شهقة من تجاوز شفّتي. أتصرّف كأنك لن تعود برفقتي! أدرك أنّ التفاوض لن يكون سهلا. فأيا كانت دوافع نادر فمن السّذاجة أن أظنّها قد تلاشت بهذه السرعة. إن كان قد أقدم على هذه الخطوة القاطعة، فهو بالتأكيد مصمّم على الابتعاد عني بشكل لا يقبل الرجعة.

يخرجني رنين الهاتف من استغراقي المؤلم.

- أستاذة رنيم.. أنا بخير، شكرا لاتصالك.

أستمع إلى توصياتها في صمت. تلك المخلوقة الغريبة، امتدّت كفها إليّ في عتمة الفراغ لتطبطب على قلبي بكفّ حانية. نزلت كلماتها على وجداني مثل كمّادة باردة أطفأت لهيب قلقي الممض. كانت مستمعة جيّدة وصديقة أكثر منها محامية رسميّة المعاملة. استمرّت المحادثة لبضع دقائق كانت كافية لتقطع وتيرة البؤس الذي سيطر عليّ في الساعات الأخيرة.

عزيزي خليل،

بين اللحظة التي كنت تستكين فيها نائما إلى جوارى في شقتنا الباريسيّة،
واللحظة التي لمحتك فيها في ثيابك الغريبة، متربّعا في جذل واضح إلى
جوار امرأة غريبة، وتوزّع ابتسامات عذبة على أناس غرباء.. كانت قد
مرّت تسعة أيّام بلياليها.

خضنا الرّحلة ثلاثنا: الأستاذة رنيم ودليل محليّ وأنا. وجلّ ما بأيدينا
من أدلّة، شهادة ميلاد والدك وصور لكما. في عُنّابة، جينا الحيّ الذي
شهد مولد نادر -كما تذكر الشهادة- شارعاً شارعاً. طرّقنا الأبواب مثل
موزّعي الإعلانات وبائعّي «الشنطة» وقوبلنا بالجفاء حيناً وبالترّحاب
حيناً آخر. دخلنا المقاهي، وتحدّثنا إلى المراهقين المرابطين عند نواصي
السّوارع، وقاطعنا شيوخا يلعبون النرد عند دكاكين البقالة أو الخضر.
استجوبنا أطفالا يلهون بالكرة في عرض الطريق ورشوناهم بالحلوى
والقطع النّقديّة. واعترضنا مسارات سيّدات ملتحفات وسافرات ينوّن
بحمل قفافهن عائدات من السّوق. نسأل من دون هوادة عن نادر
الشاوي، الشاب الثلاثيني العائد من فرنسا، ومعه طفل ذو سنة واحدة.
وكانت الرؤوس تهتزّ في كلّ مرّة علامة النّفي.

حتّى كانت مرّة، سأل فيها الدّليل شابين لما يبلغا العشرين، يجلسان
على قارعة الطريق. ردّ الأوّل بتلقائيّة:

- نعم أعرفه.

فلكره الثاني بمرفقه على الفور، كأنّما أفصح بما لا ينبغي ذكره. تبادلا
نظرة واجمة، بدا بعدها أنّ الأوّل سيتراجع. فوجدتني أقترّب على عجلٍ
بعد أن تركت للدّليل محاورتهما. قلت مبتسمة وأنا أخرج أوراقا من فئة

العشرين يورو من محفظتي:

- نحن أصدقاء نادر من فرنسا.. وقد دعانا إلى زيارته في الجزائر.. لكننا
تهنا في طريقنا ولم نجد المنزل الذي وصفه لنا.. فهلّا ساعدتنا في
العثور عليه؟

أخذ كلّ منهما ورقة نقدية وأخذ يتأملها بأعين متّسعة. ثمّ قال الثاني
بنبرة مأكرة بعد أن أخفى الورقة في جيبه:

- لكنّ المنزل بعيد من هنا.. وسنضطرّ إلى ترك أشغالنا لمرافقتكم.

لم أدر إلى أيّ أشغال يشير.. عدا مغازلة المارّات ومضايقة المارّين.
لكنني فهمت مراده، فنقدت كلّ واحد منهما ورقة إضافية! عندئذ، وقف
في كبرياء ورافقنا إلى السيّارة.

وصلنا إلى شارع فرعيّ ضيّق لم تكن قد وصلنا إليه في جولتنا، فتركنا
العربة عند المنعطف وترجّلنا. أشار الولد إلى منزل واطى السور ذي
باب معدنيّ أزرق ذهب طلاؤه، ثمّ أطلق ساقيه للريح. طرّقنا الباب
بهدوء بداية، ثمّ شدّدنا الضرب مرّة بعد مرّة.. من دون فائدة. خلف
السور، بدا المنزل القديم المكوّن من طابق واحد هادئاً هدوء القبور.
دمدم الدليل بكلمات بذئّة وشتّم الولدين الذين أرشدانا ولا شكّ إلى
منزل مهجور وفراّ بالأوراق النقدية! أغمضت عينيّ في إحباط. كان الأمل
يحدوني بأن أكون قد وصلت إلى المكان المنشود، لكنّ الولدين جعلاني
أضحوكة، ولعلّهما يتندّران بي الآن برفقة نادر! رفعت رأسي أتأمّل جدران
الشارع وأقلّب عينيّ بين نوافذها. هل تراك تختفي خلف إحداها يا بنيّ؟
أشعر بقربك. الولدان كانا يعرفان أباك ولا شكّ، لكنّهما تلقّيا تعليمات
بالصّمت، أو هكذا بدا لي.

كانت تلك الأفكار تشغلني، حين أطلّت امرأة من وراء سور منزل مجاور،
تطاوالت بعنقها وقد أفزعها الطرق المزعج على باب الجيران. أطلّقت
كلمات في الهواء على حين غرّة. ولم أفهم حرفاً من كلماتها العريّة. لكنّ

اهتمام الدليل كان واضحاً. رأيته يخطو باتجاهها يستفسر. التفتُّ إلى رنيم أسألها أن تؤكد الأمل. فترجمت الكلمات: «هل تبحثون عن أمّ نادر؟ لقد سافروا منذ أيّام إلى قريتهم الجبلية»! كان الدليل يحاول اقتناص المزيد من التفاصيل. أين تقع القرية؟ الولاية البلدة، الحيّ. عاد بعد قليل ليقول:

- عشيرة الشاوية، عند جبل الجرف من ولاية تبسة.

جبال الأوراس، لم تكن ذات شبه بجبال الألب التي تزلّجت على منحدراتها الثلجية طفلة، قبل أن تفقد ساقاي الحركة. ربّما كانت متقاربة في شكلها، مرتفعاتها وأوديتها، خضرتها وصخورها، طرقاتها المتعرّجة المتّجهة صعوداً ونزولاً مشرفة على هاويات تزداد سحفاً كلّما اقتربت من القمة. كلّ الجبال متشابهة في هذا. لكنّ الشعور الذي يسكن قلوبنا ونحن نعبر منحنياتها ونشقّ تضاريسها مصّعين في السماء أو منزلقين إلى السفح يرسم بصمتها الخاصّة في نفوسنا. وإن كانت الألب قد خلّفت نقاء في ذاكرتي في صفاء ثلوجها البيضاء وسرور الطفلة البريئة التي كنتها، وخفّة في روعي بمقدار ما ارتفعت محلّقة بين كثبان الثلوج الرّطبة.. فإني قد أحسست بثقل الأوراس الرّاسيات في حجم الجزع الذي سكن قلبي وأنا أقرب من مكان أتوقع رؤيتك فيه، وفي تقطّع أنفاسي، بينما تهترّ بنا السيّارة الصغيرة وتتقاذز على الطريق التّرابيّة غير المعبّدة، على نغمات الحجارة والحصى التي ترتدّ على هيكل السيّارة.

حين أصبحنا على مشارف مقرّ عشيرة الشاوية -الذي أرشدنا إليه عمدة بلدة جبل الجرف- بدت أمامنا زينة احتفاليّة صاخبة. كان الوقت عصراً، والسيّارة تتوقف خارج سور المزرعة. أمامنا صفوف طويلة من السيّارات

والشاحنات والجرارات التي حضر على متنها أقارب وجيران ومعارف من القرى والبلدات القريبة والبعيدة. لم يتوقف الضيوف عن التوافد بأعداد غفيرة، يتراصون في صناديق الشاحنات ويهللون ملوحين بأوشحة مزركشة، وتزغرد النساء فرحات، بينما يصل صدى الطبل الذي يقرع نغمة شعبية من الفناء الداخلي. حبست عبرة توشك على الإفلات وتهدج صوتي. قلت للأستاذة رنيم رافضة ترك مكاني من السيارة:

- اذهبوا واستطلعوا الأمر.. سأنتظركم هنا.

هل كنت أخشى لحظتها أن أفقد أباك؟ ألم أكن قد فقدته بالفعل حين هجرني؟ فما الفارق إذن إن كان اليوم عرسه أم عرس غيره من أفراد العائلة؟ لكن تفكيري بأنه قد يكون المحتفى به في عرس عائلي مهيب، جعل قلبي ينزف أسى في صمت مضمخ بالغيرة. لكن رنيم كانت حازمة:

- سنذهب معا. لا آمن أن يقترب بعض الصبية من السيارة وأنت وحدك.

نزلت على مضض. دفعت رنيم كرسي المتحرك وعبرنا البوابة. كانت الرؤوس المتطفلة تستدير لترقب هياتنا الغريبة عن أجواء القرية. لكن أحدا لم يجرؤ على قطع طريقنا. كان يوم احتفال، والجميع مرحب بهم، ببطاقة دعوة أو من دونها. الدعوة في بلدة أبيك تلك شفاهية غالبا، والحاضر يعلم الغائب حتى تحلق الكلمة إلى أقصى مدى. لا يهم إلى أين تصل الدعوة وإن عبرت قرى ومدنا، وإن تناثر الحمام الزاجل في كل اتجاه يعلم القاصي والداني. فما دام الضيف سيكلف نفسه مشقة السفر لمشاركة أهل الفرح حفلتهم، فأهلا ومرحبا. لكن هل خطر ببال أحدهم أن يدخل عليهم يوما زائر قادم من وراء البحار، قد رمت النوارس عند قدميه ذات صباح كلمة الدعوة؟

مضينا عبر الفناء الخارجي، يترأى لنا قن الدجاج ومأوى الأرانب عند الجهة الشرقيّة، وحظيرة الأغنام والأبقار من الجهة الغربيّة، ومخزن العلف والقمح يظهر مرتفعا شامخا من وراء الدور التي تستقبل الزوار.

عند منتصف الطريق، يقف شيخ سبعيني في ثيابه الرّيفيّة التقليديّة. يرمي على كتفيه برنسا صوفاً داكناً ويعمّم رأسه بقماش أبيض ناصع. بدا أنّه صاحب المكان والضّيوف ضيوفه. خمنت أنّه عمّ نادر، كبير الشاويّة. كان يحيّي وفود الزوّار بابتسامة عريضة تشهد على فرحة حقيقية لا مجاملة فيها. كأنّ كلّ هؤلاء البشر الذين سيطعمون من مائدته الليلة قد أسدوه معروفاً! وبين الفينة والأخرى، يلتفت إلى عمّاله المتفرّقين في حركة دؤوبة حوله ويشير بكفّه، فيسعون بجدّ ناحية حظيرة المواشي، ويسحبون خروفاً آخر يلحق بكتيبة الذبائح التي تسلخ وتقطّع في الفناء الخلفي، ثمّ تطبخ في قدور عميقة مع المرق والخضر في مطبخ خارجي مرتجل. ربّما ذبحت العشرات منها تلك الليلة.

طالعنا الرّجل من دون أن تعبر ملامحه سحابة مفاجأة، كأنّ وجودنا في عقر داره طبيعيّ لا غرابة فيه. أشار إلى دليلنا كي ينضمّ إلى الخيام المخصّصة للرّجال، في حين دلّنا صبيّ على الغرف الدّاخلية التي تحتلّها النّسوة. دلفنا إلى الفناء الدّخلي الذي أسدلت على منفذه ستارة تحجب ما وراءها. وهناك تفتّقت الرّؤية عن مشهد لم يكن ليعبر خيالي ولا حتّى في الأحلام. وكيف أحلم بعالم لا أفقه من أبجدياته حرفاً؟ كنّ فتيات ونساء من مختلف الأعمار، يجلسن في حلقات، متربّعات على أكلمة بيتيّة الحياكة، ويتكئن إلى وسائد خشنة مرصّفة على امتداد محيط الحائط. وفي وسط كلّ حلقة، صبيّة تربط وشاحاً على خصرها وتتمايل في رقصة متغنّجة. وفي حلقات أخرى، من نساء أكبر سنّاً، تتوسّط الجمع عجوز برتقاليّة خصلاتها النافرة من تحت غطاء رأسها، تمتدّ الأكف باتّجاهها، فتلصق في كلّ كفّ قرص عجينة سوداء تميل إلى الخضرة. وهنّ في كلّ هذا، يلبسن أقمشة مزركشة زاهية في مهرجان من الألوان، كأنّما يتنافسن على إبداء الفرحة. وكلّما مالت الأجواء إلى القتور، بادرت إحداهنّ بإطلاق زغرودة، فتتبعها زغاريد كثيرة مآزره، معلنة بداية وصلة جديدة من الغناء والضرب على الدّفوف والرّقص.

حين دخلنا، رمقتنا أعين كثيرة في ريبة، لكنّ وجودنا الدّخيل لم يقطع شيئاً من معالم الفرحة. كنّا دخلاء يُلحظ تطفّلنا بلا جهد، ولا أحد يصارحنا بتطفّلنا، كرماً وتغافلاً أو لامبالاة وتجاهلاً. أخيراً، قدمت في اتّجاهنا سيّدة حسنة المظهر كانت تتقف وسط الفناء، تسيرّ أمور البيت وترحّب بالزوّار. سرت في ظهري رعدة باردة. كان يجب أن تكون هي. أمّ نادر. ابتسمت وهي تعانقنا كأنّما تعرفنا أو تعرّفت إلينا. قالت في ودّ وبلغة لم أفهمها، ثمّ ترجمت لي رنيم:

- عسى ألا تكون السّفرة قد أرهقتكم؟

هل تراها كانت تتوقع مجيئنا أم أنّ تسريبات تدفّقت من عنّابة من مخابرات الحيّ -الجارة- فتأهّبت لاستقبالنا؟ لم أكن واثقة، لكنّ الظرف لم يسمح بكلام كثير، والزوّار يواصلون التدفّق، وحاجز اللغة يمنع تبادلًا مباشرًا. وماذا لو أنّها فهمتني وفهمتها، فهل كانت عقدة لساني لتنفكّ؟ وماذا كنت لأسألها؟ هل تزوّج زوجي عليّ؟ أين ضرّتي؟ سامحني يا بنيّ، فقد كنت في تلك اللحظة مُغيّبا عن ذهني بفعل العاطفة المجروحة. ولعلّي كنت لأخطفك من بين أذرعهم وأهرب، لكن بعد أن أخمش وجهه ضرّتي وأصفع والدك متربّعا على منصّة الرّقّة!

فجأة، انطلقت المزامير في الخارج تعزف في عنفوان، وارتفعت ضربات الطبل في نسق متسارع محموم، ورأيت النّساء من حولي يهرعن إلى نعالهن، بعضهن يحكمن أغطية رؤوسهن وينفرن في اتّجاه الفناء الخارجيّ. العريس جاء! هكذا فكّرت وكفّاي تتوقّفان على جانبي كرسيّ، لا أقوى على دفع العجلات في اتّجاه المنفذ مثل كلّ من بالداخل. ذهب عزمي على الانتقام أدراج الرّياح حين غدت المواجهة وشيكة. رفعت رأسي إلى الأستاذة رنيم، فقالت بسرعة وهي تخمّن ما يدور في رأسي:

- انتظري هنا، سألقي نظرة.

أغمضت عينيّ لبرهة أخنق الألم وأعتصره حتّى يبقى في الدّاخل ولا

ينفضح أمره في شكل دمع أو تغصن جبين. ثم سعت أشقّ الصّفوف،
وتوقّفت عند الفرجة التي أحدثتها الستارة المواربة. من موقفي ذاك،
لمحت الموكب. كانت عربة بيضاء ناصعة يجرّها اثنان من الخيول
العربيّة الأصيلّة، تتهدّل ستائرهما الشفيفة لتكشف جزئيا عن هويّة الرّكّاب
المحتفى بهم. وهناك رأيتك. بل رأيتكم. أنت وأبوك وهي.. ثالثكم التي
سرقّت مكاني. لمحت نادرا أوّلا. كان يقود زمام الخيل، ويمشي الهويني
محاذيا العربة. بينما تربّعت أنت وهي على المقعد داخلها. كانت اللحظة
تجسيدا للمخاوف والضلالات التي تراقصت أمام عينيّ منذ يوم رحيلك!
الآن صارت حقيقة ماثلة أمام عينيّ، من لحم ودم وأعين وابتسامة!
حاولت أن أستهين بشأنها، أن أحتقرها. لكنني فشلت. كانت حسناء بدويّة،
وافرة الصّحّة، فارعة الطول، وحين توقّفت العربة على بعد خطوات
منيّ، وقفت تمشي مثل الملكات والنساء يرمينها بتلات الورد وحبات
الرزّ ويرششن ماء الزّهر. وأنت، كنت تبسم وتضحك في جبّتك الحريريّة
وطربوشك المائل، والمتعة تملأ نظراتك. ثمّ مدّت كفّها إليك وحملتك
بين ذراعيها، بينما نادر يراقبكما في رضا. لقد وجد لك أمّا أخرى على
جناح السّرعة! ملأ فراغ الأمومة متعجّلا، كي تسلوني وتُمحّي صورتي من
ذاكرتك!

لكنّك خبيت ظنّهم وشفيت صدر أمّك يا ولدي، حين نظرت إليّ. كانت
النساء قد أوسعن لها ولك، لتعبر إلى الفناء الدّاخلي حيث ستواصل
النّسوة الاحتفاء بها. تلاقينا وجها لوجه وراء السّتارة. انتبهت إلى وجهي
المألوف، ومددت يدك في اتّجاهي! كنت لا تزال بين ذراعيها، لكنّك رحت
تتملّص، تتخلّص من قيدها لتأتيني. وهنا، انتبهت إليّ كلّ النظرات. لم
أكن ضيفة غريبة في نهاية الأمر. كنت جزءا من «العائلة» شاؤوا ذلك
أم أبوا. واستحال المشهد إلى عرض مسرحيّ مرتجل. لم يكن أحد غيرك
يعرف دوره فيه. دور الابن الذي عثر على أمّه. تملّمت حتّى خلّصتك،
فركضت إليّ بخطواتك الصغيرة المتردّدة وارتيمت على ساقيّ. رفعتك بين

ذراعيّ في لهفة، وذبتُ وإيّاك في عناق حارّ تخللته العبرات والشهقات من طرفي والضحكات المشرقات من طرفك. لم تنسني. لم تُمحِ صورتي من ذاكرتك بعد. كلّ المغريات لم تكن كافية لتغيّرِكَ ناحيتي. لا الأمّ الجديدة التي أحضرها أبوك، ولا العربة الموشاة بالنقوش الذهبية، ولا الأحصنة ولا الولائم. كنت بريئا من خطايا أبيك ووفيا لذكرى الأمّ التي أنجبتك. بعد لحظات الصدمة والذهول الصامتة، دبّت الحركة في التماثيل الجامدة. تحرّك بي الكرسيّ على حين غرّة، بينما لمحت الأستاذة رنيم من بعيد تجاهد وسط الحشود لتصل إليّ. التفّت مبغوتة. كانت جدّتك من دفع بي الكرسيّ في اتّجاه جناح منعزل عن الفناء حيث الفوضى والزّحام. لم أستطع أن أنطق بكلمة بعد أن دلفنا غرفة هادئة مفروشة بالبسط والوسائد. كأنّما أدركتُ أمّ نادر من لقائنا القصير في الفناء أنّي لا أفقه لغتها، فقد انتظرت أن يصل مترجمي -رنيم- وهي ترقبني بنظرة باسمه وأنت مستكين في حضني. ولحسن الحظ لم تتأخّر رنيم كثيرا. دخلت لاهثة تعتذر، فقالت جدّتك:

- لقد خُمنت هذا. الولد لم يسافر برضا أمّه، أليس كذلك؟

هزّت رنيم رأسها موافقة، وشرحت لها باختصار عمليّة الاختطاف. عبست جدّتك وبدا عليها الكدر. كان أبوك قد أخفى عنها فعلته. لست أدري أيّ كذبة تفوّه بها، لكن المرأة العارفة لم تصدّقه. أليست أمّا؟ وهل من أمّ لا تفقه مبادئ الأمومة؟ شعرت تجاهها بامتنان جارف. انتابني إحساس بأنّها ستنصفني، وقد تقف في صفّي ضدّ ولدها. لكنني فزعت، حين وقفت وحاولت أن تأخذك مني. تكلمت بلهجة مطمئنة، فترجمت عنها رنيم:

- اتركي الولد الآن.. فقد حان وقت ختانه.

- ختانه؟

صدمت. عن أيّ ختان تتحدّث؟ ولم تكذّب الدماء تعود تدريجيّا إلى

وجهي وقد فهمت نوع المناسبة -التي لم تكن عرسا على الإطلاق- حتى انسحبت على الفور في الاتجاه المعاكس حين تبينت بشاعة ما يهّمون بفعله بك. يقطعون جزءا من لحمك وأجلس مكتوفة اليدين؟ تجتهد رنيم في تفسير تلك العادة الإسلامية بكلمات تناسب فهمي وتخفف من صدمتي، لكنني أصرّ. أذهب معك. لن أتركك بعد الآن! هل أعيدك إليهم ليخفوك عني أو يرخلوك إلى حيث لا أجذك ثانية؟ ترمقني جدّتك بنظرة عتاب. تقول عيناها، أنت لا تعرفين طينة الناس الذين تتعاملين معهم. سمعتهم فوق الشبهات وكلمتهم بألف عهد وميثاق.

وهناك، عند باب الغرفة التي شهدت ختانك، لبثت أنتظر. أشيح بنظراتي عن وجه أبيك الذي يقف وفتاته تلك على مقربة، لا يحدث أحدا الآخر. وهل هناك من كلام ليقال؟ كانت تحاول أن تشاغله، تتحدّث إليه من دون انقطاع، تملأ فراغ الصمت بصوتها. تصلني وشوشتها الرقيقة وضحكاتنا الناعمة فيزداد غلياني.. غيرة وقهرا وعجزا وحنقا، وقلقا عليك أنت الذي جمعتنا خلف بابك، صامتين. أين الغضب الذي توعدت أن ألقى به نادرا؟ أين جبال الشتائم وأكوام السباب التي تدرّبت عليها لأخصّه بها من دون جميع البشر؟ أين حتى نظرة الاحتقار النارية التي تخيلتني أقذفه بها فتصيبه في مقتل؟ أتجاهل وجوده قريبا، كأنما أنفصل عن العالم الذي يكون فيه. هل كنت أخشى علائم السعادة التي سأقرأها في ملامحه؟

وفي فورة شجاعة مفاجئة، استدرت إليه، فتسمّرت مكاني. ما كانت تلك النظرة التي طالعني بها؟ كانت مزيجا عجيبا من مشاعر متضاربة. حزن وشوق وخوف وانكسار. كانت عيناها تتحدّثان بكلام كثير كثيف، وسرعة بديهي لا تكفي لأسجّل كل ما يقال. في الخلفيّة يستمرّ صوتها، تشويشا عديم القيمة، تلك السارقة. ولكن ما الفائدة، إن كان قد اختارها طواعية؟ ما معنى ثثرة الأعين السخيفة إذا ما كان الفعل مناقضا لها؟ سحبت نظرتي في إعراض، وتشبّثت بباب الغرفة ألوذ به من عجزتي وتشوّشي،

حتى فُتح مصراعاه أخيرا لترتفع الزّغاريد من جديد. تنتشلنا دوّامة الفرح من النظرات ورموزها، ويغادر نادر الغرفة مع عمّه والطبيب بعد أن اطمأن عليك.

أما أنا فقد بقيت عند رأسك بعد مغادرة الجميع. أمسح جبينك وأهددك كلّما استيقظت باكيا. قالوا لي، كلّ الأطفال يمرّون بهذه التجربة، وختانه صغيرا أفضل. لكنّ الأيام التي تلت كانت صعبة عليك وعليّ. جاءت جدّتك بعد زمن لا أدري مقداره، ومعها طبق من الوليمة. تكلمت بعبارات مبهمّة، تشجّعني على الأكل. تقبّلت منها الطعام شاكرة، لكنني لم أستطع أن أبتلع إلا لقيمات صغيرة. تنهّدت ثمّ ضربت على فخذيها وقامت. كنت أدرك أنّها أكثر من يفهمني وإن كان بيننا حاجز اللغة. ظللت في الغرفة حتى المساء. واستمرّ الصّخب في الخارج حتى وقت متأخر. ثمّ جاء نادر. كان وحيدا هذه المرّة. جلس في طرف الغرفة، وبدا متعبا. واصلت تجاهله وتشاغلتي بك، فقال بعد صمت قصير:

- عسى ألا تكون السّفرة قد أنهكتك؟

لم أرفع نظرة إليه. وتقاشرت كلمات ردّ لاذع على طرف لساني، لكنني كبحت جماحها.

- يجب أن تنالي قسطا من الرّاحة.

لم أكن حتى تلك اللحظة قد فكّرت في خطوتي التالية. نسيت أمر الدّليل الذي يقبع في جهة الرّجال ينتظر التعليمات. ولم أعالج مسألة المبيت بعد. فكّرت أنّني لم أكن مدعوّة للبقاء، ولم أكن لأرغب بذلك في كلّ الظروف، لكنني لا أقدر على تركك ولا على أخذك وأنت في تلك الحال! - لقد نقدت الدّليل أجره وصرفته. ستبقين هنا والأسّاذة رنيم.. حتى نتوصّل إلى اتفاق.

هذه المرّة خرج الوضع عن السّيطرة. رميته بنظرة ساخطة. ها هو يخطّط ويقرّر وعليّ الامتثال؟ هممت بالرفض، لكنّ إطلالة من النافذة

على الليل الذي خيم بالخارج جعلتني أتمتم بكلمات اعتراض فاترة. لم يكلف نفسه عناء الردّ. وقف وغادر في هدوء.

نمت تلك الليلة عند طرف سريرك. غلبني النعاس، فتقاسمت وإياك الوسادة. ولم يحاول أحد أن يقاطع نومنا الوديّع ذاك. حين استيقظت، كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء، وكنت أعاني آلاما في المفاصل. زفرتُ وأنا أتذكر مجريات اليوم الماضي، وما ينتظرني اليوم. وتساءلت أين ذهبت الأستاذة رنيم كلّ هذا الوقت؟ لم تكن قد ظهرت منذ حدث الختان. وكأنّما قد استدعتها بتفكيري فيها، فقد وجدتُها تدخل عليّ، وقد غيّرت ملابسها واستعارت عباءة بسيطة من أهل الدار. وبدأت مجاهدة هي الأخرى. قالت بابتسامة صغيرة:

- سيكون بخير. لا تقلقي.

دأبت خصلاتك المستكينة على جبينك ولبثت ساهمة. سألتها في اهتمام:

- هل تحدّثت إلى نادر؟

أومأت برأسها أن نعم. واستمرّ صمتها. هتفت في جزع:

- رفض أن يعيد إليّ خليل أليس كذلك؟

- من الأفضل أن تتحدّثا.

ندّت عني ضحكة ساخرة.

- نتحدّث؟ وهل ترك مجالا لأيّ تبادل بيننا بعد أن خطف الولد وهرب؟

وهل قال ما الذي دفعه إلى ذلك؟ اشتاق إلى حبيبته القديمة؟ فقرّر أن يهديها صبيّا؟ طفلا من غيرها؟!

لم يبد عليها التركيز على ما أقول. أضافت بعد برهة قصيرة بنفس اللهجة الواجمة:

- يجب أن تتحدّثا.

قلت في عناد:

- عليه أن يطلقني الآن، هنا.. وحضانة الولد ستكون لي بالقانون. ولن يمكنه أن يفعل شيئاً حيال ذلك. لقد حاول أن يهرب به، لكنني وجدته ولن أستسلم. لن يتعد عني بعد الآن متراً واحداً.

قلت ذلك وكفي تشدّ على ذراعك في عصبية، حتى استيقظت باكياً. احتضنتك أكفك دمعتك وأذرف عشرات غيرها.

لم أر أباك طيلة الفترة الصباحية، وبقيت رنيم إلى جوارى، صامتة معظم الوقت. بدا أن لكلّ منّا أفكاراً كثيرة تحتجزه في ظلالها. ثمّ جاءت جدّتك، باسمه وحازمة مثل عاداتها. سألت عن أحوالنا، ثم خاطبت رنيم، فترجمت عنها:

- تريدك أن تذهبي معها.

هزّزت رأسي بعنف. لن أتحرك من جوار ولدي! لم يكن هناك داعٍ لتعابني بنظراتها. لم أكن لأسايرها ولو استظهرت بتعهد مكتوب ومختوم وعليه شهود! استسلمت لرغبتني وأطلت من الباب لتخاطب صبيّاً يلعب في الفناء، فانطلق ركضاً يلبي طلبها. بعد لحظات، حضر نادر.

أدارت جدّتك دفة الحديث:

- أنت لم تطلّقها أليس كذلك؟ أخذت الولد وجئت به إلى هنا. لماذا كذبت عليّ؟

كانت توبّخه أمامي، كأنّما تطمئنني إلى أنّني لن أظلم عندها.

- ماذا أقول لعمّك الآن؟ موعد الزّفاف قد تحدّد.. وعالية تنتظرك منذ سنين. ماذا نقول لهم الآن؟

كان مطرقاً لا يردّ. فتاته تلك، هي ابنة عمّه إذن. اسمها عالية. تنتظره؟ وماذا كنت أنا؟ بطاقة عبور؟ زواج أبيض؟ تعشّش الغربان في رأسي ويستقرّ بها المقام.

- ما لا أفهمه بعد.. ما سبب فراقكما؟ هل هي سحابة صيف عابرة؟
هل هناك أمل باقٍ بعودة المياه إلى مجاريها؟
لم ينظر إليّ وهو يقول بسرعة مغلقا كلّ الأبواب دفعة واحدة:
- الحياة بيننا انتهت، ولا مجال لمراجعة هذا القرار. أمّا الطلاق، فيمكن
أن أطلقها متى أردت، بشرط أن تتنازل عن حضانة خليل.
صرخت من دون شعور وقد فقدت السيطرة على رباطة جأشي:
- بل تطلقني غصبا عنك، وابني يبقى في حضني!
- ربّيت رنيم على كفيّ تهدئي. ولكن أيّ سبيل للهدوء وهو يكيل لي
الإهانات من دون تمييز؟ أيّ هدوء وأنا لا أعني أيّ خطأ ارتكبت وأيّ ذنب
اقترفت لأستحق منه كلّ هذا النكران؟
- أنت ضيفة عندنا يا بنيّتي حتّى يستردّ الولد عافيته. وما دام الطلاق
لم يحصل بعد، فأمامكما فرصة إصلاح ما فسد. وإذا ما تصالحتما، فيأني
أطمع في أن يستقرّ بكما المقام إلى جوارِي.
- سارع يقول:
- لا يمكنها أن تعيش هنا. بيئتها مختلفة. لم تتعوّد على حياة الجبل
الخشنة.
- رمقته في ضيق. لطالما ألحيت عليه حتّى نزور بلدته وعائلته وكان
يرفض! هل يوهّمهم الآن بأنني منعتهم عنهم كلّ هذا الوقت، لأنّ بيئته لا
تناسبني؟ قلت برغبة جامحة في العناد:
- لا أعرف، لم أجربها بعد!
- وبدا كأنّ أحدا غيري نطق بالجملة، فقد استهجنتها بعد أن سمعتها
بصوتي تتردّد عاليا في فضاء الغرفة. كأن والدك يحاول طردي وأنا أصرّ على
البقاء! لكنّه كان أكثر عنادا، استمرّ يقول:
- وعالية؟ لن ترضى بأن تكون لها ضرة. وأنا وعدت عمّي، وسأفي بوعدِي.

وعد عمّه؟ هل هكذا يتمّ الزّواج في بيتك أيها الجبلي الجلف؟ حبست الشتائم في حلقي واستسلمت لصمت مجبر، حتى لا تنفجر الثورة. مدّت لي جدّتك طوق النّجاة حين قالت بحزم:

- هل انتهيت؟ يمكنك الخروج الآن.

غادر مكانه وصفق الباب من دون كلمة إضافية.

- سأفهم ما الذي يحصل هنا.. أعدك أنني سأفعل!

ليتك تفعلين يا سيّدي، ليتك تفعلين فأفهم بدوري! وقفت جدّتك مثاقلة. داعبتك ثمّ لحقت بولدها إلى الفناء. التفتُ إلى رنيم بنظرة تقول: ألم أخبرك؟ ما من حديث بيننا! لكنّها همست فجأة:

- تحدّثي إليه على انفراد. هناك أمر يخفيه.

- أيّ أمر؟ أنت تعلمين إذن؟

- حكى لي بالأمس.. وحاولت إقناعه بالمصارحة، لكنّه مصرّ على الكتمان.

أخذت الغربان تنقر في رأسي في حماس متزايد:

- لا حاجة لي في أن أعرف، إن لم يرني أهلا لسرّه!

طويلاً بعد أن غادرت رنيم مكانها، بقيت أقلب الأمر في رأسي في ضيق وحيرة. ما الذي يمكنه أن يخفيه بهذا الحرص عن أقرب الأقربين، ويحدّث به المحامية؟ أيّ سرّ يجعله يترك زوجته وعمله وحياة مستقرة هائلة، ويفرّ كأنّ العفاريت على أعقابها؟ لمعت الفكرة في رأسي. هل يكون قد ارتكب حماقة ما؟ جريمة؟ وهرب من فرنسا بسببها؟ لم يكن هناك من تفسير منطقيّ غير ذلك. أتراه خجل من نظرتي إليه؟ من تقدير أمّه وأهله؟ أيّ نوع من الجرائم هي؟ تضرب الغربان بأجنحتها بقوة في رأسي، وتزداد الصّورة قتامة. سرقة؟ قتل؟ لم يعد بوسعه أن يطأ الأراضي الفرنسيّة خوفاً على حياته، قدّر أنّي لن أقبل باستمرار معه ففرّ في عتمة الليل؟ هو ذاك! هو ذاك! كنت متيقّنة من صواب تشخيصي. وبدأ كلّ شيء

يَتَّخِذُ صِبْغَةً مَنْطِقِيَّةً. وَعَادَتْ إِلَيَّ بَعْضُ السَّكِينَةِ. عَجِيبٌ أَنْ تَتَنَابَنِي السَّكِينَةُ وَقَدْ اكْتَشَفْتُ أَنَّ زَوْجِي قَدْ ارْتَكَبَ جَرْمًا! لَكِنَّهُ لَمْ يَهْجُرْنِي لِأَنَّهُ كَرِهَنِي أَوْ لَعِيبٌ فِيَّ! كُلُّ شَيْءٍ آخِرٌ يُمْكِنُ التَّعَامُلُ مَعَهُ.

كُنْتُ هَادِئَةً بَقِيَّةَ النَّهَارِ، وَقَدْ ذَهَبَ عَنِّي حَنْقِي السَّابِقِ. وَعَزِمْتُ عَلَى الْأَخْذِ بِنَصِيحَةِ رَنِيمٍ وَالتَّحَدُّثِ إِلَيْهِ عَلَى انْفِرَادٍ، وَقَدْ صَرْتُ أَتَنَاولُ الْمَسْأَلَةَ مِنْ مَنْظُورٍ مُخْتَلَفٍ. لَكِنَّ عَمَّاتِكَ كُنَّ لِي بِالْمَرْصَادِ. تَقَاطَرْنَ وَاحِدَةً إِثْرَ الْأُخْرَى عَلَى غُرْفَتِكَ، يَقْبَلْنَ وَيَلَاعِبْنَ، وَيَقْدِمْنَ الْهَدَايَا، وَاكْتَفَيْنَ بِابْتِسَامَاتٍ بَاهِتَةٍ تَجَاهِي. كُنْتُ أُمُّ الْوَلَدِ فِي نَظَرِهِنَّ، لَا زَوْجَةَ شَقِيقَهِنَّ. وَرَبِّمَا كَانَ نَادِرٌ قَدْ عَبَّرَ عَنْ نَيْتِهِ الطَّلَاقَ، فَأَثَرْنَ أَلَا تَتَوَطَّدُ عَرَى الْمَوَدَّةِ بَيْنِي وَبَيْنِهِنَّ، مَا دَامَ الْفِرَاقُ وَشِيكَاءُ؟ ثُمَّ جَاءَتْ تِلْكَ الـ«عَالِيَةُ»، فَاحْتَفَيْنَ بِهَا وَتَبَاسَطْنَ مَعَهَا مَتَجَاهِلَاتٍ وَجُودِي مَعَهُنَّ فِي الْفَضَاءِ نَفْسَهُ! كُنْتُ مِثْلَ دُمِيَّةِ الْقَشِّ الْمَرْكُونَةِ فِي الزَّاوِيَةِ، لَا يُسْمَعُ لَهَا نَبْضٌ وَلَا نَفْسٌ. وَلَعَلَّهُنَّ تَسَاءَلْنَ بَيْنَهُنَّ بَلِغْتَهُنَّ الَّتِي لَا أَفْقَهُ مِنْهَا حَرْفًا، مَا لَهَا لَا تَنْصَرِفُ وَتَتْرَكُنَا وَشَأْنُنَا؟ وَقَدْ لَازِمْتُ مَكَانِي فِي جِلْدٍ أَحْسَدَ عَلَيْهِ، كَاتِمَةً غِيظِي مَا وَسَعَنِي ذَلِكَ.. أَتَرْقُبُ انْفِضَاضَ جَمْعِهِنَّ وَوُصُولَ أَبِيكَ.

وَصَلَّ، مِثْلَ الْقَمَرِ، بَعْدَ أَنْ تَوَارَتْ الشَّمْسُ بِالْمَغِيبِ. وَلَمْ تَكُنِ الْغُرْفَةُ قَدْ خَلَتْ لَنَا بَعْدًا! بَعْدَ عَمَّاتِكَ، جَاءَتْ بَنَاتُ عَمِّ أَبِيكَ، شَقِيقَاتُ عَالِيَةِ. وَكُنَّ جَمِيعَهُنَّ، بِلَا اسْتِثْنَاءٍ، يَمُرَّرْنَ بِكَ، يَسَلِّمُنَّكَ وَرَقَةً نَقْدِيَّةً وَقِطْعَةً حُلْوً، يَنْكَشْنَ شَعْرَكَ وَيَقْرَصْنَ وَجْنَتَكَ، ثُمَّ يَتَكَتَّلْنَ عَلَى الْمَقَاعِدِ الْوَاطِئَةِ وَيَسْتَسْلِمْنَ لثَرَّةَ مُسْتَمِرَّةٍ! حِينَ دَخَلَ نَادِرٌ، كَانَ صَبْرِي عَلَى وَشْكِ النَّفَادِ وَرَأْسِي قَدْ شَارَفَ عَلَى الْانْفِجَارِ. تَعَلَّقْتُ نَظْرَاتِي بِهِ مِثْلَ غَرِيقٍ يَتَعَلَّقُ بِقَشَّةٍ. قَالَ بَضْعَ كَلِمَاتٍ مَرَحَةٍ، ضَحَكَنَ لَهَا.. ثُمَّ انْسَحَبْنَ بِهَدْوٍ، فَتَنَفَّسْتُ الصَّعْدَاءَ.

جَلَسَ مِنَ الْجِهَةِ الْأُخْرَى، يَفْصِلُ بَيْنَنَا السَّرِيرُ الَّذِي تَرَقَدُ عَلَيْهِ. بَحِثْتُ عَنِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَدْرَبْتُ عَلَيْهَا لِسَاعَاتٍ، وَتَاهَتْ مِنِّي سَاعَةٌ احْتَجَّتْهَا! رَبِّمَا

كان نادر أيضا يفكر، أيّ المفردات أنسب لقطع جبل الصّمت، حتّى قلت بصوت متخاذل:

- لقد عرفت.. بما حصل معك.

رفع رأسه مثل الملدوغ، واتّسعت عيناه من وقع المباغته. ردّد غير مصدّق:

- عرفت؟ من أخبرك؟ الأستاذة رنيم؟

نفيت بسرعة:

- لقد حذرت. كان عليّ فقط أن أفكّر بصفاء وأتخلّص من تشويش المشاعر الجريحة.. لأدرك أنّ ما دفعك إلى الرّحيل بذلك الشكل لا شكّ أمر جلل، أقوى ممّا تطيق.. لم تكن زوجين مثاليين، لكنني على الأقلّ واثقة بأنّ ما جمعنا كان حقيقيّا. لا يمكنك أن تمحوه بنفخة فيتبدّد في الهواء!

أطرق متأثّرا. كان على وشك البكاء. قال بصوت متهدّج:

- أمّي.. وأخواتي.. وعمّي.. لا يجب أن يعلموا..

سألته في حذر:

- وعالية؟

- عالية تعلم.

تصاعد الدّم حارّا إلى رأسي. طبعاً، يجب أن تعلم. الزّواج شراكة في السّراء والضّراء، والصّراحة بين الشّركاء مطلوبة! تدفّق الكلام من شفّتيه متابعاً:

- حين علمت أنّ ستة أشهر فقط هي كلّ ما تبقى لي، لم يخطر ببالي إلا أن أهديها لأمّي. ستّة أشهر أكون فيها عند قدميها، أسعى في قضاء حاجاتها وأمدّ جسدي بساطاً تمشي عليه. ستّة أشهر تكون محض فرح، أحقّق فيها ما عجزت عنه منذ سنين.. تتمّع فيها نظرها بمرأى ابنها

وحفيدها، كليهما موفوري الصّحة والعافية. لا أريد أن يكون كلّ ما يأتيها منّي أعباءً وهموما ووجعا في الرأس. سأهديها عرسا كما تحبّ، ترقص فيه إلى الصّباح. وأوقاتا جميلة وحميميّة تتضح بالحبّ والاهتمام. هذه السّنة أشهر هي كلّ ما لديّ. ما قبلها وما بعدها كان وسيكون حسرة لها في القلب وهموما لا تنتهي. لكنّ عالية ستحمل معها الحمل. ستهتمّ بها وبالصّغير.

مصدومة كنت، لا أعني ما يقول. ردّدت متأتأة:

- ستّة.. أشهر؟

- بل خمسة ونصف.. مضى أسبوعان مذ أعلن الطبيب الأجل.

يا للهول! ما أسمع يدك سكيني دكا. ترتجف شفتاي وأنا أمعن التقصّي، علّه يفصح عرضا:

- وأنا؟ وأنا في كلّ هذا؟

- أنت! وهل هناك ما يُتعبني ويسحقني من الدّاخل غير التفكير فيك؟

كأنّ دموعي ودموعه رهن تلك الكلمة. تنفجر باكيين في وقت واحد. كلّ منّا يشهق وحيدا على الضّفة المقابلة من السّرير. يفصلنا تعقيد سقطنا فيه سهوا أو عمدا، لكنّ خيوط البكرة تلتفّ وتتشابك إلى ما لا نهاية.

- ماذا.. ماذا كان ليحصل لو أنني بقيت هناك؟ هل سيكبر خليل من دون أن يعرف أصله وأهله؟ من دون أن يتعلّم لغة أبيه؟ من دون أن تكون له جذور يأوي إليها؟ يدخل عليه زوج أمّ، وإخوة غير أشقاء، يكون البطة السّوداء بينهم؟ يشقى بأصل أبيه الذي رحل عنه صغيرا وخلفه يتخبّط إزاء مجتمع لا ينصفه؟ لا تنظري إليّ هكذا.. أنت ستزوّجين من جديد، ستكون لك عائلة أخرى. و خليل، سيكون في أمان في أحضان أناس يحبّونه ويحفظونه كقرّة أعينهم..

قاطعته مزمجرة:

- هل اتّخذت قراراً عنيّ؟ رَمَلتني وزوّجتني بينما زوجي ما يزال أمام عيني نابضاً بالحياة؟ أيّ قلب تحمله؟ توزّع المشاعر على النّاس.. هذا نصيبه أن يفرح، وهذا مصيره أن يشقى؟ دع لي القرار وانظر.. ربّما كنت لأختصر عليك الطريق وأهجر ك مثلاً! ربّما كنت من يسرّحك ويرسلك إلى أهلك! توقف عن لعب دور البطولة في مخيلتك!

ألّهث، يعلو صدري ويهبط في اضطراب. ألقى بكلمات حارقة تلهب قلبي في طريقها. وسيول الدّمع لا تتوقّف. يُفتح الباب فجأة، جدّتك تأتي مهرولة على صوت صراخي. ترمقنا في غضب مكبوت وتوجّه كلمات ناهرة لأبيك فينهض مغادراً. لعلّها حسبتنا نواصل شجاراً بدأناه في الصّباح. وما أن اختليت بنفسي حتّى وضعت رأسي على السّرير وانحرطت في بكاء مرير. بكيت أباك وبكيت نفسي، وبكيتك.

عزيزي خليل،

يطلع عليّ نهار جديد، وأنا امرأة أخرى غير التي باتت ليلتها. خرجت من غرفتك وتركتك نائماً، على غير عادتي، وقد غادرني الهوس باختطاف جديد. جست عبر الفناء المقفر بعد صخب الاحتفال، أقتفي أثر أبيك. بدا المكان عارياً من كلّ زينة، وحاقت به كآبة غريبة، هي حتما صدى لما جاش في نفسي. لم أكن قد عقدت العزم على شيء، لكنّ ما قيل بالأمس لم يكن بالإمكان تجاهله. فكرت، هل يمكن لواجب مواساته أن ينسيني ما ألحقه بي من أذى؟ كنت أحاول إنشاء أولويّات في مشاعري. والغضب لم يكن مسموحاً له بتصدّر القائمة، لأنّ مصاب أبيك كان أعظم من كلّ ما تخيلت. وعتاب شخص يرى الموت يلتهم المسافات ليدركه لم يبد واقعياً آنذاك.

مشاعر الغيظ والقهر والهوان والغضب والغيرة.. كلّها انصهرت في بوتقة واحدة في أثناء نومي وذابت، ولم تخلف في نفسي إلا بقايا ذريّتها رمادا حين نفضت لحافي في الصّباح. تعلم أنّني نطقْتُ بالأمس بما لا أعني، حين صفعت والدك بكلمات قاسية. لم تكن قسوتها إلا صدى للجرح النَّازف الذي غار عميقاً في صدري. ولكنني اليوم امرأة أخرى.

عبر باب المطبخ الموارب وصلتني ضحكاتهم. ضحكات عفويّة صافية، لأمر وابنها الذي هبط في حضنها بعد طول غياب. تتبّعت الصّوت متوجّسة، حتّى وصلت. هل كان عليّ أن أطلع بعيني على موقف كهذا لأدرك ما عناه؟ لو أنّها كانت تعلم ما أصاب صغيرها، هل كانت البسمة لتعرف طريقاً إلى ثغرها؟ أيّام قليلة إضافيّة من الحبّ والسّعادة والحبور، قبل أن يظهر المرض للعيان، فتدّلّ عليه أعراضه وبصماته التي يخلفها

على الجسم والروح.. هذا ما أراده.

انعكست أشعة الشمس على هيكل المقعد المعدن، في لمعان شدّ نظرات من بالداخل إلى القادمة المتطفلة التي كنتها. وقف نادر وجاء باتجاهي، ومن دون تشاور بيننا، دفع الكرسيّ حتّى الشرفة الخلفيّة. جلس في هدوء على مقعد بلاستيك ولم يقل حرفا. لعلّه خشي بعد ردّة فعل الأمس أن أتفوّه بكلام مجنون أمام والدته. لم تكن لتفهمني على كلّ حال!

- المكان هادئ هنا.

قطعتُ الصّمت في محاولة لرأب الصّدع الذي شققته بالأمس.

- هذا البيت بناه جدّي رحمه الله.. هنا ولد أبي وعمّي وتزوّجا، وولدت شقيقاتي، قبل أن نتقل إلى العيش في عنّابة. لكنّه مرتبط أيضا بكلّ ذكريات الإجازات والمناسبات العائليّة والمشاعر الجميلة.. وهنا.. هنا.. قُتل أبي أمام عينيّ...

دسّ كفّه في جيب سرواله وأخرج الرّصاصة. فغرت فمي مبهوتة. لم أكن قد انتبهت لاختفائها من الإطار. كنت مفجوعة في ولدي فلم ألتقط التغيرات التي طرأت على القطع الجامدة.

- في هذا الفناء كانوا.. وخلف الباب اختبأت. تمّ الأمر خلال ثوانٍ وجيزة. حرّكتُ دفّة الباب، فتهاطل مطر الرّصاص في جنون. ثمّ انتهى كلّ شيء. لم يعلموا قط أنّ الهاربين الذين كانوا على أعقابهم، قد تسلّقوا الجبل تحت ستار الظلام وباتوا مختبئين بين الصّخور النّاتئة، يرتجفون من البرد والرّعب حتّى طلع علينا نهار يوم مضّرّج بالدماء. عمّي كاد يجنّ. أخفى الغرباء وتكبّد في سبيل حمايتهم الغناء، ليلقى أخاه قتيلا! لو تأملت، لرأيت أنّ الأمر قُدّر له أن يكون.. كانت الأحوال مضطربة في المدينة. سافرنا من عنّابة قبل ذلك بأيّام، بعد أن غدا الوضع مستحيلا. نسمع كلّ يوم عن اغتيلات ومداهمات. وكان الرّعب ساريا مثل ثعبان هائل

يلتفّ على قلوبنا. نغلق أبوابنا ونتلصص على الشارع من الشيش الخشب
المغلق، كلّما تناهى إلينا دويّ إطلاق رصاص في الشوارع المجاورة. ركدت
سوق العمل، ولم يعد أبي يجد ما يصنعه في ظلّ الفوضى المستحكمة.
لذلك اتخذ قرارا بالركون إلى ديار الأجداد. كان دافع خفيّ يسيّره في اتجاه
قدره. لعلّه نفس الدافع الذي حدا بي إلى الهبوط هنا هبوطا اضطراريا
حين دنا الأجل؟

ندّت عني زفرة طويلة. كأنّ كلماته تتكدّس ثقلا على صدري. فيواصل
نزف الذكريات:

- كنت ولدا عاقا طوال سنواتي الثلاثين! كلّ أمّ تنتظر أن يكبر أبنائها
ويحملوا عنها أعباء الحياة. ترنو إلى الرّجل الذي يزداد تعداد سنوات
عمره، وتتوقّع أن يحطّ النّضج فوق كتفيه في أيّ لحظة! لكنّ ذكرها الوحيد
يستمرّ في مراهقة متأخرة. لا تسمع على لسانه إلّا التذمّر والشكوى، ولا
ترى في مقلتيه إلّا العبث واللامبالاة. يزحف الشيب إلى فوديهما ويفرد رداءه
على مقدّمة شعرها، ولا شيء يهوّن عليها ترمّلها الباكر. هل كان عليّ أن
أسافر وأغوص في غابة صبار لأقرأ بعين أخرى آمالها وأمنياتها؟ مع كلّ
وخزة شوكة تنغرس في جسدي يزداد اليقين الملحّ بضرورة العودة على
الأعقاب. أن أوفيها حقّها من البرّ ما بقي في جسدي عرق ينبض. هل
تفهمين ما أعني؟

أهزّ رأسي في صمت. لو كنت كلّفت نفسك عناء الشرح لكنت فهمت
منذ الوهلة الأولى. لكنّك أبيت إلا أن تقذف بي خارج القارب. قلتُ فجأة:
- لا أريد أن أنزل من القارب.

نظر إليّ مستغربا. فأردفت بسرعة:

- هل فكّرت في خليل في كلّ هذا؟ جميل أن يكون برّ والدتك يشغلك
بهذا القدر.. لكن من حقّ ولدك أيضا أن ينشأ بين أبويه، ولو كان قدره
أن يفقد والده مبكّرا، فلماذا يفقد أمّه في نفس الوقت؟ أريد أن أكون

جزءاً من الخطّة.. إلى النّهاية.

ردّ متحفّزاً:

- وبعد ذلك؟ حين تأتي.. النّهاية، ترحلين به إلى فرنسا؟ وينسى أصله ووطنه؟ ينشأ بعيداً عن جدّته وعمّاته وإرثه الثقافي والحضاري واللغوي؟ تغصّن جيني في ضيق. كان عليّ طمأنته. لم أكن واثقة ممّا أنويه بعد ذلك. لكنني اندفعت:

- يمكنني أن أستقرّ هنا، مع عائلتك. ليست لديّ عائلة أركن إليها في فرنسا، غير أمّي. إن توصّلت إلى إقناعها، فستحضر للعيش معنا. وإلاّ زرتها مرّة أو اثنتين في السّنة. وحرصت على أن يتعلّم خليل لغتيه بنفس القدر. يكون جزائريّاً وفرنسيّاً. سيحمل في قلبه مزيج الحضارتين، كما تحمل جيناتهما خليط نطفتين.

- هل تعديني؟

- أعدك!

تنهيدة ارتياح من قلب مثقل بالهموم. هموم اليوم والغد. الفرحة في عين الأمّ ومستقبل الولد. أمّا هذا الجسد فهو ذاهب إلى هلاك.

الأربعاء ١٩ ديسمبر ٢٠٣٥، الساعة السابعة مساءً،

قلب آخر صفحة من الرسالة الأخيرة، وبقي محدّقا في الورق في جمود.
سمع خطواتها تقترب، فأعاد ترتيب الأوراق في المنضدة كما كانت واستقام
جالسا.

- العشاء أصبح جاهزا.

قال في وجوم:

- لم تفي بوعدك له!

انتبهت إلى الرزمة التي عادت مكّسّة بعضها فوق بعض. أنهى القراءة
إذن.

- بلى فعلت.. ما وسعني ذلك! لكنّ الظروف لم تكن مواتية طول
الوقت.

- ما الذي حصل.. بعد اتفاقكما ذاك؟

جلست، تضمّ قبضتيها عند حجرها، وقالت مسترجعة ذكريات بعيدة:

- بقيت هناك إلى جواره. أرسلت إلى أمّي أعلمها بقراري. ورغم كدرها،
فإنّها لم تعارضني. لكنّها رفضت الانتقال للعيش معنا في الجزائر.
كانت تزورنا من حين إلى آخر. ولم تطأ قدماي الأراضي الفرنسيّة ما دام
أبوك على قيد الحياة.. كانت أيّاما فريدة، عبنا فيها من الحياة بنهم.
كلّ يوم إضافيّ هو عطية غالية. وحين اقتربت الستة أشهر الأولى من
الانتهاء، تملّكني الجزع. كنت أخشى أن يكون كلّ يوم نستقبل صباحه
هو اليوم الموعود. وكان نادر يبدأ يومه بصلاة ليل طويلة قبيل الفجر،
تشهد على صدق امتنانه لربّه على تأخير الأجل.. حتّى مرّت ستّة أشهر،
وسبعة وثمانية، ثمّ سنة.. من دون أن تبدو عليه علامات انهيار حيويّ

أو استسلام لمرض فتاك. نعم، كان يعيش بفضل المسكنات. نعم، كان يتحدث طويلا إلى أشباح هلوسته في عمق الليل. لكنه يبدو طبيعيا متماسكا في أثناء النهار، بشكل لا يثير شكوك المحيطين به. كنا نستسلم أحيانا لروتين حياة أزواج عادين، فنتشاحن ونتشاجر.. ثم نثوب إلى رشدنا ونعوّض عن تلك السّويعات التي أهدرناها في الخصام.

- كم استمرّ ذلك؟

- ثلاث سنوات إضافية!

- كان الطبيب النفسيّ محقّا إذن؟ حظي بجوّ عائليّ مريح مدّ في عمر مقاومته.

هزّت رأسها مؤيّدة وتشاغلت بسكب القهوة في الفناجين الصغيرة.

- كان نادر قد اقتنى أرضا زراعيّة في الجوار مستثمرا مذكراته القليلة، وكنا نقضي جلّ وقتنا هناك. حتّى جدّتك، كانت قد أحبّت فلاحه الأرض وتعهّدها بالرّعاية، فانكبنا جميعا على استصلاحها بجدّ.. غرسنا الأشجار المثمرة وزرعنا الحبوب، وفي كلّ مرّة كنا نفعل، كان نادر يمسك بالحبات في حنوّ بالغ ويهمس إليها بأن تثبت سريعا قبل أن يوافيه الأجل. كان يودّع الأشياء ويبثّها الكثير من المشاعر، لعلّه لا يلقاها مجدّدا. يتساءل في كلّ موسم حصاد إن كان سيعيش حتّى موسم الزّراعة، ويتساءل في موسم التقليم إن كان سيرى الأغصان مخضرة مرّة أخرى.. يبكي في تأثّر حين تنضج الخضراوات ويحين قطافها، ويكون أوّل المستيقظين يوم بداية الحصاد، كي يملأ عينيه من مشهد سنابل القمح المنحنية قامتها ثقيلة بحملها. يقول في نشوة: «هل رأيت؟ هذا حصاد آخر نتمتع به معا!». لم نُثر من الفلاحة، هذا مؤكد، بل أحيانا ما كنت أنفق على نفسي من الحوالات التي ترسلها أمّي من فرنسا. لكنّها كانت أجمل أيامنا على الإطلاق، رغم شبح الموت المترصّد. ولم يكن يفسد متعتها عليّ غير وجود زوجته الثانية على مقربة!

· هل تزوج حقًا؟

- ابنة عمّ، نعم! كانت قد تجاوزت الخامسة والثلاثين، وهي في عرف القرية قد غدت «عانساً». لذلك كان عليه أن يفعل.. إرضاء لعمّ، ووفاء بوعد والده. ولم أقدر على تفهم ذلك على الإطلاق. الضرة ضرة، ولو كان الرجل محكوماً بالموت! لم يكن لإحدانا أن تحبّ الأخرى، لكنّ العلاقة كانت مسالمة ظاهرياً. بل كنّا نبدو منسجمتين ومتعاونتين لكلّ مشاهد خارجيٍّ، بشكل يثير الإعجاب والحسد! فقد كانت كلتانا شريكة في السرّ الصغير، رغم أنّي لم أغفر له أن استأمنها عليه قبلي، ورغم أنّي أشكّ في أنّ جدّتك قد أدركت حقيقة مرضه بفراصة الأمّ التي لا تخطئ. وكنت أغار منها.. جدّاً. كانت بينهما حميميّة اللغة التي لا أفهمها، وذكريات طفولة سحيقة البعد، وميراث حضاريّ وثقافيّ وعائليّ لا يستهان به.. وأنا كنت الأجنبية الدخيلة! لذلك فقد عزمت على أن أصبح واحدة منهم. تعلّمت العريّة. جدّتك كانت معلّمة جيّدة. نبقى أنا وهي وجهها لوجه، لا أحد يترجم بيننا، فإمّا أن يُقوّم لساني أو يستقيم فهمها. ولكنّها كانت معرضة عن لغتي، وأنا كنت مقبلة على التعلّم بفعل الغيرة والرغبة في التوحّد مع محيطي الجديد، فلا أبقى الغريبة إلى الأبد. تعلّمت إذن لهجة أهل أبيك، ودرّسني نادر بنفسه العريّة الفصيحة، حتّى أتقنت قراءتها وكتابة حروفها. وخلال وقت وجيز تمكّنت من تصفّح الجرائد المحلية ومطالعة كتب الأطفال التي يشتريها أبوك من أجلك..

تركت ديانا مكانها وتناولت من المنضدة القريبة ألبوم صور قديمة، كانت قد أخرجته من مكنه قبل وصول خليل. ولعلّها أمضت ساعات الليالي الفاتئة تناجي الخيالات التي يضمّها بين دفتيه. أبقتّه بين كفيها لبرهة وقالت، بينما تتناول نظرات خليل لاكتشاف ما يحجبه الغلاف:

- وفي تلك الفترة وقفت على قدميّ من جديد.. واستغنيت عن الكرسي..

- حقًا؟ كيف حصل ذلك؟

- هناك أزمات تدكنا.. وأخرى تُخرج من الأعماق أفضل ما فينا. وتلك الأزمة كانت من النوع الثاني. كنت قد جرّبت العلاج الطبيعيّ لسنوات من دون فائدة. ثمّ استرجعت بعض العزيمة حين رأيت أباك يقاوم ظروفه ويواجه الموت.. أبديت بعض التقدّم آنذاك، لكنني لم أستمّر كثيرا. تمكّنت من الوقوف بضع مرّات.. لكنني بقيت أعتمد على العجلات في تنقّلاتي. ثمّ، حين ضربت تلك الأزمة، أحسست بعظم المسؤولية التي تنتظرني. كنت سأبقى أنا وأنت، وحدنا، خلال وقت قصير! والدك أيّامه معدودة، وجدّاتك سيّدات طاعنات في سنّ تهتدّهن أمراض الشيخوخة. هل يمكن أن نظلّ في حاجة إلى من يمدّ لنا يد المساعدة على الدوام؟ كنت أنت حافزي هذه المرّة.. ونعم الحافز! من أجلك، من أجل أن أكون قادرة على العناية بك، واجهت ضعفي وتحديت عجزتي. لم أعتمد على مركز للعلاج أو على معدّات تهمّ من هم في مثل حالتي، بل ارتجلت بما توافر في محيطي. وحيدة في الزّريبة، كنت أمضي ساعات، أحاول السّير على امتداد الحواجز الخشب التي حوصرت خلفها قطعان الخراف والبقر، لا يؤنسني غير الثّغاء والخوار!

ضحكت، وهي تفتح الألبوم. قلبت بضع صفحات قبل أن تتوقّف عند مشهد فتاة شابّة ترتدي عباءة سماوية باهتة، وتجمع شعرها تحت غطاء رأس مزركش. كانت تنحني في منتصف حقل قمح ناضج وتبتسم للعدسة. كانت ديانا أخرى. ديانا شابّة، فلاحّة قرويّة.. وسعيدة. ضحكت وهي تناول ابنها الألبوم:

- ألا يليق بي هذا الشكل؟ ليت الزمن يعود إلى الوراء.. وأبقى هناك إلى الأبد!

سألها في اهتمام:

- لماذا لم تفعلي؟

- كانت ابنة عمّه عالية تجتهد لتحلّ المشهد وتثبت حضورها. كانت

تطبخ، وتتفوق عليّ في الطبخ على الدّوام. حاولت أن أتعلّم أصناف الأكل التي يحبّها نادر من أمّه، لكنني كنت أفشل. أعترف، ليس الطّبخ من مهاراتي، وأنت أوّل العارفين!

ضحكا. كانت ضحكتها رثاء لحالها، وضحكته مواساة حانية.

- ذهبتي لأنّك خسرت «معركة» المطبخ؟ هناك معارك أخرى في «الحرب» من أجل البقاء!

- كنت أقنع نفسي بأنّه لا ضير من ترك تلك المهام لها.. الطبخ والتنظيف والغسيل والحيّاكة.. فأفرّغ وقتي من أجل العناية بك وبأبيك. لكنّ محاولاتها تلك كانت تجعلها تغنم مساحات من اهتمام نادر، وزخّات من ثناء جدّتك وتقديرها. وحزّ في نفسي أن أكون مرّة أخرى زوجة خرقاء بلا فائدة! وحين سقط نادر طريح الفراش في مرضه الأخير، تفانت في رعايته والسّهر على راحته.. رغم حملها الذي كان في شهوره الأخيرة.

- آه! لديّ إخوة غير أشقاء إذن!

- أخت. اسمها فائزة، على اسم خالة أبيك.. أمّ عالية. وضعتها بعد رحيل نادر بوقت قصير. كانت تعلم أنّ زوجها لن يعيش طويلا، لكنّه فرصتها الوحيدة -ربّما- لتصير أمّا.. حتّى لو اضطرت لتربية الطفل وحيدة. وربّما لو أسعفها الوقت لحرصت على إنجاب المزيد! لكنّ مشيئة الرّبّ قضت بآلا تحبل على الفور. بالنسبة إليّ، كنت كافيا جدّا. خشيت ألا أكون قادرة وحدي على إيفائك نصيبك من الحبّ والاهتمام الذي يفترض بالأبوين معا تقديمهما.

قبل وفاته بأسابيع، اكتشفت أمر الرّسائل. كان يكتبها في هدأة اللّيل، فيخلو بك ويناجيك على الورق. وفي إحدى المرّات، غلبه الأكم في أثناء الكتابة. أيقظني أنينه الشديد، فهرعت إليه أسنده وأحاول التخفيف عنه. حين مرّت النّوبة، أشار إلى كومة الورق التي تكدّست إلى جواره، وأوصاني بحفظها من أجلك. بعد ذلك، لم يعد قادرا على الجلوس أو الكتابة أو

ممارسة أيّ نشاط يتطلّب جهدا وطاقة.

وفي ليلة شتويّة باردة، رحل والدك في وقت متأخّر.. قبيل الفجر. كان قد تألم كثيرا. لم تعد المسكّلات ذات فائدة. قضى أيّامه الأخيرة يتلوّى ويئن ويثنيه الوجع. انقطع عن الأكل، فوصل طبيب القرية وريده بالسّائل المغذي. وكنا نتداول على السّهر إلى جواره.. أنا وعالية جدّتك. نراقب سحنه الشاحبة ووجنتيه الغائرتين وشفاهه الجافّة المتشققة.. الأعين التي تذوي وتغادرها الحياة. نرطب فمه بقماشة مبلّلة، نحرص على نظافته الشخصية، ونبكي طالبين له الرّحمة. وحين جاءت تلك اللحظة الحتميّة وتسرب من صدره الرّمق الأخير، كنّا مجتمعين عند رأسه. لم يكن يشعر بوجودنا أو يهتمّ له، كان يهذي بكلام كثير لا نفقه له معنى، ثمّ صعدت روحه إلى بارئها، مخلفا أمّا ثكلى، وأرملتين وطفلين يتيمين.

حاولنا أن نستمرّ على النّسق نفسه بعد ذلك. لكنّ هذا لم يكن ممكنا. كان الحزن قد رفع جدارا عازلا بين جدّتك والعالم الخارجي. ما عاد للأعمال الصغيرة نفس معناها القديم لديها. كانت قويّة من أجل ابنها. أخفت قلقها وحسرتها في صدرها حتّى لا يشعر بأنّ ما اجتهد في إخفائه كي لا يكدرها، قد كان مكشوبا ناصعا أمام عينيها. لكن بعد رحيله، بدا أنّ جبالا من الألم قد حطّت الرّحال بين قسماتها دفعة واحدة في فجر ذلك اليوم. شاخت عشرين عاما على حين غرّة. ورغم محاولاتي وعالية أن نواسيها ونخفّف عنها، فقد كنّا كمن يحرق البحر. أوصدت قلبها على ذكرى الغاليين -نادر وأبيه- مثلما تحفظ الورد المجفّف بين صفحات الكتب، وطردت خارجه كلّ أسياب الحياة اليانعة. لم تكن قد لبست السّواد ولا أعلنت الحداد بعد رحيل زوجها. شمّرت على السّاعد ونهضت بمسؤولياتها الجسام، فجّهزت البنات وزوجتهنّ، وعلمت الولد وزوجته ورأت أحفادها منه. أمّا وقد رحل، فقد آن لها أن تدخل مرحلة الحداد المؤجّلة. كان حزنها مضاعفا ومكثّفا، مثل شاي ثقيل غلى طويلا على نار جمر هادئة حتّى استحال سوادا. ثمّ رحلت عنّا بدورها.. بعد سنة واحدة

من وفاة نادر.

لعلك تتخيّل، أنّ الحياة في بلدة أبيك غدت غير ممكنة بعدها. لم تعد لي صلة مباشرة بأيّ سكّانها. من أجل من أبقى؟ وإلى من أركن؟ كانت زوجة أبيك الثانية قد أخذت على نفسها أن تنهض بكلّ أعباء الفلاحة وتدير مزرعة العائلة، بعد أن شاخ والدها بدوره وتفرّقت من حوله البنات بزواجهنّ، إلّاها. كنت أراها تدخل وتخرج أمرة ناهية، تتذمر من ثقل مهامها، تشدّ الطفلة الرضيعة بوشاح عريض إلى ظهرها وتقصد الحقل منذ طلوع النّهار. كانت ذات همّة وشطارة، وكنت أبدو عالية عليها. لم أكن أملك نشاطها وتفانيها، وقد فترت حماسي تجاه الأرض بعد وفاة أبيك. نظراتها كانت تقول: ارحلي، لم يبق من مسوِّغ لمكوئك!

في تلك الفترة، كنت أبكي كثيرا. أفقد أباك بشدّة، فأفتح رسائله إليك وأقرأ، أستزيد من صحبته. ورغم أنّي كنت أعرف كلّ ما ورد فيها تقريبا، إلّا أنّه خصّك بخلاصة أفكاره وخبرته في الحياة، ما جعلني أقرأها بتأثّر وشغف كأنّني أكتشف الأحداث للمرّة الأولى. بعد ذلك، شرعت في الكتابة إليك أيضا. لا أدري لماذا انتابني حاجة ملّحة للتوثيق لتلك التجربة قبل أن تتبخر تفاصيلها من رأسي. انهمكت أكتب وأكتب، كأنّما أصرف طاقة الحزن في اتّجاه آخر.. حتّى وصلت إلى العهد الذي قطعت عليه بالبقاء في الجزائر. لم أستطع أن أكتب حرفا بعدها. كلّما قرأت السّطور الأخيرة من رسالتي، غبت في تفكير متشعّب، حول الخيارات المتاحة.

كنت قد بلغت الخامسة. تتكلّم العريّة غالبا، وتفهم الفرنسيّة التي أخطبك بها في خلواتنا، وتشبه صبيان الجوار في شغبك وشكلك القرويّ المغربيّ، رغم ملامحك الأوروبيّة. وكان عليّ أن أتخذ قرارا. إن تأخّرت في أخذك إلى فرنسا بضع سنوات أخرى، فقد تتعثر في تعليمك هناك. فإن كان العزم بالعودة، فلا داعي لتأخيرها. إمّا بقاء دائم وقطع مع فكرة الرّجوع إلى بلدي، وإمّا رحيل فوريّ.

وقد جاء خلال شهور قليلة حدث حسم التردّد. ماتت أمّي، بسكّنة قلبيّة، وحيدة في شقّتها، وأنا بعيدة عنها. وقد عانيت من تقريع الضمير لفترة طويلة بعدها. كنت أدين نفسي لتخليّ عن أمّي في مرضها لأمكث مع غرباء! وهكذا قفلنا راجعين إلى باريس على جناح السرعة، من أجل مراسم المأتم والدّفن. كان من المفترض بها أن تكون رحلة قصيرة، فلم أكن قد نويت بعد موطن استقراري. فخلفت في الجزائر متاعي ومتاعك ورسائلي ورسائل والدك. لم أكن أدرك حينها أنّها رحلة ذهاب من دون رجعة.

لكنّ مكوثي في شقّتي القديمة التي عرفت فيها طفولتي وسنوات الشّباب الأولى، كانت مبعث حنين ووجع. وكان مزاجي يتأرجح بين حالتين. الأولى تقول بأنّه لم يعد لديّ ما يربطني بفرنسا بعد رحيل آخر من تبقى من عائلتي، والأولويّة لك الآن حتى تعيش محاطا بعمّات وأقارب من العائلة الممتدّة. والثانية تقول بأنّني إن رجعت الآن إلى الجزائر، فقد تنتهي صلتني بفرنسا إلى الأبد!

النّاس يتغرّبون غالبا لحاجة. عمل أو دراسة أو ثقافة ومتعة. حين تنتفي الحاجة أو تُقضى، يفكّر المغترب في العودة إلى وطنه. لكنّ طول الإقامة وانقطاع حبل المرساة التي تربطه بالوطن الأصليّ قد تجعله يستبدله بوطن جديد. العائلة تمثّل أمتن جزء من الحبل، ثمّ هناك التعود ونمط العيش. وأنا كنت قد فقدت كلّ صلة عائلية بفرنسا، وتقمّصت دور السيّدة الرّيفيّة التي تشكّل الأرض محور وجودها، حتّى أتقنته. أيقنت في تلك اللحظة أنّني على وشك استبدال وطني.

لا يجدر بالمرء أن يتّخذ قرارات مصيريّة تحت وطأة الضغوطات، لكنّه إن لم يفعل، فالضغوطات ستستمرّ! وقد كنت في تلك الآونة أرزح تحت ضغط رهيب من إحساس بالذنب تجاه أمّي، والمسؤوليّة تجاهك، والوفاء لأبيك، والخوف من المستقبل. ثلاثة منها، أقنعت نفسي بأنّها تصبّ في اتّجاه واحد.. وحده الوفاء لعهدي تجاه نادر لم يكن بمقدوري

أن أحافظ عليه إلى الأبد. غلب حنيني إلى حياة المدينة الأوروبية الباردة على أنسي لوداعة العيش في الريف الجزائري النضر. فحطت الرحال في حيّ القديم، وأنت عائلتي وكلّ دنيائي.

عدتُ وقد ازددتُ عقوداً من خبرة الحياة. تعلمتُ لغة وتعرّفتُ إلى حياة من نوع آخر. وقفت على قدميّ، واستغنيت عن الكرسيّ ذي العجلات بشكل نهائيّ. رأيت الموت -مرة أخرى- يخطف المقرّبين. وكان عليّ أن أصمد وأبقى شامخة من أجلك.

بأقي القصّة يعرفها خليل. بعد مرور كلّ تلك السّنوات، لم يتبقّ من هويّته العربيّة غير اسم يحمله في بطاقته الرّسميّة وشعر أسود فاحم هو كلّ ما ورثه من شبه بأبيه. ديانا تناديه بـ«دانيال». وكذلك تفعل زوجته وأصدقاؤه المقرّبون. ربّما لو سعت بجدّ لتمكّنت من تغيير الاسم في الأوراق الرّسميّة أيضاً، اكتفت بإضافة دانيال كاسم أوسط. كانت تحاول التصرّف بما تقتضيه مصلحته، فتتوقّف في منتصف الطريق حين تردعها بارقة وفاء لزوجها الرّاحل ووعودها الباهتة له. مع الوقت، لم يتبقّ من معاني الوفاء إلا صورة يتيمة للعائلة الصّغيرة تتصدّر غرفة المعيشة، التقطت في أثناء جولة السياحة تلك. وحكايات متباعدة عن الوالد، مسرح أحداثها باريس وحدها. في ذكرياتها المرويّة، مسحت ديانا حقبة الجزائر وطمست معالم البلدة الريفيّة.

نشأ خليل وهو يعتقد أنّ والده قد توفي بسبب ورم خبيث حين كان في الثانية أو الثالثة، سنّ من المفترض ألا يذكر فيها شيئاً. لكنّه يذكر. ترتسم في رأسه صور ضبابيّة عن رجل مسجّى على فراش المرض، وعن مساحات شاسعة كان يركض فيها بحريّة ويطلق ضحكات صاخبة مع أطفال شعبيّ غبر. لم يكن ذلك في باريس، حيث الشقة الصّغيرة

المعلّقة، والملعب النظيف المسيّج، والأطفال المهذّبون المنضبطون يلعبون من دون ضوضاء تحت مراقبة لصيقة من الأمّهات والمريّيات. حسبها أحلاما، مجرّد أحلام جامحة متمرّدة. تماما مثل رحلة الصّيد عند الجدول الضيّق، ولعبة الاختباء بين سيقان القمح الصفراء الشامخة، وتسلق الأشجار المثمرة.. والسّقوط الحرّ على فراش ورق وحبّات زيتون. الآن يعلم أنّه ليس هناك ما هو أوفى من ذاكرة طفل صغير.

- ما هذه؟

كان قد سرح في ألبوم الصّور، ينعش ذاكرته المتقادمة ويبحث في ثناياها عن قطع ينفذ عنها غبار السّنين، حين قاطعته ديانا وهي تمّدّ إليه ورقة أخيرة، كانت مطويّة أسفل تلّ الرّسائل.

- عنوان.. عنوان فندق في باريس.

دلف إلى المكتب، وهو يشعر بأنّ أشياء كثيرة تغيّرت منذ غادره آخر مرّة، منذ يومين. ألقى تحيّة على جانيت التي اهتمت بالسّؤال عن صحّته بعد غيابه بالأمس، ثمّ فتح الرّسائل ليواجه المواعيد المؤجّلة التي ستراكم في مساحة اليوم الجديد، إضافة إلى مواعيده المقرّرة.

بين موعدين، فتح محرّك البحث، ورقن اسم «نادر الشاوي». ظهرت مجموعة من النتائج. تصفّحها باهتمام، محاولا فرزها على ضوء المعطيات الجديدة. ليست المرّة الأولى التي يمارس فيها تلك اللعبة. منذ سنوات، كلّما استبدّ به الفضول ليعرف أكثر عن والده، كان يبحث في صفحات الأسماء المشابهة، يتأمل الصّور ويتساءل.. هل يكون والده قد هجر أمّه وأنشأ لنفسه عائلة أخرى في مكان بعيد، فادّعت وفاته تخفيفا للصّدمة؟ يحاول أن يميّز بينها ما، بين صور أولئك الغرباء الذين

يتلصص على حياتهم الخاصة، والرجل الذي يعرفه من صورة وحيدة عمرها ثلاثون عاما. لعلّه سيتوصل إلى إجابة تشفي الغليل هذه المرّة.. وقد أنهى الرسائل كاملة.

عاين الصفحات ذاتها، تلك التي يقع عليها في كلّ مرّة، حتّى حفظ وجوه أصحابها. ثمّ خطرت بباله فكرة. رقن اسما جديدا. «رنيم شاكِر». بدا الاسم مألّوفا حين سمعه للمرّة الأولى. بسرعة ظهرت سلسلة من النتائج التي أكّدت ظنونه. فتح صفحتها الشخصية التي تصدّرتها صورة حديثة. وجهها مألوف أيضا. قرأ البيانات على عجل. أستاذة القانون في جامعة «باريس دوفين». هكذا إذن. لعلّه صادفها في أروقة الجامعة؟ لم يجمعه معها لقاء مباشر، لكنّه يتخيّلها الآن، تمرّ حذاءه بمشية جادة معتدّة بنفسها، بكفّها حافظة تضمّ أجهزتها وملفّاتها الإلكترونيّة. لعلّها ظهرت على شاشة التلفاز أيضا. يكاد يستحضر صوتها وطريقة كلامها وهو يتأمّل صورتها. سجّل معطياتها في ذاكرة جهازه. ستخبره ديانا إن كانت هي «رنيم شاكِر» المعنيّة.

في جيب بنطاله، تستقرّ قصاصة الورق مع بيانات الفندق. ربّما عليه أن يتّصل، يكتشف من يحاول التّواصل معه. يتغصّن جبينه في تفكير يستغرقه. نبتت لعائلته تلك الليلة أطراف جديدة. جدّة لأبيه، زوجة أب وأخت غير شقيقة. وماذا يعني أن تمتدّ شجرة العائلة، في تلك الآونة بالذات، وهو يستعدّ ليكون نائبا للشعب في البرلمان الفرنسي؟ يتخيّل قريبا من الدّرجة الثالثة أو الرّابعة، يحمل إليه وصيّة ما.. وصيّة جدّته أو زوجة أبيه؟ بشكل ما، يكون هو الوريث الوحيد لثروة ما. كم هو في حاجة إلى تمويل إضافي لحملته الانتخابيّة. كم سيصنع الخبر فرقا في وضعيته تلك! هديّة غير متوقّعة في الزّمن بدل الضّائع.

بل لعلّه قريب طمّاع، اكتشف ترشّحه للبرلمان فقصده بنيّة الابتزاز! ربّما احتفظ لنفسه بنسخة من الرّسائل، يهدّده بها إن هو رفض تسوية ماليّة سخيّة، فيفضحه في وسائل الإعلام!

عادت الرسائل لتشكّل كابوسه مرّة أخرى. إن لم يعرف من وراءها، فستظلّ الظنون تؤرجحه بين تفاؤل وتشاؤم. عليه أن يتّصل. كوّن الرقم، وهو لا يدري عمّن يسأل! حين جاءه الردّ، قال إنّ قريبا ما ترك عنوان الفندق وطلب منه الاتّصال، وهو يجهل تماما من يكون، لكنّه من عائلة الشّاوي! أصغى إليه الموظّف من دون ملاحظات سخيفة، دوّن اسمه ثمّ طلب منه الترقّب لبرهة.. حين عاد إليه، توقّع خليل أن يعلن رحيل القريب. من سينتظر في فندق باريسيّ لمُدّة أسبوع كامل، اتّصالا قد يأتي وقد لا يأتي؟ لكن لمفاجأته، أعلن الموظّف أنّ الشخص المعنيّ ليس في الغرفة، لكنّه ترك تعليمات لمكتب الاستقبال بإعلام كلّ من يسأل عنه بوجوده بعد الساعة الرّابعة من عصر كلّ يوم!

طالع ساعته، كانت تشير إلى الثانية ظهرا. سينتظر بعض الوقت قبل أن يتّجه إلى العنوان.

- جانبيت، اتّصلي بالخبر المعماري رجاء.

أرسل أوامره عبر الهاتف الدّاخلي، ثمّ جهّز الملفات الخاصّة بقضيّة رستم. زار المحكمة صباحا قبل مجيئه إلى المكتب، لرفع طلب إيقاف الهدم. كان ينهي إدخال المعطيات على جهازه الشخصيّ، حين سمع دقّات موقّعة على الباب، تلاها اقتحام برونو لعزلته بحضوره المهيمن. اقترب بمشيّته المعتدّة وابتسامته الودود:

- عرفت أنّك كنت في إجازة يوم أمس. هل أنت بخير؟

- بعض الإرهاق، لا غير.

- اهتمّ بنفسك جيّدا. يجب أن تكون في كامل لياقتك يوم المقابلة!

قاطعهما صوت جانبيت على الهاتف الدّاخلي:

- أستاذ دانيال، الخبر على الخطّ.

ضغط خليل على زرّ الردّ في اهتمام وانبرى يحدثّ الخبر، بينما وقف برونو مستمعا.

- نعم سيّدي، نحتاج تقريراً مستعجلاً بشأن أحد البيوت المهدّدة بالسّقوط، في المنطقة المتضرّرة من زلزال ٢٠٢٩.. هل يناسبك يوم غد؟ ممتاز..

ما أن أغلق الخطّ حتّى بادره برونو في ضيق:

- هل تعمل على قضية متعلّقة بإسناد مبان قديمة في منطقة الزلزال؟
رمقه خليل بدهشة:

- هل كنت تعلم بشأن ذلك؟ أنّ بيوتا على وشك الانهيار تؤهّل للسّكن، بعلم الدّولة؟

- اسمع، هذا يحصل منذ سنتين.. ولم يحصل أن انهار أحدها. لذلك فإنّ الموضوع لا يدعو إلى القلق.

- تعني أنّ ذلك لم يحصل بعد! لكنّها بيوت متصدّعة! لقد رأيتهما بعيني! والخبر في نهاية الأمر سيقرّر ما إن كانت صالحة للسّكنى أم لا..
زفر برونو وبدا محتدّا وهو يستطرد:

- دانيال، ابق بعيدا عن هذا الموضوع رجاء! أنت الآن مرشّح للبرلمان، والعبث بمثل هذه الملفّات قد يُفقدك المصداقيّة. خبّرني صراحة، من هم المتضرّرون المحتملون؟ إنّه هم أشخاص منبوذون، مشاريع إرهابيين، تأذّي منهم جيرانهم فطردوهم إلى المناطق المهجورة. وماذا لو انهار منزل أحدهم فوق رأسه، ها؟ إنّها مجرد نفس خبيثة تتخلّص منها!
ظهرت على ملامح خليل الصّدمة وهو يحدّق في برونو غير قادر على الردّ، فأردف برونو:

- إنّها مبالغة يا صديقي، تعرف أنّي لا أعني ذلك حتما! كلّ النفوس البشريّة جديرة بالاحترام، لأنّ «الوطن للجميع» كما تعلم! لكنني أريدك أن ترى أنّ أسوأ ما قد يحصل ليس بهذا السّوء في نهاية الأمر.. وأنا مستعدّ للمراهنة على أنّ أيّا من ذلك لن يحصل. الدّولة أكثر حكمة من أن تعرّض

أبناءها لهذه المخاطر.. ولا شك أنّ خبراءها قد فحصوا المنطقة بشكل دقيق قبل فتحها من جديد. لكنك تتعامل مع الأمر ببعض الحساسية، لأنّ الموضوع يهمّ من هم من نفس جذورك...

ألقي ملاحظته الأخيرة بلهجة المتفهم، كمن ضبط طفلا بدينا يلتهم الحلوى، لكنّه يعده بالصّفح والتجاوز إن وعد بعدم معاودة الكرة! تسارعت الأنفاس في صدر خليل. أصبح الأمر شكلا من التّحدّي:

- إذن فلنترك الخبر يؤدّي مهمّته، ويثبت صحّة ما تقول!

احتقن وجه برونو وانتفخت أوداجه، ثمّ قال بما أمكنه من ضبط النفس:

- العناد لن يكون في صالحك!

لوّح بسبّابه في تهديد سافر، ثمّ استدار على عقبيه ومشى خارجا.

أسند خليل جبينه إلى كفّه وأغمض عينيه في إعياء.

إنّه عربيّ الأصل شاء ذلك أم أبى، وستبقى لعنة الاسم تطارده إلى الأبد. لا يهمّ إن كان قد تربّى في فرنسا، في محيط فرنسيّ صرف، سيظل في نظر الآخرين عربيّا، حتّى يُثبت العكس. هكذا يراه الفرنسيّون الذين ينتمي إليهم. بل هكذا يراه أقرب النّاس إليه. أليست تلك الحقيقة؟ تنقشع السّحب عن ذهنه في لحظة صفاء. ما الذي يجري يا خليل؟ هل يستحقّ الأمر أن تتشاحن مع شركائك وتغامر بوظيفتك ومصدر رزقك؟ ما الذي سيتغيّر بعد كلّ العناء الذي ستبذله والصّراعات التي ستخوضها؟ سترجع مثخنا بجراحك، صفر اليدين!

أعلن رنين جهازه وصول رسالة عاجلة. ردّ المحكمة. وصل في وقت قياسيّ مقارنة بما عهده لمثل هذه المعاملات. فتحه على الفور، ثمّ تلا نصّه مرّة تلو الأخرى بصوت عال، يواجه الحقيقة العارية. لا فائدة. ثمّ رفض التماسه بوقف أعمال الهدم.

قُضي الأمر.

ماذا تقول إذن؟ الوطن للجميع؟! يا للهراء!

تشقّ السيّارة طريقها في زحمة السّير الباريسيّة، و خليل سارح شارد الحواسّ. يستعيد في مرارة كلمات برونو المؤذية. مشاريع إرهابيّين؟ إذن فلنزد الاحتقان احتقاناً، لنطأ على الجرح بأحذية عسكريّة ثقيلة، نتركه يتعفّن ويتقرّح، ويُنبت في أعماقه حقداً يجرّ في أعقابه إرهاباً. فكّر، هل يمكن لمحمّد رستم أن يغدو أحد إرهابيّ الغد؟ يكفي أن يشهد مقتل والده تحت سقف المنزل المتداعي، واعتداءً على شقيقته بعد أن ترابط شهوراً أمام مكتب المدّعي العام.. يكفي أن ينهار عالمه أمام عينيه ليفقد البوصلة، فيلبس حزاماً ناسفاً ويفجّر نفسه في أحد ميادين باريس! على من يقع اللّوم، لو أنّ السيناريو الكارثيّ الذي يحضّره يتحقّق؟

أوقف السيّارة أمام الفندق ذي النّجمتين اليتيمين وزمّ شفّتيه في امتعاض. لا يمكنه أن يطمع في وجود قريب ثريّ ينتظره في بهو فندق كهذا. عليه أن ينسى فرضيّة الميراث الوفير إذن. دفع دقّة البوابة الرّجّاجيّة، ثمّ توجّه رأساً إلى مكتب الاستقبال. وهو يعبر البهو بخطوات واسعة، يراوده شكّ غريب على حين غرّة. ماذا لو كان أبوه على قيد الحياة؟ أمّه كذبت منذ سنوات طويلة بشأن أصله وتاريخ أبيه.. ما الذي يمنعها من تكرار ذلك؟ ماذا لو كان رجل ستينيّ كيف ينتظره في هذا الفندق التّعس؟ يتخيّله الآن، على هيئة أبي محمّد، رقيق العود محنيّ الظهر مجعّد الوجه والكفّين. وتلازم لاوعيه صورة سقف حجريّ ينهار، ليحطّم جمجمة شيخ لا يميّز ملامحه.

قبل أن تشطح به الخيالات بعيداً، انتبه إلى عائلة مؤلفة من زوجين وطفلين، تحتلّ أحد صالونات البهو. السيّدة الشابة كانت تراقب الباب في انتباه. تلاقت نظراتهما لبرهة، ثمّ تجاهلها وتابع مساره باتجاه موظّف

الفندق. عرّف بنفسه، وسأل عن الشاوي الآخر.. فأشار الموظف إلى نقطة خلف ظهره. حين استدار، رأى السيّدة ذاتها تشدّ على ذراع زوجها، ليقفا معا في استقباله.

خطا باتجاههما بتردد. ألقى التحيّة، ثمّ مدّ كفا ليصافح الرجل من دون حرارة. ابتسامة لبقة على شفّتيه، يحاول ألا تكون متكلّفة أو مبالغا فيها. إنّها مجرد مقابلة بين غريباء صادف انتمأؤهم إلى شجرة العائلة نفسها. احتار كيف يسلم على المرأة. من عادته أن يقبل الوجنتين، لكنّها كانت تضع وشاحا متزمتا على رأسها يوحى بنوع من التحفّظ. إذن مصافحة ستكفي. فوجئ بها تتجاهل كفه وترتمي عليه معانقة في اندفاع عاطفيّ جارف. ربّت على ظهرها في ارتباك، بينما ارتفع نسيجها بين ذراعيه. بعد ثوان، فكّت وثاقه واستقرّت بهم الجلسة، لتواصل الحلقة فيه بعينين واسعتين تلتهمانه بينما تكفّف الدّمع المنهمر. تكلم أخيرا:

- كيف حالكم؟ هل كانت سفرة طويلة؟

شرح الزّوج كيف رأت فائزة ذات يوم على شاشة التلفاز، بمحض الصدفة، برنامجا يتحدّث عن الانتخابات الفرنسيّة المرتقبة، فانتبهت إلى اسم أخيها بين المترشّحين. رغم محاولته إقناعها بأنّه مجرد تشابه أسماء ربّما، فقد أصرت على البحث والتقّصي. الصّورة وتاريخ الميلاد كانا كافيين لتجزم بأنّه هو، وتشرع على الفور في التّجهيز لرحلة عائليّة إلى باريس. كانت بحوزتها كومة الرّسائل تلك. قرأتها مرّة بعد مرّة حتى حفظتها. وكان من واجبها إيصالها. قاطعت زوجها لتشرح:

- لم أظنّ أنّي قد أصل إليك يوما، لذلك سمحت لنفسني بالاطّلاع عليها.. ثمّ، أبي لم يترك لي شيئا. كان قد رحل قبل ولادتي. لذلك فقد اعتبرت من حقّي أيضا أن أعرف عنه..

هزّ خليل رأسه متفهّما. لو كان مكانها لفعل الشيء نفسه. ثمّ، من ذا الذي يكلف نفسه عناء السّفر من بلد إلى آخر لإيصال رسائل متأخرة؟

بين طيّات كلماتها، يصله تأكيد ضمنيّ على وفاة الرّجل الذي مَنّى نفسه بـلقائه. كانت فائزة تواصل شرحها:

- لم أرد أن أدخل عليك فجأة وأقول: أنا أختك التي لا تعرفها. لم أكن أدري ما الذي أخبرتك به أمّك بالضبط.. ربّما كنت لتطردني، جهلا بي. لذلك فضّلت أن تصلك الرّسائل أوّلا، فنتجاوز مرحلة الشكّ والإثبات. يهزّ رأسه بشكل متواصل يوحى بالاهتمام، بينما يتساءل في سرّه: وماذا بعد؟ ما الذي جاءت تطلبه هذه الأخت بعد كل هذا الوقت؟
- هذا نادر.. وهذا خليل.

تشير إلى الولدين الجالسين في وداعة وأعناقهما مشرّبة باتجاه الخال الجديد. يمدّ كفّه ليمسح على رأسيهما بحركة مجاملة. يتأمّل خليل برهة. ما من شبه بينهما. لكنّه لا يمنع نفسه من الدهشة، لتلك الأخت التي تحرص على أن يحمل ابنها اسم أخ لم تره يوما.
- أمّي.. كان بوّدها أن تراك، مرّة أخرى. لكنّها ترهب الطائرة. لم تشأ أن ترافقنا..

ماذا تطلب الآن؟ أن يسافر هو إليها؟ أن يزور زوجة أبيه التي عكّرت حياة أمّه سابقا؟ حاول ألاّ يبدو الامتعاض على وجهه ويحافظ على تعبيره المهدّب، بينما تابعت:

- ثمّ هناك ميراث أبي رحمه الله.. لن تشعر بالراحة حتى يصل إليك حقّك كاملا. لم يكن في نيّتها أن تحرمك منه، لكنّها لم تقف لأمّك على أثر بعد رحيلها. اختفت فجأة ولم تعاود الاتصال..

آه. هناك ميراث إذن في نهاية الأمر!

دفعت إليه ظرفا مغلقا. تحسّسه في فضول واهتمام.

- صكّ ملكيّة نصيبك وأمّك من أرض أبي.

تلك الأرض الصغيرة؟ ميراث هزيل إذن.

- إضافة إلى نصيبك من تركة جدّي.. عمّ أبي. كان قد أوصى لأبي، ولك من بعده، كأنّه ابن من صلبه. وصكّ بنكي بإيرادات الأراضي لأكثر من عقدين ماضيين.

رفع حاجبيه دهشة هذه المرّة. لم يدار فضوله وهو يفصّ الظرف، ويطالع المبلغ الذي كتب على الصكّ. ثمّ رفع حاجبيه أعلى، وأعلى.. قبل أن يعود بنظراته إلى فائزة وزوجها.

- لا أدري ماذا أقول!

- لا تقل شيئاً.. هذا حقّك.

تضيف مداعبة:

- إن كنت لا تعرف الشاويّة، فالأرض بالنسبة إليهم أغلى من الذهب. قد يصل بهم الأمر إلى سفك الدماء ومقاطعة الأهل ونكران الذريّة من أجلها! لذلك لا تستهن بما يُعرض عليك اليوم.. فالأمر قد لا يتكرّر على مرّ عصور مقبلة!

يبتسم، ويسرح مفكّراً بما يمكنه فعله بمبلغ مماثل. أبواب كثيرة تفتح، ويتسع مجال الإمكانيات.

بعد نصف ساعة، كان يقبّل فائزة على وجنتيها ويصافح زوجها. لديه مشاغل كثيرة تنتظره. يعتذر. كان بوّدّه لو رافقهما في جولة سياحيّة، لكنّ الحملة الانتخابية على أشدها ولا وقت لتضييعه. تعتذر، لم ترد أن تكون عبئاً عليه. كلمات كثيرة مجاملة. تحمّله سلاماً لأمّه وزوجته وابنته وتتمنّى أن تلقاهنّ. يرسل سلاماً باهتاً لأمّها المتخلّفة وراء البحر. لا يعرض عليها أن تزور بيته، ويشعر بخيبتها رغم عبارات التفهّم. لم تقطع كلّ تلك المسافة لتكتفي بثلاثين دقيقة من وقته الثمين.

يسألها في فضول وهو يهمّ بالمغادرة:

- ما الذي كنت لتفعله لو لم أتصل اليوم؟

- كنت لأنتظر لنهاية الأيام العشرة التي حجزتها في الفندق، ثمّ أرحل.
لو لم تأت، لعرفت أنّك لا ترغب في رؤيتي.. ولتفهّمت ذلك. وكنت لأرسل
إليك الظرف في كلّ الأحوال.

يسترجع كلماتها المرّة إثر المرّة وهو يقود سيّارته في طريق العودة.
ينتابه إحساس مزعج بأنّه قد فطر قلبها. تعامل معها مثل غريب لا
يدين لها بعواطف تقابل تلك التي أبدتها بسخاء. يصيبه إحباط مفاجئ.
يوقف السيّارة على جانب الطريق السريعة ويجلس ساهما وراء عجلة
القيادة. يتذكّر كلمات فائزة وهي تودّعه: «إن شئت بيع الأرض، نشترى
منك.. لكننا نفضّل أن تبقى لك، صلة بأهلك في تلك البقعة القصيّة من
العالم.. لعلّك تفكّر يوما في وصلها.. ووصلنا»، فينتابه سخط شديد، لا
مبرّر له.

وصل متأخرا مثل كلّ ليلة من هذا الأسبوع الطويل. لم تعد سيلين
تبدو قلقة أو متوتّرة. إنّها غاضبة حدّ اللامبالاة بوجوده من عدمه. ربّما
حان وقت المكاشفة. يستدعيها بهدوء لجلسة مصارحة في غرفة المكتب،
فتستجيب على مضض. تجلس حيث أشار، معقودة الذراعين والساقين،
مصعّرة وجهها، مزمومة الشّفتين. يبحث عن بداية ممكنة.

- حدثت أشياء كثيرة هذا الأسبوع. لقد عرفت من أكون!

تدير إليه نظرات ملؤها الاستغراب وغياب الفهم. يشرع في الحديث،
عن أبيه الذي جاء إلى فرنسا مصارعا الموج، عن تشرّده ورصاصته، زواجه
وهروبه، وشجرة العائلة التي تمتدّ فروعها هناك في الجزائر. يحدثها عن
زوّاره الذين لقيهم عشية ذلك اليوم. زوّار من الجزائر؟ آه.. لديه أهل
هناك في نهاية الأمر! يرضي فضولها ويستدعي حبورها بحديث الميراث.
تنطلق قسماتها وتعاتبه بحنان، ما كان عليه أن يخفي اكتشافاته ويحتفظ

بها لنفسه! يفاجأ من ردّة فعلها الهادئة والسلسة. عانقته بحبّ وهي تهمس:

- خفت أن أفقدك بنهاية الانتخابات.

سلوكه المريب وغيابه المتكرّر أوحيا إليها بأزمة من نوع آخر! علاقة بأخرى؟ يبدّد شكوكها ويطمئنها لنقاء ذهنه من كلّ أثر للخيانة. ثمّ يسألها متقصيًا:

- ألا يضايقك تاريخ أبي.. ولو قليلا؟

تبتسم في دلال:

- بل هذا يضيف طبقات من الإثارة.. أن تكون سليل بعض الرّحالة الشرقيّين!

حين اختلى بنفسه أخيرا في غرفة المكتب، ابتسم غير مصدّق. لقد كان قلقا أكثر ممّا يجب. يصحّح، هذا الأمر ليس مهمّا لأحد، بقدر ما هو ذو أهميّة له هو. لم يستطع أن يصارح سيلين ويعبّر عن مضمون الرّسائل بكلمات مختصرة وواضحة، إلّا بعد أن تقبّلها هو نفسه.

تدخل مريم الصّغيرة ذات الخمس سنوات وهي تجرّ حذاءها المنزليّ الظريف على شكل رأس أرنب، وتحتضن دمية تبكي.

- ألا تسكتينها؟

تدسّ المصاصة في فم الدّمية، فتسكت. تقول مريم باسمّة:

- أحبّ أصوات الأطفال.. ألا تحبّها؟

يربّت على رأسها من دون تعليق. لم يعد يدري ما الذي يحبّه، وما الذي يكرهه. بكاء الأطفال مزعج، تماما مثل حقيقة أصله العربيّ. لكن لا مفرّ من مواجهته، اليوم قبل الغد. يمدّ يده ويزيح المصاصة، فينطلق بكاء الدّمية بنفس النّسق. تتعوّد عليه الأذن بعد برهة، فيخفت شعوره بالانزعاج، مثل خلفيّة موسيقيّة مستمرّة. الإرهاق يرفع من حساسيّته تجاه

الأصوات النّاشزة. في الأحوال الأخرى، يمكنه تحمّل صخب فتاته أوقات لعبها وضجيج ألعابها. هل يمكنه مع الوقت أن يتعوّد على حقيقة كونه عربيّا خاض والده غمار البحر ونجا من الغرق، ليتشرّد في الشوارع الفرنسيّة دهرا، وينتهك القوانين التي يقف هو اليوم حاميا لها؟

ينتبه من شروده ليجد نفسه وحيدا. لم يعد يسمع صوت مريم ودميتها. لم يدرك توقيت مغادرتها. شرد فجأة، فتركته ورحلت. وقف في استغراق قبالة النافذة يرقب قطرات المطر التي أخذت تتساقط بهدوء في الخارج.

لم يكتب حرفا إضافيّا في مسودّة الخطاب.

في كلّ دائرة انتخابيّة، يتراوح عدد النّاهبين من أصول عربيّة بين ربع السكّان وثلثهم. لو أنّهم يتوحدون خلف مرشّح واحد، لكانت الغلبة حتما من نصيبه. لكنّهم لا يفعلون. ربّما لأنّهم متفرّقون بطبعهم، ينتمون إلى دين واحد ولهم السّمات العامّة ذاتها، لكنّهم مختلفون في توجّهاتهم من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. وربّما أيضا لأنّ أحدا من المرشّحين لم يكلف نفسه مشقّة أخذ مصالحهم بعين الاعتبار في برنامجه الانتخابيّ، أو لأنّ محاولة استمالتهم تعدّ وصمة عار في تاريخ أيّ سياسيّ محترم، وقد تنهي مشواره السياسيّ بضربة واحدة!

صباح الجمعة، وهو يجلس خلف مكتبه، يراجع مسودّة الخطاب الذي أهمله طويلا، ينتابه استياء من كلّ كلمة، من كلّ حرف. لا يجد نفسه في الكلام المنمّق الممطوط الفضفاض الذي رُصّ على شاشته. هل يمكنه أن يجلس أمام الجماهير ويتقلّد الابتسامة المتملّقة ويردّد عبارات جوفاء لا تقنعه؟ ينبري يمسح ويمسح بحماس ملهوف. تختفي الفقرات من الصفحة واحدة إثر الأخرى، حتّى عاد أمام شاشة شبه بيضاء، يقرأ

عليها عنوانا متردداً، لا هو حقيقة ولا هو شعار يملك أن يذود عنه حتى النهاية: الوطن للجميع. يتأمل الكلمات، ويأخذ نفساً طويلاً. هل يمكن لهذا الوطن أن يكون ملكاً مشاعاً بشكل عادل بين جميع مواطنيه؟!

تطراً الفكرة في ذهنه، مثل بذرة نمت تحت الأرض وامتدت جذورها، وأن أوان انبثاقها إلى السطح. يطلع البرعم على استحياء، ويبحث عن مصدر نور يتزود منه بالطاقة. لو أنه يتصدى للدفاع عن حقوق المواطنين الفرنسيين ذوي الأصول العربيّة، لو أنه يسبغ معنى على شعاره الخاوي، لو أنه يسترضي تلك الفئة المهمّشة من النّخبين.. فقد يضمن مقعده! إذا أراد تقييم تلك الخطوة بميزان السياسة، فهي مخاطرة غير مأمونة. قد تعدّ انتحاراً سياسياً بالنسبة إلى أيّ مرشّح آخر. لكنّ حظوظه أوفر هذه المرّة. لديه «ميزة» طالما حسبها «عياب». الاسم من المفترض به أن يجتذب قاعدة ناخبين لا يستهان بها. من المتاح له أن يصنع قوّة ممّا حسبه موطن ضعف، بشرط أن يحكم صياغة خطابه.

ماذا عن أولئك الذين هم «من طينته»؟ رفاقه الذين دعموه وشجعوه على اتّخاذ تلك الخطوة لتتويج مسار مهنيّ ناجح؟ هل يخون ثقتهم بارتدائه جلاباب الرّجل العربيّ الذي لطالما تبرّأ منه في السّابق؟

إنّها سياسة. مجرد لعبة سياسيّة! والغاية تبرّر الوسيلة!

يتوقّف عند ذلك الحدّ. هل يصبح المرء شخصاً غير نفسه حين ينغمس في مستنقع السياسة الموحل؟ لقد كان هدفه من دخول البرلمان منذ البداية منحرفاً وأثباتاً. مجرد عقدة شخصيّة يحاول تخطّيها. ما الذي ستفعله يا خليل دانيال الشاوي حين تُصبح بالفعل مسؤولاً تجاه الشعب الذي منحك صوته؟ تعاوده كلمات ديانا في القصاصة التي صدّرت بها رسائلها:

«هذا تاريخك، ميراثك.. احمله على عاتقك وسر به في الطريق التي تختارها. لكن لا تهمله أو تتخلّ عنه، فأنت لا شيء من دون ماضيك

وجذورك!»!

تذكر فجأة المحامية. ديانا أكدت هويتها. قالت إنها ظهرت مرّات في برامج تهمّ قضايا عامّة، كمستشارة قانونيّة. هل سيكون الاتّصال بها ذا فائدة ما؟ لا يدري. لكنّه يفضل أن يطرق كلّ الأبواب الممكنة، بدل أن يتربّع على الأريكة ويراقب الثواني وهي تمضي، يسحب بعضها بعضها. طالع بياناتها التي سبق وحفظها في ذاكرة هاتفه، ثمّ اتّصل برقمها الخاصّ. بعد رتّين، جاءه صوتها.

- أستاذة رنيم شاكر؟ معذرة على الإزعاج.. أنا خليل الشاوي. هل يمكننا أن نلتقي؟

تابع الإشارة الحمراء على جهاز الملاحة وانعطف إلى يساره مذعنا إلى تعليمات الإرشاد. كان قد اقترب من العنوان الذي أملته إيّاه في المكالمات القصيرة. حدّدت موعدا خلال ساعتين. لا يدري إن كانت قد استجابت لمرشّح مجلس النّواب الذي كانه، أم للتّاريخ القديم الذي ساقه إليها الاسم؟

لاحظ أنّ منزلها يقع في حيّ خاصّ بالبيض. تساءل إن كانت مقاومة أخرى للقانون العرقيّ مثل ديانا، أم مندمجة تنكر هويتها، ولم يُسعفها الوقت لتغيير اسمها، مثله؟

استقبلته في أعلى الدّرج بمودّة وقادته إلى جلسة شرقيّة مريحة. كانت نظرة فضول تطلّ من عينيها. ما أن استقرّ بهما المقام، حتّى بادرت مستفسرة:

- كيف حال ديانا؟ مضى دهر على لقائنا الأخير!

- لم تتغيّر.. لعلّها سجينة بإرادتها في الزّمن الماضي!

تبادلا بعض العبارات المجاملة والبسمات اللبقة، قبل أن يبادرها خليل:

- أنت بالتأكيد تتساءلين عن سبب الزيارة المفاجئة. وليست بحوزتي إجابة شافية. لا أدري ما الذي سأفعله تحديدا من هذا اللقاء.. لكنني أحسست بحاجة إلى شهادة محايدة! أنت تعرفين والديّ، وكان لك دور في تيسير زواجهما، ثمّ في جمعهما مجددا في الجزائر. وردتني منذ أسبوع رسائل قديمة.. كتبها لي أبي منذ ثلاثين عاما. وأمّي حكّت وجهة نظرها أيضا.. لكنني ما زلت أشعر بالضّيعاع. لقد حاول كلّ منهما أن يشدّني إلى حضارته وثقافته. أبي خطفني وسافر بي إلى الجزائر حين علم بقرب أجله.. أراد لي أن أعيش في كنف أهله وأتشرب هويّته. خاف أن تُمحي بصمته من وجودي بعد رحيله. وأمّي، خطفتني بدورها حين تسنّت لها الفرصة! وعدت بأن تحفظ في تكويني ثنائية الهوية، لكنها أخلفت وتكرّرت لعهودها. قالت إنّها خافت عليّ من هويّة كانت وما زالت محلّ اتهام! مسحت الماضي من ذاكرتها، ونكرت لي جذوري، فنشأت كما شاءت. لا أفهم، إن كان كلّ منهما لا يقبل ثقافة الآخر ويحسبها خطرا عليّ، فلماذا تزوّجا؟ ألم يفكّرا في المسافة التي تفصل بين هويّتهما إلا حين أصبح الأمر يتعلّق بي؟ أصبح كلّ منهما تهديدا جديرا بالإبعاد والطّمس والإلغاء!

ابتسمت رنيم. هل كان بحوزتها جواب وإضافة تقدّمها للشاب الذي تمرّقه هويّته؟

- لعلّ أحدهما لم يتحلّ بعد النظر الكافي ليكون رؤية استشرافية لما ستكون عليه الحياة بعد عقود. كانت حاجتهما إلى بعضهما البعض فوريّة وآنيّة. لكن من الظلم أن نسلبهما حقّهما في المحاولة. فكّر معي.. لو عاش نادر لفترة أطول، ربّما كنت لتشعر بتوازن أكبر. لم تكن جذورك لتظهر بشكل مفاجئ. كنت لتعيش معها منذ نعومة أظفارك، وتتقبّلها ببساطة.. أو ترفضها وتتخذ قرارا بالانحياز إلى جهة من دون أخرى. لا أحد يدري. أنت تشعر بالتمزّق الآن لأنّ الشلال تدفّق على رأسك على حين غرّة. لم تتعلّم أن تتعامل مع هويّتك بشكل سلس وتدرّجي...

قالت وقد خطرت ببالها فكرة:

- انتظري لحظة.

غابت بالداخل لبضع دقائق، ثمّ عادت محمّلة بدفاتر وملفّات ورقية. المزيد من الورق القديم.

- قبل أن أصبح أستاذة في القانون، كانت هناك قضية فاصلة، حولتني من محامية مبتدئة إلى مستشارة قانونية يُحتفى بها على منصّات الحوارات التلفزية. دافعت عن رجل اتّهم بارتكاب تفجير إرهابي! كانت بالنسبة إلى الآخرين مسألة شجاعة وقوّة، فاستحقّيت الاحتفاء والتبجيل.. لكنّها كانت بالنسبة إليّ مواجهة مع ذاتي.. بين الهوية العربيّة المسلمة التي أحملها بالوراثة، والهويّة الفرنسيّة المتحرّرة التي أطمح إلى الانتماء إليها. تلك القضية كانت شلالي الخاصّ.

قلّبت في شroud الصّفحات التي احتضنت مقالات صحفية وقصاصات جرائد دأبت طوال سنوات خلت على قصّها ولصقها في دفترها. تابع خليل حركاتها في انتباه، وهو يسترجع شذرات من حديث أبيه عن الشاب الذي عرفه في ليون، ثمّ واجه تهمة تفجير مختبر الكيمياء. سألتها في فضول:

- ولمن كانت الغلبة؟

- تريد الحقيقة؟ لا أدري! إنّهُ صراع مستمرّ ما دامت الحياة. لم أستطع أن أنحاز أو أن أمعن في الانتماء إلى شقّ من دون آخر.. لكنني على الأقلّ أصبحت أستوعب أكثر وجهة نظر كلّ طرف، ومخاوفه وأحكامه المسبقة. راودني شعور بأنني قد أنفَع جسرا بين العالمين، أترجم عن كلّ أفكاره ومواقفه، فأسهم في ردم جزء من الهوة الفاصلة بين جذوري وفروعي! اخترت أن أكون مزيجا متوازنا من ثقافتين تعرّفان بشكل متساوٍ من أكون. أنا رنيم شاكر.. مصريّة وفرنسيّة، مؤمنة بالإسلام وبالثورة الفرنسيّة وبالقضايا العادلة. حين أقف في قاعة المحكمة، أو في قاعة المحاضرات، أو على منصّة تلفزيّة، أذكّر نفسي برسالي.. الجسر، الهوة، كيف أكون

عنصر بناء لا هدم. ليس ذلك يسيرا على الدوام.. أنت تنحاز بطبعك، حين تحرّك القضايا نقطة حسّاسة في أعماقك، والحياد التامّ يحتاج ميزانا دقيقا للمشاعر، لم يُخترع بعد! وقد حرصت على أن ينشأ أبنائي على هذا المبدأ.. التوازن، ثراء الثقافة الشخصية، الخيارات.. كلّ منهم اتّخذ قراراته الخاصّة حين نضجت الهوية واتّضحت معالمها في داخله. سمر، ابنتي الكبرى، اختارت أن ترجع إلى مصر، وجدت الوضع هنا غير محتمل وانحازت إلى هويّتها المسلمة. أمّا ابني عمر، فهو يسير على خطى والدته، ولعلّه يصل إلى نتائج أفضل ذات يوم.

انتبه خليل إلى الاسم. سألها فجأة:

- ذلك المتهّم، كان اسمه عمر أليس كذلك؟ ما الذي حلّ به؟

أومات رنيم برأسها وقد اكتست وجنتاها حمرة خفيفة:

- نعم، الدكتور عمر الرّشيدي. استمرّ سجنه خمس سنوات كاملة، قبل أن تثبت براءته! أنشأ مختبره الخاصّ في ضواحي باريس، وحاول مواصلة العمل على تجاربه.. لكنّ المضايقات استمرّت، ووقع تعطيل حصوله على تصريحات وتجهيزات أكثر من مرّة، حتّى نفذ صبره. رغم حصوله على تعويض مادّي وردّ اعتبار معنويّ، فإنّ السّياسة العامّة للبلاد كانت متناقضة مع نفسها.. وهذا ما أحارب من أجل تخطّيه والفصل بشأنه. أن تكون القوانين متّسقة مع نفسها وعادلة مع أبنائها. إذن انتهى الدكتور عمر إلى اتّخاذ قرار بالهجرة خارج فرنسا.. إلى سويسرا، حيث تمكّن من الاستقرار وتنفيذ مشروعه على الوجه الذي يشتهيهِ. الآن، مولّد الطاقة الذي اخترعه منتشر الاستعمال بشكل كبير.

يجلس الآن تجاه مقدّمة البرنامج الشقراء، بينما تنهمك اختصاصيّات التجميل في وضع طبقة أخيرة من البودرة على وجه كلّ منهما. تبادله المقدّمة ابتسامة صغيرة مشجّعة، والحركة مستمرة حولهما. في الغرفة الأخرى يتجهّز باقي ضيوف الحلقة. دوره يحين أولاً.

زار عائلة رستم مرّة أخيرة ذلك الصّباح. بلّغهم عميق أسفه لما آلت إليه الأمور. «الأمور»، لفظ فضفاض يلخّص به صراعات الأسبوع. وعيه الطازج بجذوره، انغماسه في قضايا لم تكن يوما تحرّكه، تخبّطه بين بذور عاطفة لا تزال هشة تهدّد مستقبله المهنيّ، وأعمدة صلبة من قناعات عريقة تقيم أركان حياته منذ الأزل.. الأمور ليست بخير يا أبا محمّد! أمورهم أيضاً، لم تكن كذلك. لكن لماذا تبدو أكثرهم أسفا وتأثراً؟ يهزّ أبو محمّد رأسه والابتسامة ذاتها، بصفائها الصادق ذاته، لا تحلّلها الخطوب ولا تذيبها التّوائب. بينما تسخر مريم، وتنطق نظرتها بالاستهانة. ألم أقل لك؟ «الوطن» و«الجميع» في شعارك الإنتخابي، كلّهم لا يعنوننا!

يتّصل به برونو، ساخطاً يأتي صوته عبر الهاتف. أين مسودّة الخطاب؟ لم يف بوعده. لا مسودّة خطاب ليصادق عليها الشّركاء. تهزّب حتّى اللحظات الأخيرة. يدرك أنّه يخاطر بثقتهم و صداقتهم ودعمهم.. وربّما باستمرار شراكتهم. برونو لن يتفهّم أبداً. يقول مفتعلاً جزعاً شديداً: عطل في الشبكة، لم أتمكن من إرسال الملف! سأحاول من جديد. يتنصّل من مطاردة صاحبه، ويتجاهل اتّصالاته التّالية. لا فائدة.

تعديل الإضاءة، أكسسوارات تُغيّر أماكنها في اللحظة الأخيرة، وتعليمات المخرج تُلقى في كلّ الاتّجاهات. بينما يتّخذ خليل قراراً. سيفعل شيئاً من

أجل عائلة رستم. يجد وظيفة لمحمد. إذا ما أبقى على وظيفته في المكتب فسيكون معه، ساعيا أو مرافقا، أي شيء. ستكون وظيفة بسيطة ومريحة، تسمح له بساعات من المراجعة، حتى لا يضيع دراسته. أما إذا طُرد.. فسيأخذه معه أيضا، إلى وظيفته الجديدة. لن تذهب التضحية سدى. ضاع المنزل، لكن مستقبل محمد لن يضيع. سيتعلم العريّة أيضا. قرار آخر لا ينبغي تأجيله. سيتعلمها ليستمر تواصله مع أبيه. لن يحتاج ترجمة في كل مرة يريد فيها الاستزادة من صحبتة عبر الرسائل.

تنتابه سكينة عجيبة في جلسته تلك أمام العدسات المحملقة فيه. أنت لا تعلم أيّ لغم سينفجر في وجهك أولا - لأنّ حقل الألغام كثيف من حولك - لكنك لا تبالي. لعلك ستبادر بتفجير بعضها بنفسك.

ثم.. تصوير!

- معنا اليوم المرشح المستقل الشاب لمجلس النواب، خليل دانيال الشاوي. مرحبا بك.

حافظ خليل على ابتسامته الودية، بينما تحدث لبضع دقائق لتقدم سيرته الشخصية ومسيرته المهنية. وبعد بضعة أسئلة بسيطة، ألقى بالسؤال المتوقع والمرقب:

- أمامي شاب فرنسيّ تربّي في ضواحي باريس، من أمّ فرنسيّة.. لكنّه يحمل اسما عربيّا، مثل أبيه الذي توفي منذ سنوات طويلة. الآن، من حقّ الناخب أن يتساءل، لمصلحة من سيقف خليل الشاوي في البرلمان الفرنسيّ؟ هل سيمثل مصالح الفرنسيّين من أصول عربيّة؟

ألقى خليل نظرة فارغة على الجماهير المكددة به. ثمّ دسّ كفه في جيبه حيث استقرّت الرّصاصة. أحسّ بثقلها بين أصابعه، مؤكّدة حضورها، وراوده لبرهة مخطّط الحركة المؤثّرة التي تخيلها في وقت سابق. ثمّ رفع بصره في اتّجاه المقدّمة. استطالت الثواني وامتدّ حازر الصّمت، وأطلّت من عيني سيلين التي ترقبه بين جمهور الحاضرين نظرات قلق وتوتر.

كانت المقدّمة تهمّ بإعادة السّؤال، حين اتّخذ قراره أخيراً. سحب كفاً فارغة من جيبه وشبك أصابعه في حجره قائلاً:
- سيّدتي، هل من أقاربك وأهلك من سافر إلى خارج فرنسا وأقام هناك؟

هزّت رأسها علامة الإيجاب وفي عينيها نظرة حذرة.
- ربّما سافر بعضهم منذ عقود، واستقرّ في بلد آخر.. فنشأ هناك أبناؤه وأحفاده. خبّريني، كيف ستكون ردّة فعلك، لو اكتشفت اليوم أنّ لديك أقارب من الدّرجة الثانية أو الثالثة، يحملون جنسيّة أخرى.. من بلد آسيويّ مثلاً؟ يتكلّمون لغة مختلفة ولديهم عادات مختلفة؟
أطلقت ضحكة متشنّجة وقالت مدارية موجة ارتباك عابرة:
- سيكون ذلك غريباً، وظريفاً.. في البداية. ثمّ سأتعوّد على ذلك. العالم أصبح قرية صغيرة في نهاية الأمر!

- بالضبط. العالم أصبح قرية صغيرة.. لكنّنا في فرنسا ما زالنا نتعامل بعضنا مع بعض، نحن الفرنسيّين الذين نشأنا على أرض واحدة، ونتكلّم لغة واحدة، وجمعنا حبّ وطن واحد، نتعامل من منطلق «الأصل» و«التقليد». إن لم تكن فرنسيّاً من أصول صرفة -أو أوروبية على الأقل- فأنت مشكوك في ولائك! ماذا يعني أن أكون فرنسيّاً من أصول جزائريّة أو صينيّة أو مكسيكيّة؟ أأست أعيش على هذه الأرض، ويهمّني استقرارها ورخاؤها؟ ما دامت منحت الدّولة الجنسيّة الفرنسيّة لأيّ فرد، فقد أصبح مواطناً، ومن حقّه أن يقف ممثلاً في مجلس النّواب ويتكلّم باسمه -مثل أيّ فرد آخر- ويسهر على عدم استثنائه من القوانين أو حرمانه من الحقوق!

- إذن فقد اخترت أن تمثّل الفرنسيّين من أصول عربيّة؟
- أسأت الفهم سيّدتي. سأتكلم باسم الفرنسيّين، كلّ الفرنسيّين.. بمن فيهم من يحمل أصولاً عربيّة أو إفريقيّة أو آسيويّة. من المفترض بسيّدة

مثقفة وواعية في مقامك الكريم ألا تشير إلى فروقات كهذه وعلى منبر إعلامي! أن يتحدث عامة الناس بهذه اللغة السطحية والساذجة، فهذا أمر متوقع.. لكن ما هو دورنا نحن السياسيين والإعلاميين والفنانين؟ إن لم نقف نحن حماة للوعي العام ومصحّحين لمخلفات ثقافية بالية، فمن سيفعل؟

لا يدري من أين استمدّ القوّة ليصدق بتلك الكلمات التي لطالما اعتقد في نقيضها! أخذ نفساً طويلاً، وتخيّل الأب الذي لم يعرفه يراقبه وراء إحدى الشاشات. للمرة الأولى، يفكر في جعله فخوراً به. لم يعرف من قبل ذاك الإحساس المستعر الذي تنبض به قلوب الأبناء، حين تكون بغيتهم نظرة رضا من آبائهم. لقد فعل كلّ شيء حتّى تلك اللحظة من أجل ذاته وحدها. كان الحقد محرّكه الأساسي، والرغبة الأليّة في انتزاع اعتراف الآخرين بكفاءته ونديّته، بل تفوّقه. لهات مستمرّ وسعي محموم ينكت في قلبه سواداً، ويلتهم روحه. أمّا الآن، فما الذي يصبو إليه؟

- سيّدي، ربّما لا تعلمين، ولا يعلم شركاؤنا في الوطن الذين يتابعون حديثنا هذا.. أنّ والدي كان مهاجراً غير شرعيّ، وصل إلى فرنسا ذات خريف على أحد مراكب الموت. وقد أمضى وقتاً عصيباً قبل أن يستقرّ به المقام. عرف التشردّ والضّياع، وخالط عصابات الشوارع وتجار الممنوعات والإرهابيين. وترك لي إرثاً من التجارب أفتخر به...

تحّدق به المحاورة غير مصدّقة. يتسم في داخله: فجّرنا اللغم الأوّل.

أنت عارٍ من الأسرار الآن.

أن تعلن بنفسك على الملأ ما خلته منذ أيّام سرّاً لا يجوز البوح به إلى أقرب المقرّبين، أليس ضرباً من الجنون؟ من يبحث عن فضيحة يصدر بها صفحات السياسة، فعليه أن يجدّ أكثر في التّقصي! أمّا هذه، فلن تكون الفضيحة التي يريدونها. كانت لتكون كذلك، لو أنّك بالغت في إخفائها تحت طبقات من الغموض والتستر. وزن الفضيحة يعتمد على

درجة حرجك تجاهها. أمّا وأنت تتقبّلها ببساطة، فهي لا شيء في موازين الصحافة الفضائيّة.

- هذا مثير.. مثير جدّا!

- ربّما، لكن ليس بقدر الآتي. سيّدتي، دعيني أشرح واحدة من القضايا الأساسيّة التي سأهتمّ بها في حملتي، وستكون من أولى أولويّاتي إذا ما جلست يوما على مقعد البرلمان أمثّل هذه الدائرة. منذ عقد أو أكثر، بدأنا في تطبيق نظام التقسيم الجغرافي للمدينة الواحدة، حسب الأصول الإثنية للمقيمين بكلّ جهة.. وقد انجرّ عن ذلك ظلم شديد على عائلات كثيرات. عائلات حُرمت من ديارها التي أفنت عمرها ترفع جدرانها وتشيد أسقفها وتزيّن واجهاتها، ليأتي نظام التقسيم ويطلب منها ببساطة أن تتركها وترحل، نحو بيوت أخرى في أحياء بعيدة، لم يجمعها بها تاريخ مشترك ولا ذكريات.

- لكنّ الحالات التي تتكلّم عنها محدودة، وأغلب المنتفعين من القانون سعداء به.. والمتضرّرون..

- فرنسيّون يا سيّدتي!

- عفوا؟

- المتضرّرون فرنسيّون، تماما مثل أولئك المنتفعين والسّعداء. ما الهدف من قانون يكرّس التفرقة والظلم لأبناء الوطن الواحد؟ هذا قانون سيّئ، ويجب مراجعته وإلغاؤه، وإعادة الحقوق إلى أصحابها. من هدمت بيوتهم ونقلوا إلى أحياء مهدّدة بالانهيار، من أرغموا على الهجرة في وطنهم نفسه.. إنّهـم يستحقّون عدالة أفضل!

استمرّ مع كلّ جملة، يفجّر لغما إضافيّا. أحرق أرض المعركة.

لم يكن من المستغرب بعد ذلك أن تتجاهله المقدّمة حتّى نهاية الحلقة مباشرة البثّ. انشغلت عنه بضيوّفها الآخرين، مرشّحون منافسون ومحلّلون سياسيّون. علّقوا بكلمات باهتة على مشروعه الجريء، ثمّ انتقل

الحديث فجأة إلى مناطق أكثر هدوءاً وأقل إثارة.

غاص خليل في مقعده، وغاب داخل فقاعة وهمية عزلته عن الهراء الذي يقال حوله. الآن يتبين أن السياسة هي فنّ احتراف الهراء؟ وما الذي كنت تفعله لساعات في مكتبك غير رصف الهراء وتشكيل الخواء؟ حين شغلتك قضية صادقة، كشفت زيف كل ما عداها.

حين أعلنت المقدّمة انتهاء البثّ، ترك مكانه على عجل وغادر القاعة. لحقت به سيلين إلى الرّدهة وهتفت في حماس:

- خطاب رائع يا عزيزي! ولتقرع طبول الحرب!

استسلم لعناقها لثانيتين، ثمّ أبعد ذراعيها كالمسوع. تساءلت في جزع:

- ما الأمر؟

- هل تسمعين؟

كانت أصوات طرقات وصراخ مكتوم تصل إلى داخل إستوديو التصوير. كانت فوضى عارمة قد احتدمت خارج المبنى وتناهت أصدائها إلى داخله. تحرّك خليل في اتجاه الممرّ، ومن ثمّ إلى النوافذ المطلّة على الشّارع. ألقي نظرة على الحركة غير الاعتياديّة بالنسبة إلى الشّارع الفرعيّ الهادئ، ثمّ تراجع مصعوقاً. كانت جموع غفيرة قد تجمّهرت عند مبنى القناة المحليّة تحمل لافتات عليها صورته مشطوبة بالأحمر ومشوّهة بقرون وأنياب وعبارات بذيئة.

- يا إلهي!

لم تكن سيلين أقلّ صدمة منه. لكنّها انتبهت من جمودها على الفور وجذبتّه من ذراعه لتبعده عن النّافذة. لا تنظر. أمرته بصرامة. سايرها في دهول، لكنّه في قرارة نفسه كان يدرك ألا مهرب ممّا يراه في الخارج. حين تخرج عن المسلك الآمن الذي يتّبعه سياسيو الشاشات من الطبعيّ أن تكون المعارضة شرسة. في الخارج، سيجد بانتظاره ناخبين من الجالية العربيّة والمسلمة، يستنكرون أن يكون رجل اسمه الثاني دانيال مرشّحاً

يمثلهم.. وسيكون هناك أيضا مدافعون عن الثقافة الفرنسية الأصيلة،
يطالبون بحرمانه من الجنسية الفرنسية وقد أعلن تعاطفه مع أنصاف
الفرنسيين!

فكّر، هل كان في حاجة إلى خوض تلك الحرب إلى النهاية؟ ألن يجد
نفسه إلا على ضفتها الأخرى؟ لقد عاش تجربة كاملة ومدهشة خلال
أسبوع واحد، عرف خلالها من يكون، وجد لنفسه دورا وهويّة وانتماء،
حدّث بياناته في سجّلات لاوعيه وأصبح أكثر رضا وقناعة عن كينونته
ووجوده. هل ما زالت الانتخابات قضيتّه؟ هل بقيت شهوة السّلطة ماثلة
ضمن أولويّاته؟ لم تعد مسألة حياة أو موت كما أقنع نفسه حين قرّر
اجتيازها. ماذا الآن؟ هل بوسعه أن يتراجع ويتجنّب المعركة وخسائرها
المباشرة والجانبية المحتملة؟

ثمّ مال تفكيره إلى كلّ أولئك الذين منحهم خطابه الأمل. فكّر في كلّ
من يحمل فكرا يشبهه، ويضع على عاتقه مهمّة تمثيله في البرلمان. فكّر
في أكوام الخيبة التي ستثقل صدوراً تحرّك فيها الأمل ونفض عنه الغبار
بعد سنوات من الخمود. هل يمكنه أن يخذلهم والمعركة في أوجها؟
يوقظه أزيز الهاتف المرتجّ في جيبه من تأملاته. برونو ديون يتّصل.
رسالة الشاشة تعلن أنّ اتّصالات أخرى لم يردّ عليها قد سبقت. لعلّه
سيفقد عمله الآن قبل أن يفعل شيئا يذكر! هل هي المعركة الخطأ؟ هل
ضحّى بكلّ شيء من أجل وهم سيتبخّر بعد قليل؟ لا النّاهبون المعنيّون
راضون عنه، ولا ربّ عمله المموّل لحمّته! انطفأ الهاتف لبرهة، ثمّ تعالى
الأزيز من جديد بشكل ملحّ متّصل. تسأله سيلين:

- ألن تردّ؟

- إنّه برونو..

تنّبه إلى تكشيرته العابسة، فتقول بحماس:

- أنت تواجه فرنسا الآن.. برونو لن يشكّل فرقا!

إنّها محقّة. فليتحلّ بالشّجاعة إلى النّهاية. تمرّ إليه عدوى حماسها. ما أن فتح الخطّ حتّى تدفّق صوت برونو عالياً مزمجراً:

- أين أنت يا رجل؟ أتّصل بك منذ دهر! هاتفي لم يتوقّف عن الرّنين هذا المساء.. الكثير من العملاء الثّائرين! سوف نجني ثروة يا صديقي! ترتفع قهقهة برونو، و خليل لا يستوعب شيئاً ممّا يقوله.

- سوف نفتح النّار على وزارة الإسكان! الجميع الآن يريد أن يقاضيه من أجل مشروع التقسيم الذي لم يرض إلا أقلّ القليل. سنكون الممثّل الرّسمي للمتضرّرين.. سنبدأ في جمع التّواقيع منذ الغد. خطابك ألهب الجماهير، والحرب الحقيقيّة ستبدأ!

قهقهة أخرى تملأ أذنيه، قبل أن يهتف برونو منها الاتّصال:

- ارجع إلى الميدان أيها الفارس، واصل إبداعك! أغلق الخطّ وقد سيطر عليه الذّهول. هل كان هذا حقيقيّاً؟ تنبّهه سيلين وقد حيّرها سرحانه:

- ماذا قال؟

- أن أوصل إبداعي! العملاء يريدون مقاضاة وزارة الإسكان! أطلقت صيحة منتشية وقفزت مثل طفلة وهي تعانقه بحرارة. يأخذ نفساً عميقاً، ويذكّر نفسه، أنت جسر.. أنت تردم الهوّة. كان عليه أن يواصل المسير على الطريق التي شرع في تعبيد أمتارها الأولى هذا المساء. الطريق الوعرة التي يصعب السّير عبرها، سيتمدّد فوقها، جسراً، فيعبر آخرون من ورائه. كان يجب أن يبادر أحدهم، أن يكون أوّل السّالكين، وقد قدّر له أن يكون هو، حامل الرّاية. قبل ذلك، عليه أن ينتهي من رأب صدوعه الخاصّة، أن يصل الجسور المنقطعة في داخله مع ذويه.

تحرك فجأة، ركض باتجاه أحد تقنيّ التّصوير، يسأل عن مخرج

الطَّواريء. تبعته سيلين، لا تدرك فيمَ يفكّر. هتف وهو يحثّ الخطى في
اتّجاه المخرج:

- يجب أن ألحق بها قبل أن ترحل!

قطع بضعة أمتار، ثمّ عاد أدراجه بنفس السرعة التي ولى بها. شدّ
سيلين من كفّها وقال مبتسما:

- أظنّ فائزة ستكون سعيدة بالتعرّف إليك وإلى مريم.

وهما يهرولان عبر السلاالم في اتّجاه المخرج ويتبادلان ابتسامات
متواطئة، ينتابه إحساس غامض بالإثارة.

أنت تمضي باتّجاه منعطف حادّ، والرؤية غائمة لا تكشف ما وراءه.
وعيك بهويّتك يتغيّر ويواصل التحوّل. ما يدريك كيف تكون قناعاتك
خلال أسابيع، شهور، سنوات؟ هل تصبح شخصا آخر لا تتعرّفه في
مرآتك؟ هل يمكن أن ينهار زواجك وتتنكّر لك سيلين كما تنكّرت ديانا
لنادر؟

تعبر صدره موجة قلق، ثمّ يتبدّد الزبد.

أولست تلك سنّة الحياة؟ لا شيء باق على حاله.

فليدع القلق لأوانه.

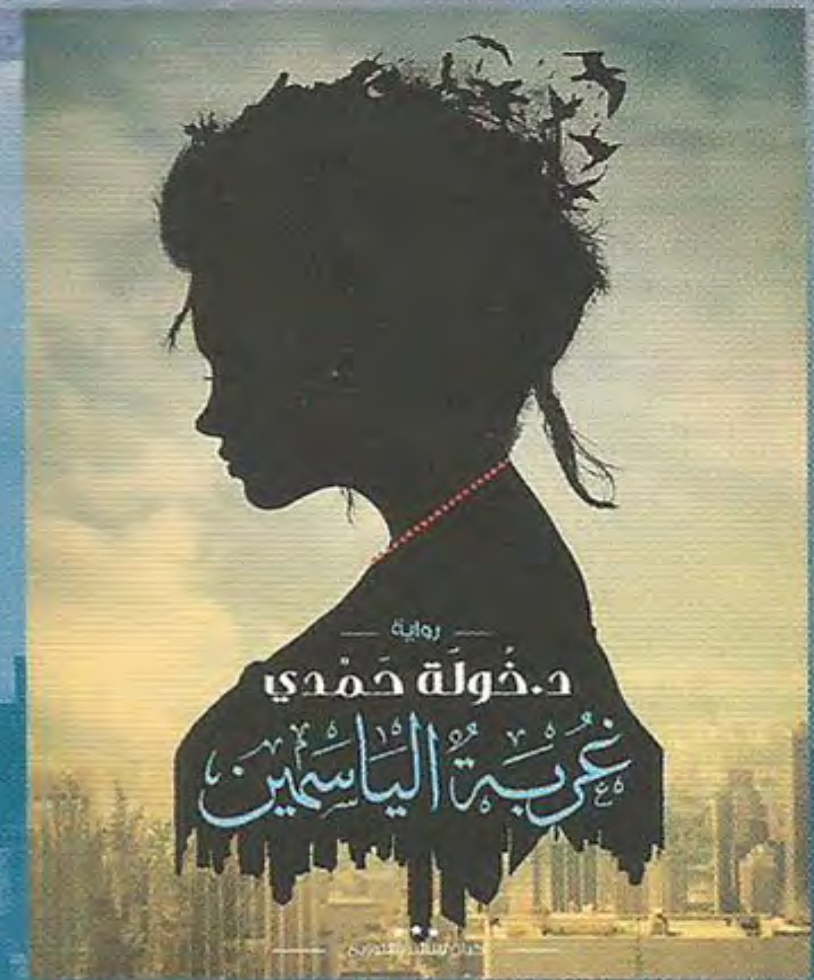
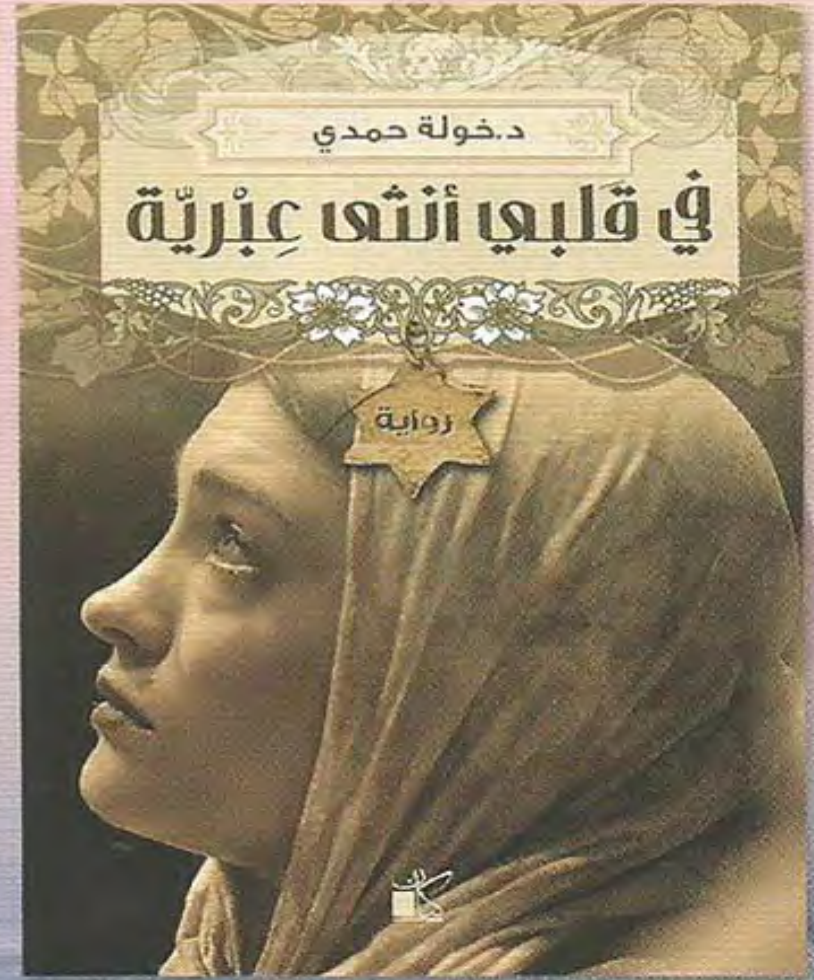
تمت بحمد الله

تَبَانِ قَمَرِي

رواية
د.خولة حمدي

كان كل شيء بارداً وخالياً من الإثارة
حتى تلك اللحظة التي قرّرت فيها التمرد
على مساري المحبط وصنع شيء خارق
يحرّرني من جحيم الفراغ. منذ وضعت
قدمي اليمنى في القارب الخشب
المتراقص على الشاطئ في ليلة خريفية
غاب قمرها، أصبحت حياتي تتابعا
مرتجلا لحالات استثنائية. خضت
المغامرة تلو الأخرى وعرضت حياتي
للخطر أكثر من مرة. اقتربت من حدود
الموت غرقا، جعلت نفسي طريد العدالة،
وكدت أنحدر إلى عالم الجريمة.
وجدتني مرارا أتمنى لو عدت إلى حياتي
الرتيبة الخالية من الإثارة. خفت أن
أموت وحيدا وشريدا في ركن منسي.
خفت أن أكون قد قايت حياتي
العادية باللاشيء!

صدر للكاتبة



تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

